دراسات في الأدب الجاهلي

مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور عادل جاسم البياتي

الأستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - بغداد
وكلية الآداب - جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء

1986

دراسات في الأدب الجاهلي

مباحث تراثية ونصوص دينية وتراجم

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور عادل جاسم البياتي

الأستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - بغداد
وكلية الآداب - جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء

1986

خاص بمكتبة الأدب المغربي

الايداع القانوني رقم 117 / 1986

بسم الله الرحمن الرحيم

تـــقـــديـــم :

كنا في القسم الاول من هذا الكتاب قد وزعنا فصوله الدراسية على ثلاثة محاور أساسية، الاول منها استقل بطائفة من الابحاث المنهجية في الادب الجاهلي، شعره ونثره، اتجاهاته وموضوعاته، خصائصه وفنونه، والمحور الثانى استأثر بالمنطلقات الفكرية العربية ذات الاطار القومى، بينما أحاط الفصل الثالث بالمنطلقات العربية ذات المحتوى الانســانى، وقد رسمنا بوضوح مساهمات الادب الجاهلى الكبيرة في هذين الحقلين، فجاءت على شكل دراسات معمقة في المكونات الثقافية والفنية لهذا الادب، مهتدية بما حققته منجزات العقول وجهود البشرية في حقل الفكر والمعرفة.

. . . والان ،،

نواصل في هذا القسم الثانى من الكتاب توزيع بقية الفصول على ثلاثة محاور رئيسية أيضا : الاول منها «أبحاث في الادب والتراث» لا تخرج عن حدود المرحلة التى حددت لهــا مسبقا، وهى مرحلة الادب الجاهلى، والمحور الثانى دراسة جديدة بنصوص جديدة، شعرية ونثرية، للايديولوجية الدينية في العصر الجاهلى من خلال استعراضنا وتحليلنا لشعر الاحناف ونصوص التلبيات الدينية، ثم ختمنا الكتاب في الفصل الثالث ـ الاخير ـ

بطائفة من (الاعلام قبل الاسلام) ممن لم يسبق لهم أن جمعت سيرتهم وحققت أشعارهم ودرست بشكل مستقل، وانما بقيت أخبارهم ونصوصهم سجينة الكتب العديدة، فتفرقت في المصادر دون أن تكتمل النظرة النقدية ولا الرؤية الفنية لها بسبب تبعثرها وضياعها بين آلاف الآلاف من السطور مع شهرة أصحابها وقدرتهم وارتفاع شأنهم في فنهم وبين قومهم.

ولعلنا في هذا القليل نصيب شيئا من حقيقة أدبنا ومغزى تراثنا، ليكون لنا معينا ثرا في مسيرتنا العلمية والأدبية المعاصرة، كما نكون قد أدينا واجبا مقدسا نحو أمتنا وجيلنا الطالع وطلبة الآداب في كل مكان وزمان.

الدكتور عادل البياتي
المملكة المغربية في 14 يناير 1986

الفصل الاول

مباحث تراثية في الأدب الجاهلي

1 ــ الشعــر والتــاريــخ

2 ــ منابع الالهام فى الادب العربى

3 ــ امــرؤ القيــس والقيصــر

الشعـــر والتـــاريـخ

ان اقـدم معالجـة لهذه المشكلة المزمنـة في حياة الفكـر على امتـداد الوجود الانسانى ، كانت على يـد (ارسطـو) في كتابه عن الشعر، وذلـك عندما عقد فصـلا خاصا يتعلـق بقضية الشعر والتاريخ، فأطلـق على الاخير لفـظ : الواقعى، وعلى الملحمـة لفظ : المحتمل. ثم وضع الى جانب «الملحمـة» كلمـة «الشعـر» كرديف لها، كما فعل مع الواقعى عندما وضـع لها كلمـة «التاريـخ» معتبرا أياهـا مرادفا لها ايضا. وقد أوحي الينا هذا النظام، عبـر قـرون عديدة بالعنـوان الذي يتوج هذه المقالة على أن عنوان الفصل المذكـور في كتاب ارسطـو، جاء على هذه الصـورة :

الواقعى والمحتمل - التاريخ والملحمة (والشعر) (1) فوضح بذلك ان المقصود بالواقعـى هو التاريخ ، وبالمحتمـل هى الملحمة. وان أرسطـو عندما وضع كلمة «الشعـر» الى جوار الملحمـة، انما أراد اتصالهما، حتى انـه جعلهمـا كالشيء الواحد. وكان قـد قرر في أول فصول الكتاب، بـأن الشاعـر لا يعـد شاعرا لمجـرد انه يستخدم الاوزان، ثم ضـرب الامثلة من ناظمى النظريات الطبية والطبيعـة، ومضى في تعميـق قاع نظريتـه، فعد قسمـا من الناثريـن شعـراء، برغم انهم لم تنتظـم لغتهم أوزان (2) وهي حقيقة افضت بنا الى رفض كثير من المنظومـات التاريخية، فلـم ندخلهـا في عداد الملاحم بل مكثت في غايـة أبعادهـا ضربـا من الشعـر التمرينـى لحفظ التاريـخ، ومثلنا لها بمنظومة ابن عبد ربه (3) (550 بيتا) وقصيدة أبى طالب ابن عبد الجبـار (4). وجرى على ذلك من عد مقامات الهمدانى والحريري من الملاحم، وملحمة أخرى نثريـة سبـق في وضعها

(1) فن الشعر ص 26.
(2) نفســه ص 4.
(3) العقد الفريد 500/4 — 527 (نشر لجنة التاليف).
(4) الذخيرة لابن بسام ص 240 القسم الاول (طبع كلية الاداب بمصر).

ملحمة دانتي والفردوس لملتن الشاعر الانكليزي، تلك هي رسالة الغفران لابى العلاء المعري. وهو نفس المبدأ الذي بموجبه نظرنا الى النثر الذي تتحلي به ملاحم «الايام» العربية خلال قصائدها وهو يؤدي نفس المهمة الشعرية فاعتبرناه جزءا لا ينفصل عن الشعر الوارد في أقاصيص الايام، لانه يرقى بمقاييسه الاسطيقية الى مستوى الشعر لانزاع.

فالمنظومات التاريخية ، وان كانت موزونة، لا تدخل في الشعر ولا الملاحم، لكن نثر «الايام» برغم ابتعاده عن القوالب الشعرية المألوفة. يدخل في الشعر مثل أي أجزاء اساسية في لغة الايام، ولا يبتعد عن الصيغة الملحمية المألوفة. لان مهمة الشاعر الحقيقية ـ كما يضيف ارسطو هنا ـ ليست في رواية الامور كما وقعت فعلا، بل رواية مايمكن ان يقع. «والاشياء ممكنة اما بحسب الاحتمال أو بحسب الضرورة، ذلك ان المؤرخ والشاعر لا يختلفان في كون احدهما يروي الاحداث شعرا، والاخر يرويها نثرا. فقد كان يمكن تأليف تاريخ هيردوتس نظما، ولكنه كان سيظل تاريخا، سواء كتب نظما أو نثرا.

وانما يتميزان من كون أحدهما يروي الاحداث التى وقعت فعلا، بينما الاخر يروي الاحداث التى يمكن ان تقع. ولهذا كان الشعر أوفر حظا من الفلسفة، وأسمى مقاما من التاريخ ، لان الشعر بالاحرى يروي الكلي، بينما التاريخ يروي الجزئى» (5). واذن نكون مخطئين اذا نحن توهمنا بأن الايام الجاهلية يمكن ان تؤدي مهمة تاريخية بحتة، كما فعل الطبري وابن الاثير، لان هذه المهمة غير موجودة أصلا في الملاحم. فليست هى تاريخا بالمعنى العلمى كما انها ليست وثائق وبيانات رسمية لامم وملوك، بل هى في حقيقتها رؤى لظواهر مضت واستقرت ذكرياتها في وجدان الامة اسطورة حية، تتوالد وتتكاثر، وتطلعات لممكن، يقع دائما، ولينظر احدنا الى الالياذة كيف تكررت في وجدان الامة اليونانية، مع أن الحدث التاريخى فيها قد تحول الى آثار ومحنطات في متاحف طروادة وأثينا.

والملحمة لا تقف وقوف الوثيقة التاريخية، ولا تنتهى عند حدود في زمان أو مكان معينين، بل تفسير دائم لعمليات كبرى تجري داخل الكون

---

(5) فن الشعر ص 26.

والطبيعة والمجتمعات البشرية. وأما التاريخ، فانه «لا يفسر الظاهرات الاجتماعية وانما يبين اصولها فقط، ولا يمكن ان يعتبر هذا تفسيرا بالمعنى المفهوم» (6) . وان الملحمة استبطان Introspection للظاهرة في مولدها، واستطلاع لمستقبلها. وهى على تعبير «كروتشه» شأنها في ذلك شأن الادراك الفطري الذي يسبق تمييز الحقيقى من اللاحقيقى. «لان الشعر ينبغى ان يكون وفيا لا لحقائق جزئية، بل للطبيعة العامة لعالمنا، ومن ثم كان اكثر فلسفة من التاريخ» (7).

فالتاريخ ـ على ما قدر ارسطو ـ هو الخبر الذي يروي الاحداث دون تحليل الفكر المحرك لها، او دون نظر فلسفى لما وراء هذه الاحداث، وما يمكن ان تكون عليه. فتاريخ ابن الاثير، بل حتى الطبري قبله، لا يمكن أن يقاس بما كتب ابن خلدون في المقدمة التى رسمت لنا نواميس ذلك التاريخ.

وهكذا سما أرسطو بالشعر عندما خصه بالكليات، لان الكلى بهذا المعنى اسمى من الجزئى ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة من طبيعة الشخوص الذين يدخلون في ملاحم «الايام» العربية، ولتأخذ من يوم «ذي قار» مثلا، عندما نقل المؤرخون خبره كوقعة مشهورة، ودخل الادب العربي كملحمة من ملاحم الايام، اخترقت سجف الماضى السحيق، ابتداء بتأسيس الحيرة، وظهور العباديين ـ رهط عدي بن زيد الشاعر الجاهلى ـ ومرورا بملوكها اللخميين حتى مقتل النعمان بن المنذر، وانتهاء بالسيطرة الفارسية التى اعقبها سقوط الحيرة، فأعقب هزائم الفرس، ثم ظلت الملحمة في عطائها، تفتح أبوابا لمستقبل عربى مثمر في المنطقة ، حيث سطع أول خيط من نور، مبعثه البشائر الاولى لعهد دينى جديد ضمن مراحل التطور، ثم التأمل الفلسفى في الوجود.

ان الاديب قد يتخذ من الشخوص العديدة، شخصية أو شخصيتين، وربما اكثر لها أساس في الواقع التاريخى، وان كانت جوانبها ترتسم في الملاحم الشعرية بلا حدود، بل يضاف اليها، مثل شخصية جلجامش (8)، عشرات الذكريات الشعبية لعشرات الابطال. لكن تصبح الشخصية المكثفة

---

(6) أنظر تايلور ص 51.

(7) التركيب اللغوى ص 73.

(8) أنظر مقدمة ملحمة جلجامش للاستاذ طه باقر. طبع وزارة الاعلام (طبعة ثانية) وانظر مقدمة ساندرز للملحمة نفسها.

مركز اشعاع لانماط سلوكية صادرة من نماذج بشرية، متنوعة. واما مئات الشخوص التى تصنع وحدة الحدث أو الفعل داخل الملحمة (9)، فقد لا يقر بحقيقتهم عالم التاريخ، وهى عنده شخوص مخترعة، وأكبر من ذلك، قد تكون الشخوص، بالنسبة الى مكان وجودها غاية المستحيل.

ثم سرعان ما تعود لدى الشاعر ممكنة جدا. فالباحث التاريخى يقتنع من الاحداث ببضعة أشخاص، تحدد معالم وجودهم وملامح شخصياتهم تحديدا صارما، وهو تفسير الكلى والجزئى الذي خصه ارسطو بكثير من العناية في بحثه.

وان اختيار ارسطو العلوم التاريخية والطبيعية – وحتى الطبية – كمقارنة للشعر، اختيار نموذجى ، فالعلوم التاريخية، فيما نعرف، تتميز عن العلوم الطبيعة في أن الثانية تملك اداتين من أدوات البحث، وهاتان الاداتان هما الملاحظة والتجربة، اما العلوم التاريخية فتتاح لها فحسب. أداة الملاحظة التى تتخذ أسلوب دراسة الوثائق. والدراسة التاريخية – اذن – تعنى تقييم الوثائق والافادة منها، على قدر ما تعرف من وقائع التاريخ، وترتيبها ترتيبا زمنيا. ذلك ما بسطه سافينى والاخوان «جريم» في بداية القرن الماضى لجوهر منهج البحث التاريخى، وهم بصدد الدراسة الموضوعية لعلم الفلكور الذي تعرض من هذه الناحية، اكثر ما تعرض، لانتقاد المؤرخين. فمن الجلى الواضح، ان الجانب الاوفى من الوثائق التى جمعها علماء الفكلور واستخدموها، لا تزعم نفسها تاريخا عريقا ومطردا (10).

ولنقرب هذه الجزئية التى أكد عليها الباحثون في الادب والفن. بمثال آخر، خارج اطار «الايام» لكى يلتقى بها في الاختصاص، اضافة لما ذكرناه عن يوم «ذي قار» : فلقد ابدى سانت جيروم، ملاحظة عابرة في بعض كتاباته فقال : «أن لغة الغلاطيين في آسيا الصغرى، تشبه الي حد بعيد لغات موجودة في بلاد الغال . من هذه العبارات انتهى محترفو كتابة التاريخ الى القول بأن اللغات السلتية كانت مستخدمة اثناء القرن الرابع الميلادي في آسيا الصغري وبلاد الغال. والذي حدث اذن، هو ان سانت

---

(9) يقابلها في الدراما الوحدات الثلاث، باضافة وحدة الزمن التى تنعدم في الملحمة.
(10) علم الفلكور – اكزاندر هجرتى كراب ص 18.

جيروم، كان ينقل مجرد نقل عن كتابات التواريخ القديمة المفقودة لفارو. وكان فارو بدوره قد استقى الواقعة، موضوع المناقشة، من كتابات بوزيدونيوس، وهو من كتاب القرن الاول قبل الميلاد.

وهكذا فالتاريخ الحقيقي للوثيقة، يسبق تاريخها الرسمي بخمسة قرون (11).

والى هنا، لا يوجد خلاف ظاهر بين المنهجين، غير ان ثمة اشياء جديرة بأن تقال في هذا الموضوع. فميدان التاريخ ـ باعتباره علما وثائقيا ـ ينتهي بانتهاء الوثيقة نفسها، فاذا طبقنا هذه القاعدة تطبيقا شاملا لقصر التاريخ ايما قصور عن ان يؤدي رسالته، ونعني به بناء التاريخ الظاهري أو السياسي للانسان. وحيث لا توجد وثائق، يكون من حق المؤرخ ـ وهذا حقه لا نزاع فيه ـ ان يستنبط شتى النتائج من الاستدلالات اللغوية، أو مدلولات الحفائر الاثرية، ويزيد عدد هذه النتائج الاستدلالية اذا انتقلنا من التاريخ السياسي الى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي. حيث تتزايد ندرة الوثائق ذلك أن واضعي التقاويم التاريخية القديمة المحترفين، قد استغرقوا، لسبب من الاسباب، فيما يقع من تقلبات وأحداث ظاهرية ملموسة، على مسرح الحياة الكبير (12). فالنتيجة الاخرى التي حصلنا عليها، لم تنحصر في «الجزئي» الذي ذكره ارسطو، بل في القصور الذي صوره لنا سانت جيروم (13). لذلك أكد رونالد نكلسن (14)، على ضرورة نبذ الفكرة المسيئة الى «الاسطورة والخرافة» عندما اعتبرنا مصدر افساد للادب العربي القديم، ودعا الى ضرورة دراسة هذا الادب من خلال الاسطورة والخرافة، ما دامتا قد مكثتا في معتقد شبه الجزيرة حقيقة ترسم لهم طريق حياتهم وتفتح آفاق مستقبلهم، مثل أية ايديلوجية تدخل في وعي الامة دون اعتراض، وموقف تفسيري للانسان لمواجهة أنواع التحديات المحفزة ضد وجوده على ظهر هذا الكوكب.

ولقد اعطت هذه الدراسات، النتائج العلمية والواقعية على مدى التطبيق العلمي، والملاحظة النظرية على حد سواء، بل ان الافتراض الذي يعم العالم.

(11) المصدر السابق نفسه.
(12) نفسه.
(13) علم الفلكلور ص 19.
(14) تاريخ العرب الادبي ص 18.

حول دراسة علـم التاريـخ، من كونه يخـدم في نشر روح التسامح في الشؤون البشرية ، برغم أن عددا من اساتذة التاريخ الحديث لم يبرهنوا على صحة وواقعية هذا الافتراض (15)، ان هو الا نتيجة زخم قـوي للتيارات الادبية والفنية الجديدة ، وللنظريات الفلسفية والسياسيـــة الحديثـة ، في هذا الحقـل.

ان الاشخاص الذين تذكرهم «الملاحم» بأسمائهم، هم في حقيقتهم لا ينتمون الى أفراد جزئيين لهم امتداد لوجود مـادي محدود، بل انها اسماء كلية، تعبـر عن نماذج انسانية ، أو رمـوز لا تصلح لغير الشعر، فهـي في التاريخ ، الواقـع الممكن أو الصـدى لما وقع، في حين أن الممكن الشعري، هو الممكـن مطلقـا، أو عند كورنـي، نقلا عن ملاحظة هاردي، مبسوط على هذا الوجـه : «ان الحقيقـة التاريخيـة ذريعـة لاضفاء طابع الاحتمال على الاحـداث الجاريـة ...» (16).

ولما لم يكن هناك تاريـخ ولا تدوين فقد كان الشعـر مستودع احلامهم في العودة الى الماضي وربطه بالمعاصـرة واستشراف المستقبل، وهي حالة كائنـة ومستمرة في وجدان كل أمـة، لانه اذا كان الفـرد في المجتمـــع الانساني يعيش لحظات العمر في اتصال سريع مذهل مستعينا يغني تجربة اللحظة الماضيـة المخزونـة في أعمـاق ذاكرته باللحظة القادمة التي تتحفـز لها نفسه، فيتم هذا الارتبـاط السريع تلقائيا ومن غير افتعال، فأحـرى بالمجتمـع البشري الموزع جغرافيـا في جماعات أن يحقـق لنفسه هـــذا الاتصال المستمر ولكن مصلحة الجماعة الانسانية غير مصلحة الفرد، ففي هذه الحالة تفنى الذاتية وتندمج (الانـا) متحولة من الجزئي الى الكلي في حركة جدليـة، وفاعلية ديناميكية وفـق نظام كوني متطور دائما، يسعـى نحو هدف يحقق فيه لنفســه وحدة اندماجية انسانية على مدى بعيد غير منظور ولا متوقع، لان خارطة التوزيـع الجغرافي للبشـر، وان اصطنعت لنفسهـا الحدود والحواجز ، ساعية أبدا الى مثل هذا الربط الذاتـــي للحظـات الانسانية ، وعثله للجماعة البشرية، يظهر تأثيره عند ملاحظـة تحقيـق المنجزات الانسانية المشتركة، ويلوح أثـره في بلوغ وسائـــل

(15) علـم الفلكلور ص 34.
(16) فـن الشعـر ص 27 (الهامش رقم 3).

الحضارة (17) المتشابهة لدى جميع الناس. فكانت مهمة التاريخ خزن الحقائق في صورتها الكلية، ومهمة الشعر استنطاقها في صورتها الجزئية.. ربما بما لا يناسب واقعها، فقد ترد الحقيقة التاريخية مغايرة لاصلها، أو مكبرة ألف مرة على ما هي عليه، أو ربما ذوبت فليس لها أثر في الوجود الانساني لتلك الجماعة . وبعبارة ثانية يمكن أن نقول : اذا كان التاريخ ارادة، فالشعر هو الطموح الحالم الذي يسعى دائما لتجسيد هذه الارادة ، على أن التاريخ لا يلتقي مع الشعر أبدا ولا يحل أحدهما في الاخر مطلقا فيوم ذي قار الذي تحول لدى العربي الى أنشودة قومية، لا أثر له في الوجود البشري الفارسي ولا في تراثهم، وهذا أمر طبيعي، فكثير من الهزائم تحتجب عن بصر الامة، وتتوارى عن بصيرتها. وقد تتغنى الامة بهزيمة على أنها نصر، لانها خاضت المعركة بمفهوم وقضية وخرج تبعدها بمفهوم آخر وقضية جديدة، فخسرت حربا (مالا ورجالا) وربحت مفهوما وقضية.

وقبل أن تتحول الحقيقة التاريخية لدى المؤرخ الى حدث مروي أو مدون، كانت في وجدان الشاعر المعبر عن شعبه أحساسا دفينا وحوارا غامضا، ثم تولد اللحظة التاريخية وسط آلاف العوامل والمؤثرات. لكنها تظل دون الطموح ودون التصور ، لان منطق الوقائع وفرضيات الممكن المتيسر هو الذي يدخل عنصرا حاسما في آخر لحظة ولادة. فينتقل الاحساس نفسه والحوار نفسه وتصورات الطموح لولادة جديدة أكثر تطورا وخصوبة، ويظل الشعر حافزا حيا، ويظل التاريخ أداة الشعر في بلوغ الاهداف. ولنضرب مثلا من طبيعة البطل ومكوناته الثقافية والحضارية Culture وشرائحه الاجتماعية في أدبنا العربي، سواء أكان هذا البطل أسطوريا كلاسيكيا أو رومانتيكيا أو ماديا واقعيا. فلم يكن جلجامش مثلا Gilgamesh الا ملكا أبوه كاهن مدينة الوركاء (18) لكن جلجامش

---

(17) يراجع بحثنا : المنابع الثقافية الاولى فى الشعر الجاهلى. مجلة الكتاب العدد 4 سنة 1975 هامش رقم (1) وماتقلناه من مصطلح ثقافة Culture والهامش رقم (5) الذى ورد فيه بأن هذا المصطلح يوازى تعبير الحضارة «التعبير الانجليزى» : Culture ويختلف عن Civilisation تراجع جميع المصادر المذكورة هناك.

(18) تراجع فى سيرة هذا البطل مقدمة الملحمة للاستاذ طه باقر بنشراتها الثلاث عن وزارة الاعلام والمصادر التى أوردها كاتب المقدمة . أنظر قوله : (ص 30 ط. ثالثة) وكانت الوركاء تنقسم فى أوائل عصر فجر السلالات الى قسمين. وكان أحد أقسامها يقال له «كلاب» فكان أبوه كاهنا عليها.

الملحمة الشعرية وجلجاش الاسطورة صيغة أوجدها ائتلاف جملة عوامل بيئية نبعت من قلب (أوروك) التاريخية وتطلعات أهلها نحو الخلاص.. وظل طموح العراقيين الى خلاص أكبر على يد منقذ أو مخلص فتحول جلجامش الى مجموعة (ذكريات شعبية) (19) حافظت على جوهرها الملاحم الشعرية، يصعب على المؤرخ أن يستخرج من محتواها حقيقة وثائقية ثابتة، بل هي في تقديره شخصيات مخترعة يقف منها موقف الفاحص المدقق ، يجهد نفسه وفكره ليسترشد بها في الوصول الى وثيقة.

ويمثل «سيف بن ذي يزن» قمة الطموح القومي ضمن اطار المجتمع الانساني العربي الذي استحال بحكم الظروف الموضوعية وتطور الاحداث في المنطقة الى بطل قومي ثم اسطوري، ونقطة اشعاع مضيئة في بلاد العرب نحو التحرير القومي من قبضة الاجنبي، وان كان سيف قد وجد نفسه بعد طرد الغزاة الفرس بمعونة الاحباش أنه استبدل سيدا بسيد (20)، فبدأ رحلة نضال شاقة وطويلة.. ظل صداها يتردد في أرض العروبة، فكانت أحلام الجماهير العربية تنمو وتتعاظم حول نواة جديدة تمثل رؤيا جديدة للعالم، أصبح عنترة بن شداد بمقتضاها هو المرشح لدور البطولة في هذه المرحلة. واذا تأرجح عنترة بين التاريخ والاسطورة، فانه بذلك يعطى التفسير العلمي لوظيفة التاريخ، والمدلول الشعري لما يحتمل أنه واقع أو سيقع أو لما كان محتملا أن سيقع (21). وقد تكون جزئيات الحياة اليومية ليست بذات صيغة معطية لرجل التاريخ ، لكنها تدخل في الملحمة الشعرية خامة أساسية لصوغ الحدث وقد لا تكون هي المرجوة من وراء طرحها واستطراد رواياتها، لكن ماذا يفعل مخترع الملحمة وواضعها الاول، انه يجمع مواد صنعته من ميدان عمله لانه ليس أدل على دراسة البيئة من أشيائها. لكن جامع الملحمة قد لا يجد ضرورة في سرد كل الاحداث ووصف الموجودات بل يكتفي بما يفي بالغرض، فهو ربما يحذف أو ربما يبالغ في التضخيم والتعظيم وقد يبالغ في التحقير والتقليل بحسب مقتضيات العصر الذي تدخل فيه الملحمة.

---

(19) تراجع مقدمة الملحمة بقلم ن. ك. ساندرز تعريب محمد نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضي (دار المعارف 1970 مصر).

(20) تاريخ العرب — فيليب حتى وآخرين (ط. دار غندور. بيروت 1974).

(21) مجلة آفاق عربية (العدد 9) سنة 1976 مقالة بقلمنا عنوانها : البطل الاسطوري والملحمي . وهي في الجزء الاول من هذا الكتاب.

والمهم ابقاء الرمز الموحى للاصل ثم اسقاطه على العصر وديمومته لكل العصور. وهنا نقف عند مفترق طرق : بين عمل الشاعر والمؤرخ والانثروبولوجى. فما لا يحتاجه الشاعر ويرميه بعيدا عنه، قد يأخذه الانثروبولوجى وما ينحيه هذا الاخير عنه قد يحتاج اليه المؤرخ. على أن الانثروبولوجى والمؤرخ قد يقفان موقف الفاحص والمدقق لاسباب تتعلق بطبيعة منهجهما العلمى، في حين لو صنع الشاعر مثل صنيعهما لخرج من طبيعة مهمته ولكان مقصرا في اتمام جوانب صورته الشعرية بكل ابعادها. واذا لم يجمع المؤلف مادة ملاحمه من أشياء البيئة وموجوداتها التى تفرز الاحداث ، فان أية محاولة أخرى للجمع ستغدو ضربا من الميتافيزيقيا.

حقا ان مساهمة الكون والطبيعة والاحياء الموجودين على وجه الارض في خلق الاحداث يعد اغراقا في الخيال الا أن تشخيص أو (أنسنة) هذه الخلائق يقربها من الواقع ألبشري. وهذا هو التفسير الدقيق لقضية «الجزئى» التى أشار اليها أرسطو. والذي يقرب المسألة أكثر، أننا لو نظرنا الى قضية العرب في فلسطين، وجدناها في رأي التاريخ أو المؤرخ أكبر تراجيديا يخوضها العربى ضد أعداء عالميين متعاونين في الشرق والغرب، يعملون على ادامة الاغتصاب والعدوان، لكنها في نظر الشعر قضية تتألف يوميا من مئات التراجيديات الصغيرة، تتحد مع بعضها لتأخذ شكل ألدراما الكبيرة التى لا يرى المؤرخ منها الا رؤية اجمالية لا ترقي الى رؤيا الشاعر التفصيلية ومع ذلك فهناك فرق. ان المؤرخ لكى يدون هذه التراجيديا التاريخية محتاج الى اشرطة وتسجيلات ووثائق ومستندات وشهود والى عينة من المقاتلين والقادة لكى يقول كلمته في حرب «السويس» أو «العبور» أو «الدفرسوار» أو هزائم حزيران، ولا يتكلف الشاعر الا الاستعانة بوجدان الامة الذي هو وجدانه لكى يقول في حرب تشرين ما يخالف كل المخالفة لما سيقوله المؤرخ في هذه الحرب. ان شعر «نزار قبانى» مثلا لا يعطى المدلول المادي لهذه الحرب كما يعطيها مؤرخ امريكى يستعين بصحفى يساهم في هذه الحرب وما تخرجه منظمة اليونسكو والامم المتحدة والجامعة العربية وتصريحات العسكريين . وما سيقوله شاعر صهيونى سوف يقف على الضفة الاخرى من معطيات الشاعر العربي، بينما يسير التاريخ في طريق

ثالث . يقول كاتب معاصر (22) : «ونادرا ما يحتفظ التاريخ بتفصيلات كافية عن المآسى الكبرى التى تقع ابان حركته اللاهثة، فما يحدث غالبا أن تطرح تلك النكبات نفسها من خلال ما هو عام وبالغ التجريد، ذلك أن التاريخ أضيق من أن يقف طويلا أمام ما هو جزئى وصغير ومباشر ويومى، لذلك يمر ببرود على ملايين التفصيلات المفجعة، على الاحزان التى لا توصف، والالام التى لا تحد، يصهرها في بوتقة الهموم الكلية، وتتركز الكلمات في صفحاته لتصبح ايماءات في الذاكرة...» .

ومن منطلقات النظرية العربية الثورية يحدد الكاتب نفسه وجهة النظر السياسية للثوريين فيقول : «واذا كان العمل السياسى النضالى في سبيل أية قضية ينطلق أساسا من «الوعى الثوري» بها، فان هذا يعطى التجريد مشروعيته ، فالثوار لا يملكون ترف التوقف أمام التفصيلات الصغيرة، فكل ما هو جزئى يندمج ويتوحد في شعارهم السياسى الذي يقاتلون من أجله، انهم مهمومون بالمسائل العليا والكلية، لا يتوقف أمام الهموم البشرية اليومية، لانهم يوقنون - هذا صحيح تماما - أن تلك الاحزان الصغيرة لا تنفي بالخضوع لها نفسيا، ولا تبعد بالتوقف أمامها والانشغال بها. فالانتصار في المعركة الام ، هزيمة لكل الآلام التى لاتحد، ولكل الاحزان التى لا توصف..».

وأما في حدود الالتزام بالادب والفن «فان كثيرين في وطننا العربى. يطمحون أن تلهم مآسيه ونكباته فنانيه وأدبائه فنا يتجاوز الخطابية والدعائية، لا ينطلق من ذهنية تصمم وتخطط ، ولكن من حس مباشر ينفذ الى أغوار النفس الانسانية، يستكنه شرها المطوي، ويشرح عالمها الداخلى الذي هو بالضرورة محصلة تفاعل مع كل معطيات العالم الخارجى، ولعل عدم القدرة على ذلك بالشكل الكافى، تعود، من بين ما تعود، الى برودة التاريخ المدون تجاه العديد من التفصيلات التى يمكن أن تكون الهاما للفن والادب، وبرودة الثوريين المبرر، تجاه الواقع الجزئى، سواء عندما يدونون أو يمارسون ..»

---

(22) مجلة آفاق عربية (1) السنة 1976 مقالة بعنوان : تراجيديا الممثل صلاح بركات (بقلم صلاح عيسى دراسة وتحقيق).

ولكن الكاتب يقرر بعد هذا التجاوز فيقول «وربما يأتي وقت يكون التوقف أمام تلك الجزئيات الفاجعة في مآسى التاريخ الكبرى ممكنا، يوم تنتصر الثورة «الثورة العربية والقضية الفلسطينية» (23) فتصبح الام المخاض ذكريات يحن اليها الناس، وتشحذ فيهم القدرة على تطوير الثورة والحرص عليها، لكن ذلك لا يعنى أن هذه الفواجع الصغيرة، ينبغى أن تنتظر الانتصار النهائى ، لتنشر أو تحقق أو تكون محل بحث فلبعضها دلالاته العامة والجوهرية . فاذا كان صحيحا ان المفاهيم العامة تتكون من الجزئيات الصغيرة، فان تلك الجزئيات لا تفقد لدى عقلية تحليلية قدرتها على طرح كل ما هو عام وكلى. وهى الى هذا تطرح واقعا حيا ونابضا من خلال تفصيلاته الصغيرة والحسية والمباشرة ، فتشكل بهذا المعنى الهاما ثرا لفن الثورة وادابها من خلال تفاعل نفسى بين هموم الانسان الفرد الغارق في ذاته، وهمم الاخرين التى تتعادل مع همومه. وتشكل تنويعا آخر على مآساة واحدة تنشد التمرد عليها والتصدي لها والثورة التى تنسف كل ما يسببها..»

ونعل أحدث ما أمدتنا به البحوث العلمية ، هي تلك النتائج المنطقية الجديدة التى قدمت الاسلوب الجديد في البحث عن الحقائق الكليه موضوعة في خطوات ثلاث (24) ، تنظر الاولى الى الحقائق الجزئية للوصول الى طبيعة العلاقة والى ربط المعلومات لتنسيقها وتنظيمها. وتنظر الخطوة الثانية الى عملية بناء لحقائق عامة تعبر عن علاقات الحقائق الاولى حسية والثانية عقلية يتحقق وجودها في العقل لا في الطبيعة. وتكون الخطوة الثالثة بمثابة تتنظيم للحقائق المختلفة. وعبر الباحث عن خطواته الثلاث هذه، فيما يخص الكليات (أو ثوابت التاريخ) والجزئيات (متغيرات الشعر، بما فيه الملحمى) بمثلث الحقائق جعل قاعدته ممثلة للحقائق الجزئية وضلعه الايمن الصاعد اشارة لعملية الانتقال من الجزئيات الى الحقائق العامة، وضلعه الايسر النازل يشير الى طريق الهبوط من القمة الى الجزئيات كتعبير عن العلاقة بين الكليات والجزئيات. ويطرح المثلث بوضوح محصلة علمية هى ان الحقائق العامة في قمة

(23) ما بين القوسين من اضافاتنا.
(24) منطق البحث العلمى. د. ياسين خليل (ص 14) طبعة بيروت 1974.

المثلث أقل عددا من الحقائق الجزئية، وهذا يدل على الصيغة الموجزة التى توفرها الجزئيات.

ومن هذا المنطلق كان حكم رجال العلم بأن الشعر بجزئياته لا يمكن أن يصير أداة للتاريخ ، ومن هذا المنطلق أيضا كان حكمنا بمتغيرات الشعر وثوابت التاريخ. لكن هذه الحقائق الكلية اذا كانت أخذت ثوابثها الجزئية، فالحقائق الاولى أقل في العدد والطبائع عن الثانية، من قبيل أن المسيرة الكبرى للتاريخ الانسانى العام أو تاريخ أية أمة من أمم الارض ، هى ، أي الحقائق الثابتة، تتحول في جزئيات الشعر والملحمة الى متغيرات مؤقتة ذات معطيات مختلفة وفق صورة العصر الذي تكون فيه ، ووفق اطره أيضا.

وخير من فرق بين الشعر والتاريخ هو لودفكو كاستفلترو Ludovice Castlevtro «الذي فرق بين مادة التاريخ وطبيعة الشعر، فجعل التاريخ على قسمين . المادة والقول . وفي كليهما خلاف بين الشعر والتاريخ لان مادة التاريخ ليست من اختراع عقلية المؤرخ، بل يستمدها من مجرى أمور الدنيا، أو من ارادة الله الظاهرة والمستورة، ولغته هى اللغة التى يستعملها الناس حين التفكير، أما الشاعر، فمادة شعره مأخوذة ومتخيلة من عبقريه الشاعر، ولغته ليست هى اللغة المستعملة بين الناس في التفكير، لان الناس لا يفكرون شعرا. على أن مادة الشعر يجب أن تكون شبيهة بمادة التاريخ ، ومحاكية لها. ولكن يجب الا تكون نفس المادة (26)» «وبالجملة فان التاريخ شىء تمثل، أما الشعر فشىء قابل للتمثيل» (27).

والتاريخ، كما يذكر أبو الريحان البيرونى (28) أحداث معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية، كان فيها مبعث نبى بآيات وبرهان ، أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن . أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب ، أو زلزلة أو خسف مبيد أو وباء مهلك ، أو قحط مستأصل ، أو انتقال دولة، أو تبدل ملة، أو حادثة عظيمة من الايات السماوية ، والعلامات المشهورة

---

(25) المصدر نفسه ص 15.
(26) مقدمة فن الشعر بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوى ص 16 — 17.
(27) نفسه ص 18.
(28) الاثار الباقية ص 12.

الارضية ، التى لا تحدث الا في دهور متطاولة وأزمنة مترامية، تعرف بها الاوقات المحددة ، فلا غنى عنها في جميع الاحوال الدنياوية والدينية، ولكل واحدة من أمم الارض المتفرقة في الاقاليم تاريخ على حدة، تعدها من أزمنة ملوكهم وانبيائهم أو دولهم، أو سبب من الاسباب».

ويبدو من كلام البيرونى ان النقط الزمانية التى كانت العرب تبتديء بها حساب السنين كبيرة جدا (29) ويذكر الطبري في هذا الصدد أن قريشا كانوا يؤرخون قبل الاسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المذكورة ، كتاريخهم بيوم جبلة، أو بيوم الكلاب الاول أو بيوم الكلاب الثانى (30).

فالتاريخ هنا بمعنى تسجيل حوادث أمم، ويطلق عليه «التاريخ العام» واما بمعنى الحوليات، فهو تدوين الحوادث عاما بعام . وبمعنى الاخبار ، عندما يكون الترتيب بحسب العصور (31). وأما لفظ «التاريخ» فهو لفظ عربى بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت أي تحديد الوقت. وأصل الكلمة السامى من (روح) التى يلوح شبحها من كلمتى (ياروح) العبرية التى تعنى القمر، و (يروح) التى معناها الشهر (32). ولدينا في نقوش العربية الجنوبية الاله (ورخن) والظاهر انه رمز للهلال ، منها (يرح) العبرية و (يرحا) السريانية والارامية و (ارخو) أو (ورخو) الاشورية، و (أرخ) البابلية، و (ورخ) العربية اليمينية والحبشية. ومنها جمعيا ظهر الفعل (أرخ) في العربية الفصحى ، وهو يعنى حساب الايام والشهور على دورة القمر ، والاسم : التاريخ (33).

وأما علم التاريخ كمصطلح من مصطلحات الثقافة العلمية ، فهو ينطبق على تدوين ضروب الحوادث الحولية ، كما ينطبق على تراجم الرجال ، لا على وصف شامل للثقافة العقلية . وقد وهم كرنكو F. Krenkow عند حديثه عن التاريخ المأثور في العصر الجاهلى ،

---

(29) دائرة المعارف الاسلامية. مادة (زمان) 374/10.
(30) تاريخ الرسل والملوك 201/1.
(31) دائرة المعارف الاسلامية 469/4.
(32) نفسه 473/4.
(33) الساميون ولغاتهم ص 139. وتراجع مقالة فى مجلة آفاق عربية بعنوان النظرة الدينية للتاريخ بقلم محمد عطار الله العدد 5 سنة 1976 وفيها تفصيل واف لكلمة التاريخ.

لأسماء برزت في أفق روايته : عبيد بن شرية، وصحار العبدي، ووهب ابن منبه مثلا ، حيث يذكر أن العرب الاقدمين ، كان ينقصهم في تدوين التاريخ قوة الملاحظة، والنفوذ الى الحقائق (34). وفاته انهم انما كانوا يكتبون التاريخ من خلال الاسطورة أو الملحمة الشعرية، ولم يكتبوه لذاته .

ومع ذلك، فان الذين اعتبرهم كرنكو ينقصهم الابداع، هم في الواقع البداية الغامضة لتدوين اخبارِ الماضين ، وما ذكروه كان مجرد مقدمات لكتب المغازى والسير ، وان قيل عن بعض العلماء انه كان يطلع على وثائق كانت مدفونة منذ العصر الجاهلى ، وهى تؤكد البدايات أو المحاولات الاولى للتدوين (35) . لكن الرواية الشفوية للتاريخ ، لا يصح الصاقها بملاحم الايام (36) . لان «الايام» ليست من التاريخ في شيء بل هى أدب ملحمى ، جرى تدوينه بعد تدوين المغازي والسير وأخبار الماضين وأساطير العربية الجنوبية ، أي أساطيرِ اليمنيين والحميريين (37)، بدليل أن لغة هذا الادب تغاير لغة كتب المغازي والسيرِ وسواها، وأما ما ذكره الباحثون عن وجود شروح للقصائد وغير ذلك ، فهذا شيء دخيل على أصول الروايات ، وليس من المتون ، أضيف اليها فيما بعد.

---

(34) دائرة المعارف الاسلاميه. مادة (متاريخ) 3/3/4.

(35) دراسات عن المؤرخين العرب — مرجليوث (ص 71) ومابعدها وأنظر أيضا نشأة التدوين التاريخى عند العرب (ص 5) ومابعدها. وأنظر دائرة المعارف الاسلامية مادة (تاريخ) 484/4 — 486 وكان ابن الكلبى قد زعم بأنه يستخرج أخباره من أديرة الحيرة، وكذلك الرواية المنسوبة الى حماد الراوية بأن الملك النعمان أمر، فنسخت الاشعار التى مدح بها هو وأهل بيته فوضعت فى طنوج — كراريس — ودفنت تحت قصره الابيض، فلما مر المختار بن عبيد، قيل له : ان تحت القصر كنزا من الكتب فاحتفر فأخرجها. (أنظر الخصائص لابن جنى — طبعة دار الكتب — 392/1 ومعجم البلدان لياقوت (القصر الابيض) وانظر فى الخبر الاول، الطبرى (37/2 ط. مصر) 770/1 (بريل) قال هشام : كنت استخرج أخبار العرب وأنساب نصر بن ربيعة، ومبالغ أعمار من عمل منهم لال كسرى، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة، وفيها ملكهم وأمورهم كلها.

(36) نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص 5 وعبارته بنصها «لكن العرب، على الرغم من ذلك، عرفت نوعا من التاريخ الشفهى، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصارها، لتفخر بها على القبائل».

(37) يتحدث مرجليوث فى كتابه : دراسات عن المؤرخين العرب ص 71 عن قصائد سجلت فيها ألوان الكفاح بين الاوس والخزرج قبل مجيء النبى (ص) فلما جاء الاسلام حرم انشادها. وأيام القبيلتين مدونة فى الاغانى والطبرى وابن الاثير، وطرف منها فى دواوين شعرائهم، مثل قيس بن الخطيم وحسان، وبعضها فى المفضليات وكتب أخرى.

لذلك جردنا الروايــة منه، وذلك عندما جمعنا وحققنا كتاب «أيــام العرب» لابــى عبيــدة (38).

ان التأليف في المغازي والسير ضرورة أملتهــا طبيعة المرحلة التــى عاشتها الامة ، وبالاخص بعد وفاة الرســول (ص) ، وجنوح العصر الراشد الى الافــول مسرعا وبصــورة غريبــة ملفتــة للنظــر.

ولا نستبعد ما يقال من أن هذا العلم نشأ مع علم التفسير ، وانــه ضرب من علم التاريخ في أوليته التدوينيــة ، الا أنه ليس ضرورة ملحــة املتها المرحلــة العلمية التى كان يتجاوزها علم التفسير الذي يشبــه ان يكون قلقا ســاور النفوس يومئذ من مصير تؤول اليه الاجيال القادمــة، وهى تدور حول نصوصها المقدسة في اغتراب وغموض، وان كنا نــلاحظ جيدا، أن المغازي والسير كانتا من بين وسائل المفسر وأدواته في تقريــب مضامين الايات والسور من اذهان الجماهير ، نظرا لما يتصل بكل آيــة الظرف الذي يفسر نزولها، أو حادثة أو خبر أو غزوة، تقترن بها.

لذلك انفرد بعض كتاب المغازي والسير في التأليــف التاريخــى الخالص ، بعيدا عن مؤثــرات ، المفسرين ، أو أية احتياجــات اخــرى، فخصصوا كتاباتهم لاغراض هذا العلم الجديد (39). ولذلك أيضا قيل عن عــروة بن الزبير ، انه أول مؤلــف في هذا البــاب (40).

أما «أيام العرب» فلا يمكن مقارنتها بما ذكرنــاه، لانها - بحكــم تكوينها الفكري - تنتمى الى عوالم أخرى انما قام الاسلام ثائــرا عليهــا. فلا يمكن الخلط بين هذين اللونين ، وان المؤلفين يخطئون عندمــا يتطرقون الى «الايام» بعد فراغهم أو أثناء حديثهم عن السير والمغازي والتفسيــر والحديث والفقه. فهذا تأليف علمى اسلامى ، وذاك فكر موروث، يتوفر

---

(38) صدر القسم الاول منه بجزئين الاول منه بعنوان : الملاحم العربية. والثانى : الجزء الاول من كتاب الايــام.

(39) الطبرى - تاريخ 1180/1 - 1284 - 1634 (بريل).

(40) كان عروة بن الزبير معاصرا لابان بن عثمــان (105 هـ) وابان عالم بالحديث والفقه، وصاحب المجموعة المفقودة فى مغازى الرسول. وقد توفى عروة فى (94 هـ) وكان يدون اخبــاره ولا يقتصر على الرواية الشفوية. وقد استعار الخليفة الاموى عبد الملك بعض الواحه منــه (واخبرنا الواقدى والطبرى نقلا عن ابن اسحاق ببعض هذه الالواح. للاستزادة أنظر : حسين نصار - نشأة التدوين ص 29، وانظر أيضــا حاجى خليفة - كشف الظنون 646/5.

فيه عنصر الشعر والادب والفن ، ولا نجد في المغازي والسير سوى التاريخ. واذا عثر على شيء فيه، فهو لا يتخطى كونه حلية واستشهادا ليس غير واما تسمية المواقع التى دارت في الاسلام، ثم عرفت بعدئذ، بمصطلح «الايام» فهو اتساع أو تجوز لا نقره. لكن قد تصادفنا وقعات تحمل نفس المضامين الوثنية القديمة أو القيم الشعورية وان بعضها امتد، فأدرك العصر العباسى (41).

ومبدأ الخطاء في قضية الشعر العربى وامتزاجه بالتاريخ، هو ضياع الوثائق وانعدام التدوين. فلما نشطت أقلام الكتاب خلال القرون الهجرية الاولى، لم نجد غير الملاحم والاخبار الادبية والاساطير والمأثورات الشعبية، نستمد منها مادة التاريخ المزمع تدوينه ، ولاجل ان يكون التدوين حقيقيا وصحيحا، اخليا من شوائب الخيال والاسطورة والكذب، كانت التضحية بالكثير من المأثور الشعبى ، ودخل في عدادها الشعر الجاهلى وملاحمه، لانه يمثل نسكا وثنيا، فسددت الضربة اليه، وبعثرت نصوصه، وضاع الجوهر ، فلم يبق الا البناء الخارجى غير المتماسك، مع مدلولات أقرب الي الرمز.

وعندما يحدثنا ابن هشام، عن علاقة الشعر بحقائق التاريخ، نابذا الاشعار التى حملت الى ابن اسحاق برغم اعتذار الرجل، ماضيا الى تبرير نبذها، مستندا على آيات من الذكر الحكيم، تؤكد كذب رواته (42)، انما هو عمل لا نثيب ابن هشام عليه اليوم ، لانه بدد موروثا شعبيا كان صالحا ليتخذ نوات دراسة في ضوء المضامين المحمولة في داخله .. وان الاساطير المروية عن تلك العصور، والشعر المصنوع فيها، لا علاقة لهما اطلاقا بالعلم الوضعى الجديد، والتاريخ العام أو الحولى أو الاخباري، وفق ما تقدم بيانه. فهل زاد ابن اسحاق في شيء سوى نقله اختلاجات نفوس بشرية ، عبر أزمان ممتدة ، نستشف منها، واقعا يسمو به خيال الانسان ، متجاوزا القشرة التى التصقت بها اقدام التاريخ المشدودة الى زمان ومكان، وحقيقة ذات حدود وابعاد . بينما تبدو الاسطورة مشدودة الى الملحمة . فلو أخذ الشعر الذي حمل الى ابن اسحاق

---

(41) أنظر يوم سحبل فى الاغانى 141/11 وشرح الحماسة 56/1 (التبريزى) ومعاهد التنصيص 43/1، ومعجم البلدان 43/5.

(42) السير النبوية 4/1. مع الاستعانة بنصوص ابن سلام فى طبقات فحول الشمراء.

على أنه صورة لاصل، أو ظلال شاحبة لموروثات دفينة، لكان الجانب الاسطوري فيه اكثر عطاء في مضامينه، من وجه التاريخ المتصلب. فالمسألة بكل ما فيها، لا تعدو ان تكون حذلقة نقدية وجهها العلماء الى ابن اسحاق، وهو في موقف المعتذر (43) وقد سبق ان بينا في موضع سابق من هذه الدراسة، بأن هذا الموروث يجب ان يدرس لا انيمحص.

وهكذا ننفى كل استنتاجات مرجليوث، واعتبار الشعر أداة للتاريخ ليمضى الى استبناط أحداث ومشاهد تاريخية من مطولات ابى تمام والبحتري والمتنبى والشريف الرضى والتعاويذي وآخرين ، وهى التى أطلق عليها العلماء اسم القصيدة القاصة Ballad ولما لم تستقم النتيجة تماما، أعلن بأنه كان ينتظر معلومات تاريخية أخطر، لو كانت الدواوين مرتبة بحسب زمن القصائد. ولعل كلامه الاخير يعقل. لكن كون الشعر أداة للتاريخ، فهو مالا يطاق. والاكثر جدوى في عمله هو دخوله اعماق القرن الثالث الاسلامى، بحثا وراء القصيدة الحولية Chronicle أو المؤرخة، مثل ارجوزة ابن المعتز في الخليفة المعتضد (363 بيتا) ورائية أبي فراس (من البحر الطويل) وتتضمن وصفا لاحداث الحمدانيين ووقائعهم مع الروم، وأرجوزة ابن عبد ربه (550 بيتا) المنوه بها سابقا (44) ان هذا النوع من الشعر التمرينى لحفظ التاريخ، لا يعد من الرواية التاريخية في شىء وهو أيضا غير محسوب على شعر الملاحم التاريخى Epicpoetry فضلا عن ذلك فهو ليس من قبيل القصص القديم (45).

وقد كانت نظرة مرجليوث الى المطولات الجاهلية مبعثها نفس المنطق ، كان مقياس النجاح لديه ان تكون القصيدة قاصة على حد تعبيره : (ومن ثم فالشعر الذي يعالج التاريخ القبلى وغيره، في احواله

---

(43) توجد انتقادات أخرى موجهة الى ابن اسحاق لدى ابن سلام فى طبقات الشعراء ص 8 — 9.

44 — دراسات عن المؤرخين العرب ص 76.

(45) هذه التسمية تطلق على هذا النوع من القصص تمييزا له عن الاسطورة فالقصص حوادث تاريخية قد تكون محرفة او مشوهة. اما الاساطير — وتدخل الملاحم ضمن هذا الكلام — فهى تفسير لظاهرة انسانية او كونية، وصراع البشرية ضد انواع التحديات المنبعثة من الحياة والموت والخلود، وقد عرفنا بعض ذلك عن طريق ملحمة جلجامش وقصة الاتوما اليش والطوفان وهى معالجة مباشرة للقضية الكبرى: قضية الموت والخلود، وربما كانت بصورة غير مباشرة كالذى نجده فى ملاحم الايام العربية.

العارية تلميحى أكثر منه تاريخى وقصصى . واذا ما وصلت الينا القصيدة التى تعالج تلك الاحداث كاملة وجدناها تخلط الاحداث التاريخية بأمورٍ أخرى غير ذات صلة بها. ولذلك نخرج بقليل من الامور التاريخية من المعلقات ، وخاصة معلقة زهير التى تمدح بعض الرجال سعيهم في اقرار السلم بين قبيلتين متحاربتين أيام داحس والغبراء، وتحملهم المغارم في سبيل ذلك. ولكن وصف معلقة زهير بأنها «قصيدة قاصة، Ballad يشوه صورتها تشويها بعيدا، فهى تعليمية أكثر منها قصصية. ولا تختلف عن هذا الطابع الاشعار التاريخية التى تؤلف ديوان العرب (46) والتخبط واضح في الكلام الوارد في هذا النص. ولم تمض مقولة الشعر والتاريخ بسلام ، دون أن تحدث أضرارا أو تترك أثارا . فكان من تأثير التاريخ في الشعر كما قال بعض الباحثين (47). ان ظهر لدينا ما نسميه (تاريخ الادب) فهو من مخلفات القرن التاسع عشر وكان قرن التاريخ والرومانتيكية استهلته مدام دي ستيل تلميذة روسو ومونتسكيو بكتابها الذي وسمته بـ «الادب من حيث علاقته بالنظم الاجتماعية» ثم اطرد البحث في الاعمال الادبية، وفقا للمناهج التاريخية بدعوى ان هذه الاعمال ، وقد ولدت في الزمان، انما تحيا في الزمان ..

لهذا كله انكر «هيدجر» ان يكون الشعر حلية تصحب الوجود الانسانى ، ولا حماسة عارضة، ولا قوة طارئة ولا تسلية مؤقتة، الشعر هو الاساس الذي يسند التاريخ (48). وكان دليله الى ذلك، ما ذهب اليه «هلدرن» من أن الشعر حوار، لان البشر انفسهم حوار، يستطيع كل منهم ان يخاطب الاخر بلغة الشعر الخفية. لذلك نحن نؤكد على ان الشعر غير جار مجرى الوثيقة التاريخية، لان هذا مجال آخر يغاير المجال الاستطيقى (49). «وان البشرية تلتمس من شعر شعرائها اصواتها الخالدة التى تتجاوز حدود الزمان والمكان» (50).

---

(46) دراسات عن المؤرخين العرب ص 75.
(47) التركيب اللغوى 93.
(48) المصدر السابق وانظر مارتن هيدجر فى الفلسفة والشعر للدكتور عثمان أمين ص 95.
(49) التركيب اللغوى ص 1.
(50) المصدر السابق ص 83.

مصادر البحث مرتبة حسب تسلسل ورودها فيه

1 ـ فن الشعر لارسطو طاليس، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي (مطبعة النهضة المصرية بالقاهرة 1953).

2 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (نشر لجنة التأليف).

3 ـ الذخير لابن بسام ـ القسم الاول ـ طبع كلية الاداب بمصر.

4 ـ شعر الايام الجاهلية ـ دراسة بقلم كاتب المقالة ـ مطبوعة بالرونيو (جزء من دراسة شاملة لملاحم الايام العربية) وقد نشرت في دار الجاحظ بغداد 1976.

5 ـ أيام العرب ـ لابى عبيدة معمر بن المثنى (209 هـ.) صنعة الدكتور عادل البياتى ـ نشر دار الجاحظ بغداد 1976. وتراجع مخطوطة الكتاب بالرونيو.

6 ـ تايلور ـ للدكتور أحمد أبو زيد (دار المعارف بمصر 1957) .

7 ـ التركيب اللغوي ـ للدكتور لطفى عبد البديع ـ القاهرة ـ مطبعة النهضة 1969.

8 ـ ملحمة جلجامش ـ مع مقدمة للاستاذ طه باقر ـ نشرة ثانية لوزارة الاعلام العراقية .

9 ـ منطق البحث العلمى ـ د. ياسين خليل ـ بيروت 1974.

10 ـ ملحمة جلجامش ـ نشر وزارة الاعلام العراقية . ثلاث طبعات بعناية الاستاذ طه باقر.

11 ـ مجلة آفاق عربية الاعداد 1، 5، 9، ـ بغداد 1976.

12 ـ مجلة الكتاب العد 4 السنة 1975 بغداد.

13 ـ ملحمة جلجامش ـ مع مقدمة بقلم ن. ك. ساندرز ـ ترجمة نبيل نوفل وفاروق حافظ القاضى ـ طبة دار المعارف بمصر 1970.

14 ـ علم الفلكلور ـ الكزاندر هجرتى ـ ترجمة رشدي صالح ـ طبع وزارة الثقافة بمصر 1967.

15 ـ تاريخ العرب الادبى ـ البروفيسور رينولد نكلسن ـ ترجمة الدكتور صفاء خلوصى ـ بغداد 1970.

16 ـ الاثــار الباقية لابى الريحان البيرونى ـ طبع ليبزك 1923.
17 ـ الخصائص لابن جنى ـ طبعة دار الكتب المصرية.
18 ـ الساميون ولغاتهم للدكتور حسن ظاظا ـ طبع دار المعارف بمصر 1971.
19 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي ـ طبع السعادة 1906.
20 ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ طبعة مصر وبريل.
21 ـ دراسات عن المؤرخين العرب ـ مرجليوث ـ ترجمة الدكتور حسين نصــار ـ طبع بيروت.
22 ـ نشأة التدوين عند العرب ـ للدكتور حسين نصار ـ طبع مصر.
23 ـ كشف الظنون ـ حاجى خليفة، مصطفى بن عبد الله. طبع الاستانة 1311 هـ.
24 ـ السيرة النبوية ـ لمحمد بن هشام ـ طبع الحلبى 1955.
25 ـ الاغانى لابى فرج الاصفهانى ـ دار الكتب المصرية.
26 ـ شرح ديوان الحماسة للتبريزي أبو زكريا يحيى بن على . طبع السعــادة 1246 هـ.
27 ـ طبقات الشعراء لمحمد بن سلام بــن عبد الله الجمحــى ـ طبــع السعــــادة .
28 ـ هيدجــر في الفلسفة والشعر ـ للدكتور عثمان أمين ـ طبع القاهرة.

منابع الالهام والثقافة في الادب العربي

«هذه دراسة اعدت بعد ضم طائفة من الملاحظات كنت قد دونتها اثناء عملي الطويل، وانا اكتب سلسلة من الابحاث العلمية في حقل المعرفة والادب . وقد جاءت هذه الملاحظات في شكل اضافات جوهرية الى ما سبق أن أعلنته عن ثقافة الاديب العربي قبل الاسلام، والمكونات الاولى لصرح بنيانه المتكامل، وذلك في محاضرة كانت قد أعدت لهذا الغرض قبل ما يقرب من عشرة أعوام (1). ولا يخفى ما ينطوي بين التاريخين، الامس واليوم . من تفاوت في الشقة تجعل المرء يراجع استنتاجاته، ويعيد النظر في بعض مواقفه الفكرية من التراث، وقد يضيف أو يحذف . ولا يتسع مجال النشر هنا لاستعراض كافة النتائج السابقة، ومقارنتها بما استجد في اليد من محصلة اكثر حداثة وفق منظور المعاصرة المتطور، لكنني عملت جهدي لكى انقل أجزاء حية من الكائن القديم صمدت في وجه رياح التغيير والتطور، وزرعها في جسد الكائن الجديد الذي أحاول الآن أن أحدد معالمه ووجوده وأبعاده أمام نظر القاريء».

ان مفهوم «الثقافة» الذي بنيت عليه أسس البحث لم يتغير لدي بل سررت حين اكتشفت أن مصطلح Culture الانكليزي يوازي مصطلح «ثقافة» العربي في مدلوله القديم، فيما يتعلق بالارض وحراثتها وزراعتها. أشار الى ذلك البكري في معجمه حيث قال (2) : «وغرس قسي. وهو الاب الاعلى لقبيلة ثقيف، القضبان فانبتت، فقالوا : قاتله الله ما أثقفه، فسمي ثقيفا يومئذ : وهى قضبان الكرزم. فكلمة ثقافة العربية أصلها ثقافة زراعية، وكلمة

---

(1) تليت المحاضرة فى اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، ونشرت فى مجلة الكتاب التى كانت تصدر عن الاتحاد ببغداد فى العدد الرابع لعام 1975 بعنوان المنابع الثقافية للشاعر الجاهلى. ومجلة المجمع العلمى العراقى ج. 3 و 4 مجلد 32 عام 1981.

(2) يراجع معجم ما استعجم 66/1.

Culture الانكليزية أصلها ثقافة زراعية (3) أيضا وفي الكلمتين اشارة الى بدء انتقال البشرية من المجتمعات الرعوية المتحركة وبدء ظهور الاقطاعيات الزراعية الثابتة. فالكلمة تعنى في اصطلاح العصر الحديث، كل ما يمتلكه الانسان من وسائل الحضارة في عهوده الاولى، يدخل ضمن ذلك وسائل استبطانه وادوات عمله ومواد مهنته وخامات التصنيع المعروفة يومئذ. وبذلك يضيق مصطلح البداوة السائد خطأ وينعدم، فتصبح معرفة الاعرابي في ضرب اطناب سرادقه أو خيمته وتأسيس حوض الماء له ولحيوانه واتقان مهنة الرعي والتدجين والتكثير والانتاج في مختلف وجوهه ضربا من الثقافة. ويمتد ذلك الى الحواضر المختلفة في الوطن العربى حتى تشمل فنون الصناعات الحربية والسلمية، والزراعة والعمران والمعارف الانسانية الاخرى على صعيدها الديني والاجتماعي كالكهانة والحيازة والعرافة والتزلف للالهة والعيافة والقيافة والمعتقدات والفلك والطبابة والصيدلة والحجامة، وعلى مستواها القومي كاللغة ولهجاتها والتاريخ وفروعه والمثل وضروبه والسير الشعبية وأنواعها. وفي حقلها الانسانى كالتجارة والاسفار واللقاءات الاخرى. وقد نظر ابن قتيبة الى هذه المناشط الثقافية ومعالمها في الشعر فقال عندما أراد أن يعرف القراء بكتابه الذائع (4) «وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره، وعمن وضعه بالهجاء، وعما أودعته العرب من الاخبار النافعة والانساب الصحاح والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة، والعلوم في الخيل، والنجوم وأنوائها والاهتداء، والرياح وما كان منها مبشرا أو جائلا، والبرق وما كان منها خلبا أو صادقا، والسحاب وما كان منها جهاما أو ماطرا» ويقول في موضع آخر من الكتاب : وكل علم محتاج الى السماع، واحوجه الى ذلك علم الدين ثم الشعر لما فيه من الالفاظ الغريبة واللغات المختلفة والكلام الوحشي واسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه».

واطلاق مصطلح العلم على الشعر توجيه صحيح، فقد كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، وهو مما ذكره الرواة من أقوال

---

3) Webster'S New World Dictionary By David B. Guralink New York 1961 See (Culture) P. 175.

(4) الشعر والشعراء 63/1، 82 تحقيق الشيخ أحمد شاكر. دار المعارف بمصر 1966.

الخليفــة عمر بن الخطاب (رض) (5) وكان الشاعر عالم القوم كما كــان كاهنهم، ويدخل في مكونات ثقافتــه ، السحــر ايضا. لذلك لا نستغرب مـا روى من أن لبيــد بن ربيعــة الشاعــر ارتدى حلــة السحــرة وبــرز في مظهر «المشعوذين» والقــى ارجوزته العينية أمام الملك النعمان ابن المنــذر في مهاجاته المعروفــة للربيع بن زيــاد العبسى (6). ويدخل في عــداد المنابع الثقافية ارتبــاط الشاعــر برئى أو صاحب من الجــن، وما رافق هذا المعتقد من ارتبــاط بالعوالم الغيبية والمنطلقــات الماورائية سواء ما وراء الغيب أو ما وراء المــوت أو ما وراء الطبيعــة. وقد كان الناس قبل عصر الجاحـــظ مولعين بأغراض الشعــر وفنونه وأعاريضه، مؤثرين ميادينه على سائــر الميادين. لكن الجاحظ بما كتبه، جعل للدراسات النقديــة التحليلية وللنثر الفنى مكانـــة في نفوس الناس لم تكن مألوفـــة، فأعاد للاداب عامة فاعليتها وللشعر خاصــة مكوناته وثقافته. اذ هذا الموروث العظيم ينعكس في عمل الاديب في شكل ثقافــة زاخــرة تجد صداهــا في الرؤيـــة الذاتية للشاعر أو الكاتــب أو الروائى أو القــاص وغيرهم. فنحن بصدد تحجيم المعالـــم الثقافيـــة المتعددة من خـــلال الشعــر.

وقد تكون للشاعر خصوصية في التعامل مع هذه الخامات، واعادة بنائها بعد هضمها وتمثيلها ، ثم تقديمها للامـــة صيغة جديدة تعبــر عن معنــى مجــرد، لكنه يرتبط بالقضية ارتيــاط الجوهر بمعناه ونفاسته وعرقــه. أما المعنى المجــرد، نمثاله أن (السيــف) لم يعد لــدى الفنان سيفا في صورته الاعتيادية باعتبار، آلــة للطعن أو القتل، بل تحول الي رمز شعري يعبر عن قضية. وكذلك الموجودات الاخرى في حجمها المادي أو ابعــادها المعنوية. وهذه الخصوصيه في الشعر تنعــدم في غيره، لان أيـــة ظاهــرة اجتماعية أو اقتصادية يمكن أن تــدرس في ضوء التحديات المتعددة والضغوط المختلفــة من بيئة وطبيعة ومناخ وتحولات قسرية، فتعمـــل في خلقهـــا وتطويرها وابداعها، وقد تعمل في اخمالها واضعافها واخفائها، الا الشعر، فليس لانـــواء الطبيعـــة ولا ضغوطها المتباينة ولا شمسها المحرقة، وحتى شمس المناطق الجليدية النـــادرة، ولا غناها ولا فقرها، أيـــة فاعلية في

(5) العمـــدة 27/1.

(6) غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بالامالى للشريف المرتضى 136/1 تحقيق أبو الفضل ابراهيـــم – مصـــر 1954.

قدرته الالهاميــة أو نمطــه أو مقداره أو قــوة أسـره. ان أمـرا واحـدا يظل عاملا في زخم وفاعليــة يغنى الشعــر ويثـري عطاءه المـادي.. انه الانسان العربى عبر تاريخه البعيـد وحاضـره ومستقبلـه، هو الصانــع الوحيد، يمتــزج بأرضه ومناخه وبالطبيعــة المتلونــة الممتــدة من قلــب صحارى شبه الجزيــرة وسينــاء ذات المـزاج الثقيل الى اطـراف اليمن السعيد، وحتى البساط الاخضر الممتـد من أرض الســواد واشجار الارز فــوق جبل لبنان الى دلتــا النيــل المخصبــة المرعة. لقد لاقت هــذه الفرضية صدودا من بعض المعنيين في حقـل المعرفــة والثقافــة. والناس ـ كما قيــل ـ اذا وجـدوا في البديهيــات خروجا على مألوفهم، وربمــا تهديــدا لمــا في أيديهم، قاوموها وحاربوهــا، فكيف بالفرضيات ؟ .. ! ولدى رجوعى الى فريضتــى بالمدارسة والنقــد، وجدت أننى لم أكن واضحا بالشكــل المعقول، لذلك اضيف هنا بــأن المقصود بالانسان العربى عبـر تاريخه البعيــد وحاضره ومستقبله هو للشاعــر وقدرته الالهامية التى هى من تركيب الخالــق في اعماقه يوم ركب اهواءه وأمزجته وطباعه. فالموهبــة الالهاميــة اذ تتفجــر ، لا تنظــر الى بيئة بعينها ولا حضارة بذاتها ولا بــداوة أيضا. فحجم العمليــة الشعرية لا يتأثر ببيئة ولا يتفاوت في حدود الجــودة والاتقان بوحى من زمان أو مكان. فالحضارة قد تضيق والشعــر يتسع، وقد تتسع الحضارة والشعر يضيق. مبــدأ أقــره علماؤنا مــن قبل. وهذا نص ما قالــه ابن قتيبــة في مقدمته لكتابــه «الشعر والشعراء» (7) (ولم يقصر الله العلــم والشعر والبلاغــة على زمن دون زمن، ولا خص بــه قومــا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركــا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثــا في عصره، وكل شــرف خارجية في أوله» وقد اثبتت الدراسات الحديثة صحة ما ذهب اليــه ابــن قتيبــة. وكان الجاحظ قــد حاول مثل ذلك، حين أورد. كأن الجاحظ (255 هـ) يــرد على ابن ســلام (231 هـ) في نظريته التى لم تستقــم له في توزيــع الشعــر على بيئات، فقــال الجاحظ : «وليس ذلك لمكان الخصب، وانهم أهل مــدر، وأكالــو تمــر، لان الاوس والخزرج كذلك، وهم من الشعر كما قد علمتم» ثم يجري الجاحظ المقارنــة بثقيف فيقــول «وثقيف سكان الطائف ، ناهيك بهــا

---

(7) الشعر والشعراء ص 63.

خصبا وطيبا، وهم وان كان شعرهم أقـل فان ذلك القليل يـدل على طبع في الشعـر عجيـب» (8).

لقـد ارتبطت قضية الالهام الفنـي في عصر ما قبل الكتابـة بالغيـب عن طريق قرين من الجـن أو صاحب أو رئى أو شيطـان، وزعمـوا أن ما ياتـي به الشاعـر انما هو املاء يملـى عليه، خـارج ارادته، ولا فضـل للشاعـر فيه سـوى أنه واسطـة للبشر، بينهم وبين الغيوب. وتقدم لنا بهذه المناسبـة فاتحة كتاب الجمهـرة لابي زيـد القرشي معلومات غنيـة بهذا الصدد (9). وهى تحدرات ثقافيـة عرفها الساميون منذ القدم، حين قـرر شاعر منهم بأن الاسطـورة المعروفـة باسطورة «ايـرا» أي «الـه الطاعـون» لم يكتب قصيدتها من نفسه وانما ظهر له الالـه في الرؤيا وأملـى عليه نص القصيدة ، فلما استيقظ استذكرها ودونها دون أن يضيف اليهـا أو ينقـص منها شيئا مما أملاه الالـه (10). وقد تسببت هذه الموضوعـة الغيبية في اشكال كبير عند نـزول معجزة القرآن الكريم، وذلك حين قرنوا وحيه وتنزيله بما يوحى للشاعـر وينزل عليه، وقد جـاء هذا الاختلاط بسبب الالهـام الغيبى الالهـى للرسول (ص) والزعم الالهامى للشاعر أيضا وبسبب لغـة القرآن التى حيرت الجمهـور بيـن ان تتكون نثـرا فنيـا أو شعرا دينيا غامض المأخـذ، لم يجدوا له شبهـا في كتاب سماوي أو صحيفـة دينية. وقد أوضح القـرآن مسألة الوحى الالهى، كما أوضح مسألة القرين الشعري حيث ورد قوله تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم..» وهى من سورة الشعراء، فعرف الناس ـ لاول مرة بعد مضي ما يزيد على ستمائة عام من مولد المسيح عليه السلام ـ بأن ما ينزل على الانبيـاء، انما هو وحى من الله عن طريـق ملك كريم وما هو بشيطـان رجيـم مما ينـزل على الشعراء. ثم تظهـر قضيـة (الملائكة والجن والشياطين) وهل كانت من ضمن موروثات العربي الدينية قبـل الاسلام. ولدى الرجوع الى مادة (ملك) في المعجمات، وجدنا أنها لا تسعف بشيء، لكن مادتـي «ألـك» و (لأك) تلقيـان ببعض الضوء على كلمة ملك (بالفتـح) التى تشتق منها (الالوكة) وهى الرسالة، مما تفيد ببعـض

(8) مدخل الى الادب الجاهلى ص 350 وتراجع مناقشاته أيضا.
(9) تراجع مقدمة كتاب الجمهرة لابى زيـد القرشـى التى تعد من المقدمات النفيسة فى الدراسات الكلاسكية والفكر الغيبى.
(10) ملحمة كلكامش ص 24 بعناية طه بـاقر طبعة رابعة 1980.

الصلة الوظيفية بين الملك وما يحمل من رسالة سماوية. وهذا هو الذي دفع ببعض علماء اللغة أن يعزو كلمة (مألك) الى (ملك) بالفتح، وانها كانت تعنى مخلوقا اثيريا من غير الانس، ومثلوا لذلك بقول الشاعر الجاهلى (11).

ولست لانسي ولكن لمألك تنزل من جو السماء يصوب

وعند عزو البيت الى الطرماح بن حكيم - في رواية - يبطل الاستشهاد به. وقد ارتبطت كلمة ملك (بالفتح) مع كلمة (ملك) بالكسر ارتباطا وظيفياً أيضا، لان الثانى يتمتع بتفويض الهى نعود اليه بعد قليل. ولا عجب في معرفة العرب لكلمة (مألك) التى هى : ملك كريم، لان العرب أمة موحدة أصلا ، داهمها الشرك والوثنية فيما بعد، وبالاخص معرفة عرب الشمال لها، فقد كانوا موحدين احنافا خلاف ما كان الجنوب عليه من التعدد والشرك بحكم تكوينهم الثقافى والجغرافى وصلاتهم الحضارية عطاء وأخذا مع العالم الخارجي. ويبدو لى أن النزاع التاريخى التقليدي الذي تطرحه كتب التراث، وكانت نهايته على يد كليب بن ربيعة ثم عملية الانتقام اليمنية بالنيل من (اله) كليب المنتصر وذلك بتسليط ناقة البسوس على حمى الاله وتلويث قدسيته مما جر حربا طويلة الامد ، كان مبعثه هذا التعدد في عبادة أهل اليمن، والميل الى التوحد في عبادة عرب الشمال الذين كان الصراع فيما بينهم وبالاخص من جانب الاحناف دمويا !!قضاء على ظاهرة التعدد التى تطرح التجزئة بوضوح، والاخذ بالتفريد على الاقل أو بالتوحيد أصلا لانه يطرح المفهوم الصحيح للامة ووحدتها. وستنعكس آثار هذه العقائدية (الايديولوجية) على نظامهم السياسى. ومن هنا كان لابى عبيدة أن يقرر بأنه لم يتوج معدي قط (12) أي لم ينصبوا عرشا وملكا، وانما اقتصرت النظم الملكية على القبائل العربية الجنوبية، فكان ملوك الشمال قحطانيين جنوبيين، لانهم من نسل الآلهة أو أنه يستمد سلطته من الالهة، فقد كان الملوك اربابا في عقيدة العرب، وكان الناس

---

(11) اللسان لابن منظور مادة (ألك) و (لأك). ولفظة الملائكة وردت فى شعر أمية والاعشى

(12) العقد الفريد 244/2 قال أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء : لم يتتوج معدى قط ، وانما كانت التيجان لليمن، فسألته عن تاج هوذة بن على الحنفى فقال : لم يكن تاجا بل خرزات تنظم له. وكان الرسول قد كتب الى هوذة كما كتب الى الملوك.

يقدسونهم، وقد ورد في معتقدات السومريين أن الآلهة كانت تحكم الارض قبيل الملوك، فلما تبوأت عرش السماء خلفت الملوك بعدها على الارض، وفوضتهم سلطة الربوبية في ادارة أمر الناس. وكان الملوك في نظر بعض الاقوام آلهة تعبد ، وقد حاول الملوك في الاصقاع الشمالية والوسطى أن يحملوا الناس على هذا المعتقد ففشلوا.. فكان الملوك يلقون القتل على أيدي الفرسان الثائرين دون رهبة، حتى أن التاريخ ليروي لنا مقتل طائفة كبيرة منهم على أيدي الشجعان العرب. وان أحدهم ليشير بصراحة الى مبدأ التحريم السائد في قتل الملوك، ثم يعرض جرأته وبسالته في مقارعة الظالمين منهم (13) :

نعاطي الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرم
وكائن ازرنا الموت من ذي تحية اذا ما ازدرانا أو اسف لمأثم
وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى الدم

ثم يستطرد في ذكر اسماء الملوك الجنوبيين الذين قتلوا بسيوف قيسية. وكان الالهام الشعري منسوبا لعبقر، واد في بلاد العرب تسرح فيه الجن، فعرف الوادي باسمهم «وادي جن عبقر» ثم «وادي عبقر» فنسبوا جنون والعبقرية أو جنون العبقرية الى هذا الوادي، وكذلك الشعراء فقد نسبوا قرناءهم الى هذا الوادي، فكان لكل شاعر جني عبقري يتقمصه ويلقى الشعر على لسانه، حتى رويت لبعضهم في ذلك حكايات ونقلت أخبار ولقاءات غريبة بين الشاعر وقرينه، حتى اعتقد الناس الى ما بعد الاسلام بأمد طويل أن الشعراء لا يلفظون الا ما يلقي عليهم من قبل عباقرة الجن المتطلعين الى الغيب المستشرفين لاسراره، وان ألشعراء كانوا ينعتون قرناءهم من الجن بنعوت تعزوهم الى البلاغة والفصاحة، ويشتقونها من طبيعة العملية الايصالية والالقائية للشعر العربى القديم الذي كان يعتمد الرواية في النقل، فعرف بعضهم باسم قرين فلان من الشعراء مثل (قرين مهنهل) في شعر لسراقة البارقي -

ولقد اصبت من القريض قصيدة أعيت مصادرها قرين مهلهل

---

(13) المفضليات ص 211 (مفضلية 42) تحقيق : أحمد شاكر وعبد السلام هارون — دار المعارف، طبعة رابعة وتراجع قضية قتل الملوك فى مقدمة كتاب أيام العرب لابى عبيدة.

وقال لبيد بن ربيعة في جن عبقر :

ومن فاد من اخوانهم وبنيهم   كهول وشبان كجنة عبقر

ووردت اشارات اخرى الى جن عبقر في شعر زهير وحاتم وغيرهما. وكان اسم الجني الذى اقترن بامرىء القيس يقال له (لافظ بن لاحظ) وصاحب عبيد بن الابرص يقال له (هبيد) ورئى النابغة يقال له (هاذر بن ماهر) وراوية الاعشى يقال له مسحل (14).

وكان، عند ظهور الاسلام، لابد من تغيير لنظرية الالهام الشعري، بعد ان تلقى الرسول اوان التهم بصدد ما يوحى اليه، فأصبح شيطان الشاعر العربى المسلم ملاكا، وارتبط الهام بعضهم بالملاك الحامل للرسالة كما في حالة حسان بن ثابت وقول الرسول (ص) يخاطبه ويحضه على هجاء المشركين «اهجهم وجبريل (روح القدس) : معك» (15) فألغيت بذلك موضوعة الجن في الاسلام بالنسبة للشاعر الملتزم، وهذا الحديث صحيح ثابت رواه شعبة واورده البخاري وكذلك أحمد في مسنده.

هذا هو العالم الغيبى للالهام الشعري الذي حاولت الثقافات العربية الاولى أن تسمو به لتميزه وتمنحه خصوصيته العقائدية. وقد استمر هذا العالم الاسطوري الشعري (الميثوبى) الساحر الخلاق ممتدا بفضائه الرحب بوسمائه الواسعة مغطيا العملية الشعرية طيلة المرحلة التاريخية الحتمية التى مرت بها الثقافة العربية حينذاك، قبل أن تدخل مرحلة جديدة متطورة . ومن هذا المنطلق يأتى حكم الجاحظ سليما فيما يخص الالهام الفنى للاديب العربى ، ناثرا كان أم شاعرا حيث قال «وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة. وانما هو أن يصرف همه الى الكلام، والى جملة المذهب، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر» ورد هذا

(14) تاريخ الادب العربى قبل الاسلام ص 80 نشر وزارة التعليم العالى العراقية 1979
(15) طبقات فحول الشعراء 217/1.

في البيان والتبيين في الصفحة الحادية والعشرين من المجلد الثالث للطبعة الثانية. وليس القصد من كلام الجاحظ أن الاديب العربى فارغ لا يستعين بثقافة ولا يجيل ذهنه بفكرة. وانما ذهب الى ما ذهب اليه المتقدمون في نظرية الالهام الفنى، الا أنه خفف جانبها الاسطوري بقوله أن ما يأتى به الاديب العربى «كأنه الهام» لا يحتاج الي افتعال الالفاظ والعبارات والي جهد الفكرة، يشير بذلك الى ما نسميه اليوم بالادب الانشائى، الا أن الجاحظ أدخل فيه كل جانب من جوانب العمل الادبى، فجاوز أمورا نحن اليوم أكثر التفاتا اليها.

وأفادت مشاهدات بعض المستشرقين، بأن الشعر قد يزدهر في مناطق ذات صيغ حضارية محدودة أو بيئات ذات معطيات جغرافية حادة مثل بقاع الاسكيمو بدو الجليد. لذلك تكون نظرة ابن قتيبة أوسع من نظرة ابن سلام في طبقات فحول الشعراء عندما قرر بأن أقواما من العرب لم يعرفوا بالشعر ولا اشتهر بينهم، لانهم لم تكن بينهم «نائرة»، أي فتن ومشاحنات وحروب وثارات تهيج الحماسات والمشاعر. فاذا صح مثل هذا الاستنتاج فهو يشير الى انعدام ضرب من الشعر محصور في هذا المجال من النشاط الذهنى، أما المجالات الاخرى التى يقال فيها الشعر أو يكتب، فالمناخ يبقى مفتوحا لها.

اذن كان القصد مما افترضته هو أن أعيد الى الموهبة الشعرية اعتبارها المهدد من قبل من يرى للزمان او المكان أو الجنس فضلا على الموهبة، فكان في توجيهه الغاء لدور الانسان ومكوناته، وعلى وجه التحديد، الانساق العربى، وبذلك أخفقت ازهى الحدائق وأغنى الرياض والبساتين في أن تجعل عصافير الدوحة أجمل غناء من تغريد العنادل، كما لم تمنع الفلوات والقفار أسراب الحمام أن تسجع بأعذب الالحان في العودة الى الاهل والحنين الى الاوطان. لان الموهبة خلقت في أعماقها. ان انتفاء الشاعر عن وطنه يخلق منه حمامة مسجعة وان عودته اليه تجعل منه عندليبا مغردا، فهو في الحالتين شاعر، لكن موضوع فنه يأخذ أبعادا تناسب حالاته، وهى «حالات» تتحكم فيها مختلف الضغوط. فاختناق الموهبة الشعرية ليس في داخل البيئات الجغرافية المتغيرة وانما يشعر الاديب بالاختناق اذا تغيرت البيئة الثقافية فجأة بعد استقرار، وقد تكون المتغيرات قاتلة، فقد خمد صوت الشاعر الجاهلى تميم بن مقبل، وجعل شعره موقوفا

على بكاء الجاهلية في الاسلام عند شعوره بالغربة الروحية بعد انتهاء مجده الدنيوي في عهد الوثنية، فهو يذكر «تلبيات الوثنيين في الحج قبل الاسلام، وزيارات بنى عك وحمير وغيرهما للاوثان قبل أن يحل بالديار «قطا الاجباب» يرمز بها للمسلمين، وهى قطا تحط على حافات الابار المعشبة، فتنهش العشب وتسبب في ثلم حواشيها :

ومالي لا أبكي الديارِ وأهلها وقد زارها زاور عك وحميرا
أتاها قطا الاجباب من كل جانب فنقر في اطرافها ثم طيرا

وزاد من عذابه حين فرق الاسلام بينه وبين امرأة ابيه التى تزوجها على عادة أهل الجاهلية، اد يتزوج امرأة الاب أكبر ولده بعد وفاته. وأعقبت ابن مقبل اصوات شعرية متعددة خمدت بعد أن استسلمت جدران مكة وانهارت قلاعها الراسخة أمام استبسال العرب الموحدين، فلاذ شعراء عديدون بالفرار حتى هلكوا ولم يحسس لهم على أثر (16).

وبهذا، تصبح جميع موجودات البيئة، خامات أولية في مكونات الثقافة، أما الموهبة والسليقة والبديهة ، وكل ما تمنحه يد الخالق للمخلوق فهي الهام للنفس البشرية خارج حدود ارادتها، يؤكد ذلك قوله تعالى (17) : «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها» أما الجبال والبوادي والبراري والمدن والحيوان من ناقة وفرس وجمل، فانها تتحول الى اشارات ورموز ذات دلالات، يستنشق منها الشاعر ملء رئتيه ثم يتمثله في دمه ويمرره عبر قنوات حسه المرهف ووجدانه النابض وخياله الواسع. وان النظر في العوالم الشعرية يكون في درجة من البعد واختراق السجف بحيث يتجاوز الباحث حدود العالم الواقعى الملتصق بالشاعر، والذي يتناول منه الشاعر خاماته وأوليات عمله ليحقق العالم الشعري المنشود، كما يصنع علماء

---

(16) المحبر ص 325 وديوانه ص 12 وكان العرب يسمون الرجل الذى يخلف أباه على امرأته : الضيزن. قال أوس بن حجر :

والفارسية فيكم غير منكرة فكلكم لابيه ضيزن سلف

فهى شعيرة مجوسية. وأورد ابن حبيب اسم زوجة أبيه من قول ابن مقبل نفسه، وكانت تدعى دهماء :

هل عاشق نال من دهماء حاجته فى الجاهلية قبل الدين مرجوم

وذكر مثلا آخر لمنظور بن سيار الفزارى الذى تزوج امرأة أبيه مليكة وقال فيها :

ألا لا أبالى اليوم ما صنع الدهر وقد ذهبت منى مليكة والخمر

(17) سورة الشمس 47/11.

الفضاء اليوم، وهم يجمعون من باطن الارض وظاهرها مواد مركبتهم الفضائية لتنطلق عبر الاثير الى عوالم جديدة. فالشاعر القديم صانع قدير، فمن هذه المواد الاولية التى يعمل على تجميعها وتصنيفها تخرج من بين يديه صورة وفكرة وحياة .. وها هنا موضع الاعجاز في الشعر الجاهلى اذ تصبح الناقة والجمل والفرس وحجارة الطلل وخيمة القبيلة ودرعها وسيفها ورمحها وكل جرم صغير أو كبير من اجرام السماء والارض حياة وثقافة وفكرة تعبر عن هموم الانسان في الميلاد والموت والخلود والفناء. فلو لم تكن هذه الخامات هى «الحيثيات» التي منها يشيد الشاعر قصوره وقلاعه وأسوار مدنه الكبيرة، فمن أين يأتى بالمواد الاولية المطلوبة. وهذا هو عين الالتزام الذي ننادي به اليوم، وهو أيضا الاعجاز الذي نفتخر به. ألم نقل عن القرآن الكريم، ان من وجوه اعجازه نزوله بلغة العرب ومن عين معانيهم واخيلتهم ومكونات ثقافتهم وتاريخهم وما يحيط بهم، ثم تحداهم أن يأتوا بمثله ، فوقفوا مندهشين الى اليوم، وهم من هم لغة وبلاغة وبيانا، وقفوا تتوزعهم عوامل الضعف والهوان تجاه هذا الكلام الجليل المعجز، ولو فتشت في أوليات مواده لوجدتها حديثا عن حياتهم وحياة حيوانهم : بقرة أو ناقة أو فرس، ونباتهم وأرضهم وتاريخهم وقصصهم وأساطيرهم، وكانوا يعرفونها ويسمعون عنها من أبائهم، ثم في الشرائع الاسلامية الجديدة التى هى قلب الدين الجديد وسر عظمته وسيرورته .

والشعر الجاهلى يتناول بلغته وموسيقاه هذه الخامات، وكذلك شرائعه الوثنية وشعائره الرمزية وطقوسه الاحتفالية في المروءة والكرم والشجاعة والخمرة والثأر . ومن هنا ظهرت نظرية البلاغيين والباحثين الاسلاميين في الاساليب والافكار السهلة المتنعة. فجميع ما في العالم الخارجى من مظاهر الكون والطبيعة والجماد والبشر في امتزاج غريب مع الابعاد الزمنية الثلاثة والمكان وثقافة الامة، يتكامل في العقل البناء المثالى للشعر، وتتوفر في اليد المحصلة العملية له.

ومما يلاحظ على الشعر الجاهلى شدة التصاقه بمظاهر الكون والطبيعة. وبالجماد أيضا. أما الطبيعة، فمنها المتحرك ومنها الساكن الصامت. وأقرب

---

(18) يراجع كتاب تايلور للدكتور احمد ابو زيد (دار المعارف 1958).

مظاهر الحياة اليه هو الحيوان : الناقة والجمل والفرس والكلب والظبية والطير وحيوان الوحش. ومنها مخلوقات أسطورية كالسعلاة والغول وعنقاء مغرب، ومنها أثيرية كالارواح والجن والشياطين. أما الجماد فتكاد كل ظاهرة طبيعيه أو كونية تجد لها موضعا في الشعر الجاهلي. ففى الطبيعة مسايل المياه ومجاريها ومساقطها والنهران والبحار والوديان والجبال والسهول والهضاب والرمال والحصى والحجارة، حتى الحجارة المنصوبة في اعماق الصحاري (الصوى) وبقايا الطلول وآثار المدن الراحلة. وفي الكون تتجلى الرؤية العينية له عن طريق البصر، فاذا توقفت حدود الرؤية البصرية بدأت الرؤية الشعرية للكون • وقد يستعين الشاعر بالرؤية الدينية الوثنية كالتعبير بالبلية، وهى ناقة ترافق الميت في رحلته الطويلة الى العالم الثانى البعيد بعد أن يبعث وينفض التراب عن أكفانه.

قال جريبة بن أشيم الفقعسى (19) :

يا سعد اما أهلكن فانني	أوصيك ان أخا الوصاة الاقرب
لا تتركن أباك يعثر راجلا	في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح	وتق الخطيئة ان ذلك أصوب
ولعل لي مما جمعت مطية	في الهار اركبها اذا قيل اركبوا

والهار : الحشر . وقد ورد في البلية شعر كثير، قال أبو زبيد الطائى يصف نسوة مسلبات في مأتم فشبههن بالبلايا :

كالبلايا رؤوسها في الولايا	ما نحات السموم حر الخدود

وقد تكون الرؤية دينية لكن غير وثنية كما صورها أمية بن أبى الصلت في النشاط الكونى وحركة النور والظلمة، ويأتى السؤال : لماذا هذا الاندماج والامتزاج ؟ انه العالم القديم يتعاون كله من أجل الوصول الى اكتشاف السر في حقيقته الغامضة انه يبحث عن نفسه الغائبة، وهو يبحث عنها في كل زاوية من زوايا الحياة والطبيعة والكون. فالمدن التاريخية والحصون الاثرية مثلا والتى وردت في الشعر عكست ثقافة الاديب العربى قبل الاسلام وصورت الجوانب العمرانية العربية التى اصبحت بالنسبة للشاعر الجاهلى نفسه تراثا يستخدمه الشاعر بما

(19) المحبر ص 325.

يمنك من مقومات الذكاء والقدرة التعبيرية على الايحاء من خلال قصص التاريخ والعمران (20) فضلا عن كثير من النصوص التى ابرزت الشاعر العربى قبل الاسلام مناضلا ومثقفا في قضاياه المصيرية، طموحا نحو وحدة العرب التى وجدت طموحها الحقيقى في مسيرة العرب الاسلامية (21)، ثم ثقافة الشاعر العريقة بصلات امته الحضارية بالعالم القديم وبروزها في شعره (22)

والانسان بابعاده العميقة أعز منابع الالهام الفنى لدى الاديب والشاعر والفنان وبالنسبة للعربى القديم، كان الانسان، منفردا ومجتمعا، رجلا وامرأة، أشد مصادر الالهام والثقافة التصاقا بالاديب والشاعر والفنان، حتى الطفولة بوجوهها المتغيرة وتنوعها بين طفولة الانسان وطفولة الحيوان، كل هؤلاء يلهمونه في انتصاراته كما يلهمونه في هزائمه وكذلك في حبه وعشقه. وكان الانسان يحرك لواعج الشاعر في الغربة والحنين الى الاوطان. واذا اجملت معانى الالهام ألانسانى (ألبشري) للشعراء والادباء والفنانين القدماء العرب، فان الحب أنبل هذه المنابع بما يحمله من معان متعددة وصور متنوعة ومدلولات متباينة. وتفسر ظاهرة الحب بحسب منطلقاتها، لكنها، مع ذلك ، تبقى مصدر الهام عنيف للعملية الفنيـة.

وكما الهمت (الحبيبة) شاعرها، الهم (الفارس) معجبيه وعشاق نموذجه الفذ، وألهم (الامير) ممدوحيه وطلاب رفده وعطائه و (الشيخ) مريديه وطلاب علمه . وبوجه عام تعد الانسانية اروع لوحة موحية للالهام الفنى في تاريخ الثقافة العربية الاولى.

وان ما يتصل بالتاريخ الغيبى للامة، فان الشاعر يتناول نقطة صغيرة يكثفها في صورة رمز موح خاطف من تاريخ البشر الذين سكنوا

---

(20) مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ عدد خاص بتكريم الاستاذ طه باقر 1978 مقالة (بعنوان : المدن التاريخية والحصون الاثرية فى الشعر قبل الاسلام) للدكتور عادل البياتى .

(21) مجلة الجامعة ـ اصدار جامعة الموصل ـ العدد الرابع لسنة 1979 مقالة بعنوان : نضال الوحدة وأثره فى الشعر قبل الاسلام ص 10 للدكتور عادل البياتى.

(22) مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد العدد 24 سنة 79 مقالة بعنوان : صلات العرب الحضارية وأثرها فى الشعر قبل الاسلام للدكتور عادل البياتى.

بلاد العرب» .. وجودهم الروحى داخل شبه الجزيرة، وتحركهم في ارجائها، وتعاطيهم وتعاملهم معها ومع انفسهم، وانقسامهم وانقسام شعبهم وقبائلهم ثم حروبهم وعباداتهم، واندثار أمة منهم وظهور أخرى، وارتقاؤهم في الحضارة، وهبوطهم في سلم الحياة على اثر نكسة أو انهيار أو دمار. وهذه اخبار اصطلح المؤرخون الاوائل على تسميتها بقصص العرب البائدة، وما بقى من الشعر يعطى الماما بسيطا بها وبشخوصها ومواقعها أو اسماء الوقعات والاماكن. ولا يعدم الشاعر فكرة ينتزعها أو موعظة تتردد في ثنايا الاسطورة، لكنها في واقعها ذات طابع دينى جديد لانها مكتوبة بمؤثرات اسلامية، وانها افتقدت الاصل الوضعى أي اللغوي، ثم انحلت في أسلوب القصاصين ومصنفى الكتب في العصور الوسطى حيث لم ترد عن العلماء الاوائل الا اشارات واهية حولها، على عكس قصص «أيام العرب» المروية بلغة علمائها ورواتها الاوائل الذين امتدت أسانيدهم الى ما قبل الاسلام. ومع ذلك، أصاب الايام التحريف والتغيير في لغتها ومحتواها، وهى مسألة طبيعية ، حيث يصيب التغيير كل مظاهر الحياة الانسانية لتناسب شكل الحياة الجديدة. وحتى الاعمال الفصيحة (المثقفة) تتطور (أي تنتقل من طور الى طور) وتتغير الى مأثورات شعبية بسبب ما تتعرض له الامة من عوامل القهر والقسر والسلب. وقد جرى مثل ذلك على الآداب الاجنبية فتعرضت روايات شكسبير أو حياة جان دارك للتغيير عندما أخذت بعدا شعبيا. وان سيرة عنترة، وهى وثنية لا جدال، سحبت عليها غلالة زاهية من الافكار الاسلامية مع ما يكتنفها من اضافات شعوبية متأخرة.

واستطاع الشاعر الجاهلى ان يعكس لنا من معطيات هذه الاساطير اشكالا ملحمية مفقودة كالذي فعله الاعشى في قصة زرقاء اليمامة وقصة وفاء السموأل أو ما حاوله الحطيئة في قصة الكرم وما تعمقتها من التحدرات الدينية القديمة اشعيرة الكرم الوثنية قبل أن تأخذ وجهها الاسلامى الجديد، أو ما فعله النابغة الذبيانى وهو يسترجع المأثور (الفلكلور) في حكاية الراعى والافعى (23) لكن الشكل الفنى المتطور، وهو الوجه الشعري الاصيل ، قد سقط وبقى الجذر الاسطوري، خلاف

(23) تراجع القصيدة فى ديوانه.

ما في أيدينا من الملاحم العربية القديمة (السامية) التى ضاعت كعوبها الاسطورية وبقيت اهراماتها الملحمية الشعرية.

وقد التفت الباحث الاستاذ صمويل هنري هوك في كتابه : «الاساطير في بلاد ما بين النهرين» (24) الى هذه الظاهرة، فأخذ يصنف الاعمال الشعرية تصنيفا علميا باجراء عملية فرز دقيقة لها، فرد الاصول الملحمية الشعرية الى جذورها الاسطورية العراقية (السومرية) ناظرا في ألواح الملاحم والاساطير الاولى، مما ظهر لى فيما بعد أن هذه الجذور الاسطورية هى طقوس دينية تحولت الى اصول ملحمية كانت في عصرها موسمية احتفالية. واذن فقد اندثرت اساطير العرب الاولى، وغاب عنها وجهها الملحمى أيضا، ولم يحفظ الماثور الشعبى (الفلكلور) الا بقايا أو جذور القصة، وهو اصلها الاسطوري، وضاع وجهها الشعري المنشود. ولا نعرف الاسباب المختفية وراء هذا الفقدان، وان كنا نقرر، وليس ظنا أو تخمينا، انها الكتابة ومن ثم الاسلام. فانعدام التدوين أو ندرته وراء اختفاء المدونات، فلو كانت كثيرة لوصل، ولو جزء يسير منها. وما ذكره ابن سلام في طبقات الفحول من انشغال المسلمين بالجهاد وبمدارسة القرآن والحديث والسنة وما يشاع من منع مقاطع واقسام من الشعر الوثنى، وما استنتجته دراسات المستشرقين وبوجه خاص، البروفسور ريجيس بلاشير، من تحرج رواية الشعر الوثنى ، هى عوامل فاعلة بقوة في اختفاء المرويات .

لقد نفذت على الآداب العربية القديمة، وبالاخص الشعر ، عملية تصفية أو فرز قاسية جدا، يلاحظ آثارها في مطالع الدعوة الاسلامية وفي كتاب ابن سلام المذكور، وكتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) وكتابات الجاحظ وغيرهم، يضاف اليها اصلاحات لغوية وعروضية ومعنوية شملت المتون، تبدو آثارها في كتاب الحماسة لابى تمام وفي روايات العلماء الرواة وفق منهجهم الجديد للشعر وأعاريضه.

وهكذا لم يبق لدينا من مكونات الثقافة البدائية الا ترجمات رديئة جدا من لغات عربية قديمة في عهود وثنية الى لهجات شعبية في عصور اسلامية. وكان اجدادنا الاتدمون اسعد حظا منا في وقوفهم على الاساطير

(24) الاساطير فى بلاد ما بين النهرين ص 6، 28 — طبع وزارة الثقافة — بغداد 1968

السومريـــة، أصول ملاحمهم، ثم خلود ادبهم الى يومنا هذا. أما أجدادنـا العرب قبيل الاسلام، وحتى بعده، فقد ضيعنا ملاحمهم الاولى، وكذلـك الاخيرة، وضيعنا معهـا أساطيرها، وظلت تتـردد في الشعـر الجاهلى مهزوزة الصـورة وغامضة، وتلوح من خلال كلمـات الشاعـر كأنهـا أصـداء في داخل ذهنـه، كالذي يعيه عن عـاد وثمود وطسم وجديس. وبالمناسبـة فان قصة طسم وجديس أو (يـوم اليمامة)تكـاد الواحها تكون شبـه متكاملـة لدينـا، وتبـدأ بنفس الحديث الذي تبـدأ به ملحمة كلكامش. وبالامكان وضع جـدول مقارنات لتوضيح الدورة الملحميـة Cycles الثانية لهذه الملاحم العربية، مع التنبيـه الى أن «يوم اليمامة» يكاد يعد مفقـودا بالقياس الى ملحمـة كلكامش، اذ ليس لدينا منه سوى شـذرات في بطون الكتب وفي المخطوطـات (25) .

ولا أريد أن أطيل بأتحدث عن كل منابع الثقافة التاريخية في الشعـر قبل الاسلام وارتباطها جميعا بآدابنـا العربية القديمـة (السامية)، فهذا ما لا يتسـع الموضع له هنا، لكننى المـح تلميحـا سريعا الى ما ذكـره هيرودتس مثلا في تاريخه عن ثـورة حدثت في بابل، تشبه تفصيلاتها قصة الزبـاء المذكورة وانتقـام الوزير «قصير» الذي جـدع أنفه ودخل المدينة بجيش أخفـاه في جواليـق على ظهور الابـل، موهما انها تجـارة، فاحتل المدينـة (تدمـر) ، مما يعـد ربطـا لهذه القصة بقصة بابل القديمـة التى تسبـق قصة (حصان طـروادة) بزمن غير يسير. فليسـت قصة «الجواليق» متأثـرة بحصان طروادة ، بـل بما سبـق .

وأما الظاهرة الثانية البـارزة في المكونات البدائية للشعر الجاهلى، فهي تنبعث من عبـادة هذه الرمـوز المتجلية في الشعائـر الوثنية المتمثلة في المروءة والكـرم والوفاء والشجاعة ونصرة الجار والحليف والضعيـف والعفو عند الظفر والمقدرة واتـلاف المال في النحـر والعقـر والعتـر والخمر، وما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائـر التى انتهت الـى الشاعـر العربى قبل الاسـلام رموزا دخلت شعـره معنى ساميا رفع بـه قوما وحط آخرين . وفي امكان البحث العلمى الحديـث أن يجمع بـدقـه

---

(25) المنابع الثقافية الاولى — مجلة الكتاب — العدد 4 لسنة 1985 بغداد.

كل هذه المظاهر ويعيد بناءها متصلة ببعضها، فيكون بذلك قد اعطى الصورة الكاملة للبناء الاجتماعي ومنطلقاته العقائدية قبل الاسلام، بالاستعانة التامة بالفكر الاسلامي الجديد وفق مقارنات علمية ثابتة بين العقيدتين. ولم أقف الى الآن على أي وجود مادي لهذه الشعائر، ولا عثرت لها على أثر صريح في النقوش والكتابات والمخربشات القديمة، ولا استطعت أن أقف على أصنام تعزى اليها، ولست مبتئسا من هذا ولا بائسا لان آفاق العلم تنفرج كل يوم عن جديد يحمل البشرى لارباب الدراسات الجديدة، لكن طائفة كبيرة من اصنام القبائل والجماعات وما يرافقها من الطقوس والتلبيات الشعرية تعكس بوضوح ارتباط الجانب الديني العقائدي بالشعر (26). على أن الموضوعة الدينية في قائمة الثقافات القديمة العديدة للشاعر تعد اشمل هذه الموضوعات الداخلة في اطار المنابع الالهامية . فمن الضروري التنبيه الى طبيعة فاعليتها في تحريك الالهام الثقافي ضمن العملية الفنية، وذلك لتوزع الهاجس الديني في ضمير الفرد العربي قبيل الاسلام بين توازع وثنية واضحة، وبين احساسات توحيدية غامضة. فكان العربي القديم وثنيا وموحدا في آن معا، تشده الى واقعه طائفة من موروثات العقائد المتروكة في الارض العربية عن تحدرات توحيدية مغلوبة، غطت عليها معتقدات وافدة من ديانات وثنية غالبة أو منتصرة، تتمثل في هذا الصراع الخفي بين الوثني ونفسه، بما غلب عليه من ثقافة طارئة وما ورث من بقايا (الحنيفية) المطموسة، فكان ما استقر في أعماقه وما استقبل من رياح الثقافات الدينية الوافدة قد مازج وجدانه الديني واحساسه العقائدي، وانعكس في صورة من صور التعبير الفني لدى الاديب أو الشاعر، حيث تأخذ الظاهرة شكل عبادة رمزية تتجلى في شعائر وثنية ظاهرا توحيدية باطنا، تتمثل في المروءة والكرم وما ذكرناه قبل قليل من هذه الشعائر، أو ما يترتب على كل شعيرة من هذه الشعائر التى انتهت الى الشاعر العربي في موضوعة اجتماعية متوارثة يستخدمها في صيغة من صيغ المديح أو الهجاء وفي مثل هذا التوجيه يمكن أن تدرس حالة

---

(26) المحبر ص 369.

الشاعـر طرفة بن العبد وفلسفته الغامضـة في اتلاف النفس والمال معا، النفـس في الحرب ، والمـال في الكـرم والخمـرة (27).

الا ايهـذا اللائمى احضرِ الوغـى وان أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكـت يـدي
أرى قبـر نحام بخيـل بمـالـه كقبـر غوي في البطالـة مفسـد
أرى الموت يعتـام الكرام ويصطفى عقيلة مـال الفاحش المتشـدد

ويأخذ الصراع الدينى شكله الواضح في الشعر، وبوجه خاص شكـل التمـرد على الآلهة المنتصرة كما فعل كليب بن ربيعة حين أزاح عنه آلهـة العرب الجنوبيين متخذا لنفسه حمى يحمى فيه الـه قبيلته (وائل) حتى كان اليوم الذي أقبلـت فيه امـرأة يمانية استحلت حرمة الحمى الالاهـي بأن أرسلت ناقتها فتسببت في اهانـة الـه كليب حين داست على بيضات حمامـة آمنة لاذت بالحمـى، والحمامـة حتى اليوم مقدسة في هذه الاماكن فاعتبـر كليـب عمل البسوس عملا ثأريا لالـه اليمن المغلوب، فثارت حرب محلية بسببها (28). ومثل ذلك أيضا وقع لبنى عطفـان حين تمردوا على آلهـة مكة، فاضطر ظالم بن سعد بن غطفان بن قيس بن عيلان أن يخرج بالهـة الغطفانيين (العزى) من الحرم المكى وان يستقـل بها في حرم غطفانى يقال له (البس) ويعنى البيت، شيده بأرض يقال لها (حراض) فاندلعت الحرب بسيبه، فقتل ظالم بن سعد في هذا اليـوم، وهدم الحرم الغطفانى على يـد زهير بن جناب الكلبى، وبقى الحارث بن ظالم المري ابنه ينتظر اليوم الذي يستعيد فيه مجـد أبيه، فلم يستطع الا بالعـودة الى احضـان المكيين انفسهم، واتخـاذ آلهتهم آلهة لقبيلته، لذلك كان عمر بن الخطاب يقول : «لو كنت مدعيـا احـدا من العـرب لادعيت بنى مـرة» أي قبيلـه الحارث الغطفانية لنسب قديم بين القريشيين وبين المريين، يذكره الـرواة

(27) الابيات ضمن معلقة طرفة بن العبد. تراجع المعلقات السبع للزوزنى، والعشر للتبريزى.
(28) تراجع أيام امرب لجـاد المولى وجماعته.

والنسابون في كتبهم، وهذا النسب هو ما ذكرنـــاه، قال الحارث يمـدح بنى لؤى بن غالب حين دخل مكـة لائذا بحرمهـا وآلهتها (29) :

لعمـرك انتــى لاحب كعـبـــا ... وسامة اخوتى ، حبـــي الشرابا
فما غطفــان لــي بــأب ولكـــن ... لـؤي والــدي قـولا صـوابـــا
فلمــا ان رأيـت بنـــي لـــؤي ... عرفـت الـود والنسـب القرابـا
رفعـت الرمـح اذ قـالـوا قريش ... وشبهـت الشمائـــل والقبـابـا
صحبـت شظيـة منهـم بنجـد ... تكـون لمـن يحاربهـم عذابـــا
وحش رواحة القرشـي رحلـــي ... بناقتـه ولـم ينظـــر ثـوابـــا
كأن السيـف والانســاع منهـــا ... وميثرتــى كسيـن أقـــب جابا
فيــا لله لم اكســب أثـامـــا ... ولـم اهتـك لذى رحـم حجابـا

والقصيدة طويلة (30)، ويلاحظ النفس الدينى المتأثر بالمؤثرات المكية واضحا فيها، وذلك كله يعد من صميم المنابع الالهامية والثقافية الشعرية الاولـــى.

هذه إلمامة سريعة بمنابع الالهام الشعرية وقصص الايام والاخبار، وهى بحاجة الى دراسة مستفيضـــة.

(29) يراجع : الحارث بن ظالم المرى لعادل البياتى مجلة كلية الاداب — بغداد — العدد 15 ومجلة الابحاث — اصدار الجامعة الامريكية فى بيروت السنة 26 عام 1973 — 1977 مقـــالة بعنوان : نصـــان جديدان عن الدين فى الجاهلية ص 27 للدكتور احســـان عبـــاس.

(30) يمكن مراجعتها فى هذا الكتاب ضمن دراستنا عن الحارث بن ظالم.

أهم المصادر والمراجع حسب تسلسل ورودها في البحث

1 ـ مجلة الكتاب ـ اصدار اتحاد الكتاب والمؤلفين العراقيين ـ العدد الرابع لسنة 1975 .

2 ـ معجم ما استعجم للبكري ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر 1945 ويلاحظ علاقة اسم قسي بالنبات أيضا.

Webstet's New World Dictionary By David B. Guralnik New York

4 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ المعارف بمصر 1966 .

5 ـ غرر الفوائد ودرر القلائد المعروف بالامالى للشريف المرتضى. ت : أبو الفضل ابراهيم ـ مصر 1945.

6 ـ مدخل الى الادب الجاهلى ـ احسان سركيس ـ دار الطليعة بيروت 1979

7 ـ جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشي ـ طبعة أولى.

8 ـ ملحمة كلكامش ـ الاستاذ طه باقر ـ طبعة رابعة ـ وزارة الاعلام والثقافة ـ بغداد 1980.

9 ـ لسان العرب لابن منظور ـ طبعة بيروت.

10 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر 1948.

11 ـ المفضليات ـ الضبى ـ تحقيق الشيخ احمد شاكر والاستاذ عبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ طبعة رابعة.

12 ـ تاريخ الادب العربي قبل الاسلام ـ الدكتور نوري حمودي القيسى والدكتور عادل البياتى والدكتور مصطفى عبد اللطيف ـ وزارة التعليم العالى العراقية 1979 .

13 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام ـ تحقيق الاستاذ أحمد محمد شاكر مصر ـ مطبعة المدنى 1974 .

14 ـ المحبر ـ لابن حبيب تحقيق الدكتورة ايلزة ليختن اشتيتر ـ طبع دار المعارف العثمانية ـ جيدر آباد الدكن ـ الهند.

15 ـ مجلة كلية الآداب بغداد ـ عدد خاص بتكريم الاستاذ طه باقر والعدد 15 ، 24 .

16 ـ مجلة الجامعة ـ اصدار جامعة الموصل ـ العدد 4 لسنة 1979.

17 ـ الاساطير في بلاد ما بين النهرين للاستاذ صمويل هنري هوك ـ نشر وزارة الثقافة ـ بغداد 1968 .

18 ـ مجلة الابحاث ـ اصدار الجامعة الاميركية في بيروت العدد 26 لسنة 1973 ـ 1977 .

19 ـ طائفة من الدواوين والكتب تذكر عرضا في متن البحث أو هوامشه.

امـــرؤ القيـــس والقيصـــر

«نشر في مجلـــة الجامعـــة ـ جامعة الموصل
العراق ـ العدد 1 لسنة 1980

احتلت شخصية امرىء القيس بن حجر الكندي، التاريخية والشعرية معا، مكانها الناصع بين آداب العصر الحديث ، منذ وقت مبكر جدا، فعلى صعيد التحقيق ونشر النصوص، يمكن الاشارة الى أقدم نشرة طباعية أوربية لديوانه ظهرت في الغرب. قام بذلك البارون دي سلان De Slan بعنوان : «ديوان امرىء القيس» أخرجته المطابع الفرنسية سنة 1837 ميلادية ، أعقبتها نشرة الشاعر الالماني فريدرش ركرت Fr. Rucckert. بعنوان : «الشاعر الملك» اخرجته المطابع الالمانية في عام 1843 ميلادية.. ثم توالت النشرات، فكانت أبرزهن نشرة وليم اهلورد W. Lhlwardt. لدواوين الشعراء الستة الجاهليين بينهم شاعرنا امرؤ القيس طبعت بلندن سنة 1820 م، هذا عدا الشروح المختلفة لشعره والدراسات العديدة حوله (1). ولعل أبرز هذه الدراسات الادبية ما قدمه شارل بروكلمان في كتابه المعروف : تاريخ الادب العربي وريجيس بلاشير في كتابه تاريخ الادب العربي الذي يمتد حتى نهاية النصف الاول من القرن الهجري الاول. أي أنه ادخل من صدر الاسلام خمسين عاما ضمن مرحلة العصر الجاهلي. ثم هناك دراسة فون غرنباوم ورينولد نيكلسون، تضمنت أحكاما في الشعر وفحصا للقصائد وتطرقت الى امريء القيس في أكثر من موضع، وكلها دراسات مترجمة الى العربية. لكن ابرز الدراسات المحققة علميا باعتماد المصادر العربية والسريانية والاغريقية. تلك الدراسة التاريخية القيمة التى قدمها جونار اولندر Gunnar Olinder

---

(1) ينظر بروكلمان 1/97 ـ 101.

تحت عنوان : «امرؤ القيس» احتلت الفصل الثامن من كتابه المعروف : ملوك كندة من بني آكل المرار الذي ترجمته الى الانجليزية زوجته فيرا أو لندر ونشرته جامعة لندن على نفقتها عام 1927 م والى العربية الدكتور عبد الجبار المطلبي ونشرته جامعة بغداد على نفقتها في عام 1393 هـ ـ 1973 م.

وكانت أشعار امريء القيس وسيرته قد عرفت الطريق الي الغرب في العصور الوسطى على يد العلماء العرب الاندلسيين امثال الاعلم الشنتمري أبى الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى 476 هـ الذي أورد في اختياراته شعر امرىء القيس، وابن السيد البطليوسى 521 هـ وهو الوزير أبو بكر عاصم بن ايوب المعروف بشرحه لديوان امرىء القيس عدا كتبا أخرى (2). وعرفت العصور الوسطى الاوربية شخصية امرىء القيس من كتابات ابن عبد ربه 328 هـ في العقد الفريد وكتابات ابن رشيق القيرواني في العمدة (390 ـ 456 هـ).

أما الغرب القديم فقد دخل هذا الشاعر القارة الاوربية أميرا وشاعرا في وقت واحد، وساهم الغرب في نسج خيوطه الكبيرة التى امتدت من اعماق بلاد العرب. حيث كتب حروفها الاولي فوق حبات الرمل النقية وأتم سطورها في قلب العاصمة الرومانية. وأنهى المأساة نهاية دموية فوق مرتفعات الاناضول الشامخة .

واذا خيل لاحد أن يعجب من أمر، فليعجب من وصول امريء القيس الى (جوستيان) (يوسطيانس) قيصر روما. وليعجب أيضا لامر أكثر منه غرابة . لكن وقائع التاريخ تؤيده وتقره، ذلك هو قيام الروم البيزنطيين بتتويج أحد رجال العرب قيصرا عليهم حيث تبوأ العرش الرومانى باسم

---

(2) نشر شرح الاعلم عدة نشرات . وهو الذى اعتمده دى سلان فى نشره للديوان بعنوان : «نزهة ذوى الكيس وتحفة الادباء فى قصائد امرىء القيس ـ أشعر الشعراء (باريس 1837) واذا شئنا الدقة فان أول نشرة مطبوعة لديوان امرىء القيس طبعت موسومة بمختار شعر امرىء القيس ـ باريس 1836 وبأوله ترجمته وأخباره ـ وفى بمبى 1313 هـ. أما شرح الوزير أبى بكر عاصم بن أيوب ابطليوسى فقد نشرته وزارة الثقافة والفنون ببغداد فى 1979 (الجزء الاول) بعناية الاستاذ ناصيف عواد وتحت عنوان شرح الاشعار الستة الجاهلية . أولها ديوان امرىء القيس .

فيلبوس العربى 244 ـ 249 ميلادية وذلك في أثناء احتفاء الرومان بالذكرى الالفيــة لتأسيس رومــا (3).

وأخبار استعانة الملـوك والقـادة العـرب بسـواهـم مـن رجـال الامبراطوريات القديمة وجيوشها ليست غريبة في التاريخ . فقد استعان سيف بن ذي يزن بكسرى لما تفاقم أمـر الاحباش في الجنوب العربى (4) والتجأ عثمان بـن الحويرث الى قيصـر روما ليعينـه بجيش يضرب به وثنيـى مكـة ويعيد الحنفيـة التوحيدية . ديـن ابراهيم الخليل الـى سابـق عهدهـا . فلما جهـز لـه قيصر ما أراد ، عدل عثمان بن الحويرث عن غـزو بلاده وأرضه العربيــة بجيـوش رومانية. تحتلهـا وتقيم فيهـا متخذا من تـورط سيف بن ذي يـزن مـع الفرس واستبداله سيـدا بسيد درسـا بليغـا. مما أغضب القيصـر فعزم على تصفيته جسديا ، فدبر له قتلـة تشبه قتلة امرىء القيس بالحلـة المسمومة (5). مما لفـت انتبـاه بعض الباحثين الاوربيين الى هذه الظاهـرة التى تشبه الى حد كبير قصة القتل بالحلـة في أسطورة نيسوس Nessus المعروفة (6) أو على حـد تعبير بروكلمـان. المـوت محترقا لانه لبـس حلـة مسمومة كما حصـل لهرقـل الفحل اليونانـى (7). وفي اعتقـادي أن عثمان بن الحويرث أبـى أن يغزو أرضه العربية بجيوش اجنبيـة أولا. ثم انـه كان من الاحنـاف وقـد حاول القيصر أن يستغله لصالح المسيحيـة فأبـي فكان مصيـره المـوت قتلا بالقميص الحارق أو السـام، مما يـدل على أن هذا الاسلوب في تصفيـة الخصوم جسديا، كان سائعا يومئذ لـدى حكام الغرب. ويضاف الى جميـع ما تقـدم ان خبـر الرحلـة الى قيصـر لم يكن صدفـة ولا اعتباطـا بعد أن اجتمعـت كل هذه المدلولات عليـه. فلو لم يكن له أساس من الواقع لم يـرو متواتـرا بهذه الصيغـة القويـة . وسـوف تظهـر الدراسـة صحة هذه الفرضية المدعمة بعـدد وافر من قصائد الديـوان

---

(3) تراجع مقـالة «صلـة الجاهلية بالعالم القديم» للاستاذ فؤاد الخطيب. مجلـة المجمع العلمى العربى بدمشق ـ المجلـد 37 ص 394.

4 ـ تراجع أخباره فى مقـالة بعنوان : الموثبـات فى الادب العربى، مجلـة الموقـف الادبى ـ عدد خاص (يضم بحوث العددين 104 ـ 105) لسنة 1980/74 . وهى فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

(5) يراجع كتاب السيرة النبوية لابى الفداء 165/1.

(6) بـلاشـير 86/1.

(7) تـاريـخ الادب العربى 99/1.

الموثقة. وأكبر ظني أنها كانت ملحمة مترابطة الوشائج يبرز فيها امرؤ القيس بطلا قوميا، الا أن ملحمته لم تتطور الى سيرة شعبية مثل خاله المهلهل بن ربيعة (الزير سالم) ، أو عنترة أو سيف بن ذي يزن . ولم يتيسر لها أن تمتد في التراث العربي الرسمي لاسباب مجهولة .

ان أخبار «الوصول» تدعمها النصوص الشعرية الموثقة. لكن تبقى مقاطع كبيرة غامضة، واجزاء كثيرة مجهولة تحتاج الى ترميم واعادة ترتيب في بناء الملحمة العظيمة . واذا شئنا الواقع، فان فصول الرحلة لا يمكن عزلها في البحث عن فصول الولادة والنشأة الغامضة للبطل ، ولا عن فصول السيرة اللاهية العابثة ، والحياة الحافلة الصاخبة التى يسلكها امرؤ القيس في فتوته وشبابه. ولا عن فصول الثأر والفروسية وملاحم الدم والموت التى خاضها في رجولته وكهولته لدى مقتل والده الملك حجر . ان ملحمة الشاعر الضليل، أو (ذي القروح) كما سماها القدماء، ما هى الا تسمية مستمدة من رحلته الى القيصر يؤيد ذلك أنهم أطلقوا مثل هذا اللقب على عمرو بن قميئة، الشاعر الذي رافق امرأ القيس في رحلته. فدعوه باسم : عمرو الضائع، ليقابل لقب امرىء القيس وهما بمعنى واحد. فقد سمى عمرو بالضائع لانه هلك في رحلة غريبا من غير أرب ولا مطلب (8). وكذلك امرؤ القيس الذي هلك في الغربة تائها ضالا لم يهتد الى أهل ولا قوم ولا وطن. وبذلك تكون حياته قد توزعت في أربعة أدوار ، هى الولادة والنشأة الغامضة التى تعرض فيها البطل للموت على يد أبيه يوم عزم والده الملك حجر على قتله لتخلص منه لاسباب بحثت في دراسات أخرى (9)، فسلمه أبوه الى غلام من جنده ليأخذه بعيدا ويذبحه ويأتيه بعينيه برهانا على أنه فعل ذلك. فشق على الغلام أن يفعل أو خاف العاقبة، فأودع الصبى قمة جبل منيف، وعاد الى الملك بعد أن اصطاد جؤذرا وامتلخ عينيه. فلما مثل بين يدي الملك رأى الندامة والحزن في وجهه على ولده. وأما الدور الثانى من حياة الشاعر، فيبدأ بانطلاقة البطل الى

---

(8) الاغانى 39/18 تفيد بعض الروايات انه هلك فى العودة وأنه حمل جثمان امرىء القيس مع جابر.

(9) تنظر الدراسة فى كتاب أيام العرب لابى عبيدة ص 275.

مآربه وغاياته الجسدية مطرحا المجد والتاج جانبا، معبرا عن هذه العبثية الصارخة بأجمل أناشيده الوجدانية الخالدة. ثم أعقب ذلك الدور الثالث ، حيث يرتفع صوت الحرب عاليا، وقعقعة السلاح تصدح بالثار وتهدد بالدمار والموت حتى أن فرسه الموصوفة بشعر المرحلة الثانية بشدة الجري من أجل الصيد والقنص تحولت الى فرس موصوفة بقوة الكر والفر والاقبال والادبار مرهوبة الجانب مقبلة أو مدبرة وكان السيف اداة لعقر النوق المنذورة للصبايا المطيفات بآلهة الدوار في يوم «دارة جلجل» يرتمين بلحو مهن فأصبح أداة لذبح الشجعان يقدمون نذورا بشرية يطفيء بهم الشاعر دم أبيه الملك المقتول قبل أن تتحول روحه الحائرة الهائمة في الافق الى هامة كبيرة تصيح : اسقوني ، اسقوني... فان لم تسق من دماء الضحايا البشرية من الفرسان الحقت الفناء بالقبائل المتقاتلة أربعين عاما. ثم كان الفصل الاخير منهذه الادوار الاربعة هو فصل الرحلةالى خارج الوطن ثم الموت على قمة جبل (عسيب)، وبذلك تكتمل خيوط ملحمة الشاعر الفارس. وفق النموذج المقترح في ميلاد الابطال ونشأتهم وموتهم، وهو النموذج الذي بدأ بحياة كلكادش ملك أوروك ، وسرجون الاكدي منتقلا الى أوديب الملك وهرقل الجبار ليظهر مرة أخرى في حياة امريء القيس وعنترة كدورة ملحمية متصلة الحلقات بالاداب السومرية والسامية القديمة (10) ولما كان تخطيط هذا البحث قد اقتصر على رسم الخاتمة التراجيدية لحياة هذا الشاعر الكبير، فقد أرجأت التطرق الى الفصول الثلاثة لمناسبة أخرى، حتى تكتمل صورة امريء القيس، وفق هذا التصور الجديد والدراسة المعاصرة لتراث امتنا العربية الفذ.

لقد وصل امرؤ القيس في نهاية المرحلة الثالثة من سيرة حياته الى درجة الاشباع في القتل والثأر لابيه حتى ملته القبائل وعافته وقالت له : «انك قد أخذت بثأرك لابيك، ولم يبق لك في هذه الدماء البريئة المسفوكة على أرض العرب أي عذر ، وانك بدأت تتمادى في القتل، فأنت مشؤوم» وتركوه.

(10) المصدر السابق. والبطل الاسطورى والملحمى مجلة آفاق عربية العدد التاسع لسنة 1976 والطفولة ومشاهدها المتغيرة فى الادب والتراث — مجلة آفاق عربية العدد الخامس 1979 وهى جميعا بقلمنا. ونشرت فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

وكان امـرؤ القيس، بعد هجـره حياة العبث ودخوله في مرحلة الكفاح والجـد قد استيقظت في نفسه آمال المجـد الضائع ، وجعل يحلم باستعادة العـرش الذي أسسه حجر آكـل المرار جـده الاول، ويعبر البيتـان الاتيان عن هذه الاعماق المنطلقـة بوضوح، ولعله قالهمـا ضمن ما قال في رحلته ولـدى سعيـه الى استعـادة مجـده :

ولو أن ما أسعى لادنـى معيشـة كفانى، ولم أطلب، قليل من المال
ولكننـى أسعـى لمجـد مـؤثـل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالـى

وكان امـرؤ القيس قـد عرف الحياة السياسيـة لبـلاد العرب يومئذ حـق معرفتهـا فقد كـان يطمح الى نصـرة أبنـاء عمتـه من ملـــوك الحيـرة وامرائها، فلم ينجـح لان المنـاذرة سبـق لهـم أن دخلوا مـع أعمـام الشاعر في تجربة مريرة فقد سبـق لقباذ الملك الفارسى أن اعتلـى العرش، واعتنق المزدكية وسمح لاربابها، أن يتولوا حكـم البلاد فامتـد تأثيرهم الـى الارض العربيـة فوقف في وجههم الملك العربى المنـذر بـن مـاء السمـاء فخلعـوه، وجاءوا بخصمه الملـك الكنـدي الحارث بن حجـر فنصبوه على الحيرة. فالتجأ المنذر الى القبـائل العربيـة فحمـوه. فلمـا انتصر كسرى وقتل قبـاذ. عاد المنـذر الى عاصمته وعرشه. وكانت هند بنـت حجـر زوجة للمنـذر فولـدت عمرا وقابـوس والمنذر الاكبر. فهـم ابنـاء عمـة امرىء القيس (11). وكان الفـرس يومئـذ قوة، فقد غلبـوا الـروم في كثير من المواقع. حتى كان آخر نصـر لهم ابـان البعثة النبوية الشريفـة ونزلـت الآيـة الكريمة : «ألـم غلبت الروم في ادنى الارض. وهم من بعد غلبهم سيغلبـون في بضع سنين...» (12)، أما ملوك اليمن وصنعـاء وأمـراء العربيـة الجنوبية. فقد أعطوا امـرأ القيس ما قـدروا عليـه من الدعـم المـادي والحربى، ولم تكن لديهم الرغبـة في مواجهـة المنـاذرة في حـرب استنـزاف طويلة لا طاقة لهم عليهـا . فتحولـوا، وبالاخص عندما دخلت قبيلـة بنى أسـد في حلف مع المنـاذرة ضد الشاعر الموتـور، ودارت رحى حرب ضـروس بينهما وبين الغساسنـة الذين بدأوا يغازلـون الشاعـر ليوقفـوا توغل الاسديين وحلفائهم الى ما فـوق منطقة

(11) التبيـان فى شرح البطليوسى ص 148.
(12) الـروم سـورة 30.

«اقر» التى كانت تخوما غسانية لكن الذبيانيين حلفاء الاسديين كانوا يتجاوزونها وقال النابغة الذبياني في ذلك لدى شفاعته لقومه بين يدي الغساسنة (13) :

لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار
وقلت ياقوم ان الليث منقبض على براثنه لوثبة الضاري

وكانت منازل بنى اسد تقع الى الجنوب من تيماء الى الشرق من الطريق التجارية الكبرى . فكانت تؤلف تخوما شمالية للقبائل النازلة على الطريق المؤدية من ناحية الجنوب الى فلسطين وسوريا، لذلك كانت مركزا مهما لملكة كندة. وحليفا خطيرا للمناذرة وذات أثر حساس في توجه امريء القيس نحو الغساسنة ثم الغرب ، وكانت تيماء التي قصدها الشاعر ليتخذ من الشاعر السمؤال وسيطا دوليا في هذه الصفقة السياسية الحاسمة عاصمة عربية قديمة أيضا. أغرت أحد ملوك آشور (مبنو خذنصر) أن يحتلها ويتخذها عاصمة له . فكان امرؤ القيس يتحرك في أوساط حضارية بالغة الخطورة وذات فاعلية جذرية في حياة المجتمع العربى يومئذ لاسيما وأن المصادر تتحدث باطناب عن تقلب امرىء القيس في البلاد يبرم العهود مع هذا وذاك من ملوك العرب وامرائهم. وقد حاول الشاعر في هذا ان يستغل الصدام العالمي والظرف الدولي لسياسة الامبراطوريات ومطامعها في اجتياز الارض العربية ذات الموقع الاستراتيجي في الوصول الى كنوز الهند ومصادر الثروة في محيطها والجزر الواقعه فيه. وربطها بمصر ليسهل بذلك تنقلهم. وكذلك تسهيل التسويق في العربية الجنوبية ثم الى شمالها وتنشيط التبادل التجاري معهم، وتطويق الفرس الساسانيين، خصوم الروم التقليديين ولم تكن هذه الفكرة الكبقة التى سعى الشاعر الى تنفيذها قد وردت اعتداطا، وكذلك لم يكن السعي الى تنفيذها هينا. فقد سعى امرؤ القيس قبل أن يعطى لنفسه اشارة البدء والتحرك نحو القسطنطينية الى أن يوثق لنفسه عهود العودة ومواثيقها مع أحلافه، ليكونوا على هبئة الاستعداد عند دخوله بالقوة العسكرية المسلحة تسليحا حديثا وتاما، فعمل على عقد الحلف بين المتحالفين من

(13) ديوانه ص 75.

أحيــاء ربيعــة واليمن . وهى ظاهــرة تلفت اليها النظر. فقد كان امــرؤ القيس يدخل في تكتلات متنوعة تجمع نصفى الجــزيــرة المتخــاصمين وقــد قــال في ذلــك (14) :

يــا راكبــا بلــغ ذوي حلفنــــا من كــان من كنــدة أو وائـــل
والحي عبد القيس حيــث انتووا من سعــف البحريــن والساحــل
أنــا واياهــم ومـــا بينـــــا كموضــع الــزور مــن الكــاهــل

وقــد وصف الشاعــر وفــاءه بالاحلاف التى عقــدها مع القبائل وهو في طريق رحلتــه الى الــروم حيــث قــال (15) :

عليهــا فتـــى لم تحمل الارض مثله أبــر بميــثاق وأوفـــى وأصبــرا
هو المتــزل الالآف مــن جــو ناعط بنـــي أســد حزنا من الارض أوعرا
ولو شاء كان الغــزو من أرض حمير ولكنـــه عمــدا الى الــروم أنفـــرا
بكـــى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقــن أنــا لا حقــان بقيصـــرا
فقلــت له لا تبك عينــك انمـــا نحــاول ملكــا أو نمــوت فنعــذرا

وازاء هذا تكون الرحلــة قد صممت وخطط لها من جميع وجوههـــا المطلوبة. وان الهدف منها كان سياسيا عاما، وليس ثأرا شخصيا فحسب. لان الشاعــر نــال ثاره واستشفى، تؤكد ذلك طبيعة التحالفات التى حققها الشاعــر بين عرب الشمال «ربيعة» وعرب الجنوب «اليمــن» مما يدل على عمــق المشاعــر وحجم الطمــوح الذي كان يــراود خيال الشاعر في خلــق أمــة واحــدة من نصفــى البــلاد المتنازعين تقليديــا عبر الدهــور الغابرة، وكانت مملكة كندة تشكيلا وسطا في بلاد العرب. فلم تكن لها تحالفات ولا ارتباطــات خارجية رومية بزنطية ولا فارسية ساسانية ولا أثيوبيـــــه حبشية وان كانت الحبشة ملحقة عقائديا بالسياسة الرومانية. فقد قاموا في عــام 522 م بعد موافقة أسيــادهم بغــزو اليمــن وهزموا آخر ملوك حميــر، مما يمهــد لظهور الملحمة القومية الاخرى لطرد الاحبــاش. وهــى ملحمة الفــارس الثائــر سيف بن ذي يــزن عندما أعــاد الفرس الى الملوك المخلوعين روح القتال لطرد الاحباش تنكيــلا بالــروم الا أن حكما فارسيا جائــرا خيم على البــلاد أيضــا في عــام 575 م لم يستطع العــرب طردهم

(14) ملحق ديوان عمرو بن قميئة ص 85.
(15) ديوانـــه ص 56 (ق 4).

الا بعد ستين عاما أو نحوها حيث كانت معركة ذي قار ثم القادسية ثم غزو بلاد الفرس في عقر دارها من قبل الثوار العرب. لقد حافظت مملكة كندة على قسط وافر من استقلاليتها ونهجها العربي فكانت المرشحة قبل غيرها في خلق الامة الواحدة . وكان امرؤ القيس قد لمس ذلك، فسعى الى استثماره والاستعانة به. ويفيدنا باحث معاصر بقوله (16) : لقد كان العرب في ذلك الزمن الغابر، كلما ضاقوا ذرعا بالمسيطر عليهم من غير بني جنسهم فزعوا الى خصمه. ولذلك سافر امرؤ القيس الى القسطنطينية بعد مقتل ابيه مستصرخا القيصر (جوستنيان) على بني أسد وعلى المنذر ملك العراق. فوعده القيصر خيرا ثم عرض عليه أن ينصبه أميرا على فلسطين. فابى تلك الامارة وكر راجعا الى نجد ومات بأنقرة. واذا كانت الرواية الدارمية (عقال بن دارم) المدعمة بالرواية الكلبية (هشام بن محمد الكلبي) قد اتهمت من قبل القدماء انفسهم بأنها رواية يهودية (17) بسبب ما يذكر عن عقال بن دارم ونسبه المتصل بنسب السموال بن عادياء الذي يقال انه ذو أصول يهودية، وان كانت المصادر الاخرى ردته الى أصل غساني، وبسبب ما يقال عن ابن الكلبي من رده الى أصول مشابهة، حملت الاثنين على تبني اتجاهات شعوبية غير مؤكدة. فان هذه (الرواية الدارمية، الكلبية) قد اقتصرت من ملحمه الرحلة على ما يتعلق بامريء القيس والسموأل فقط، ودور الاخير في عملية الوساطة الدولية التى قام بها لدى الحارث بن أبى شمر الغساني (الحارث الاعرج) وتكليفه لايصال الشاعر الى القيصر، ولا يضير رواية الرحلة أن يكون فيها هذا المقطع الذي ترجحه روايات أخرى لاخباريين ثقات من امثال ابن قتيبة الدينوري (18) وابن سلام (19) وقد ذكره محمد بن حبيب (20) والزمخشري [21] ونقله عنهم البغدادي (22) وكان أبو عمرو الشيباني (210 هـ) قد صور هذا المقطع بالصورة نفسها، تؤيده في ذلك روايات الدواوين، ديوان امرئ القيس وديوان عمرو بن قميئة وديوان عبيد بن الابرص

(16) صلة الجاهلية بالعالم القديم ص 404.
(17) الاغاني 98/9.
(18) الشعر والشعراء 108/1 — 109 — 118.
(19) طبقات فحول الشعراء 279/1.
(20) المحبر 349.
(21) المستقصى من آداب العرب 435/1.

وديوان الاعشى الذي صور قصة وفاء السموأل وامتناعه عن تسليم أسرة أمرئ القيس وسلاحه بعد فشل الرحلة ولا يوجد دليل على كذب الرواية ، كما لا يوجد ما يدعو الى الحذر من قبولها. لا سيما أن القول بيهودية السموأل يشوبه شيء من الشك أما اذا برز الوفاء كصفه رمزية قوية في شخص السموأل الى درجة الاسطورة، فليس ذلك بمستغرب منه ولا بعيد منه لانه ولد وعاش بين العرب وتخلق بأخلاقهم. وعلق كاتب عربى معاصر على هذه الظاهرة فقال : خالف السموأل غدر أهل دينه ووفى بعربيته (23) أو (عروبته). وتقول اجماع الروايات ، ان الشاعر بعد أن استعان ببعض أبناء عمته من المناذرة وعمومته من بنى كندة وقومه من اليمنيين والحميريين والحضرميين والمرثديين وقبائل الشمال الحليفة، لجأ الى جبلي طيء (أجأ وسلمى)، فوقعت الحرب بين الطائيين أنفسهم بسببه لان المنذر ابن ماء السماء بعث في أثر امرئ القيس جيشا فلجأ الى المعلى، وكان في طيء، ثم في بنى جذيلة، ثم أحد بنى ثعلبة، وكان سيدا منيعا، فمنعه من أن يصل اليه المنذر، فقال امرؤ القيس (24) :

فما ملك العراق علي المعلى	بمقتدر ولا ملك الشام
أصد نشاص ذي القرنين حتى	تولى عارض الملك الهمام
أقر حشا امرئ القيس بن حجر	بنو تيم مصابيح الظلام

وقد ذهب ونكلر Winkler الى أن المعلى هو جبل وان ذا القرنين هو آله الرعد (24)، ثم خرج من فوره ذلك، حتى جعل المنذر يطلبه في كل مكان. فنزل برجل من بنى فزارة يقال له عمرو بن جابر من مازن . تشير الاحداث الى أنه يعمل لحساب الروم، وهو امر غريب لان فزارة من حلفاء الاسديين فهو اذن على غير هوى قومه، عميل رومى أو صنيعه من صنائعهم، رافض للسياسة الفارسية في البلاد فطلب الشاعر من هذا الرجل أن يجيره حتى يرى ذات عيبه (أي يصلح من شأنه وأمره) فقال له الفزاري (25) :

(22) خزانة الادب 212/4.

(23) ينظر الهامش رقم (2) من حاشية كتاب طبقات فحول الشعراء 379/1 تحقيق الاستاذ محمود شاكر.

(24) ديوانه ص 212 (ق 46) وأولندر ص 168 وقد أشار الى مقالة (ونكلر).

(25) الاغانى 96/19.

- يا ابن حجر، انى أراك في خلل من قومك وأنا أنفس بمثلك من أهل الشرف، وقد كدت بالامس تؤكل في دار طيء وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم، وبينك وبين أهل اليمن ذؤبان من قيس. أفلا أدلك على بلد ؟ فقد جئت قيصر وجئت النعمان (26) فلم أر لضيف نازل ولا لمجتد مثله ولا مثل صاحبه.

قال امرؤ القيس :

- من هو وأين منزله ؟

قال :

- السموأل بتيماء. وسوف أضرب لك مثله. هو يمنع ضعفك حتى نرى ذات عيبك وهو في حصن حصين، وحسب كبير.

قال له امرؤ القيس :

- وكيف لي به ؟

قال :

- أوصلك ألى من يوصلك اليه.

فصحبه الى رجل من بني فزارة يقال له الربيع بن ضبع (ضبيع) الفزاري (27) ممن يأتي السموأل فيحمله ويعطيه. فلما صار اليه قال له الفزاري :

- ان السموأل يعجبه الشعر .فتعال نتناشد له أشعارا.

فقال امرؤ القيس :

- قل حتى أقول

فقال الربيع :

قل للمنية أي حين نلتقي ‏ ‏ ‏ بفناء بيتك في الحضيض المزلق

(26) كان المنذر بن ماء السماء هو الملك يومئذ. وكان النعمان بن المنذر وأخواه عمرو وكذلك الاسود امراء فى مملكة ابيهم. ولعل السهو من الراوية أو الناسخ.

(27) أحد الشعراء المعمرين. ذكره السجستانى فى كتابه. وقد كان له موقف حاسم فى وضع النهاية السليمة لحرب داحس والغبراء فى مفاوضات الصلح بسوق عكاظ (يراجع كتابنا فى حرب داحس والغبراء) وتنظر دراستنا عنه فى آداب المستنصرية العدد 10 وفى هذا الكتاب ضمن (شعراء جاهليون).

وهى طويلـة يقـول فيهـا (28) :

لقد أتيت بنـى المصـاد مفاخرا والى السمـوأل زرتـه بالابلـق
فأتيـت أفضل من تحمل حاجـه ان جئتـه في غـارم أو مرهـق
عرفـت له الاقـوام كل فضيلـة وحوى المكـارم سابقا لم يسبق

فقـال امـرؤ القيـس :

طرقتك هند بعد طـول تجنـب وهنـا ولم تك بعد ذلك تطـرق

وهى قصيدة طويلة (28) فوفد الفزاري بامرىء القيس الى السموأل، فلما كانـوا ببعض الطريـق ، اذا هم ببقـرة وحشية مرمية. فلما نظـر اليها أصحابه قاموا فذبحوها . فبينما هم كذلك اذا هم بقوم قناصين من ثعـل، فقالوا لهم، من أنتـم ؟ فأنتسبـوا لهم واذا هم من جيران السموال. فانصرفوا جميعـا وقال امـرؤ القيـس :

رب رام من بنـى ثعـل مخرج كفيـه من قتـره

وهى طويلة مثبتة في ديوانـه، يمـدح بهـا براعـة بنى ثعـل في القنـص والصيد. ثم مضى القوم حتـى قدموا على السموأل، فأنشـده وعرف لهم حقهم فأنزل المرأة في قبـة أدم، وأنـزل القوم في مجلس لـه بـراح، فكان عنده ما شـاء الله ثم انـه طلب اليه أن يكتب لـه الـى الحـارث بن أبـى شمـر الغسانـى بالشـام ليوصله الى قيصر، فاستنجد له رجلا ، واستودع عنده المرأة والادراع والمال. وأقـام معه يزيـد بن معاويـة بن الحـارث، ابـن عمه. وقد صورت قصيدته الرائيـة جانبـا من رحلـة الطريق وهى طويلـة جدا، وتبـدأ بقولـه (29) :

سما لك شوق بعدما كان أقصرا وحلت سليمى بطـن قو فعرعرا

وفيها يذكـر طائفـة من أسماء المواضع العراقية والمدن الشاميـة، ثم يذكـر حنين رفيقه عمـرو بن قميئة وبكـاءه، وهى حافلة، يصـور

---

(28) هذا تعليق الاصفهانى. ولم يصل من القصيدة سوى هذه الابيات . أما قصيـدة (رب رام من بنى نعل) فهى فى شرح الاعلم وفى شرح البطليوسى ص 285.
(29) الديوان ص 56 (ق 4) وشرح البطليوسى ص 178.
(30) اللسـان مـادة (قرمل) وشرح البطليوسى ص 230.

فيهـا جزع أم عمرو على ولدهـا وانقلاب بعض صحبه عليه، وكان عمرو قـد قال لامرئ القيـس : غـدرت بنـا :

أرى أم عمرو دمعها قـد تحـدرا — بكـاء على عمرو وما كان أصبرا
اذا نحـن سرنا خمس عشرة ليلة — وراء الحساء من مدافـع قيصـرا
اذا قلت هذا صاحب قـد رضيته — وقـرت به العينان بدلت آخـرا
كذلك جدي ما اصاحب صاحبـا — من الدهـر الاخاننـى وتغيـرا

وبلغت ستيـن بيتـا .

وتفيدنـا هذه القصيدة التى قيلت في طريق الرحلة، وذكرت مواضـع غسان انها تطرقت الى تجاراتهم وعطورهم وما وقعت عليه عين الشاعـر من وديان وجبال ، ثم الحنين الى (الاهل الصالحين) في البيت التاسع عشر أعقبه حديث صريح لبلوغه (حوران) وقـت الفجـر حيث يغلـف الضباب أجواءها الرطبة، ثم اجتيـازه لمدينة (حمـاة) و (شيزر) حتى يتطـرق الي رفاقـه الذين خذلـوه في الرحلة ولم يستمروا معه. لان شمس ملكـه قـد جنحت الى الغروب فيتذكـر ملك بنى حجـر آكل المرار قبـل أن يغزوهم (قرمل) وذكر في القصيدة اسـم رجل من الروم يقال له ابن جريج ويبـدو أن الروايـة التى تقول أن امـرأ القيس قد حمل الـى الروم عبر البريد . رواية صحيحة. الان الطريق بعد اجتياز الاراضى الشامية يصبح وعرا وخطيرا وموحشا، وصفه امـرؤ القيس بجوف الحمار. وقد ذكر أمـرؤ القيس رحلته الاناضولية على البريـد في شعـره (31) :

ونـادمـت قيصـر في ملكـه — فأوجهنـى وركبـت البـريـدا
اذا مـا ازدحمنـا علـى سكـة — سبقـت الفرانـق سبقـا بعيـدا

وبين أيدينـا شعر لعمـرو بن قميئة يذكـر فيها اسم مدينة روسية كانت ابنته قـد بكت عندما وصلت الركائب اليهـا. وهي مدينة (ساتيدما) التى يذكر البكري وياقوت أنه جبل متصل من بحـر الـروم الى بحـر الهند يقال انـه سمي بذلك لانه ليس من يوم الا ويسفك عليه دم، وكان قيصـر قد غـزا كسرى. وأتى بـلاده على غـرة له حتى انصرف عنـه.

(31) الشعر والشعراء 158/1 — 121 وينظر ديوانه نشرة الاستاذ حسن السندوبى

واتبعه كسرى في جنوده، فأدركه ساتيدما، فانهزموا مرعوبين مـــن غير قتال (32). قال عمــرو .

قــد سألتنــي بنــت عمرو عن الا | رض التــى تنكــر أعلامهـــــا
لـمــارأت ســاتيدمــا استعبرت | للــه در ـ اليوم ـ من لامهـــا
تذكــرت أرضا بهـــا أرضهـــا | أخوالهــا فيهــا وأعمــامهــــا

هذه هى الاشارة الوحيدة لاجتيــاز الرحلــة آسيــا الصغــرى.

وبهذا الخبــر تكون عائلة عمرو بن قميئة بما فيهم ربهــا قد استنزفت دموعا غزارا في هذه الرحلــة لان امرأ القيــس صــور بشعره دمــوع عمرو وأم عمرو وصــور عمرو بشعره دمــوع ابنته في منطقـــة (ساتيدمـــا). وهذا يفســر لنــا جملــة أشيــاء .

أولهــا أن الرحلة كانت تضم اليها عوائل المرافقين. وأن بعضهـــم خرج مخدوعا حقا. وهى روايـــة الديــوان والاغانـــى وكتاب من سمي عمرا من الشعراء لمحمد ابن داود الجــراح (33) وتعقيب مؤرج السـدوسـى على الخبر يؤيــد ذهابه بخدعــة عن اسحــق بن مرار الشيبانى : نــزل امرؤ القيس ببكر بن وائــل (حلفائــه) وضرب قبته، وجلس اليه وجــوه بكــر بن وائــل . فقــال لهــم :

ـ هل فيكــم أحــد بقــول الشعــر ؟

فقــالــوا :

ـ ما فينا شــاعر الا شيـــخ قد خلا من عمــره وكبر

قــال :

ـ فأتونــى بــه .

---

(32) ديوان عمرو بن قميئة (مجلة معهد المخطوطات العربية) القاهرة 1385هـ. 1965م. ص 182 وفيــه عرض واف للموضع المذكور وديوانه أيضــا بتحقيق وشـــرح الاستــاذ خليل ابراهيم العطية ص 73 نشر وزارة الاعلام العراقية 1972 وينظر معجم مااستعجم 711/3 ويذكر أن ساتيدمـــا نهر وقيل موضع. ولعل قوله أن هذا الجبل «ساتيدما» سمى بذلك لانه لا يمر عليه يوم الا ويسفك دم جاء من ملاحظته الاسم : (ســاتى دمــا) كأن الجبل يقول ذلك وهو توجيه غريب ان كان هو المقصود.
(33) ديوانه (نشر وزارة الاعلام) ص‍ـ68 والاغانى 139/18.

فأتــوه بعمرو بــن قميئـــة وهو شيخ، فأنشده، فأعجب به، فخـــرج به معه الى قيصر، وايـــاه عني امرؤ القيس بقوله :

بكى صاحبــي لما رأى الــدرب دونه ... الابيــات

قــال مؤرخ السدوســى في هذا الخبر : أن امــرأ القيس قــال لعمــرو ابــن قميئـــة في سفـــره :

ـ ألا تركــب الى الصيــد ؟

فقــال عمــرو :

شكوت اليــه أننى ذو جـلالـــة ... وأنــى كبير ذو عيــال مجنــــب
فقال لنا : أهلا وسهلا ومرحبـا ... اذ سركم لحم من الوحش فاركبوا

فأوهمه أنه يستصحبــه في رحلـــة صيــد وقنص، ثم صار به بــلاد الــروم. ولم يكن عمــرو مستعدا لمعاداة المنــذر بن مــاء السماء. وهــو الذي مدحه بقصيدة مثبتـــة في ديوانه (34). وبدخول عمرو بن قميئـــة عنصــرا جديدا في القصة تكون الرحلـــة قد ضمت شاعــرا ثالثــا بعــد امرىء القيس والربيع بن ضبع الفزاري، عدا ماأوردناه عن الشاعر السموأل.

اذن فقد انطلق امــرؤ القيس سالكا طريقا غير طريق القوافل المألوف. لعله يحاذر أن تقــع عليه عيون اعدائـــه من المناذرة وغيرهم. أو يتجنــب الظهــور أمام حــراس الحدود من مختلف الامارات، فأخذ الــدرب المباشر مــن (تيمــاء) مغادرا القصر الابلــق، قصر السموأل، متجها نحــو (بصرى) وهو درب استحدثه الرومان البيزنطيون لاجتناب المــدن التى كانت تجبي فيها المكوس (35). ومما يؤيد سلوكه هذا الطريق ذكره لبريد القيصر في شعره كما مثلنـــا. وكانت تيماء يومئذ منتجع القوافـــل التجاريـــــة الكبرى. ومركزا عظيما للعالم القديــم منذ عهد الآشوريين والفراعنة. فكانت تصـــل بين بابــل والحجاز عن طريــق (حائـــل) وتصل بابـــل بمصـــر عن طريق (معان) و (أبلة) و [سينـــاء] وبغـــزة عن طريق [أبلـــة] وبفلسطين عن طريق تراجــان وبسوريـــا عن طريــق الصحـــراء الذاهبة رأســـا الى

---

(34) ديوان ابن قميئة (نشر الاعـــلام) ص 69 (ق 15).
(35) صلـــة الجـــاهلية ص 496 وينظر المفصل في تاريخ العرب 348/7.

(بصرى) (36). هذا الى جانب طرق أخرى تربط تيماء بالعالم العربى، ولكن امرأ القيس أحذ طريق (بصرى) وذكرها في شعره لدى رثائه لرفيق رحلته الحارث بن حبيب السلمي. كما ذكر مدنا أخرى كانت في طريقه مثل (حوران) الواردة في رائيته التى تحدثنا عنها. وفيها أيضا تصوير خروجه من البداوة الى الحضارة وذكر اسم أمه (تملك) :

الاهل أتاها والحوادث جمة ... بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

ولدى اجتيازه شعاب بصرى ووديانها. تعرضت الرحلة لافدح فاجعة أثرت في نفس امرىء القيس، وهى وفاة رفيق رحلته الحارث بن حبيب السلمي ، وعندئذ توقف الشاعر قليلا يواريه الثرى ويرثيه (37) :

توى عند الودية جوف بصرى ... أبو الايتام والكل العجاف
فمن يحمى المضاف اذا دعاء ... ويحمل خطة الانس الضعاف

ويبدو أن الحارث كان من خيرة من يعتمدهم امرؤ القيس لانه ذكر آخرين تغيروا عليه فضلا عن انهيار عمرو بن قميئة وبكائه.

ويعكس شعره الذي قاله في طريقه الى الغساسنة تناقضا في المشاعر والعواطف التى يحتفظ بها لملوك غسان. فهو في طريقه يرمز الى خؤولتهم يعز بعزهم ويذل بذلهم. وذلك قبيل دخوله عليهم (38) :

تقول لي ابنة البكري لما ... عزفت عن الصبا واللهو بالا
أرى الملك الذي قد كان فينا ... يفيد رغائبا ويغيث مالا
ويعطى القينة الحسناء تروي ... نداماه ويضطلع الثقالا
ويضنى العرمس الوجناء حتى ... تشكى بعد كدنتها الكلالا
ويصحبهم ململة رواحا ... مع الاشراق أحياء حلالا
ويغدو في البطالة مسبكرا ... تخال به اذا وافى هلالا
تبدل بعد جدته شحوبا ... وأصبح حبله خلقا مدالا
فقلت لها وقول الحق مما ... يميل ولو عدلت به الجبالا
ألم يحزنك أن الدهر غول ... هتور العهد يلتهم الرجالا
أزال من المصانع ذا نواس ... وقد ملك الحزونة والرمالا

(36) صلة الجاهلية. 496.
(37) الديوان ص 347 (ق 90) والانس الناس.
(38) الديوان ص 308. [ق 75]

وانشب في المخالب ذا خليل — وللزراد قد نصب الحبالا
وفجع كندة الاخيار طرا — بعمرو فاصطفى حجرا فزالا
وبينا كان في الاحياء طورا — رماه الدهر من كثب فمالا
أبعد شنوءة الابطال أرجو — ليان العيش أو أبغى احتيالا
فان تك دار أل الازد زالت — فكل الناس ينتظر الزوالا
وان تهلك شنوءة أو تبدل — فسيري أن في غسان خالا
بعزهم عززت وان يذلوا — فذلهم أنالك ما أنالا

وكان هذا في طريق مسراه وممشاه الى غسان لكن بعد خروجه منهم تغيرت فكرته عنهم ولم يلق منهم ما يشجعه على الاعتقاد بهم وليست هذه سياستهم بل هى السياسة الدولية التى فرضت عليهم ألا يغالوا في نصرة امريء القيس، لان الفرس كانوا قد انتصروا على الروم في آخر معركة لهم، وان الامبراطور (جستنيان) لم يكن متحمسا للقتال كما سنرى بعد قليل. فكان هذا العامل في طليعة العوامل التى احبطت عملية الرحلة. وقد عبر أمرؤ القيس بشعره عن هذه الحقيقة (39) :

بان الملوك فأمسى القلب مرتابا — من هؤلا الناس عاشوا بعد أحزابا
ما ينكر الناس منا حين نملكهم — كانوا عبيدا وكنا نحن أربابا
نحن الملوك وأبناء الملوك لنا — ملك به عاش هذا الناس أحقابا
انى سأملككم بالروم اذ كرهت — غسان نصري وكان الملك أسبابا
او ترجعون كما كنتم لنا خولا — حتى تدينوا لنا طوعا وأتعابا

ويلاحظ الدارس في شعره لهذه المرحلة ، مرحلة اليأس من الغساسنة. ووضع الامل في الروم، انه اصبح حزينا يتعالى منه صوت اليأس يمتزج بفلسفة معتمة وحكمة مغلقة لا ترى للحياة أبوابا بل بابا واحدا يفضى الى الفناء الابدي كما أفضى بمن سبقه من رجال الفكر والسياسة أمثال جد العرب الاكبر ابراهيم الخليل وأمثال أعمامه وبالاخص شرحبيل الذي شهد امرأ القيس بعينيه مصرعه في يوم الكلاب. وقد أشارت الى ذلك قصيدته بكل وضوح، وهى البائية المثبتة في ديوانه (40) :

---

(39) الديوان ص 279.
(40) الديوان ص 97 وشرح البطليوسى ص 250 وروى المطلع بشكل مغاير قليلا.

أرانـــا مـوضعيـن لامـر غيـب ونسحر بالطعــام وبالشــراب
عصـافيـر وذبـــان ودود وأجـرأ من مجلـدـة الذئـــاب
وكل مكـارم الاخـلاق صـارت اليــه همتـى وبــه اكتسـابـى
فبعـض اللـوم عاذلتـى فانـى ستكفينـى التجـارب وانتسابى
الـى عـرق الثرى وشجت عروقى وهذا الموت يسلبنـى شبـابـى
ونفسى سوف يسلبهـا وجرحـى فيلحقنـى وشيكـــا بالتــراب
الـم امضـى المطـى بكل خـرق أمـق الطـول لمــاع السـراب
وأركـب في اللهـام المجـر حتـى أنــال مآكـل القحـم الرغــاب
وقـد طوفـت في الآفـاق حتـى رضيـت من الغنيمـة بالايــاب
ابعـد الحـارث الملـك بن عمرو وبعـد الخيـر حجـرذي القبـاب
أرجـى من صـروف الـدهر لينا ولم تغفـل عن الصـم الهضـاب
وأعلـم أننـى عمـا قليـــل سأنشـب في شبـا ظفر ونــاب
كمـا لاقـى أبـى حجـر وجـدي ولا أنســى قتيـلا بالكـــلاب

وســار امـرؤ القيس بقافلته المجهولـة وموكبه الملكـى المشـرد، تحميـه حـراب الفساسنـة العرب والروم البيزنطيين حتى انتهى الـى قيصـر. تقول رواية الديـوان (41) : فاستأذن أمـرؤ القيس عليه، وكان رجـلا جميـلا، وكان قيصر لا يدخل عليه أحـد الا سجـد له، فقيل له : ان امـرأ القيس لا يسجد لـك لانه ملك في قومـه، وهو عار عندهم. وكان لقيصـر مجلس له بابان أحدهما واسع والآخر ضيق، فأذن لـه من الباب الضيـق كى يطأطأ رأسه فيكـون شبه السجود، فدخل امـرؤ القيس منه موليـا ظهره فسلـم فأعجبه جهارته، وقال بالرومية : «طيثالس» أي : مـا تريد ؟!.. فأعلمه مـا لقـي، وأنه يستمد على العرب فبعث معه جيشـا. وكان الطماح بن قيـس الاسدي عند قيصر، وكان منه بمكـان. فقال في نفســه لما ســار امرؤ القيـس بالجيش : انى خائـف على العرب أن يكون هلاكهـا في ظفـر هذا الجيـش. ومعرفتهم بـلاد العرب، وما فيها مـن الاموال والخيل والنســاء . فاحتال لــه، وقال لقيصر : أهلكت جيشـا بعثته مع هذا المطرود الذي قتل أبوه وأهله ، ومـا تريد الى نصـره ؟ وكلما قتل العرب بعضهم بعضا كان خيـرا. قال القيصـر :

(41) وينظر أيضـا تاريخ اليعقوبى 1، 180 حيث ذكر مديح امرىء القيس للقيصر لكنـه لـم يستشهـد بشعـر هذا المديـح.

فما الـرأي ؟

قـال الطمـاح :

ـ الـرأي أن تـدرك الامر ، وأن تـرد جيشك وتـرده، وتبعث الـى امـريء القيس بحلـة مسمومـة .

ففعل، وعزم على امريء القيس أن يلبسها، وأخبره أن ذلك عن رضا فيه فدخل امرؤ القيس الحمام، فأطلى فلبسها وقد رق جلـده ولحمه، ورد قيصـر جيشه. وبقـى امـرؤ القيس يعالج قروحه، ثم قدم أنقـرة فكان فيهـا حتـى مات. وفي ذلـك يقـول :

الا أبلـغ بنى حجر بن عمـــرو ... وأبلـغ ذلـك الحـى الحـريـــدا
بـأنى قـد بقيت بقـاء نفـــس ... ولـم أخلـق سلامـا أو حديـدا
فلـو أنـى هلكت بـدار قومـى ... لقلـت المـوت حـق لا خلـــودا
ولكنـى هلكتـت بـأرض قـــوم ... بعيـد من دياركـم بعيـــــدا
اعالج ملـك قيصـر كل يـــوم ... وأجـــدر بالمنيـة أن تعـــودا
بـأرض الـروم لانسـب قريـب ... ولا شـاف فيسنـد أو يعـــودا
ولـو وافقتهـن علـى أسيـــس ... ضحيـــا أو وردن بنـــا زرودا
على قلـص تظـل مقلـــــدات ... أزمتهـن مـا يعـذفـن عـــودا

هذه روايــة الديوان ولا تختلف عن بقيــة الروايات سوى أنها جعلت الطمــاح بن قيس الاسدي حين وشــي بامريء القيس لدى القيصر وطنيا قوميــا شديد الغيرة بشعبه العربى. وهذا يذكرنا بروايـــة مقتل عثمان بن الحويرث الذي تحدث عنه في أول هـذه الدراســة. وكيف تراجـع عـن قراره في استصحاب جيش رومى الى أرض وطنه. فانتقم منه القيصر بالحلـة المسمومـــة أو القميص الحارق. لكن الفـرق بين امريء القيــس وعثمــان . أن الاول عـزم على استصحاب الجيش مهما كانت النتائـــج، فكانت المراجعة من قبل غيـره. أما عثمــان فقـد راجع هو نفســه، وثنى عزمه عن استصحاب الجيش. أما الروايــات الاخرى فقد زعمت أن الطماح ابن قيس أقبل بوفـد الى القيصر جستنيـــان، وكـــان حجر أبو امرىء القيس قـد قتل أبا الطمــاح الاسدي (42)، فأرسلتـه بنـو أسـد ليثأر

(42) الشـعر والشـعراء 108/1 ـ 109.

لابيـه وقومه ويبطـل هذه العملية العسكرية التى كان فيها فناء الاسديين. وان كنت اعتقـد أن الامـر بالنسبـة لامريء القيس أصبـح مختلفا. فهو هنا أشبـه بالبطـل القومى سيـف بن ذي يـزن الذي عـزم على طـرد الاحبـاش مستعينـا بالفرس . فكان عـزم امريء القيس أن يطرد الفرس مستعينـا بالروم، ليتم له اخضاع البـلاد باسرها تقول رواية ابن قتيبة في الشعـر والشعراء : ثم بعث معه جيشـا فيهم أبنـاء ملـوك الروم، فلمـا فصل الجيـش قيـل لقيصـر :

ـ انـك امددت بابنـاء ملـوك أرضك رجلا من العرب، وهم أهل غـدر، فاذا استمكن مما أراد وقهـر بهم عـدوه غـزاك.

فبعـث اليـه قيصـر مع رجل من العـرب كان معه يقال لـه الطمـاح بـن قيس الاسـدي بحلة منسوجة بالذهب، مسمومة. وكتب اليه : «انـي قـد بعثت اليـك بحلتـى التى كنت ألبسهـا يوم الزينـة، ليعرف فضل منزلتـك عندي، فاذا وصلت اليك فالبسها على اليمن والبركة، واكتب الى من كل منـزل بخبـرك» فلما وصلت اليه الحلـة اشتد سروره بها، ولبسها، فأسرع فيه السم، وتنفضي جلـده، والعرب تدعوه : «ذا القروح» لذلـك وبقولـه :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة   فيالـك نعمى قد تحولن أبؤسا

أما روايـة الاغانى (43) فقد ذكرت الخبـر قريبا من خبر ابن قتيبة مع بعض الاختلاف تقول الروايـة «.. فمضى حتى انتهى الى قيصر فقبله وأكرمـه. وكانت له عنده منزلة فاندس رجل من بنى أسـد يقال لـه (الطمـاح) وكان امـرؤ القيس قد قتل أخا لـه من بنى أسـد. حتى أتـى بـلاد الروم فأقام مستخفيـا. ثم ان قيصر ضم الى امريء القيس جيشا كثيفـا. وفيهم جماعة من أبناء الملـوك . فلما فصل الجيش، قال لقيصر قـوم من أصحابه ان العرب قوم غـدر. لا تأمن أن يظفر بما يريد. ثـم يغزوك بمن بعثت معه وتدلنـا هـذه العبـارة الاخيرة في روايـة الاغانى على سـر آخـر في فشل الحملـة غير ما ذكرنـاه. وهو أن القيصر بعـث مـع امريء القيس جماعـة من الملوك والامـراء من أصله وأقربائه يريـد

(43) أبـو الفـرج الاصفهانى 19 ـ 69.

التخلص من منافستهم له في مملكته. الا أن خلصاءه والاوفياء له نصحوه بأن لا يفعل. لان هؤلاء سيكونون في الخارج قوة، ثم يأتون بجيش فيغزون القيصر. وهذا معنى قول الرواية «.. ثم يغزونك بمن بعثت معه» وتستطرد رواية الاغانى : «وقال ابن الكلبى : بل قال الطماح لقيصر :

- ان امرأ القيس غوي عاهر، وانه لما انصرف عنك بالجيش، ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها. وهو قائل في ذلك أشعارا يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك». فبعث اليه حينئذ بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب وقال له «اني أرسلت اليك بحلتي التى كنت ألبسها تكرمة لك فاذا وصلتك فالبسها باليمن والبركة واكتب الي بخبرك من منزل الى منزل»

فلما وصلته اليه لبسها واشتد سروره بها. فأسرع اليه السم وسقط جلده فلذلك سمي ذا القروح ، وقال في ذلك :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه	ليلبسني مما يلبس أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية	ولكنها نفس تساقط أنفسا

وهذه الاضافة في رواية الاغانى نقلا عن ابن الكلبى وسواه من الرواة قد فتحت آفاقا جديدة أمام القصة وسبب فشل الحملة العسكرية، وهو أقوى سبب، لان الحب في القضايا المصيرية، والمرأة في الامور الحربية قد تكون سببا حاسما في تغيير القضية نحو وجهة ثانية. وبالاخص ما يتعلق بامريء القيس ونزوعه القوي نحو ممارسة الحب ونوازع الجسد، وظاهر الامر أن الشاعر لم يتطرق الى هذه القضية في شعره أبدا. وهناك اعتراض آخر. هو أن القيصر (جوستنيان) لم ينجب ولم يخلف لا بنين ولا بنات، فمن أين وردت قصة الحب الملتهب التى جاءت في رواية أخرى تقول (44) ولم يزل يطلب النصر حتى خرج الى قيصر فدخل معه الحمام فاذا قيصر أقلف (45) فقال (46) :

اني حلفت يمينا غير كاذبة	انك أقلف الا ما جنى القمر
اذا طعنت به مالت عمامته	كما تجمع تحت الفلكة الوبر

(44) الشعر والشعراء 109/1 .
(45) أقلف : أى لم يختتن.
(46) الديوان ص 280.

وبصرت به ابنــة قيصر فعشقته. فكان يأتيهــا وتأتيه. وطبن (أي فطن) الطمــاح بن قيس الاسدي لهمــا. وكان حجر قتل أباه، فوشــى بــه الى الملــك، فخرج امــرؤ القيس متسرعا، فبعث قيصر في طلبه رسولا، فأدركه دون أنقــرة بيــوم ومعه حلــة مسمومة فلبسها في يوم صائــف. فتناثــر لحمــه وتفطــر جســده. وكان يحمله جابــر بن حني التغلبــى (شاعر آخر) ومعــه عمــرو بن قميئــة كما يذكر البطليوسى في شرحه (47) فذلــك قولــه (48) :

فاما تريني في رحالة جابــــر على حرج(49) كالقر تخفق أكفاني
فيــارب مكــــروب كــررت وراءه وعان فككت الغــل عنــه ففداني
وفتيــان صدق قد بعثت سحــرة فقاموا جميعــا بين عاث ونشوان

وهذه الرواية لها عــدة مدلولات ، وعليها جملة تعليقات. ومنها ستخرج بضعة استنتاجات ، فأما جابر بن حنى التغلبى فهو أحد الشعراء الذين اختار لهم صاحب المفضليــات (50) وترجم له المرزبانى (51). وكــان استصحاب امريء القيس لــه أمــرا غريبا لانه كان ممن خاض مع قومــه حــرب (الكلاب الاول) ضد شرحبيل عم امــريء القيس الذي خاضها امرؤ القيــس معه ضد أعدائه. ورأى بعينــه عمه وهو يقتــل. وكان شرحبيــل من أحسن أعمامــه عليه وقــد استشهدنا قبل قليــل. يقول الشاعــر في بائيتــه : «ولا أنســى قتيلا بالكــلاب» فكيــف طابت نفس الشاعر الى صحبة رجل ساهم في هزيمــة عمه وقتلــه. وهذا هو جابــر بن حنــي التغلبى في مفضليته يفخر بنصرهــم في يــوم الكــلاب وبــأبى حنــش الــذي قتــل شرحبيــل الملــك الكنــدي :

وقــد زعمت بهــراء أن رماحنــــا رماح نصارى لا تخوض الى الدم
فيــوم الكلاب قد أزالــت رماحنا شرحبيل اذ آلى أليــة مقســـم
لينتزعــن أرماحنــا فأزالـــــــه أبو حنــش عن ظهر شقاء صلدم
تنــاوله بالرمــح ثــم أنثنى له فخــر صريعــا لليدين وللفـــم
وكأن معادينــا تهــر كــلابــــه مخافــة جيش ذي زهــاء عرمرم

(47) شــرح البطليــوســى ص 239.
(48) الديوان ص 89 [ق 9] وشرح البطليوسى ص 237.
(49) الحــرج : النعــش.
(50) المفضليات ص 208 (ق 43).
(51) معجم الشعراء ص 206 — 207 وقصيــدة امرىء القيــس فى الــديوان ص 9 [ق 9] وشرح البطليوسى ص 237.

ان جابر بن حنى التغلبى عدو الامس أصبح صديق اليوم ورفيق الرحلة . بل أصبح صديقا وفيا لازمه حتى آخر لحظة من حياته. وحمل نعشه بيده كما سبق أن استشهدنا في نونيته التى مطلعها (51) :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
ذكرت بها الحى الجميع فهيجت عقابيل سقم من ضمير وأشجان
فسجت دموعى في الرداء كأنها كلى من شعيب ذات سح وتهتان
اذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان
فاما تريني في رحالة جابر على حرج كالقر تخفق أكفانى

الى آخر القصيدة وهى من قصائد الشعراء الذين رثوا أنفسهم في حياتهم، وليس غريبا في السياسة أن يتحول العدو الى صديق والصديق الى عدو. فقد كانت الحرب شديدة بين الاخوين شرحبيل وسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي بعد أن مات أبوهم الملك. فسار شرحبيل في بنى بكر ومن معه من القبائل فنزلوا الكلاب. وهو ماء بين الكوفة والبصرة. واهتبل سلمة بن مالك فرصة سانحة هجم بها على الملك شرحبيل فقتله ثأرا لولده الذي قتله شرحبيل في يوم سابق (52) واذن فقد كان جابر بن حني من مؤيدي أحد أعمام امريء القيس ضد عمه الآخر وأن تغلب صالحت امرأ القيس وناصرته في شدته فيما بعد. فيكون جابر معذورا في صداقته اليوم وعداوته بالامس. فهو ينطلق من مبدأ ثابت وان كان ظاهر الحال يبرزه مبدأ متناقضا أو شاذا أو متذبذبا. ويلاحظ من كثرة الشعراء المرافقين للرحلة. كان امرأ القيس يصحب رفدا شعريا الى الروم، ولعله في ذلك قصد الى اشياء لم نكن نعلم ماهيتها. أو أن هذه الملحمة البطولية اختارت هذا الحشد من الشعراء لقصد فنى فيها لم نعرفه لعدم تكاملها وضياع أكثر أجزائها ومقاطعها . وتفيد هذه الرواية ـ رواية البيتين اللذين وصفا القيصر بأنه لم يختتن ـ بعمق الصلة ومدى المعاشرة الوثيقة بين الشاعر والقيصر. حيث كانا يقضيان أكثر وقتهما سوية حتى عند اغتسالهما ودخولهما الحمام واطلاع الشاعر على اسرار بيت

(52) يراجع كتاب أيام العرب لابى عبيدة 400/1 ـ 403 (يوم الكلاب الاول) .

القيصـر ومملكتـه حتى فوجىء بـه أقلـف لم يختتـن. فكانت بالنسبـة للشاعـر مفاجـأة، لان الشاعـر يدين بمذهب العرب القديم. وهو بقايـا التوحيد الحنفى . ديـن ابراهيم الخليل. وان كـانت الوثنية قد غطت جانبـا كبيرا من شعائـر التوحيد ثم قـام الاسـلام على ذلك مع اضافات توحيديـة واسعة وطقوس سماويـة جديدة (53). وقـد أثـر المشهد في نفس الشاعر فقال فيه شعـرا وصل الينا منه البيتان المذكوران. وقـد انتقلـت الروايـة مباشرة بعد ذكـر الصـورة الجنسيـة للبيتيـن الـى ذكر ابنـة القيصر وهى تراقب الشاعر يستحم مع والدها عاريـا فتلتفـت الى الفـرق بين والدهـا الاقلـف وبين الشاعـر المختتـن فينشأ التواصل العاطفـى بين الاثنيـن الى مرتبـة العشق وكان ابن قتيبـة دقيقـا في تعبيره لان (العشـق) يعنى في اصطلاح العلماء المختصين بهـذا الحقـل : حب الجسـد. أما لفظـة (الحب) فهو اصطلاح قد يسمـو على الجسـد ويصل الى مرتبـة العذريـة. ثم تذكر الروايـة أنها كانت تأتيه يحملها الاعجاب بجمالـه الذي نوهت به روايـة سابقـة . وما تنبهت اليـه وهو يستحم . لكن يبقى الشك دائرا في كيفيـة وقـوف الفتـاة العـذراء على مزايـا الفـرق بين الاقلـق والمختتن. ان لم تكن قد جربت ذلك هنا يبـرز تسـاؤل آخـر سبـق أن نوهنا به أيضـا. وهو أن قيصر جستنيان كان عقيمـا لم ينجب (54). فمن تكون هذه الابنـة التى تذكرها الروايـة ؟ اننا في هذه الحالـة لا نرجح أن تكون فتـاة عـذراء من بنـات الامـراء الـروم لان حالـة مثل هذه تستوجب أن يكون عنصـر التجربة السابقة قـد شارك في الحالـة، إذن هناك احتمـال كبير، أن تكون امـرأة متزوجة من القيصـر أو غيره ذات علاقـة سابقـة بأحد العـرب أو من هم يختتنون مثلهـم. قد فطنـت الى القضية فاذا قلبنـا صفحات سيرة الامبراطـور (جستنيان) (يستنياس) وجدنـاه قد تعرف في حيـاته الى امـرأة ذات

---

(53) تراجع دراسـتـان منفصلتـان فى هذا الموضوع بقلمنـا فى مجلة آداب المستنصرية العدد الخاص بالهجرة لسنة 1980 بعنـوان : الهجرة والشعر. والعـدد الخـامس بعنوان : شعر الاحناف وهى واردة فى هذا الكتاب.

(54) القيصر وامرؤ القيس. مقـالة فى مجلـة المجمع العلمى العربى بدشمق 317/17 لسنة 1942 بقلـم نجيب الارمنازى ومقـالة اخرى بالعنوان نفسه فى مجلة المسـرة. المجلـد السابع ص 228 بقلـم حميـد الحيرى الانطاكى (وقد وفقنا فى الحصول على الاولى. وتعذر علينا الحصول على الثانية).

مـاض فعشقهـا وعاشت في كنفه خليلـة وعشيقة. ثم استطاعت بعدهـا أن تكون خليلـة وزوجة. تلك هى المـرأة المشهـورة في التاريـخ باسـم «تيـودورا» التى لم تكـن من أصل بيزنطـى بـل يقـال أنها ولـدت في سوريـة . وأن تاريخهـا حافل بالعجائب التى تشبه الاساطير وقد عاشت دور المراهقـة بين بـلاد الشـام وبين القسطنطينيـة حيث يسير بهـا آباؤهـا لتحصيل الـرزق. فكانت ترافـق والدهـا الذي عمل حارسـا لبعـض الحيوانـات في أحـد ميادين اللعـب. وترافـق أمها التى كانـت تعيش في هذه البيئـة المتردية فلم تكن تعرف بالفضيلة أو الشـرف حتى أنهـا كانت تـرى في جمال ابنتها الشابـة المراهقـة ثـروة لا تعـادل. فنشأت تيـودورا بين صفوف المغنين والراقصين ومروضى الحيوانـات واللاعبين في حلقات السيرك وخشبة المسرح. فكانت تتردد على الملاهـى الليليـة والنوادي الخاصة حتى غـدت علامة بـارزة في المجتمع من علامات اللهـو والعبث وكانت تفخـر أنها لم تبلـغ العشرين حتى أحبها جميـع الرجـال وأبغضها جميع النساء (55). يقـول بروكوب مؤلف التاريـخ السري وهو يتلظـى حسـرة وغيظـا على الفضيلة الملطخة بالعـار انه لـم يكن يشاهدها رجل وقور حتى يشيح بوجهـه مخـافة أن يلحقـه الاذى من لقـاء شخص مثلها غـارق في حماة الرذيلة وكـان يصفها بالوضـاءة والحسن. وقد عشقها أحـد ولاة افريقية فاستصحبها ثـم عادت الـى الاسكندرية فبـدأت تعـدل عن الغواية شيئا فشيئا الى الزهد والعبـادة، فالتقى بها في القسطنطينية القيصر جو حستينان (ياستيانس) فأفتتنصته بجمال فتنتهـا وأضحت له خليلـة. مما يـدل على أن مظهـر النسك الذي اتخذته لنفسها كـان احبولة من حبائلها لاصطياد القيصر فلما تزوجتـه تحولت الى داهيـة من دهـاة السياسة فكانت مرجعا لزوجها القيصـر في شؤون المقاطعات الشرقية كالشـام ومصر تتصل بأبناءهـا وتعرف منهم ظروفها وأسرارها وكـان القيصر محبـا لهـا ـ غيورا عليها ـ حتى أنها كانت أقوى منه شخصية فذلتـه وسيطرت عليه بسبب ضعفه نحوهـا حتى أنه في احـدى المـرات اتهمته بالجبـن ازاء بعـض الاحداث الخطيرة التى مـرت بها الامبراطورية على اثـر ثـورة تشبت في القسطنطينيه. وازاء ذلـك فهـى ذات علاقات سابقـة برجال عرب وقد تكون سمعت عـن

---

(55) المصـدر السابق مقالة نجيب الارمنازى).

امريء القيس وشخصيته الجذابة زاد من ذلك أنها بعد وقوع نظرها عليه وهو يستحم مع زوجها قد عشقته بفعل ما جربت من علاقاتها السابقة مع العرب ولذلك كان اتصالها به ممكنا، لان القيصر كان يستشيرها في أمور العرب التى كانت تعرفها بشكل تفصيلى ودقيق فيجب اذن أن تكون قد وقع شيء من التعارف السابق ثم متنته روابط البقاء في القصر مما أثار في ذهن «تيودورا» خيالا شرقيا جربته في أثناء سيرتها الاولى، وبالاخص كونها ذات ماض، ويوجد في حياة امريء القيس ما يؤكد اتجاهه في نوازعه الجنسية نحو السيدات المتزوجات في قصيدتيه الطويلتين : المعلقة والقصيدة اللامية، حيث يصف في المعلقة اقتحامه لمخدع زوجة حسناء، بل يشير صراحة حين يخاطبها:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعا فألهيتها عن ذي تمائم مغيل

ويصف الحراس المدججين بالسلاح حول قصر منيف على قلعة منيعة، لكنه يدخلها بشجاعته المعهودة أما في لاميته المطولة : «الاعم صباحا أيها الطلل البالى» فهو يقول (56) :

سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله انك فاضحى ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت : يمين الله ابرح قاعدا و لوقطعوا رأسى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي أذلال
وأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال
ايقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولعل هذه الملاحظة الدقيقة ، ملاحظة النسيب العربى الذي يقال في عشق النساء المتوزجات هو الذي دفع بالباحث المستشرق بورداخ Burdach أن يرجع النسيب العربى الى شعر القصور اليونانية بالاسكندرية. كما هو الحال عند شعراء ملوك الاسكندرية وقد تصور بورداخ انتقال هذه الصناعة الى العرب عن طريق شعراء الملوك في الشام

(56) المصدر السابق وتراجع الابيات فى شرح البطليوسى ص 116 وذكر احسان سركيس فى كتابه (مدخل الى الادب الجاهلى ص 233 أن الشاعر تغزل بزوجة القيصر) ولم يذكر مصدرا لذلك.

والعراق. الا أن المستشـــرق كارل بركلمان (57) رد عليه هذا الزعم بـأن مثل هذه الابيات الغزلية التى تشبه النسيب في مطالع القصائد وان لم تبلـغ بعـد نمـوا كاملا. يعرفها أيضـا شعـر القبائل التكرية في أوائـل القصائد المطولـة وفي أواخرها. ومهما كان نصيب رد بركلمـان من الصحة، فان حالـة امريء القيـس الخاصـة تبقـى مؤشرا ينتظر معلومات جديدة أتى بها المجهول وتبقى ظاهرة تيودورا وانتقالها بين الشـام والاسكندرية والقسطنطينيـة وملاحقة الشاعر امريء القيس بالنسيب للسيدات المتزوجات ظاهرة تجتذب اليها أكثـر من مؤشر، وتعيد النظر في طبيعة شعر امـريء القيس كله، وعلاقته بأطوار حياته التى ذكرناها في أول هذه الدراسة.

ثم تمضى المصادر في اتمام الخاتمة المأساوية التى رسمتها له الاقدار على يـد الاسديين الذين كانت سيوفهم سببا في ازالـة مملكة كنـدة ، ومما تجدر ملاحظته أن اسـم الطمـاح الاسدي ليـس الا وصفا له ورد في شعر امرىء القيس نفسه تناقلته المصادر حيث قال في سينيته المشهورة :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسنى من دائه ما تلبسا

قال شـارح الديـوان : الطمـاح رجل من بنى أسـد اسمـه حبيب ويقال منقذ الاسدي (58) وبذلك يكون اسمه حبيب أو منقد بن قيـــس الاسدي وأول السينيـة المذكـورة :

ألما على الربع القديم بعسعسـا كأنى أنـادي أو أكلـم أخرسـا
فلو أن أهل الدار فيها كعهدنـا وجـدت مقيـلا عندهـم ومعرسـا
فلا تنكرونـى أننى أنا ذاكـم ليالـى حـل الحي غـولا فألعسا
فاما تريني لا أغمـض ساعـة من الليـل الا أن أكب فأنعسـا
وبدلـت قرحا داميـا بعد صحـة لعل منـايـانـا تبـدلن أبؤسـا

ويقـول فيهـا :

تأوبنـى دائـى القديـم فغلسـا أحاذر أن يرتـد دائى فأنكسـا
فيـارب مكـروب كـررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا
ويـارب يوم قد أروح مرجـلا حبيبا الى البيض الكواعب أملسا
يرعن الى صوتـى اذا ما سمعنه كما ترعوي عيط الى صوت أعيسا

(57) تاريخ الادب العربى 62/1.
(58) الديوان ص 105 (ق 13) وشرح البطليوسى 264.

أراهـن لا يحببـن من قل مالـه	ولا من رأين الشيب فيه وقوسا
وما خفـت تبريح الحياة كما أرى	تضيق ذراعـي أن أقوم فألبسـا

ثم يذكـر قروحه التي سببها له الطمـاح لكنه لا يتطـرق الى ذكـر الحلـة المسمومـة أما الفعل (لبس) الذي ورد في البيت (ليلبسنى من دائه ما تلبسـا) فلا يشيـر حقيقة الى عمليـة اللبس المعروفة، لانه يحتمـل المجاز في العملية ، وبالاخص أنه أتبعه بالفعل (تلبس) بتضعيف الباء، مع أنه اشـارة ولو طفيفـة الـى لبـس الحلـة المسمومـة ، وتذكـر المصـادر سينيـة أخرى يذكر فيها قروحه التـى يشبهها بالنقرس. لعله لا يعـرف بأن المرض الذي أصابه كان بسبب الحلة، وانما كان يعتقـد بأنـه مرض قديم عـاد اليه. وقـد نوه الى دائـه القديم في السينيـة السابقـة : «أحاذر أن يرتـد دائـى فأنكسا. كأن الشاعر كان يشكـو من مرض قديم، وهو النقرس الذي عـاد اليه الان وانتشـر في جسمه فأصبـح لانتشـاره يبـدو وكأنه يرتـدي جبـة (59) :

لمـن طلـل دائـر آيـه	تقـادم في سالـف الاحـرس
فأمـا تريتـى بـى عـرة	كـأنـى نكيـب مـن النقـرس
وصيـرنـى القـرح في جبـة	تخـال لبيسـا ولـم تلبـس
تـرى أثـر القـرح في جلـده	كنقش الخواتم في الجرجس(60)

ومما قالـه في جبل عسيب، وكان محمولا في النعش، فرأي قبر امرأة من بنات ملـوك الروم فسأل عنها فأخبر بقصتها، وكانت قد هلكـت بأنقـرة (61) .

أجارتنـا ان المزار قـريـب	وانـى مقيـم ما أقـام عسيـب
أجارتنـا انا غريبـان هـاهنـا	وكـل غريـب للغريب نسيـب
فان تصلينـا فالقرابـة بيننـا	وان تصرفينـا فالقريـب غريـب
أجارتنـا ما فات ليس ينـوب	وما هو آت في الزمـان قريـب
وليـس غريبا من تنـاءت ديـاره	ولكن من وارى التـراب غريـب

---

(59) الديوان ص 339 [ق 80].

(60) الاحرس : جمع حرس وهو الدهر. والجرجس. الصحيفة.

(61) الديوان 357. 454 والشعر والشعراء 109/1 والاغانى 96/9

قــال أبو الفــرج . «ثم مات فدفن الى جنــب المرأة، فقبـره هناك، كان الرواة أبوا أن يتركـوا الشاعــر دون امــرأة في عالمــه الثانى كما لم يتركـوه في حياتــه وقــال أيضا عند موته (62) :

لقد دمعت عيناي في القر والقيظ وهل تدمع العينان الا من الغيظ
فلما رأيــت الشر ليس ببـــارح دعوت لنفسى عند ذلك بالغيظ(63)

وقــال لمــا حضرتــه الوفــاة بأنقــرة (64) :

رب طعنــة مثعنجـرة (65) وجفنـــــة متحيـــــــرة
وقصيـدة محبـــــــرة تبقـــى غـــدا بـأنقـرة

قــال ابــن الكلبــى : هذا آخــر شــىء تكلم به، ثم مــات »(66) :

ولما بلغ السموأل موت امرىء القيس ، رفع ما خلــف عنــده من السلاح وغيره الى عصبتــه (اي ورثته) (67) فلما ذاع خبــر موته. تحــرك الملــك الغسانى وهــو الحــارث نحو تيمــاء حتى طــوق القصــر الابلــق مطالبــا بتركة الشاعر الملك باعتبــاره اصبح من التابعية البيزنطيـــة وباعتبــار الحارث حامى الحــدود الرومانية ، فامتنــع عليه السمــــوأل بحصنــه الابلــق، وهو مشهــور بمنعته وقد غزتــه الزبــاء ملكة الجزيــرة فعجزت عنه وعن حصن مــارد أيضــا. فقالت : تمــرد مــارد وعز الابلــق فارسلتهــا مثلا. وكأن يقال لــه الابلــق الفــرد (68) تقـــول الروايــة : وكان امرؤ القيس بن حجر أودع السموأل بن عادياء أدراعا مائة. فأتاه الحارث بن ظالم (70) ـ ويقال الحارث بن ابى شمــر الغسانى ـ ليأخذها منه، فتحصن منه السموأل، فاخذ الحارث ابنا له غلاما وكان في الصيــد فقــال :

أما ان سلمــت الادراع الى واما قتلــت ابنــك.

---

(62) الديوان ص 357 [ق 98].

(63) الغيظ : خروج الروح.

(64) الديوان ص 349 (ق 94) ورويت في الاغانى 96/19 والشعر والشعراء 119/1 ببعــض الاختــلاف.

(65) مثعنجــرة : ســائلــة منسكبــة.

(66) الشعــر والشعــراء 119/1.

(67) المصــدر الســابــق.

(68) تاج العروس مــادة (بلق) .

(69) طبقــات فحول الشعراء 279 والاغانى 118/9.

فأبـى السموأل أن يسلم اليـه الادراع . فضرب الحـارث وسطـه بالسيف فقطعه قطعتيـن فقـال السموأل في ذلـك :

وفيـت بذمـة الكنـدي انـــى اذا مـا ذم أقـــوام وفيـت
واوصى عاديـا يومـا بـأن لا تهـدم يـا سمـوأل مـا بنيـت
بنـى لـى عاديـا حصنا حصينا ومـاء كلمـا شئـت استقيـت

وكان الشاعر (أعشى قيس) قـد هجا رجلا من كلـب، فاغار هـذا الرجل على قوم قد بـات فيهم الاعشى. فاسر منهم نفرا وأسر الاعشى وهو لا يعرفه، ثم جاء حتى نزل بشريح بن السموأل بن عادياء الغسانـى صاحب تيمـاء يحصنه الذي يقـال له الابلـق. فمر شريح بالاعشـى فنـاداه الاعشـى :

شريـح لا تتركنـى بعد ما علقت حبالك اليـوم بعد القد أظفـاري
قد جلت ما بين بانقيا الى عدن وطال في العجم ترددي وتسياري
فكـان أكرمهـم عهـدا واوثقهـم مجـدا أبوك بعـرف غـير انكار
كالغيـث ما استمطروه جاد وابله وفي الشدائـد كالمستأسد الضاري
كن كالسموأل اذ طاف الهمام به في جحفل كمزيـع الليـل جـرار
اذ سامه خطتى خسف فقال لـه قل ما تشـاء فانى سامع حـار
فقـال غدر وثكـل أنت بينهمـا فآختـر وما فيهمـا حظ لمختـار
فشك غير قليـل ثـم قـال لـه اقتـل أسيـرك انى مانع جاري
فاختـار ادراعه كى لا يسب بهـا ولم يكن وعـده فيها بمختـار

فجـاء شريـح الى الكلبـى فقـال :

ـ هـب لـي هذا الاسيـر المضـرور.

فقـال :

ـ هـولـك .

---

(70) الحارث بن ظـالم أحد أوفيـاء العرب، وكـان يومئذ هاربا من وجه الملك المنذر مـاء السمـاء فلاذ بالملك الغسانى (تنظر دراسة عنه بقلمنـا فى مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد، العدد 15). وقد أورد ابـن قتيبـة فى الشعر والشعراء 118/1 اسمـا آخـر غـير الحارث بن ظـالم أو الحارث الغسانى وهو الحارث بن مالك ، ولا نعرف عنه وراء اسمه شيئا وقد أعيدت سيرة الحارث بن ظالم فى هذا الكتاب أيضا.

(71) بانقيا : ناحية من نواحى الكوفة.

فأطلقــه وقـــال

ـ أقــم عندي حتـــى أكرمــك وأحبــوك

فقــال لــه الاعشـــى :

ـ ان من تمام صنيعك أن تعطينى نــاقة نجيبة وتخلينى الساعة. فأعطــاه ناقــة فركبهــا . ومضى من ساعتــه .

وبلــغ الكلبى أن الذي وهب لشريح هو الاعشى. فأرسل الى شريح :

ـ ابعث الــى الاسير الذي وهبت لــك حتى أحبــوه وأعطيه.

فقــال :

ـ قــد مضــى .

فأرســل الكلبــى في أثــره فلــم يلحقــه.

واذا كان أبــو الفــرج قد أشـــار الى قبــر امريء القيس الى جوار الاميرة الرومية وقــال انه هناك على جبل عسيــب. فقــد أشـــار اليه البحتري أيضــا لمــا مدح المأمون في احدى غزواته الصائفة حيث قال :

وأزرت الخيــول قبــر امرىء الـ ـقيس سراعــا فعدن منه بطاء

فــرأى الخليفــة المأمــون قبــر الشاعــر بنفســه .

ويقال ان الاغريــق أقاموا تمثالا على قبــر امريء القيس. كما كانــوا يفعلــون في تكريم أحد كبار القــوم . وان الخليفة المأمون قد رأى هــذا التمثال في أنقــرة (72) ويقال ان قيصر الــروم لما بلغته وفاته أمر فنحــت له تمثــال نصبوه على ضريحه . وان أحد أصدقاء يوسف اليان سركيس وهو الفونس بليط الحلبــي الذي سكن أنقــرة عدة سنوات قد رأى هامة هذا التمثــال بأنقرة قــرب دار السراي في سنة (1895 م) (73). وورد في تاريخ ابــن عساكــر (74) . أن امــرأ القيــس كان في اعمــال دمشق . وأن (سقــط اللــوي) و الدخول و حومل و توضح و المقــراة الواردة في مطلع معلقتــه اماكن معروفة بحوران ونواحيها. وهذا يؤكد ما ذكرنــاه لــدى

(72) أولندر ص 174.

(73) معجــم المطبوعات العربية والمعربة ص 471.

(74) الجزء الثالث ص 104 نقل ذلك صاحب معجــم المطبوعات (ص 471.)

حديثنا عن المرأة تيودورا التى رجحنا أنها كانت المرأة التى تعرضت لامريء القيس وعشقته وكانت سببا في فشل حملته، واقتراحنا اعادة النظر في قصائده التى فيها نسيب بالسيدات المتزوجات. وهى قصائد لاتخلو من مؤشرات يونانية عن طريق قصور الاسكندرية.

واشارة ابن عساكر الى هذه الوظيفة تعد أقدم الاشارات العربية. أما المصادر اليونانية فقد أورد بركوبيوس Procopius ونذوز Nonnosus أن رجلا يدعى قيسا Kaisos. سيد كندة كان أحد الزعمان العرب الذين زاروا القسطنطينية وذلك في عهد القيصر جوستنيان Justinianus ولاشك أن رواية ننوز ذات أهمية كبيرة لانها تعاصر الاحداث وأن والد ننوز كان من رسل القيصر الى الملك وكذلك بالنسبة لبروكوبيوس. وقد فحص أولندر تطابق أسماء (قيس) و (امريء القيس) فحصا دقيقا. كما فعل جلازر Jlasser مثل فعله. ولعل ما ذكره ابن عساكر عن قيام امرىء القيس بمهام أعمال دمشق هو الذي يطابقه ما قال به جلازر من أن امرأ القيس اعتلى منصبا في فلسطين . وأما اسم يزيد Le zidos الوارد في رواية ننود والذي ترك له امرؤ القيس امارته فهو نفسه الذي ترك معه ابنته وثروته في الابلق وهو يزيد بن معاوية بن الحارث ابن عم الشاعر (76) وان كان أولندر (77) قد رجح في هامشه. نقلا عن المحبر أنه يزيد بن سلمة وكان أحد جراري العرب ممن يقود ألفا. لكن الرواية التى رجحناها أقرب الى ما ذكر ننوز وقد افترض اولندر أن اقامة الشاعر في جوار القيصر جوستنيان قد امتدت الى بضعة أعوام، وافترضنا أيضا أن يكون موته في عام (540 م) على وجه التقريب. وهو افتراض ورد عند غيره أيضا (78). وبذلك يكون موت الشاعر امرىء القيس معلقا بذمة الرومان. لان السياسة الخارجية البيزنطية قد اقتضت ذلك. فقد كانت روما تدفع الجزية الى الفرس فلم يكن من مصلحتها أن تفرط بهذه الهدنة مع أعدائها من أجل عربى طموح يسعى الى مجد قومه ونفسه. لذلك رأت السلطة الرومانية

(75) ملوك كندة ص 174 وما بعدها.
(76) الاغانى 69/9.
(77) ملوك كندة 179.
(78) أورد مثل هذا التاريخ كتاب المفصل 531/9 نقلا عن علماء آخرين عرب ومستشرقين

تصفيته جسديـا، وبالاخص ما ذكرنـاه عن جستنيـان حيث مست قضية الشاعر أعز مقدساته. وعرضت حبـه لتيودورا لمهب الريح. وهو الـذي ركع تحت قدميها أعوامـا طوالا وسلمهـا مفاتيح مملكته . يضاف الى ذلك ما عـرف عن جستنيان من المراوغـة والخـداع في حياته السياسيـة والخاصة الامر الذي جعل قضية امرىء القيس تتحول الى مأساة شخصية ودوليـة معا. وبذلك يكون امرؤ القيـس قد عـرف خفايا أرضه العربيـة يـوم عـزم على توحيـد القبائـل واستعـان بقـوة خارجية رغم ارادته. لكنه جهل خفايـا السياسة الدولية والتحول الطارئ في موازين القوى بين الشـرق والغرب، وطبيعة الغدر التى جبل عليها المحتلون والطامعون مـن الشـرق والغرب فذهب الشاعر الحالم ضحية هذا الواقع الملغـوم. وذهبت قضيته في أدراج الرياح. لكن بقيت أجـزاء ومقاطع من ملحمته الخالـدة انشودة عذبة على شفاه الاجيال الطالعة ترددهـا في كل حين.

مصــادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ تاريخ الادب العربى ـ كارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ الجزء الاول ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر 1968.

٪ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ـ طبعة ثانية 1964.

3 ـ شرح الاشعار الستة الجاهلية للوزير أبى بكر عاصم بـن أيـوب البطليوسى ـ تحقيق الاستاذ ناصيف عواد ـ نشر وزارة الاعـلام العراقية 1979.

4 ـ مجلة المجمع العلمى العربــى 974/17 ـ 407. 487 ـ 500 مقـالة القيصر وامرىء القيس.

5 ـ مجلة الموقف الادبى ـ العددان 104 ـ 105 كانون الاول 1979 وكانون الثانى 1980 دمشق ـ مقالة بعنوان : الموثبات في الادب العربى ، للدكتور عادل جاسم البياتى.

6 ـ تاريخ الادب العربى ـ ريجيس بلاشير ـ ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلانى ـ وزارة الثقافة ـ دمشــق.

7 ـ السيرة النبوية لابى الفداء اسماعيل بن كثير ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ القاهرة 1384 هـ ـ 1964م.

8 ـ كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ـ نسخة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية.

9 ـ كتاب أيام العرب لابى عبيدة ـ تحقيق ودراسة للدكتور عادل جاسم البيــاتى ـ دار الجاحظ ـ بغداد 1976.

10 ـ مجلة آفاق عربية العدد 9 لسنة 1976 ـ مقــالة بعنــوان : البطــل الاسطوري والملحمى في الادب العربى للدكتور عادل جاسم البياتى ـ ومقالة أخرى لنــا في آفاق عربية العدد 5 لسنة 1979 بعنوان الطفولة ومشاهدها المتغيرة في الادب والتراث. وأعيد نشرهما هنا في الجزء الاول.

11 ـ ديوان النابغة الذبيانى ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصــر 1977.

12 ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ تحقيق خليل ابراهيم العطيـــة نشر وزارة الاعلام العراقية 1972 وأيام العرب لابى عبيدة (يوم الكلاب الاول) 398
13 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ـ تحقيق أحمد محمد شـاكر دار المعارف بمصر 1386 هـ ـ 1966 م.
14 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام ـ تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدنى 1972.
15 ـ المحبر لمحمد بن حبيب ـ طبع الهند ـ تحقيق الدكتورة ايلزة شتيتر
16 ـ ملوك كندة من بنى آكل المدار ـ لجونار أولندر ـ ترجمة الدكتور عبد الجبار المطلبى ـ جامعة بغداد 1973.
17 ـ الشعر في حرب داحس والغبراء ـ د. عادل جاسم البياتى ـ طبـع النجـف 1972.
18 ـ اللســان ـ لابن منظور ـ طبعة بيروت .
19 ـ ديوان امرىء القيس والمراقسة ـ نشر الاستاذ حسن السندوبى.
20 ـ ديوان عمرو بن قميئة ـ مجلة معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة 1965 م.
21 ـ معجم ما استعجم للبكري ـ تحقيق مصطفى السقا 1945.
22 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على ـ دار العلم للملايين بيروت 1972. م
23 ـ تاريخ اليعقوبى لاحمد بن أبى يعقوب (294 هـ) النجف 1358 م.
24 ـ المفضليات للضبى ـ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر والاستاذ عبد السلام هارون ـ دار المعارف الطبعة الرابعة.
25 ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد السابع لسنة 1942 مقالة بعنوان : القيصر وامرىء القيس للاستاذ نجيب الارمنازى .
26 ـ مدخل الى الادب الجاهلى ـ احسان سركس ـ دار الطليعة ـ بيروت

الفصل الثاني

نصوص دينية جاهلية

1 ـ شعر الاحناف دراسة وتحليل

2 ـ نصوص التلبيات قبل الاسلام

شعـــر الأحنـــاف : دراســـة وتحليـــل

نشرت في آداب المستنصرية (العدد 5) ثم أعيد نشرها في مجلة «الشعر» في القاهرة (العددين 36 لسنة 1984 و 37 لسنة 1985).

(أ) الاحنـــاف :

هذه دراســـة تبحث في مرحلة مجهولة من حياة الشعر العربي، لم تلـق عنايــه القدمــاء ولا المحدثين ، لانها انحســرت الى الظل في منطقة غيــر منظورة، فلم يسلط عليها اي ضــوء لدى قيام المستشرقين، ثم تابعهـــم العرب فيما بعد، بتوزيع مراحل التطور للادب العربى على عصور مفتعلة يتحكم فيها التاريخ السياسى وغيره (1). أما بخصوص القدماء، فالــرواة لم ينتخبوا من هذه المرحلة ما يرقى في نموذجه الفنى الى مستوى الشعر الجاهلى الذي تعكسه المعلقات وكتب الاختيارات والحماسات والمجمهرات والمنتقيات والدواوين ، وان كان ركز من شعــر التوحيد قد روي في هذه المـــوارد الكلاسية ، ولم ينتخبوا أيضا ما يرقى الى مستوى الشعر الاسلامى الــذي يعكسه شعر جرير والفــرزدق والاخطل والراعى وكثير وغيرهم.

لقد شهــد العهد المكى الاول ، واريد بـه ارهاصات الرسالة قبـــل نزولها، عنفا قوميا ووطنيــا وأهليــا، وعاش صراعا دينيا وسياسيا في وقت معا. فقد كان العرب يديرون حروبــا قومية كبيرة في أطراف وطنهــم في اليمن والعراق والشام ضد احتــلال الجيوش الاجنبية، كان آخرهـــا في خاتمة هذا العهــد المكــى ابان البعثة، وهى حرب ذي قــار المشهــورة. وكان أول هذا العهــد ، قد شهد غزوا لليمن تفــاقم وامتد حتى بلغ بطـــاح مكــة قام به الاحباش يقودهم أبرهة الاشرم (2). واندلعت في هذه الآونة حروب وطنية وأهليــة خمد بعضها في مطلع العهــد المكي ، وهى حــروب

(1) أشــار بروكلمان فى الجزء الاول من كتابه تاريخ الادب العربى (مترجم) الى من فعل ذلك من الغربيين ثم الباحثين العرب.

(2) تراجع السيرة لابن هشام 43/1 وفيها سبب تلقيبه بالاشرم.

الفجار ، وبقى بعضهـا الآخر حتى آخر هذا العهـد، وهي حـرب داحس والغبراء، وحرب الاوس والخـزرج (3).

وكان العنف الديني على اشده بين اربـاب الكتب السماويه انفسهم، حتى بلغ لدى الملك الحميري اليهودي ذي نواس (523 م) حد الوحشيه في تنفيذ مجازر بشريه بشعه ومحارق كان وقودهـا ابرياء من نصـارى نجران، القي بهم في أخاديد من لهب مستعـر يصل عـددهم الى عشرين الف ضحيه عند بعض المؤرخين (4)، واشار القران الكريم الى الحادثة (5). وقد كان العنف الديني بين الموحدين والوثنيين على اشـده ايضا، يـدل عليه اضطهاد طائفة منهم، على راسهم زيـد بن عمرو بن نفيل الذي بقـي مصيره الحقيقي مجهولا بين القتـل على أيدي الوثنيين، من رجال القبائل او ملوك غسان أو الهرب في محاولة انتحارية الـى اعمـاق الصحـراء الموحشة (6). وعثمان بن الحويرث الذي سلم بجلده من وثنيي مكه، لكنه لقي حتفه بحلـة مسمومة على يـد قيصر الروم، لانه ابى ان يغزو قومه وبلدته المقدسـة بجيش رومانى، اخذا بنصيحة اعرابي لـه بأن لا يـدل الـروم على أرض بـلاده، وكان سلفه امـرؤ القيس الشاعـر قد لقي نفس هذا المصير (7). واذا اردنـا ان نرمز لشدة العنـف الدينـى بين الوثنيين والموحدين ، فان صورته تتجسد في معانـاة الرسول وأصحابه في انـواع الاذى والتعذيـب والقتـل.

وكان الصراع السياسى على السلطة شديدا بين ملوك اليمن وملوك كندة وملوك الحيرة وملوك الشام وامـراء القبائل وشيوخها وسادات المدن ورجالاتها. وكان الصراع بين رجال المملكة الواحدة نفسها شديدا أيضا، يجري بتدبير من يد اجنبية أو محلية، مما عكس على وضع البـلاد العربية ظلا قاتمـا من القلق وعـدم الاستقرار، وتصاعد الاحداث المستمرة، حتى ان

---

(3) كتـاب أيام العرب فى الجاهلية ص 6 وص 246 ومابعدهـا. وص 322 ومابعدها.
(4) السيرة لابن هشام 36/1 وينظر بلاشير 64/1 وما بعدها.
(5) البـروج 4/85.
(6) ستتصل بنـا حياته وشعره فى أكثر من موضع من هذا البحث ويراجع المسعودى فى مروج الذهب 50/2 حيث ذكـر أنه سمه بعض ملوك غسـان. وورد أيضا أن عامر بن صيفى المعروف بالراهب لبس المسبـوح وقـال : جئت بالحنيفية دين ابراهيم. ولم يؤمن بالاسلام فسماه الرسول بالفـاسق، واستعان بالقيصر لتوجيه جيش لكن مات فى الطريق. (مجمع البيـان) 64/9، 500/3 طبع طهران.
(7) السيرة لابن كثير 165/1.

العهد المكي شهد صورة مصغرة من تجسيد هذا النزاع السياسي متمثلا في اشتباك الاسرة المكية في حرب غير منظورة على السلطة أو احتلال مراكز القوة في دار الندوة، برز ذلك في وضوح عند حادثة قد تكون صغيرة في حجمها لكنها كبيرة في مدلولها، وهي حادثة تنافس المكيين على مختلف قبائلهم حول نقل الحجر الاسود المقدس، وما أعقبه من تصرف كيس وحكيم قام به محمد الامين، الصادق، ليحل نزاعهم، فارتضوا به حكما عدلا. ولا يخفى ما للسلطة الدينية من تأثير في اجتلاب السلطة الدنيوية وبالتالي في استقطاب الدور القيادي في رحلات مكة التجارية، وعلى وجه الخصوص رحلات الصيف والشتاء المنظمة بعهود (الايلاف) المكتوبة مع القبائل والملوك.

وقد أفاضت مدونات الاوائل والموارد الاسلامية بالاستشهادات الواضحة من شعر ونثر في أحداث التاريخ، حتى انهم بالغوا في ذلك فابتدؤا بالخليقة وآدم ، وانتهوا بالمغازي والفتوح والسير، كأنهم يستعرضون أحداث ملحمة يلعب فيها الشعر دورا رئيسيا، متكلما بلسان الابطال، والنثر الى جانبه يسرد الاحداث ، فالنثر راوية الاحداث، أما اذا أراد البطل أن يتحدث ، فكلامه شعر، وعندئذ يسكت الراوية ويتكلم البطل، مما زين لبعض الباحثين أن يعزو هذا العرض القصصي الخاص بأدب العرب الى نفس ملحمي. ولا أراه قد جانب الصواب كثيرا (8).

وازاء هذا المناخ المتقلب، والظروف السياسية والدينية، كان الشعر يمثل المقياس الدقيق للعواطف والاهواء والحوادث والافكار المنطلقة في ساحة الصراع آنذاك. فقد تركت لنا أشعار أمية بن أبي الصلت ولبيد بن ربيعة، برغم ما لحقها من التشويه والتحوير، خلاصة نافعة لجانب من فكر الموحدين وثقافاتهم. وقدمت لنا أشعار قس بن ساعدة وزيد ابن عمرو بن نفيل أجزاء مقروءة من حياة الموحدين. وقد فتحت الاشعار

---

(8) شعر الحرب في أدب العرب ص 27 (دار المعارف بمصر 1970 طبعة ثانية) حيث عرض في هذ الصفحات صورة قريبة كل القرب من حياة الشعر الحماسي، مرجحا أن جميع هذه الحماسات ملاحم متصلة الحلقات منذ عهد الرسول. واذا كان الباحث لم يلمس في الشعر الجاهلي مثل هذا الاتجاه، فقد تحدثنا عنه في كتابنا (أيام العرب لابي عبيدة) وبحثنا عن الملاحم العربية في مجلة الكتاب — العدد الرابع لسنة 74 بغداد ومقالتنا عن البطل الملحمي في مجلة آفاق عربية العدد 6 لسنة 1975. وهي في هذا الكتاب — الجزء الاول.

المنسوبة الى أبى طالب بن عبد المطلب آفاقا رحبة لم نكن نحسب أنها تنتمى الى تلك العوالم التوحيدية العريقة . ان ما كنا نظنه شعرا ضئيل القيمة ، ظهر أنه من بقايا الوقعات التى خاضها الفكر العربى وهو يشق طريقه الخاص لتأكيد رؤيته الاصيلة للكون والعالم ومبدعهما، لكنها بقايا أنعبتها الرحلة الطويلة الشاقة منذ العهد المكى الاول حتى يوم تدوينها في الصحف الاسلامية في القرن الهجري الثانى.

لقد تعرض هذا الشعر الى مثل ما تعرض اليه الشعر الجاهلى من الاعراض والاتهام والشك، وعده ناس كثيرون من عمل القصاص ورواة الاخبار وكتاب السير، ولا تخلو هذه الطعون من اساس تقف عليه مزاعم المعترضين، وهو اساس يملك قوة الاسباب التى هوجم بها الشعر الجاهلى. ومع ذلك تبددت الاتهامات والاعتراضات والشكوك وبقي الشعر الجاهلى. واذا كان ما روي من شعر الموحدين بعد القرن الهجري الاول او أثناء ذلك قد ضاع اكثره ولم يدون، فان ما بين أيدينا هى الصورة المحكية، نتلمس اليها طريق الاستقصاء والبحث، *أما اذا كانت* بعض أجزاء من الاصل مدسوسة أو مزروعة في هذا الجسم المصنع تصنيعا اسلاميا، فالفائدة هنا اكبر . وفي كلتا الحالتين، حالة الصورة المحكية، وحالة الجسم المصنع المزروع ببعض اجزاء الاصل، نستطيع أن نتقدم، ولو خطوة بسيطة ، نحو اماطة اللثام عن كثير من أسرار الفترة الغامضة من حياة الشعر العربى الذي قام بتأدية دوره. ناضجا في مرحلة الصراع، بل المخاض العسير، قبيل المولد والبعث.

وقد سبق أن نوهت في أول البحث، بأن هذا المظهر الشعري في تاريخ العرب الادبى لم يتوفر له الظرف الملائم ليعرف طريقة الى الرواية الشفوية ثم المدونة، لانه رافق مرحلة أدبية انحسرت الى الظل فلم يسلط عليها النور الذي سلطه الرواة على المراحل المتقدمة من الادب الجاهلى، او اللامعة من الادب الاسلامى. والسبب، يمكن حصره في طبيعة المرحلة المبحوثة نفسها، فهى تشكل ميلا نحو غروب عهد قديم، هو العهد الوثنى، لانها مرحلة انحسار عقائدي لتيار شامل ، أعقبه ركود آنى في الانماط الادبية المشايعة له في حين تهيأت للادب الجديد، لدى بزوغ فجر الاسلام وانتشاره، اسباب اكتماله ونهوضه.

واذا كان شعر الموحدين يعد من شعر المقاومة الذي نهض في وجه الحاكم المكي المتمثل في شخصية أبى الحكم بن هشام المخزومى المشهور بأبى جهل لا لنقص في ثقافته الوثنية أو معارفه الاجتماعية، فهو أكبر من أن ينعت بذلك، وانما لجهله بأمور التوحيد والدين الجديد، وفي وجه مشركي مكة ووثنييها، فهو لم يلق من المسلمين القناعة التامة ولا الاستقبال الحسن، لان أصحابه، وقد خرج الاسلام من السر الى العلن، لم يستطيعوا أن يكيفوا أنفسهم لشعائر عبادته وطقوسه، اذ ستلقانا حالات تؤيد ذلك، كما في حالة أمية بن أبى الصلت الذي لم يشفع له كل نسكه الشعري في التوحيد الالهى، وحالة أبى طالب الذي لم يخرج دفاعه الابوي الشعري عن الرسول في العهد المكي، من تهمة الشرك التى ظلت تلازمه حتى بعد وفاته. فقد ورد هذا الدفاع في شكل قصيدة ثبتتها المصادر.

ولعل اعراض مؤرخي الادب والرواة عن ان يؤرخوا لهذه المرحلة المكية المتأخرة على العصر الجاهلى، والمبكرة من العصر الاسلامي، كان بسبب ما يلاقونه من الحرج في بعض المواقف الادبية والمرويات الشعرية وبالاخص ما وافق منه التنزيل أو الحديث، في حين تحرج آخرون من التوغل في هذه المرحلة لانها غير مشرفة للمكيين ومن والاهم من رجال القبائل الحليفة والمجاورة بعد انتصار التوحيد، وبالتالي فان ما أصاب الادب عامه من ندرة الكتابة وانعدام المدونات وانشغال الرواة بالجهاد ومدارسة العلوم الاسلامية الجديدة، انسحب على هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الادب الاسلامى أيضا. فليس اشعار الموحدين أو ما اصطلح عليهم بالاحناف هى وحدها التى لم تصل الينا، وانما لم يصل الشعر الوثنى عموما ، ولا الشعر الذي كان يندد بالدعوة الاسلامية عند ظهورها في مكة، حيث كان الرسول (ص) وحده لا نصير له الا بعض أفراد قلائل من اهله. ولم يتحقق انه كان في هذه الاثناء صوت شعري اسلامى ارتفع ليناصر الرسول في أيامه الاولى، سوى ما ينسب لابى طالب مع ضعف روايته والطعون الموجهة اليه، رعدا ما اثر من شعر قيل في هجرة الحبشة. لذلك أتلفت كل المعطيات الوثنية المنددة بالدين الجديد، ولم يضف الاخباريون شيئا آخر، ولو كان هناك شعر اسلامى لما اعرضوا عن ذكره، لانهم اعتادوا أن يذكروا أشعار المسلمين ويحجموا عن شعر خصومهم، كما فعلوا في المناجزات الشعرية والرجزية بين الطرفين في وقعة بدر الكبرى وأحد

والخندق وغيرها. فكان الراوية المسلم يورد القصيدة تامة لاخيه الشاعر المسلم، ويجتزيء أبياتا من قصيدة الشاعر المشرك، بل عمد الجيل الثانى من الرواة الى اسقاط ما تسامح الجيل الاول بروايته من شعر الوثنيين، والامثلة متعددة في كتاب السيرة لابن هشام، حيث ينص في عدة مواضع على أنه اسقط البيت الفلانى من تسلسل القطعة أو المجموعة لان فيه تعريضا بالاسلام أو بالرسول (ص). ولو كنا نشيء من هذه المناجزات قد وقعت في العهد المكي الاول لوصل الينا جانب منها دون تردد. ونحن نرجح عدم ارتفاع أي صوت شعري متميز بين المسلمين في هذه المرحلة وعلى وجه الخصوص اذا ما تذكرنا موقف القرآن الكريم ضد قضية اتهامه واتهام الرسول بالشعرية. فالاسلام، يومئذ، لم يكن بحاجة الى الشعر ولا الرسول الى شاعر ، فقد كان الموقف يفوق الشعر ومعاركه. قد يتبادر الى الذهن عند اطلاق مصطلح (الموحدين) ، اننا سنضم الى مجموعتنا أشعار الشعراء اليهود والنصارى والصابئة. والحقيقة، أن طبيعة شعر الموحدين وتكوينهم الثقافى الخاص يخولنا فرزهم عن الكتابيين ، ثم دراسة الظاهرة منفردة، فاذا أضيف اليهم شعر الكتابيين ثم شعر الوثنيين الذين اصطلح القرآن على تسميتهم بالجاهليين، نسبة الى الجهل بالتوحيد، والاميين، نسبة الى الامة التى لا كتاب لها (9)، فالمصطلحان يسيران متوازيين ، اجتمع لدينا موضوع كبير هو الشعر الدينى.

أما مميزات الشعر التوحيدي أو شعر الاحناف ومظاهر تكوينهم الثقافى فيتلخص في مسألة جوهرية، هو أن جميع من ذكرناهم من اصحاب الكتب السماوية لم يعودوا في عقيدة الاحناف الذين هم ورثة ابراهيم الخليل، موحدين بالمعنى الحقيقى لكلمة التوحيد، فقد ذكرت المصادر أن محاولات زيد بن عمرو بن نفيل في ترجيح دين من الاديان السماوية المبشرة في بلاد العرب كان أمرا في غاية الصعوبة بل من المستحيل قبوله. فمما ذكره ابن عمر (10) أن زيد بن نفيل، خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال :

— اني لعلي أن أدين بدينكم فأخبرونى.

(9) تراجع مقالتنا : مدلول مصطلحى الامية والجاهلية . مجلة كلية الاداب — بغداد العدد 27. ونشرت فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

(10) الروض الانف 146/1.

فقال العالم اليهودي :

- لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

قال زيد :

- ما أفر الا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا ابدا. واني استطيعه فهل تدلني على غيره.

قال العالم :

- ما أعلمه الا أن يكون حنيفا.

قال :

- وما الحنيف ؟

قال :

- دين ابراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله. فخرج زيد فلقي عالما من النصارى، فذكر مثله . فقال العالم النصراني:

- لن تكون على ديننا حتى تاخذ نصيبك من لعنة الله.

قال :

- ما أفر الا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا . واني استطيع فهل تدلني على غيره.

قال :

- ما أعلمه الا أن يكون حنيفا.

قال :

- وما الحنيف ؟!

قال :

- دين ابراهيم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله. فلما رأى زيد قولهم في ابراهيم خرج ، فلما برز رفع يديه

فقال :

- اللهم اني اشهدك أني على دين ابراهيم.

وعن اسماء بنت أبى بكر الصديق (11)، انها رأت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول :

- والله ما فيكم على دين ابراهيم غيري .

وكان زيد، يحيى المؤودة ، يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته : «لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها» فيأخذها، فاذا ترعرعت قال لابيها : «ان شئت دفعتها اليك ، وان شئت كفيتك مؤونتها» . ولقي النبي (ص) زيد بن عمرو بن نفيل باسفل «بلدح» قبل أن ينزل الوحي عليه، فقدمت الى النبي سفرة فأبى زيد أن يأكل منها. ثم قال : «اني لست آكل ما تذبحون على انصابكم ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه». وان زيد بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول «الشاة خلقها الله، وانزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الارض الكلا، ثم تذبحونها على غير اسم الله» انكارا لذلك واعظاما له. وكان السهيلي ينقل حديثه هذا عن البخاري معقبا على أن فيه سؤالا : كيف وفق الله زيدا الى ترك اكل ما ذبح على النصب ، وما لم يذكر اسم الله عليه، ورسول الله كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية لما ثبت الله له ؟ والجواب - لدى السهيلي - من وجهين : احدهما أنه ليس في الحديث حين لقيه ببلدح، فقدمت اليه السفرة قوله : «لا آكل مما لم يذكر اسم الله عيه». والجواب الثانى أن زيدا انما فعل ذلك برأي رآه لا بشرع متقدم. وانما تقدم شرع ابراهيم بتحريم الميتة لا بتحريم ما ذبح لغير الله، وانما نزل تحريم ذلك من الاسلام. وملاحظة السهيلي هنا صحيحة، فذكر اسم الله من الاضافات الجديدة للاسلام على ما جاء في الحنفية الخليلية. وبعض الاصوليين يقولون : الاشياء قبل ورود الشرع على الاباحة، فان قلنا بهذا وقلنا أن رسول الله كان يأكل مما ذبح على النصب. فانما فعل امرا مباحا، وان كان لا يأكل منها فلا اشكال . وان قلنا ايضا، أنها ليست على الاباحة ولا على التحريم، وهو الصحيح، فالذبح خاصة، لها أصل في تحليل الشرع المتقدم كالشاة والبعير ونحو ذلك مما أحله الله في دين من كان قبل الاسلام، ولم يقدم في ذلك التحليل المتقدم ما ابتدعوه، حتى جاء الاسلام وانزل الله سبحانه : «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه» الا ترى كيف بقيت ذبائح أهل الكتاب

(11) المصدر السابق نفسه.

عندنا على أصل التحليل بالشرع المتقدم ، ولم يقدم في التحليل ما احدثوه من الكفر وعبادة الصلبان، فكذلك كان ما ذبحه أهل الاوثان محلا بالشرع المتقدم ، حتى خصه الله في قرآنه بالتحريم.

كان ذلك توضيح ما ذكرناه من خصوصية الفكرة الحنيفية بين مختلف العقائد السماوية والارضية ، الكتابية والوثنية . وتوجد في حياة كل حنيفى موحد في العهد المكى الاول معاناة وحادثة مثل الذي ذكرناه في حياة زيد بن نفيل. لذلك، نظر الموحدون، وبالاخص الاسلام، الى هذه العقائد جميعا على أنها افرادية وليست توحيدية، أي أنها كانت تفرد الهها من الهتها الى جانب الاله الاعظم فتخصه بالتقديس. لذلك جاءت دعوى النبي موسى مؤكده على فكرة التوحيد الا أن اصرار بنى اسرائيل كان على التفريد، واعقبتها دعوة النبي عيسى في نفس الاتجاه، لكن ظلت النصارى وقبلهم اليهود يعطون للطبائع البشرية صفة اله معبود. ويبدو من موقف الاسلام من الصابئة انها لم تخلص التوحيد لبارئها، فتورطت في نفس ما تورطت به الاتجاهات الاخرى، وجعل الاسلام العقيدة المجوسية الى جانب الديانات المتورطة، قال تعالى في سورة الحج «ان الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين اشركوا، ان الله يفصل بينهم يوم القيامه ...» ففى هذه الآية ثلاثة أنواع من العبادات، فصلت بينها لفظة «الذين» فالاولى توحيدية (الذين آمنوا) وهم الحنيفيون ثم المسلمون الذين مد لهم القرآن جذورا الى ابراهيم في قوله تعالى في سورة آل عمران «وما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما» فكان الاحناف الذين ندرس شعرهم الان، جسورا عبرت عليها ديانة ابراهيم الاوري (12)، وأوعية حفظت طقوسه وشعائره في (حلق الشعر) مثلا و (ختن الاولاد) و (سدانة البيت) و (الحج) و (اجتناب الرجز والبغي والخمرة) وترك (عبادة الاوثان) و (اعتناق الفضائل والخير) (13). واما النوع الثانى من العبادات المنوه بها في سورة الحج المذكورة آنفا، فقد فصلتها لفظة «الذين» ايضا في قوله : «والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس». فهى عبادة تفريدية ولم

(12) كما عبر عن ذلك ريجيس بلاشير فى كتابه تاريخ الادب العربى وهى نسبة الى مدينة (اور) فى جنوب العراق، خرج منها ابراهيم لاول مرة (يراجع كتاب العرائس أو قصص الانبياء).

(13) يراجع المحبر لابن حبيب من ص 336 وما بعدها.

تكن شعارها قولة : «لا إله إلا الله» وانما كانت دعوتهم مشوبة بالشرك، فكأنهم كانوا يقفون موقفا وسطا بين «الاحناف الموحدين» وبين «الكفار المشركين» . أما اليهود فاتخاذهم العجل ينص عليهم شركهم، وقد وردت عدة آيات في عدة سور تؤكد ذلك. واما النصارى فلم يزل الثالوث يثلب توحيدهم ويضعهم في عداد التفريديين، وقد ورد قوله تعالى في سورة النساء «ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم، انما الهكم اله واحد» وقوله في سورة المائدة «لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة، وما من اله الا اله واحد» ولا يخفى أن ظاهرة الثواليث المقدسة هى في الاساس فكرة وثنية، تتجلى لدى اليهود في : «الله ، الانسان، الطبيعة»، وابتدع النصارى ثالوثهم : الاب والابن وروح القدس. وصنف القرآن المجوسية في صف الافراديين لا التوحيديين، والمجوسية نحلة قالت بالاصلين، وخصت النار بالتقديس. واما النوع الثالث من العبادات، فهى تدخل في عداد قوله تعالى «والذين أشركوا» من الآية المتقدمة. وهى عبارة واسعة تضم كل أنواع العبادات الوثنية من الروحية الى المادية الى عبادة قوى الطبيعة والانسان والحيوان والحجارة في صورة صنم أو وثن. ويختص بعبادتها أولئك الذين كرسوا الشرك حتى لم يعد للخالق ذكر على السنتهم، وانما صارت الهتهم الثانوية هى الاثيرة عندهم وتأخرت الآلهة الرئيسة، وذلك تطمينا لمصالحهم المتعددة في الحياة، فاطلقوا عليهم اسم الشركاء. وقد جسد القرآن الكريم ذلك في سورة الانعام فقالوا هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم» وفي سورة الروم «ولم تكن لهم من شركائهم شفعاء. وكانوا بشركائهم كافرين» وما ورد في سورة الانعام يؤكد المصلحة الطبيعية في الوثنية، وظلم الحكام المدعوم بافتراءات الكهان ورجال الدين، مثال ذلك انهم كانوا يختطون في وسط حقولهم فيقسمونها الى اثنين ، فما دون هذا الخط لآلهتهم وما ذرأه الله، أي خلقه واكثره من الزرع، فان سقط فيما جعلوا لآلهتهم شىء مما جعلوه لله أقروه وتركوه، وان سقط مما جعلوا لآلهتهم شىء فيما جعلوه لله، ردوه. ثم يرسلون الماء في الذي سموه لآلهتهم، فان انفتح سموه لله فسدوه، وان أرسلوا في الذي سموا لله فانفتح في الذي سموه لآلهتهم

قالـوا : اتركـوه فانه فقير اليه (14)، وهو تفسير قوله تعالى «وجعلـوا لله ممـا ذرأ من الحرث والانعـام نصيبا فقالـوا هذا للـه بزعمهـم، وهـذا لشركائنا..» وهى الايات المستشهد بهـا قبل قليـل، وهى عملية تبريـر ليسلبـوا ما بأيـدي فلاحيهم وعمال ارضهم باسم الآلهـة. ومع ذلك فلهذا النص القيم عـدة مؤشـرات :

1) انهم كانوا يعرفون الله ولا ينكرون وجوده ،

2) انهم كانـوا يشركون به آلهـة أو معبودات فيما له من حقوق،

3) ان السلطة القوية كانت بأيـدي المشركين بدليل «أن ما لشركائهم فلا يصل الى الله، وما لله فهو يصل الى شركائهم»،

4) ان الله الواحـد الاحـد، كان يلوذ به الضعفـاء والمستحقون لان شرائعه عادلـة، مما يؤثر في ثـروة الاغنياء الاقوياء ،

5) وانه كانت هناك طائفـة من الاقويـاء تؤمن باللـه الواحد الاحـد الا أنهم كانـوا يمالئون المشركين لعـدة اعتبارات، وهذا ما سنذكره مـن دخول رجال بنى هاشم ورجال بنى تيـم وبنى زهـرة الميالين الى التوحيد اكثر من الشـرك في تحالفات توفيقيـة مع غلاة الوثنيين من بني عبد الدار وأميـة ومخزوم وبنى اسوّى بـن كعـب.

6) وان الصراع كان قويا وخفيا بين الاتجاهيـن.

7) وان سدنة الآلهـة كانـوا على الغالب مشركين لذلك رجحت كفـة الالهـة المتعددة على كفـة الاله الواحـد الاحـد.

8) وانه كان في مكـة ملتقـى الصراع، بحكم مركزها الدينى والتجاري والسياسى وقدسيـة الحـرم الشريـف.

9) وان الاحلاف الوثنية والاحلاف التوحيدية كالايلاف والفضول، تظهر هنا بشحوب، لان الوثنيين يضعون ما لله في صـورة مجاملة للموحدين، ثم يعودون فيظلمون حق الله، لذلك نعى القرآن الكريم عليهم ظلمهم.

10) ويفيد النص ايضا ان الناس عرفوا الحنفية لكنهم غلبوا علـى امرها بتأثير غزو وثنى كالذي حدث من اكتساح بنى خزاعة بقيادة زعيمها

(14) المحبـر ص 332.

الوثنى عمرو بن لحي مبتدع عبادة الاوثان والاصنام بمكة وبلاد العرب لبني جرهم أصهار اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذين مثلوا القوة الحنيفية.

11) مرت موجة الغزو الوثنى الخزاعى ثم استطاع العرب ان يعيدوا لدينهم بعض ملامح وجهه الحقيقى ولو بنسبة ضئيلة من خلال صـــراع الوثنيين والاحناف (جبهة الاحلاف الوثنية وجبهة حلف الفضـــول) على الرئاسة والسدانة والرفادة والسقاية واللواء في المواسم والساحات.

12) ظلت السيطرة على شؤون العرب الدينية التى يتبعها بالضرورة الوضع الاقتصادي والسياسى بأيدي الوثنيين وان تداولتها أحيانا أيدي قريبة من التوحيد الا أن الطابع كان سيادة العبادة الوثنية لان التوحيـد كان مغلوبا على أمـره ولم يكن نقيا مطلقا، بسبب التحالفات والتنازلات الكبيرة التى كان رجال الفضول يقدمونها للوثنيين، وهو الامر الذي يفسر تحرج أبى طالب بن عبـد المطلب في أن يشهـر ايمانه بالتوحيـــد وكفـره بالاصنام ، مع أنه كان مثل والـده، يتميز بضعف الولاء للوثنية، لانهـم يربطـون نسبهم بابراهيم الخليل. وتنطوي هذه الخلاصة على حقائـــق تتفـرع عنهـا :

1) ان دعاة التوحيد الحقيقيين امثال زيـد بن عمرو بن نفيل وعثمان بن الحويرث كانوا مضطهدين . وقد نظر المشركون الى الدعوة المحمدية منذ الاعلان وبداية الانطلاق على أنها امتداد للحنيفية، فقاوموها.

2) ان الله بعـث محمـدا (ص) لاتمام رسالة ابراهيم الخليل الممتدة في رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، والمحرفة على أيدي دعاة الموسوية والعيسوية والممسوخة على أيدي الوثنية، والمشوشة لدى الاحناف، فكان الوضوح في الرؤية الاسلامية التى اسعفتها رسالة السماء حيث اصطفت محمدا (ص) ليحملهـا .

3) ان الشعر الجاهلى ، الموجود حاليا ، هو شعر الواقع العربى المعاش بكل معنى الواقعية وتماسها بالانسان والارض والقومية بمجاميعها البشرية داخل مستوطنات البـدو المتحركة أو محميات القبـائل، لكل قبيلة أمـير ومسلحـون يحمون الارض والعرض والسيادة والقيم العربية الوثنية أو تحدرات الحنيفية التى ضاعت ملامحها الاصلية بين الحشـد الهائل مـن معطيات الشرك الوافد. وليس بين أيدينا شعر أدعية وصلوات ولا شعر

نسك وثنى موجه الى الآلهة، الا بعض معطيات ندرسها في شعر الاحناف في صيغة تأمل وتهجد بسيط المعانى. لعل هذا الضرب المفقود من الشعر كان موجودا وأبيد بعد البعثة، أو أنه لم يكن موجودا مطلقا.

4) في ضوء ما عرضناه ، نستطيع أن نقول، أن ما اصطلحنا على تسميته شعرا توحيديا ينحصر في المواطن الآتية :

أ) شعر المقاومة أو (الاحناف) وكان نضالهم سلبيا موقوفا على الدعوة الى عبادة الله، وكان أمرها غامضا على الاحناف أنفسهم، ولم يتضح الا بالاسلام. واعقب ذلك دعوة الاحناف الناس الى الترهب ونبذ الحياة والانقطاع للنسك والعبادة، ولم تكن مبينة على أسس وأركان ثابتة، بل كانت حائرة.

ب) شعر الموحدين الذين لا نسميهم احنافا بالمعنى المذكور سابقا، بل كانوا أميل الى عيادة الله (رب ابراهيم الخليل)، منهم الي عبادة الاوثان وغيرها. لكنهم كانوا متأثرين بحكم المعتقد السائد، بوجود الهة الشرك أيضا. وكان شعرهم دعوة الى مكارم الاخلاق، كما ستلقانا في حالة زهير ولبيد، وكما تتجلى في أمثلة كثيرة لدى بعض الشعراء ، مثل أوس بن حجر وهو يستفظع العرف الوثني في الولد البكر الذي يخلف أباه على امرأته أي امرأة أبيه بعد وفاته فيتزوجها، وقد رآه أوس امرا منكرا وشنيعا، وكان العرب يسمونه الضيزن (15) :

والفارسية فيكم غير منكرة نكلكم لابيه ضيزن سلف

ج) شعر الوثنيين الذين يجهلون عبادة ابراهيم الخليل، لكنهم مع ايمانهم بآلهة الشرك، يجنحون الى مظاهر التوحيد الخليلية أكثر مما يجنحون الى اضافات الشرك التحريفية، فيظهر في شعرهم، مما يشكل منحى فكريا واضحا ذا تأثير في المجتمع العربى يومئذ.

ولو شئنا الدخول في جزئيات كل ديانة تفريدية أو وثنية، فاننا سنبتعد عن صميم دراستنا التى هى في الاساس أدبية شعرية، لكننى أجد أن لا مناص لنا من الوقوف عند من اعتاد المؤرخون والرواة نعتهم بالاحناف، وتحديد المسار الفكري لهم بين خضم الديانات المتلاطمة يومئذ

(15) نفسه ص 325. واللفظة فارسية وتعكس طقسا مجوسيا.

في بلاد العرب، فقد دلت استقراءاتنا الاولية لهؤلاء المتعبدين الغامضين، انهم كانوا أساسا مناوئين للفكر الوثني بجميع مظاهره التى قسمتها الدراسات الحديثة الى عبادات مادية تجسيدية أو عبادات روحية رمزية، وان كانت جميعها في الاساس تلتقى في مدارات غيبية تعتقد بحلول الروح المعظمة في الاشياء مهما كانت حقيقتها. وقد كانت عبادة العرب الذين عاصرهم الاحناف يومئذ. تتصل في معظمها بعبادة رموز القوة «الشجاعة. الفروسية . الفتك» ورموز العظمة (الرئاسة والسيادة . المروءة . الكرم) تجد لها أساسا من الواقع المادي في خضوع هذه الرموز الى شعائر وطقوس يديرها كهان وسدنة ورهبان منقطعون الى آلهة يعظمونها ويقدسونها. والى جانب هذا كان الاحناف الموحدون ممتنعين باصرار غريب عن قبول اليهودية والمسيحية والصابئية. ولعل كونهم توحيديين، وأتباع هذه الاديان تفريديين، كان السبب وراء رفضهم لها. اذ انهم عرفوا بتقاليدهم الموروثة أو باطلاعهم على بعض التعاليم المعروفة أو بحسهم الفطري السليم، أن أرباب هذه الديانات ابتعدت عما انزله الله على انبيائه ، فلم يعد التوحيد الذي أوحى الله به الى موسى أو عيسى وحتى ادريس قبلهما، من مقومات هذه الديانات. لذلك وجدنا الاحناف لم يجدوا فيها ملاذهم من ضياعهم وحيرتهم الفكرية، حتى جاء الاسلام، فكان لهم منه موقف.

فاذا لم يكن الاحناف الموحدون يهودا ولا مسيحيين ولا صابئة ولا أغرتهم الديانات الاعجمية الوافدة ولا فتنتهم الوثنية المتسلطة، فما هي معتقدهم الدينى التوحيدي ؟

يرد العلماء أصل الاحناف الى النبي ابراهيم الخليل عليه السلام، مستدلين بذلك على قوله تعالى في سورة البقرة «قل بل ملة ابراهيم حنيفا» وقوله في آل عمران «وما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما» وقوله في الموضع نفسه «قل صدق الله، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا» وفي سورة النساء «واتبع ملة ابراهيم حنيفا» والانعام «قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا» وقوله في سورة النحل (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا، ولم يكن من المشركين» وفي النحل ايضا «ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا» ثم وردت الكلمة في عدة مواضع اخرى وبصيغة الجمع «حنفاء» دون ان تكون وصفا لابراهيم وملته لكن يفهم ذلك من السياق كسورة

الـروم والحج والبينــة . الا آن المعجمين العـرب على عادتهم يحيلونـه الى مادتهـا الاوليـة، فيذكرون بأن الفعـل (حنف) يعنى (مـال) والحنيف الذي مـال عن دين قومـه، وهو الشـرك الى التوحيد. وعبارة اللسان (16): الحنيف، المسلم الذي يتحنف عن الاديـان أي يميل الى الحق. وقيـل : هو الذي يستقبل قبلـة البيت الحرام على ملة ابراهيم، وقيل كل مـن أسلم لامر الله ولم يلتـو، ثم قال : والحنيف المستقيم وأنشـد :

تعلـم أن سيهديكـم الينـــا ... طريق لا يجـورِ بكـم حنيف

وهذا الاخير أقرب للصواب، لان ابن منظـور يعود فيقول : وقـــال ثعلب : الحنيفية الميل الى الشيء، قال ابن سيـده : وليس هذا بشـيء. قال الزجاجي : الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل مـن الجنابـة ويختتن ، فلما جاء الاسلام كان الحنيف المسلم، وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك . وزاد ليـرد على أن الحنف ليس بمعنى الميل فقـال : قال ابن عرفة في قوله عز وجل : (بل ملة ابراهيم حنيفا) قد قيـل : ان الحنف الاستقامـة، وانما قيل للمائل الرجل احنف تفاؤلا بالاستقامـه. وبذلك يكون مصطلح الحنيف يعنى المستقيم، أما الحنف بمعنى الميـل، فهو معنى طاريء عليـه، وذلك تفاؤلا لمن به حنف في اصابـع رجله ليكون مستقيما أو لمعالجة العيب أو العاهة أو المرض نفسيا بضدها، كما قيل للاعمى : بصير وللملدوغ : سليم . ويؤيد ذلك أن عبـدة الاوثان في الجاهلية كانـوا يقولون : نحن حنفاء على دين ابراهيم (17)، لانهم كانوا يختتنون ويحجون البيت ويغتسلون من الجنابـة، وهذا يفسر لنا اصالة الحنيفية في أرض العرب وان الوثنية وافـدة طارئة، وان كل العرب احناف علـى دين ابراهيم الخليل الا أن الوثنية المنتصرة غطت على القيم الاصلية، لكن النضـال بقى مستمرا ضدها حتى كان النصـر الحقيقى على يـد الرسول (ص). وهذا يفسـر لنا أيضـا قول امرىء القيس عندما هجـا القيصـر، معيرا أيـاه بوثنيتـه لانه لا يختتـن (18) :

اني حلفت يمينـا غير كاذبـة ... انـك أقلـف الا ماجـلا القمـر

اذا طعنت به مـالت عمـامته ... كما تجمـع تحت الفلكـة الوبر

(16) ابـن منظـور مـادة (حنف).
(17) المصـدر نفسـه.
(18) ديـوانـه ص 280.

قال البطليوسى في شرحه : يقال للصبي اذا كان قصير الغرلة مقعصا، «قد ختنه القمر» . ومما يؤيد ما ذهبنا اليه أن الحنيف يعنى المستقيم وليس المائل، وان من طقوسهم الحج، ما نقله الازهري عن الضحاك في معنى (حنفاء) انها تعنى حجاجا في قوله تعالى : حنفاء لله غير مشركين به . وقال (السدي) مثل ذلك (19). وهنا نفهم معنى قوله تعالى بوضوح : «ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا» فالقنوت من صفات الاحناف ، وهو التعبد في رهبة وخشوع عند الحج وغيره، واورد صاحب اللسان قول جران العود :

ولما رأين الصبح بادرن ضوءه
رسيم قطا البطحاء أوهن أقطف

وادركن أعجازا من الليل بعدما
أقام الصلاة العابد المتحنف

ومثله قول أبي ذؤيب :

أقامت به كمقام الحنيف   شهري جمادى وشهري صفر

أي أقامت بهذا المتربع اقامة المتحنف على هيكله مسرورا بعمله وتدينه. وتدل هذه الشواهد الشعرية على أن هذين الشاعرين المخضرمين كانا يمران بهؤلاء الاحناف المتعبدين وهما في طريق رحلتهما في الصحراء. ولم يؤثر عن الوثنيين مثل هذا.

ومن الغريب أن يقول المعجميون في مادة (حنث) ما قالوه في مادة (حنف) وهو الميل من باطل الى حق ومن حق الى باطل (20). ويقولون أن (حنث) مثل (حنف)أي تعبد . وفي الحديث : أن رسول الله (ص) كان قبل أن يوحى اليه، يأتى حراء، وهو جبل بمكة فيه غار، يتحنث فيه الليالى : أي يتعبد وعده ابن سيدة على السلب أي الضد، لان (الحنث) بكسر فسيكون هو الاثم، فكأن المتحنث ينفى عن نفسه الاثم، كما تقول : تأثم وتحوب أي نفى الاثم والحوب . ولا يستبعد أن تكون ثاء (تحنث) بدلا من فاء (تحنف). وأيا كان الأمر، فالكلمة محدثة وليست قديمة

(19) اللسان (حنف).
(20) اللسان (حنث).

قدم (تحنف) . واما رأي (تولدكه) من كون (تحنف) على وزن [تبرر] (21) فهو صحيح وزنا لكن المعنى مختلف لان التبرر من اليمين أو القسم كالتحنث منه، لكن التحنف، كما رأينا، تعنى الاستقامة . وقد أصاب نولدكه حين عد اللفظة عربية، لان (تحينوث Tehinoth) العبرية و (حنفة Hanfa السريانية وغيرها (22) لايمكن أن تعد أصلا للكلمة العربية لان العربية اقدم اللغات السامية ، وانهن جميعا يتفرعن من لغة أم واحدة، أما كلمة (الابرار) فهو مصطلح اسلامى ورد في القرآن لاول مرة. ومصطلح (الصابئة) من الفعل (صبأ) بمعنى مال وتأثر (23)، فهو لا يخص الاحناف، لان الطائفة التى يخصها معروفة في الجاهلية، وان المنجمين العرب يجرون على عادتهم في تفسير المفردات على ما آلت اليه لا ما كانت عليه ، لانهم معذورون لانعدام الوثائق في هذا المجال، فقالوا عن (صبأ) أي خرج من دين الى دين كما تصبأ النحوم أي تخرج من مطالعها وقالوا عن الرسول (ص) صبأ لانه خرج عن دين قومه وقالوا عن اصحابه بأنهم الصبأة.

وأما كلمة (الموحدين) أو (التوحيديين) فهى من التوحيد، وهود بن ابراهيم الذي كان الحنفاء أو الاحناف عليه، وجاءت الرسالة المحمدية اتماما له ولدين موسى وعيسى (عليهما السلام). وهو مصطلح نستخدمه اليوم دون أن يكون له وجود في العصر الجاهلى، حتى أن لفظة (توحيد) باعتبارها صفة للحنيفية لم ترد في القرآن الكريم، مع أن القرآن وصف الخالق عز وجل بأنه (واحد) في واحد وعشرين موضعا (24)، وأكد بأن (الله وحده) في ستة مواضع (25)، الا أن مصدر (توحيد) من الفعل المضعف (وحد) ظهر في كتابات الكلاميين أو أرباب علم التوحيد والصفات في وقت متأخر بالتسبة لظهور الاسلام (26). وهو أساس

---

(21) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 453/6.
(22) المصدر السابق نفسه.
(23) اللسان (صبا).
(24) تراجع سورة البقرة 61/2 و 133 والنساء 171/4 والمائدة 73/5 والانعام 19/6 ويوسف 39/12 والرعد 16/13 وبراهيم 48/14 و 52 والنحل 22/16 و 51 والكهف 110/18 والانبياء 108/21 والحج 34/22 والعنكبوت 46/29 والصافات 4/38 والزمر 4/39 وغافر 16/40 وفصلت 6/41 والتوبة 31/9 وسورة ص 5/38.
(25) تراجع سورة الاعراف 70/7 والاسراء 46/17 والزمر 45/39 وغافر 12/40 و 84.
(26) تراجع دائرة المعارف الاسلامية مادة (التوحيد) 106/4 الترجمة العربية.

مواعد العقائـد الاسلاميـة، وان كان المعتزلـة يخرجون من هذا الحد الصفات ، ويجعلون الاساس، التوحيد فقط. واذا كانت الفكرة بسيطة لدى الاحناف الموحدين قبل الاسلام، فهـى في الاسلام غدت أبعد ما تكون عـن البساطة. فالتوحيد اما ظاهر واما باطن، ومن معانيه أن لا الـه الا اللـه وحده لا شريك لـه. ومن معانيه أنه واحد في ذاته. ومن معانيـه أيضا أن اللـه هو الموجود الحقيقى وكل ما سـواه، وجوده (ظل وجود الحق). ثم ان التوحيد يتوسل اليـه بالعلم أو بالمعرفة والمشاهدة، والعلم والمشاهدة تفكـر أو نظر فلسفى (27). واهم الكتب الاساسية لهذا العلم : الملـل والنحل للشهوستانى، والفصل في الملل والنحل لابن حزم، ومقالات الاسلاميين للاشعري، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ، والتبصير في الدين للاسفراييني ومقدمـة ابـن‌خلـدون.

ولاحظ بعض الباحثين أن حديث الاسلاميين عن الحنفاء مضطـــرب ومختلط، وانهم ادخلوا الرهبنة بأشكالها المختلفة، ولا سيما رهبنة النصرانيه في عداد الحنيفية (28)، ثم يـدأ يضرب أمثلة لذلك بقـس بن ساعـــده الايادي وورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث، مشايعا بذلك الكتاب المسلمين في آرائهم غير الصائبـة في هؤلاء الاحناف. ثم يعـود مرة أخرى فيعلل ـ بشكل غير مباشـر، ودون قصـد منه اسباب هذا الخلط عندما يعزو سبب زهدهم ورهبنتهم بسبب حثهم لقومهم على تـرك عبادة الاصنام، فلاقـوا منهم غشما ونصبا شديدا، او بسبب تأملهم في هذا الكون، فتجنبوا الناس واعتزلوهم ، فالتجأ بعضهم الى الكهوف والمغاور البعيـدة (29).

واذا صح ما ذكروه عن وجود طائفـة في اليمن تعبد (الرحمن) وتوحده، وهـي ، في رأي المستشرقين ، تتأثـر باليهوديـة والنصرانيـة، غير ان اصحابهـا لم يكونوا منهم ، بل فرقة مستقلـة، يكون ما ذكره المؤرخـون العرب عن بنى حنيفة في اليمامة وعبادتهم الرحمن بزعامة مسيلمة بن حبيب الحنفى، هم بقايا الاحناف الا أن التحريف دخل على عقيدتهم، وبالاخص عند ظهور الاسلام، ومكابرة مسيلمة الكذاب في قبوله، ثم الارتداد فيما بعـد، ولا نستغرب من مواقف الاحناف هذه، فقد أبى نفـر كثير منهم أن

---

(27) يراجع مـا كتبه ماكدونالد D. B. Macdonald في المصدر السابق.
(28) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 453/6.
(29) المصـدر السـابـق 400/6.

يقبلـوا برسالة النبى حسدا أو جهـلا أو ضـلالا ، وان كان نفـر منهم قد آمنـوا وحسن اسلامهم، فمثال القسم الاول أميـة بن أبى الصلت، ومثال الثانـى لبيـد بن ربيعـة.

وأما ابراهيم الخليل عليه السلام، فان التوحيد يعزى اليه، فهو من أقدم المجاهدين في هذه الفكرة، وكانت الوثنية قد تفشت وانتصرت علـى التوحيد . وقد اتفقت الاراء على أن ابراهيم ولد في ارض العـراق من بلاد العرب، وان كانـوا قد اختلفوا في البلـد الذي ولد فيـه، فقيل ولـد ببـابل من أرض السواد بناحية (كوثى) وقيل في الوركاء (أور) نـاحية في حدود كسكر ثـم نقله أبوه الى كوثى، وقيل بحران ثم نقله أبـوه الى بـابل، وقيل ولـد بالسوس من ارض الاحواز العربية (30). وهذا يفسر لنا قول الامـام علـي (رض) عندما سألوه عن أصل قريـش قال : نحن قـوم من كوثـى (31) . فقال قـوم، انه أراد كوثى التى ولـد بهـا ابراهيم، وتأولوا في هذا قول الله عـز وجل (ملـة ابيكم ابراهيم). وقـال قوم : أراد كوثى مكـة، محلة بنى عبد الـدار، أي انا مكيـون من أهل القـرى. وفي جميـع الاحوال تكون تسميـة مكـة أو محلـة بنى عبد الـدار بمكـة هو تلميح للاصل الذي ولـد فيه ابراهيم زعيـم الحنيفيـة. وأورد البكري قـول حسان بن ثابـت يذكـر الكوثتين :

لعـن اللـه ارض كوثـى بـلادا   كوثـة الـدار دار عبـد الـدار
لسـت أعني كوثـى العراق ولكن   ورماهـا بالفقـر والامعـار

لكن روايـة اللسان (32) تضيف كلمـة واحدة الى قول الامـام علي (رض) : نحن نبط من كوثى. فكلمـة (نبط) حددت الموضع وهو كوثـى العراق ، لان نبـط العراق معروفون بنسبتهم الى استنبـاط الماء نظـرا لاستقرارهم، وان القريشيين بعـد رحيلهم من كوثـى العراق احتفظـوا بصفة الاستقرار فنزلوا في مكـة واطلقوا على احدى محلاتها اسم مدينتهـم القديمـة على عـادة الاقوام التى تتـرك مواطنهـا الاصلية. وتطلق علـى المواضع الجديدة اسم مواضعها القديمة اعتزازا وذكـرى. ثم حافظوا على

(30) العـرائـس ص 43.
(31) معجـم مـا استعجـم (كوثى) 1139/4.
(32) ابـن منظور مـادة (كوث) وروى البيتين المنسوبين لحسان بن ثـابت بروايـة مختلفة قليـلا.

وظيفتهم القديمة، وهى استنباط الماء، فعرفت قريش بحفر الآبار ، واقترنت باشعارهم واراجيزهم ، فاصبحت اشبه ما تكون باغانى العمل ساعة الحفر، وقد أفرد السهيلى من كتابه صفحات لشعر الابار (33). ثم حافظ القريشيون على شعائرهم الدينية التوحيدية الاولى عند نزول ابراهيم الخليل في مكة وتأسيس أول بيت مقدس فيها.

وارتبطت طفولة ابراهيم في الوركاء بمخاطر عظيمة، منذ كان جنينا في بطن امه وحتى لحظة ولادته الى أن نشأ وترعرع محفوفا بالاهوال، شأنه في ذلك شأن سيرة الابطال العظماء الذين تكتنف طفولتهم أصعب الظروف . فالملك يأمر بذبح اطفال المنطقة ، لان العرافين تنبأوا بأن طفلا يولد الان فيها ، يكون هلاك الملك على يديه. وينجو الوليد بأعجوبة، ويكبر بمعجزة ، ويصبح مصدر تهديد لوثنية الملك، ويحتدم الصراع بينهما حتى تبدأ نبوة ابراهيم بالظهور، ويتحول الى الشام، وهناك تبدأ هجراته الى مكة وعودته الى الشام، متخذا من البراق واسطة لتنقلاته الاعجازية حتى تضع له امرأته الثانية (هاجر) ولده اسماعيل، وكانت الاولى (سارة) قد وضعت له اسحق (34). وتبدأ سيرة ابراهيم التوحيدية في ولده اسماعيل الذي تزوج من (جرهم) وبدأ جهاده التوحيدي على نهج أبيه. فالتوحيد المكى هو حقيقته اشعاع عراقى أوري، ولعل الوثنية المكية هى موجة عراقية ايضا بتأثير السومريين والساميين ، وبوجه خاص المنطقة التى ولد فيها ابراهيم فهى منطقة ميلاد كلكامش بطل أوروك أيضا. وليس غريبا أن تنبثق الحنيفية من أصول عراقية، لان الوثنية كانت على اشدها أيضا . ومما يؤكد غزو الوثنية السامية لمكة، ورود اخبار تفيد أن عمرو بن لحى الخزاعى، زعيم الوثنية المنتصر على مكة نقل الاله (هبل) اليها من بلدة هيت في العراق.

وما تشير الوقائع اليه، وتؤكده الدعوة الاسلامية من خلال النصوص المقدسة ، هى أن فكرة التوحيد القادمة في صورة تحدرات موروثة على مدى التاريخ كانت مقصورة على اشخاص الدعوة المؤلفة من نبي مرسل ونفر من انصاره أو (حوارييه) فلم يؤثر عن التوحيدية انها كتب لها النهوض والانتشار في عهد (ادريس) مثلا وهو نبي قديم يسبق

(33) الروض الانف ص 97 وما بعدها.
(34) العرائس ص 48 — 49.

ابراهيم في حنيفيته، وهو أول من جهر بالمقاومة الفكرية ووقف في وجه الوثنية وتعرض للاضطهاد والتعذيب ثم رفعه الله بنفس الطريقة التي رفع بها عيسى عليه السلام فيما بعد، وادريس هو (احنوخ) نفسه المذكور في الكتب السماوية أول من أعطى النبوة من ولد آدم، وفي عصره عبدت الاصنام. قال محمد بن حبيب (انه من المرفوعين) ، ومعنى قوله أنه أول من اعطى النبوة أي أول من بدأ الصراع ضد الوثنية (35). ثم أعقبه ابراهيم فموسى فعيسى ، لكن النصر الكبير الذي حققته الحنيفية كان على يد محمد (ص)، فتحقق لها ما لم يتحقق لغيرها من ترك كل مظهر من مظاهر الشرك القديم. ويعزو المكيون أساس الدعوة الحنفية الى بلدتهم، منطلقين من كون البيت العتيق الذي بناه ابراهيم، أو رفع قواعده التى ارساها آدم قبله، قائما فيها، ثم من نشأة ابنه اسماعيل وزواجه وانجابه في مكة. ثم من اتخاذه العربية لسانا لدى زواجه من المرأتين الجرهميتين . وتفيد الروايات، ذات المسحة الاسطورية، أن أقواما من العماليق ، معروفين بفجورهم ، كانوا قد سكنوا مكة، ثم غلبهم عليها الجرهميون التى تفيد روايات اخرى ذات منحى مشابه لما سبق، أن الاصل القديم لجرهم، ملاك هبط من السماء لذنب اقترفه كما هبط هاروت وماروت، وركبت فيه الشهوة، فتزوجته امرأة ولدت له جرهما، فورد هذا في شعرهم :

لا هم ان جرهما عبادكا الناس طرف وهم تلادكا

قال السهيلي : نقلت هذا من كتاب الامثال للاصفهانى (36). وكان جرهم مع (نوح) في السفينة، وهم العرب العاربة، فنزل (جرهم وقطورا) على هاجر أم اسماعيل، وتزوج اسماعيل فيهم، فيقال أنه أخذ اللغة منهم، ويقال ان الله انطقه بها انطاقا وهو ابن اربع عشرة سنة. واما قطورا فهو ابن كركر بن عملاق، والسميدع من احفاده، ويقال ان الزباء من ذريته (37). ثم بغت جرهم وغدرت، فطمعت فيها خزاعة، القبيلة الوثنية بزعامة ملكها عمرو بن لحي. وكان السيل العرم قد شردها، فاكتسحت مكة ، وبدأ عصر وثنى جديد بصيغ جديدة، وبدأت

(35) المحبر ص 3 ووتنظر سيرته في العرائس ص 29.
(36) الروض الانف ص 80.
(37) المصدر السابق .

الحنيفية (التوحيدية) صراعا جديدا كالذي بدأه ابراهيم الخليل في العراق . ولعل ما ذكره ابن هشام يوضح كيف تداخلت الوثنية بالحنيفية ، فصار الناس يخلطون في عباداتهم ، وبقيت قلة قليلة على حنيفيتها، فلما غبر على ذلك دهر، وابتعدت الشقة أصبحت عبادة الاحناف غامضة لانهم بدأوا ينسون الشعائر المهجورة. لذلك أورد ابن هشام حديث الرسول (ص) في رؤيته لعمرو بن لحي يجر امعاءه في النار، ووصفه له بأنه : كافر، أول من غير دين اسماعيل، فنصب الاوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى. وعبدوا ما استحسنوا من الحجارة (اشارة الى عبادة الفن المتمثل في التماثيل الجميلة) وصار الناس الى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها، من تعظيم للبيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة، والمزدلفة، وهدى البدن، والاهلال بالحج والعمرة، مع ادخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت قريش وكنانة اذا اهلوا قالوا لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك، تملكه وما ملك» فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم. ويجعلون ملكها بيده. يقول الله تبارك وتعالى لمحمد (ص) : «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» أي ما يوحدونه لمعرفة حقه الا جعلوا معه شريكا من خلقه. وكان اله عمرو بن لحي هو «هبل» جاء به من الشام، ويقال من العراق، ثم تفرعت عنه اللات (38)، وهى صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف. وكانت تسمى صخرة اللات (أي الذي يلت العجين) فلما مات هذا الرجل، ويبدو أنهم كانوا يعظمونه، قال لهم عمرو : انه لم يمت ، ولكنه دخل في الصخرة، فبنوا عليها بيتا يسمى اللات وعبدوه (39).

ويأبى رواة الشعر والاخبار الا أن يضعوا جوا مأساويا للنهاية الحزينة التى آلت اليها الحنيفية ، وأن يوجدوا لهذا الجو شاعرا يجد المعنى لهذه النهاية، فيقال أن عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاض الجرهمي، كان قد نزل بـ (قنونا) من أرض الحجاز، فضلت له ابل، فبغاها حتى أتى

(38) السيرة 78/1 — 80 وذكر ابن الكلبى فى الاصنام أن هبل كان من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب. أول من نصبه خزيمة بن مدركة فكان يقال له : هبل خزيمة. ولعل هذا الصنم تجديد للصنم الذى وضعه عمرو بن لحى.

(39) المصدر نفسه .

الحرم ، فأراد دخوله ليأخذ ابله، فنادى عمرو بن لحي : «من وجد جرهميا فلم يقتله، قطعت يده». فسمع بذلك عمرو بن الحارث، واشرف على جبل من جبال مكة، فرأى ابله تنحر ويتوزع لحمها، فانصرف بائسا خائفا ذليلا، وأبعد في الارض ثم قال (40) :

وقائلة والدمع سكب مبادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما
يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت
نعز فما يحظى علينا المكاثر

ثم تمضى القصيدة في وصف ما آلت اليه جرهم بعد عزها، وكيف خرجت من خدمة البيت الذي لا يؤذى حمامه ولا وحشه . واما الطبري (41) ، فهو يؤكد بأن مكة قبل عهد ابراهيم وابنه اسماعيل كانت بلاقع، وحول مكة يومئذ العماليق وجرهم، فتزوج اسماعيل امرأة من جرهم، وهو قول الحارث بن مضاض في القصيدة نفسها :

وصاهرنا من اكرم الناس والدا
فأبناؤه منا ونحن الاصاهر

فولي البيت بعد اسماعيل حفيده (النبيت بن قيدر بن اسماعيل) وهو الجد الاعلى لمعد بن عدنان. قال قعنب بن عتاب الرياحى (42) :

تناشد في طي وطي بعيدة
وتذكرني بالود أزمان ينبت

---

(40) السيرة 120/1 ووالروض 81/1.
(41) تاريخ الرسل والملوك 274/2.
(42) المصدر السابق.

ويعدد الطبري ابـاء العرب من معد بن عدنان الى اسماعيل، متوقفا عند كل جد منهم ذاكرا الشعيرة الدينية التى ابتدعت في عهده كالعقيرة والرجبية وطقوس الكرم العربية. ثم أوردت المصادر (43) شعرا توحيديا للحارث بن مضاض غير ما ذكرنـا سابقـا . وأوردت هذه المصادر اشعارا تفيد بأن خزاعـة وليـت خدمة البيت بعـد جرهم، وهو قولهـم :

ونحـن ولينـا البيـت من بعـد جـرهـم
لنعمـره مـن كـل بـاغ وملـحـد

ومثـل قولهـم :

واد حـرام طـيـره ووحشـه
نحـن ولاتـه فـلا نغـشـه

فان صح ذلك، تكون خزاعة قد تسللت الى الحرم ثم انتكست التوحيدية على يد عمرو بن لحي ، فكـان دخول الوثنيه الى البيت على أيديهم، فانتفض الكنانيون، الورثة الشرعيون للحنيفية، مستندين الى معونة خارجية، وبعبارة اخرى، عودة الى شعائر الاحناف مرة أخرى، والى الحكم التوحيدي في ادارة شؤون البلدة التى عدت يحـق، يومئذ زعيمـة الفكر الدينى في بلاد العرب ، لكن دون التخلص من مظاهـر الشرك المتفشية فيها. وقد بـدأ السجال الفكري والعسكري بين الكنانيين والخزاعيين علـى عهـد (كنانـة) الجد ثم ابنه النضر بن كنانة، ثم تكلل بالنصر على يـد الحفيد قصى بن النضـر بن كنانـة (44). وقد رويت بهذا الصدد اخبـار كثيرة عن طـول النزاع الدينى الى أن استقر في يـد قصى الذي ذكـرت المصـادر انـه أول من أصـاب الملـك مـن ولد كعـب بـن لـؤى ، فقـال فيـه الاعشـى (45) :

حلفـت بثـوبـي راهـب الشـام والتـي
بنـاهـا قصـى جـده وابـن جـرهـم
لئـن شـب نيـران العـداوة بينـنـا
ليـرتحلـن منـي علـى ظهـر شيهـم

(43) المصـادر الثلاثة المتقدمـة.
(44) المفصـل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 37/4 ومـا بعدهـا من الصفحات.
(45) ديـوان الاعشـى.

واذا شئنا ايجاز ما تقدم ، علمنا أن تاريخ مكة يرتقي الى أيام داود. ففي ايامه انشأ الشمعونيون (السمعونيون) الكعبة ، وهم بنو جرهم (46). وقبلهم كان العمالقة منتشرين في البلاد، فجلتهم جرهم اليمنية حتى حل فيهم ابراهيم الخليل ثم ولده اسماعيل الذي تزوج (حرا) بنت سعد بن عوف بن هنيء الجرهمى ، فطلقها بوصية من ابيه فتزوج بنت الحارث بن مضاض الشاعر المتقدم ذكره . ثم غلبتهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر وهم بنو خزاعة، فقام عمرو بن لحى ملكا عليهم وكان وثنيا، فأدخل مظاهرها على التوحيدية، فثارت عليه الحنيفية ، فاستعان عمرو بن لحى ببعضهم في مناسك الحج وبالاخص الكنانيين ، فكان النضر بن كنانه الذي التقى بالاسكندر المقدونى فأعجب به وساعده على طرد الخزاعيين الوثنيين ، هو اشد رجالهم . واستمرت حتى صارت في يد عبد مناف ثم في ولاية هاشم وعبد شمس ثم في أمية بن عبد شمس الذي حسد عمه هاشما . ومات هاشم قبل اخوانه بفترة بينما مات نوفل بطريق العراق في سلمان ومات عبد المطلب بردمان من أرض اليمن، ومات عبد شمس بمكة. وأوصى هاشم بعد موته لاخيه المطلب فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة، وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد أيضا.

وهكذا تكشف لنا هذه المسيرة الفكرية الوثيقة اصالة الحنيفية في أرض العرب ، كما تعكس لنا التفسير الحقيقى لظاهرة ضعف المعتقد الوثنى لدى العربى ، ذلك لان الوثنية طارئة عليهم، وان الاصل في عقيدتهم هى الحنيفية دين اجدادهم القدماء منذ ادريس والجراهمة واسماعيل ابن ابراهيم الخليل، وقد اقترنت بلغتهم أيضا، وكانت الزعامة الدينية قد آلت الى أبي طالب بعد عبد المطلب ، فكان في عهده احياء الدعوة التوحيدية في صورة من صور الجهاد (النضال الديني) وبشكل لم يسمع به الناس من قبل. على يد شاب ينتسب الى نفس العائلة ذات الحسب العريق في التوحيد ، ثار على أهله المتحالفين مع الوثنية ، وعلى قومه المنقسمين الى وثنيين وتوحيديين ، وحتى توحيديتهم ليست بصفاء التوحيدية التابعة من الاصل ، بل تعكرها مظاهر وثنية واحدة، فلقيت توحيديته مقاومة عنيفة من قبل المكيين ابناء اسماعيل انفسهم، وذلك

(46) المفصل 5/4.

لانهم اعتادوا هذه الجبهـه الدينية التى اوجدوها في صفوفهم منذ أيـام الخزاعيين المنتصرين بعـد طـرد الجرهميين ، فعاشت الآلهة الوثنية داخل الحـرم المكـى في مشاركة مادية ، وجدانيــة مع الـــه ابراهيم الواحـــد الاحـد ، بحسب معتقدهم ، فاستعظموا أن يخرجوا على ما اصطلح عليـه اجدادهم ، ولانهم هـال عليهم أن تأتـى للقبائل من العـرب في الموسـم السنوي لتجـد اصنامها وقد رميت خارج البيت منبوذة مطرودة، ويكون بذلك الفنــاء الابـدي لهم ولمعتقداتهم ومصالحهم التجارية. وحقا لو كان الامر قد تـم بالصـورة التى ارادها الرسـول (ص) أول مـرة واستجاب المكيون للدعوة منذ البـدايـة، لكان المصير كما تصـوره القريشيون. لذلك كانت الهجرات الثلاث ، هجرة الاوائـل بلا قائدهـم الى الحبشة، ثـم هجـرة القائـد بـلا اتباعه الي الطائف ، ثم للهجـرة الحاسمة، وهى هجرة القائد والمجاهدين معا الى طيبة أو يثـرب ، بعد جهـاد قـاس وعـذاب شديد وصراع مع رؤسـاء القبائل الى أن تولـدت القناعـات كاملة، فجاءت القبائل بنفسهـا الى مكة لتطهر الحـرم المقدس وترمى بآلهتها الوافـدة والدخيلـة والمزيفة الى خارجه، فكان تعبيـر أسلوب العمل من البدء مـن الداخل الى البـدء من الخـارج ثم الاتجاه الى الداخل هو الصواب.

ان هذا العرض السريع لهذا الجهـاد الفكري والمناضلة الحنيفيــة، رسمت لنا مسار التوحيد الحنيفى . وقد ظل هذا الفكر يخترق حاجز الزمن دون أن يفقـد توهجه وأصالته حتى اختير له من النبى محمد بن عبد الله بن عبد المطلـب رسـولا للديـن الحنيـف.

وقد تقدم الكـلام عن مصطلح (حنيف) في المعجمات ، وعما جذره في الاستخدام التاريخى ، وانه مصطلح جاهلى قديم بدليل وروده في القرآن الكريم كما سبـق ان ذكرنـا ذلك . وورد أيضـا في الشعر العربي في قول أميـة بن أبـى الصلـت (47).

كـــل ديـن يـــوم القيامـة عـنـد اللـــه
الا ديـــن الحنيـفـــة بـــــــــور

وأوردت السير أن هاتفا (من الجن) ذكـر الحنيفية من شعره (48).

(47) ديـوانــه 339.
(48) الروض 85/2 ابــن كثير 478/2.

وذلك أن قريشا حين توجهت الى بدر مر هذا الهاتف على مكة في اليوم الذي أوقع المسلمون بهم، وهو ينشد بانفذ صوت ولا يرى شخصه :

أزار الحنيفيون بدرا وقيعة
سينتقض منها ركن كسرى وقيصرا
ابادت رجالا من نؤي وابرزت
خرائد يضربن الترائب حسرا
فيا ويح من أمسى عدو محمد
لقد جار عن قصد الهوى وتحيرا

فقال قائلهم :

– من الحنيفيون ؟!

فقالوا :

– هم محمد واصحابه، يزعمون انهم على دين ابراهيم الحنيف. وورد استخدام المصطلح في النثر الجاهلى (49) على لسان أحد الفرسان المعروفين وهو بسطام بن قيس في يوم من أيامه، وهو يوم الغبيط، حين غزا بلاد تميم فأسره فارسها عتيبة بن الحارث اليربوعى. فحاول أخوه بجاد بن قيس أن يفك أسره، نادى عليه بسطام بن قيس ليمنعه من أن يكر على الاعداء لكثرة عددهم وقوتهم ، فقال :

– ان كررت يا بجاد فأنا (حنيف).

يهدده بالخروج من دين قومه والدخول في الحنيفية . وفسر علماء القرنين الهجريين الاول والثانى قول بسطام هذا بأنه كان نصرانيا باعتبار قبيلته نصرانية ، واذا صح ذلك ، فهو يعطى الدليل على جوهر الاختلاف بين الديانات السماوية الكتابية وبالاخص اليهودية والنصرانية وبين الحنيفية . أما اذا كان بسطام وثنيا، فالامر واضح جدا، وأنا أميل للرأي الاخير ، لان بسطاما لو كان نصرانيا لما سعت الفرس الى توجيهه في حملات تأديبية ضد بعض المستوطنات العربية على التخوم الفارسية وحتى في داخل بلاد العرب (50). وهذا ينسحب على من يعزو

(49) أيام العرب فى الجاهلية ص 197 وما بعدها.
(50) تاريخ الادب العربى – بلاشير. ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلانى. دمشق.

الشاعر عدي بن زيد الى النصرانية، مع أنه يعمل في بلاطات الفرس المعادين للغرب المسيحي وبذلك يكون بسطام بن قيس بتهديده لاخيه بدخوله في (الحنيفيه) ، انما يريد الخروج من دين ابائه وعبادة آلهتهم الى الاعتقاد التوحيدي على طريقة الاحناف المتألهين في الجاهلية، والاحناف كانوا يقفون في المواجهة ضد الفكر الوثني وليس ضد المسيحيين، فلما جاء الاسلام اصبح الفكر التوحيدي حنيفيا مسلما، فقصد بحنيفيته معاداة الوثنية ورفض بعض المظاهر غير التوحيدية في اليهودية والنصرانية وغيرهما ، ثم قصد بالاسلام الغاء الدور المسيحي واليهودي في بلاد العرب، لان القرآن الكريم أكد كون ابراهيم حنيفيا، نقيض الوثنية، مسلما، ليس يهوديا ولا مسيحيا. ولعل تأكيد اسلامه جاء اتماما لحنيفيته بعد أن أصبحت الحنيفية لا تفي بغرض التوحيد، بل الاسلام الذي صدقت قاعدته العريضة على جميع الاديان محتوية اليهود والمسيحيين والصابئة وجميع التفريديين والوثنيين ، باعتبار الاسلام طريق العالم الوحيد نحو الخالق.

ب) الشعر :

نستطيع أن نضع شعر الاحناف في مجموعتين ، الاولى تضم الشعر التوحيدي الذي يعزي الى عناصر قديمة مغرقة في القدم، ومخلوقات غيبية كشعر الهواتف والجن وغيرها. ولما كان هذا اللون من الشعر لا يطمئن الى أصالته اللفظية ، ويمكن الاقتصار في تصديقه على معانيه فحسب، فقد وجدناه في الدراسة ضمن مجموعة (طائفة أشعار التوحيديين من غير القدماء) وهم الاحناف الذين عاصروا البعثة، وادركوا العهد المكي الاول وعاشوا الى ما بعد الهجرة. ولنا عليه عدة ملاحظات، أبرزها، بسبب قدمه وغيبيته ، ضعف الصنعة وانعدام الاتقان، وابتعاد هذا الشعر عن الجمالية الفنية وعن متانة السبك. ويتصف أيضا بطغيان الركة عليه وافتضاحه حتى في جانب كبير من معانيه ايضا. لكننا - مع ذلك - نحترس كثيرا في هذه الاحكام، لان اجزاء كبيرة من الشعر الجاهلي المتقن ، طعن العلماء في صحتها أيضا.

أما المجموعة الثانية من الشعر التوحيدي فهو الشعر الوارد في دواوين الشعراء المسندة الى علماء معروفين بالتوثق والتحقق وغربلة الشعر قبل روايته وتدوينه، وان كنا لا نطمئن الى هذا أيضا، لان

اجزاء كبيرة مما اوردهـا ابن هشام، على ما نعـرف من مقدار طعنه في الروايات التى ذكرهـا في سيرته، لا يخلـو من ضعف وركاكـة ، وقـد يعـزي بعضه الى مخلوقـات غيبيـة ، ولا نملك تعليلا لشعر الجـــن والهواتـف الا من وجهين اما أن يكون هذا الشعر لبشر جاهليين، صنعوه ونحلـوه الجان ، فهو في حقيقته شعر منحول الا أن قائله جاهلي، وعندئذ يصبح في حكم الصحيح لدينا، لان المهم هو أن يكون جاهليا وضمن معانى التوحيد. والوجه الثانى هو أن يكون هذا الشعـر لاناس لم يدركوا الجاهلية، صنعـوه ونحلوه الجان، فهـو على هذه الحالـة فاسـد رديء، لا يصلح أن يصنــف في أشعار الجـاهليين في حال من الاحــوال، ويصلح فقـط لان يـدرس على أنه صـورة محكية لشعـر الجاهليين، وقد يفيد في التمـاس الاصل عن طريق هذه الصـورة المزيفـة بالتقليـد، ولا تخلو هذه الحالة من نضـج ولو ضئيـل . ولقد كنـا في موضع غير هذا، قـد عرضنا رأيا في طبيعـة هذه النصوص (51) ، وبالاخص القديمة منها، مما يعـزى الى ادم ونــوح وعاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة وغيرهم، فأخذنا بأننا لكى نكون معقولين في روايتنا لهذه النصوص وقبولنـا لهـا، علينا أن نستسلم للرأي القائل باقتصـار صحتها على معانيها دون الفاظها، وان هذه الصورة المتوارثة لدينا ليست هى صـورة الاصـل مطلقـا، فهى مغايـرة لها تماما، لان لغـة أولئك القـوم غير لغـه العرب في عصورهم الجاهليـة والاسلامية. واننا لو عثرنا على النصوص الادبية ، الشعرية والنثرية التى تخطت عصر امريء القيس بن حجـر الشاعر وسبقته بأزمان، لوجدنا اختلافا في لغـة الشعـر بين هذين العصرين ، وتباينا في مضامينه واشكاله، كاختلاف لغة الشعر بين عصرين مثل الجاهلي والعباسى، أو العباسى والعصر الحديث، هذا برغم التـزام العصر العبـاسى بلغة القرآن واصراره على أنه لا يريد أن يتحول عن أعمـدة الشعـر الجاهلى، لان العصر الاسلامي والعباســى يعدون أنفسهم ورثة شرعيين للعمـالقـة مبدعـى المعلقـات والمجمهرات والمفضليات، يؤكد ذلك قول الفرزدق (52) :

وهـب القصائـد لـي النـوابغ اذ مضـوا
وابـو يزيـد وذو القـروح وجـرول

(51) تاريخ الادب قبل الاسلام فصل (النثر الجاهلى).

(52) النقائض 200 — 201 وعنى بالنوابغ، وهـم الثلاثة : الذبيانى والشيبانـى والجعـدى. وعنى بأبى يزيـد المخبـل السعدى، وجرول : الحطيئة، وأما أخو بنـى قيـس قتيل القوافى فهو طرفة.

والفحل علقمة الذي كانت له
حلل الملوك ، كلامه لا ينحل
وأخو بنى قيس وهن قتلنه
ومهلهل الشعراء ذاك الاول
والاعشيان كلاهما ومرقش
وأخو قضاعة قوله يتمثل
وأخو بنى أسد عبيد اذ مضى
وأبو دواد قوله يتنحل
وابنا أبي سلمى زهير وابنه
وابن الفريعة حين جد المقول
والجعفري وكان بشر قبله
لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثت لآل أوس منطقا
كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثى أخو الحماس ورثته
صدعا كما صدع الصفاة المعول

فاذا كان هذا شأن الشعر في عصوره الاسلامية، فكيف به في عصوره الوثنية القديمة، المعرضة لعمليات التغيير الاجتماعى بصورة سريعة وكبيرة ؟ بقي لنا أن نفترض أن هذه النصوص ـ اذا صحت ـ تكون رواياتها بمعانيها فقط، وليس بالفاظها مطلقا، وان الرواة الذين كانوا يتداولونها ، يترجمونها الى لغة الجمهور الذي يتلقف عن طريقهم هذا الموروث الدينى والثقافى، فتصبح الاساطير والقصص والاشعار المتداولة، مروية عن القدماء بلغة الجيل المتلقى لها، ولا يخفى على ذوي الاختصاص ما يصيب المعانى أيضا من التحريف والتغيير في متن الرواية وفي طبيعة القصة وأحداثها والبطل وسيرته. ولدينا مثال قريب وواضح من سير الابطال الجاهليين مثل مهلهل بن ربيعة الذي تحول الى (الزير سالم) (53)،

(53) مهلهل بن ربيعة هو خال امرىء القيس الشاعر الذى سيرته قريبة الشبه بسيرة خاله. وأما تسميته بالزير سالم، فهى قديمة أيضا بل جاهلية. فالزير لقب أطلقه عليه أخوه كليب بن ربيعة، وتكره مهلهل فى شعره :

فلو نبش المقابر عن كليب
لخبر بالذنائب أى زير

وسالم اسم لمهلهل، ذكره أبو عبيدة فى نقائض جرير والفرزدق.

وعنترة بن شداد، والسيرة الهلالية، وسيف بن ذي يزن، والمقداد بن الاسود الكندي، وغيرهم ممن اجرت عليهم ريشة الفنان الاسلامي وجمهوره المتطلع ، تحويرات كبيرة في مسرح الرواية واحداثها وازمانها، مغيرة معالمهم وسمات شخصياتهم بما يوافق الظرف الجديد الذي يعيشون فيه. وأشار تالمصادر القديمة الى مثل هذه الظاهرة، مؤيدة ما نذهب اليه. فقد أورد ابن هشام في السيرة نصاً منقولا عن حجر استثير في بعض حفريات اليمن، وهو رقعة من كتاب بالزبور كتب في الزمان الاول، جاء فيه : « لمن ملك ذمار ؟! لحمير الاخيار. لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الاشرار. لمن ملك ذمار ؟ لفارس الاحرار (54). لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار». وهذا الكلام المسجوع نقله السهيلي (55) عن المسعودي منظوما :

حين شيدت ذمار قيل لمن أنت ، فقالت لحمير الاخيار
ثم سيلت من بعد ذاك فقالت : أنا للحبش أخبث الاشرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن انت فقالت لفارس الاحرار
ثم قالوا من بعد ذاك لمن انت فقالت الى قريش التجار

ثم أورد السهيلي . ان هذا الكلام فيما زعموا من كلام هود عليه السلام مكتوبا في منبره وعند قبره، حين كشفت العاصفة عن منبره الرمل حتى ظهر، وذلك قبل ملك بلقيس بيسير ، وكان خطه بالمسند. ويعالج صاحب كتاب العرائس (56) (ت 427 هـ) هذه القضية بوضوح حيث يورد شعرا لآدم عليه السلام، ويقول : ان هذا أول شعر قيل. ثم يتابع مناقشة هذا الشعر ومدى صحته فيقول : وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال أن آدم قال هذا الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمآثم ، والانبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، وأورد الآية. ثم يتابع : ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم، وهو سرياني. وامنا يقول الشعر من تكلم بالعربية فلما قال آدم مرثيته في ابنه هابيل،

---

(54) السيرة 72/1 وابن كثير 50/1 وكان العرب يطلقون على الامم التى يبقى فيها الملك متوارثا اسم (الاحرار) ثم أسقط العرب المسلمون عن الفرس هذه الصفة بعد الاسلام، بعد أن جلتهم جيوش التحرير العربية عن أرض العرب، وتعقبتهم الى عقر دارهم. ونمار هنا : اليمن أو صنعاء.
(55) الروض لانف 55/1.
(56) الثعلبي ص 28.

وهو أول شهيد على وجه الارض، قال آدم لشيث : يـابنى انـك وصيي، فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس، فلم يزل ينقل حتى وصل الى يعـرب بن قحطان بن هود عليه السلام، وكـان يتكلـم بالسريـانية والعـربية، وأول من ركب الخيل (الفروسية) وقال الشعر . فنظر في المرثية، فاذا هو سجع، فقال ان هذا يقوم شعرا (57)، فرد المقدم الى المؤخر، والمؤخر الى المقدم، فوزنه شعرا، فما زاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال (58) :

تغيـرت البـلاد ومـن عليهـــا فوجـه الارض مغبـر قبيـــح
تغيـر كـل ذي طعـم ولـــون وقـل بشاشـة الوجـه الصبيح

وهى ابيـات ، اورد بعدها شعـرا مثله ، قالته زوجته (حـواء) فـي ولديهـا المقتول منهما والقاتل

وهذه النصوص ، لو صحت ، فهى تحمل شيئا من اصولها المحصورة في معانيها المتوارثة عبر العصور السحيقة . واذا شئنـا مثالا أحدث في تطور النصوص عبر اللغات المتعددة التى تتوالى على المنطقة العربية ، فلننظر الى المقطع الاسطوري لقصة الطوفـان في الالـواح السومريـة ، والنصوص الشعريـة بما في الالواح السامية واللغات الاخرى مع مقارنتها بما توردە الإسفار التوراتية ثم تجدد القصة في الموارد العربية الكلاسيكية لنجـد الفرق الواضح بين هذه النصوص ومدى تأثيرها بالمسيرة الطويلة عبر اللغات المتعددة (59) . وعلى هذا، يكون قبولنـا لذلك الشعر التوحيدي القديـم ، من جانبه المعنوي ، وقبولنا لشعـر التبابعة المستشهد به، وشعر الاحناف المعاصر للبعثة أو قبلها بقليل . ويعـد الشعر المنســوب لآدم وزوجته ، أقـدم اشعار التوحيديين بل هو مقدمـات غامضة ومشوشة، ان لم تكـن محاولات عقيمة للتغييش بأولية الشعر التوحيدي ضمن سبـاق غير مجـد مع الشعـر الوثنـى ، بعـد أن أعقبـه اقحام نصوص شعريـة لتبـع (اسعد بن ابيكرب) (60) في بلوغه مكـة وخضوعه لفكـرة الحنيفية الخليليـة ونبذه للوثنية التى كان عليها قبل ان يصل البيت ويكسوه :

(57) يلاحظ فى النص علاقة الشعر بالفروسية، كأن الحماسة من أسباب الشعر، ويلاحظ أيضـا علاقة السجـع بالشعر، كأن الشعر خرج من السجع.
(58) لـم يتوفر لدينـا النـص المسجوع لننظر كيف فعل ذلك..
(59) تراجع الدراسة الكبيرة التى قدمها الدكتور فاضل عبد الواحد عن قصة الطوفان فى النقوش السومرية والسـامية والموارد والمدونـات الكلاسيكية فى كتابه : الطوفان.
(60) السيرة 19/1 ـ 25 واروض الانف ص 27.

وكسونا البيـت الذي حرم اللـه ملاء منضـــــدا وبـــرودا
فأقمنـا به من الشهـر عشـــرا وجعلنـــا لبـابـــه اقليـــــدا
ونحرنا بالشعـب ستـة ألـــف فتـرى النـاس نحـوهـن ورودا
ثـم سرنـا عنـه نـؤم سهيلا فـرفعنـا لـواءنـا معقـــودا

اما سبيعة بنت الاحب ، زوج عبد مناف بن كعب بن كنانـة، فقد تلقـت خبر تبـع وشعره ضمـن موروثات قومها، فخاطبت ولدها تقـول معظمـة عليه حرمة مكـة وناهية اياه البغى فيها ، ذاكـرة التبغ وتذلله لهـا وما صنـع (61) :

ابنـــى لا تظلــم بمكــــة لا الصغـير ولا الكبـير

الـى أن تقـول :

ولقـد غـزاهـا تبـــع فكسـا بنيتهـا الحبيـر
وأذل ربـــي ملكـــه فيهـا فأوفـى بالـنـــذور
يمشــي اليهـا حـافيـــا بفنـائهـا الفـا بعـيــر
ويظـــل يطعـم أهلـهـــا لحـم المهـاري والجـــزور
يسقيهم العســـل المصفـى والـرحيـض مـن الشعـير

ثم تنتقل الى قصة اصحاب الفيل وهلاكهم . ويلاحظ على هذا الشعر واضرابه من شعـر الاحناف امثال عمرو بن زيـدوورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد المطلب بن هاشم وابى طالب بن عبد المطلب في اغلب شعـره ، انه يـرد في كتـب السيـر والمغازي والتاريخ مثل سيرة ابـن هشام وسيـرة ابن كثير والـروض الانف والسيرة الحلبية ومغازي الواقدي وتاريخ الطبري ومروج المسعودي ، ويـرد في كتب التراجـم والتفاسير والحديث مثل تراجم الصحابة بأنواعهـا كالاصابـة لابن حجر واسـد الغابـة لابن الاثيـر والطبقات لابن سعد وتفسير الطبري وتفسير الطبرسى والنهاية في غريب الحديث لابن الاثيـر والنهايـة لابن كثير.

ان عنصر القصـة وطابع الغرابة وسمة المبالغة مما يطغى على هذه الكتب ، بل تكاد تكـون من ابـرز طوابعها حكايـات الجن والقصـص الاسطورية ، لذلك اوردت من شعـر الاحناف ما يغلـب عليه الانتحـال

(61) السيرة 27/1 بن كثير 21/1 وقـال ابن هشام : وهذا الشعر مقيد، يوقف على قوافيـه لا يعرب.

والصنعة والضعف والركاكة . لكننا نستطيع أن نقف على جزء غير يسير منه يورد في كتب أخرى تعتمد الرواية الموثقة والصحيحة ولا تأخذ الا عن رواة عرفوا بجودة مروياتهم ، وان كانت اختياراتهم لا تخلو من تمحل أو تكلف ، فهي تورد الشعر لمن ذكرنا من الاحناف ممن تتوثق من شعرهم، وتورد لغيرهم ممن يدخلون في عداد الاحناف ممن تثق بدواوينهم مثل شعر لبيد بن ربيعة وعدي بن زيد واوس بن حجرٍ وزهير بن أبي سلمى وعبيد بن الابرص وامية ن أبى الصت . وابرز هذه الكتب هى المفضليات للضبى والشعر والشعراء لابن قتيبة والاغانى لابى الفرج والعقد الفريد لابن عبد ربه وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، وتدخل في هذه المجموعة دواوينهم العديدة مثل ديوان لبيد بن ربيعة الذي عرف باتجاهه التوحيدي في شعره منذ الجاهلية ، وزهير بن ابى سلمى المتأله المتدين، مع غموض في دنحاه الالاهى والدينى، كما تقص علينا روايه اسلام ولده كعب، والحوار المثير الذي جرى بينه وبين أخيه بجير الذي سبقه الى الاسلام. وهو حوار يشير الى محاججة فكرية عقائدية انتهت بهزيمة الشاعر كعب وقبوله الاسلام بديلا لمعتقده الدينى الذي ورثه عن أبيه زهير (62) . وكان زهير قد أخذ تألهة عن استاذه أوس بن حجر ، شاعر تميم وحكيمها، ومؤسس المدرسة الاوسية في الشعر . وأوس هو الذي يقول (63) :

أطعنا ربنا وعصاه قوم

فذقنا طعم طاعتنا وذاقوا

لذلك نجده يعيب على الوثنيين عادتهم في زواج الابن البكر من امرأة أبيه، وهى في منزلة والدته، اذا مات (64). وهو الشاهد ذكرناه في الصفحات المتقدمة

ولا نعلم ما طبيعة العبادة التى ورثها زهير عن أوس ، ولا «الرب» الذي كان يتحنف له ، ولا معانى الصيغ المستخدمة في (الطاعة) و (العصيان) التى استخدمت في الاسلام فيما بعد.

---

(62) ديوانه ص 57.
(63) ديوانه ص 57.
(64) المحبر 325 والضيزن هو الذى يخلف على امراة أبيه.

واوردت كتب الاختيارات والحماسات جزءا يسيرا من شعر الاحناف. الا ان ديوان أمية بن ابي الصلت ، يكاد يكون ترجمة حرفية لمقاطع كثيرة مما ورد في القرآن الكريم من آيات وسور في شؤون انسانية ومشاهدات كونية وسبحات ذهنية في فلسفة الحياة والموت . ونلمح مثل هذا الاتجاه المحض في ديوان عدي بن زيد وعبيد بن الابرص، واشتات في دواوين بعض الشعراء الجاهلي. ممن نعترف بأنهم موحدون وممن نعترف بأنهم قد يخونون في هذا المنحى لكننا لا نعرف ذلك، مع أن وثنيتهم لم تتأكد لدينا. فمن ذلك قول الاخنس بن شهاب، جاهلي لم يدرك الاسلام (65) :

ولقد شهدت الخصم يوم دفاعه
فأخذت منه خطة المقتال
وعلمت أن الله جاز عبده
يوم الحساب بأحسن الاعمال

وهذا يضاف الى ما قاله زهير في معلقته ولبيد وحتى السموأل في قوله (66) :

وأتاني اليقين أني اذا مت   وان رم أعظمي مبعوث

وعلى وجه العموم ، يختلط شعر الموحدين ، ممن يدخلون في عداد الروايات الدينية التاريخية. واصبحوا محض ذكرى باهتة في ذاكرة الاجيال، بشعر الاحناف ممن عاصروا البعثة النبوية أو سبقوها بقليل، وبشعر الموحدين المسلمين ممن أخذ شعرهم طوابع الدين الطالع. وقال عبد قيس ابن خفاف في قصيدة مفضلية (رقم 116) وهو جاهلي :

والله فاتقه وأوف بنذره   واذا حلفت (مماريا) فتحلل

(65) المصدر السابق 322.
(66) السموأل ديوانه ص 23 ويراجع ديوان لبيد ص 38، 41.

الاتجاهـات العقائديـة والاطـر الفنيـة لشعـر التوحيـد :

يأخذ شعر التوحيد في أطره العقائدية العـامة أبعـادا فكـريـة ذات اتجاهات محدودة ، اذا قيست بمـا استقر عليه الشعر التوحيدي الاسلامى المتطور فيما بعـد . وأبـرز هذه الابعاد هو الاتجاه النسكى الغارق في نمط من عبادة مجهولة الاسس ، غامضـة المقاصد، وان كانت تؤكد وحدانيـة الخالق ، الا أن معالمهـا وفق المنظـور العقلى للاسلاميين ، لم تحـدد لدى الاحناف ، كما لم تتحـدد ملكوت السماوات والارض لديهم. ثم الاتجاه الذي تعكسه مبادىء الثقافـة الدينية الموروثة والمنقولة والمتأملة. وقـد تتخللهـا مقاطـع اسطورية ، وربما كان أثـر الحنيفية على البيئة العربية، بتضح في شطحات ذهنية توحيدية، تبرز في اشعار طائفة من الوثنيين.

ولا يتجاوز شعر التوحيد في اتجاهاته وأطـره، حدود عالمه الذي يتحرك فيه ويدعو اليه ويعمل على ابراز دوره في بـلاد العرب، برغم الهزائم التى الحقها الوثنيون في الماضى بالتوحيديين على مختلف الاصعدة : السياسية والاجتماعية داخل المجال العربى وعلى الصعيد الدولى والعالمى أيضـــا. وأبرز ما تلقانا من اتجاهات هـذا الشعر ، هى تلك المعانى التى تتبلور في التضرع الى الخالق الواحـد الاحـد، وتقديس حرمه وبيته العتيق، ثم يستتبع ذلك بالضرورة، تعظيم مدينة مكة أيضا ومناسباتهـا ومنـاسك حجهـا. وأما الموضوعات التقليدية من مديح ، وهجاء ورثاء، فقد يتحقق وجودها ضمن الصيغة التوحيدية نفسها. فقـد مـدح شعراؤهم عقيدتهـم الدينيـة ومقوماتهـا الاخلاقية وما يتحلى به الاحناف ، وهجـوا مقابل ذلك، مظاهر الوثنية المادية وقيمهـا الاجتماعية والاخلاقية المبنية على التعدد والتجزئة والشـرك والاصنام. واما المراثى التوحيدية ، فقـد كانت توجه عـادة الى بعضهم البعـض ، ليس الى غيرهم من البشـر. ونهج شعـر الموحدين الاسلاميين طريقـا خاصـا في المديـح ، هو الشعـر الذي كـان يقوله المسلمون في عهدهم الاول عند اسلامهم، ومديح عقيدتهـم ومـــدح رسـول اللــه (ص) .

واتجهت اشعار بعض الشعراء المتألهين ، ممن يدخلون في طبقـات الفحول ، بحسب تصنيف ابن سـلام وتوزيعه النقدى لهم ، نحو التأمل الفلسفى ، ينطلق بعضه من قاعـدة التجارب الفطرية والشخصية في الحياة.

وبعضه الاخر من تجربة الناس في بلاد العرب، حيث تتجمع لديهم طائفة من الرواسم (العبارات والصيغ الجاهزة) والامثال في شكل حكمة او موعظة ، تتطور وفق ما يصيبها من اضافات مع مر الزمن. على ان جانبا من هذه التاملات الفكرية في منطلقاتها المعمقة لا تخلو من احاطة ببعض الفلسفات والحكم، وفق ضوابط مدرسية، وذات طابع منظم في البحث والدراسة والتتبع الاصولي لدى مفكرين سومريين وساميين وارامين ، عرفت طريقها الى العرب عند ظهور مثل هذه النزاعات الفكرية في عهد ما قبل التدوين .

وابرز ما يطالعنا من اتجاهات هذا الشعر في حدود العقيدة، هي ظاهرة التضرع للخالق . والتوجه اليه بالخضوع والطاعة والاستسلام. تلك الظاهرة المعدومة تماما في شعر الوثنيين . فمن قبيل ذلك قول عبيد بن الابرص (67) :

وكل ذي غيبة يؤوب	وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه	وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك	علام ما اخفت القلوب

ومثله قول لبيد بن ربيعة (68) :

ان تقوى ربنا خير نفل	وباذن الله ريثي وعجل
احمد الله فلا ند له	بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى	ناعم البال ومن شاء أضل

قال في اللسان : «قال لبيد هذا في جاهليته ، فوافق قوله النزيل العزيز». والقصيدة تبلغ التسعين بيتا، حسبت ضمن مراثيه في اخيه (اربد) مع انها ليس فيها من الرثاء سوى بيت واحد هو البيت الثمانون.

وارى أربد قد فارقني ومن الارزاء رزء ذو جلل

ولعل البيت مقحم في القصيدة فيما بعد من عمل لبيد نفسه أو عمل الرواة، وهذا يؤيد ما ذهب اليه البعض من انها جاهلية وافقت الفاظها التزيل ، ويضاف اليها قوله :

كل شيء ما خلا الله جلل. والفتى يسعى ويليه الامل

(67) الشعر والشعراء 269/1.
(68) ديوانه ص 174 (ق 26).

واذا كانت القصيدة اسلامية حقا، فيجب أن يكون الرواة قد انتزعوا منها أبيات الرثاء في أربد، لما يكتنف موته من رجس الوثنية، متذكرين بهذا مراثى متمم بن نويرة في أخيه المرتد مالك بن نويرة. وتروى للبيد في هذا الاتجاه العقائدي عدة قصائد، مكونة حالة شعرية خاصة يمكن أن تعرف بحالة لبيد. وشعره في هذا المنحى، اما أن يكون جاهليا وان هذا الحس الدينى فيه من تأثير حركة التوحيد الحنيفى، الضاربة بجذورها في بلاد العرب، أو أن يكون اسلاميا حاول لبيد فيه أن يتخلص من المقدمات الوثنية للقصيدة الجاهلية، فحاكى نمط التطور في الخطبة الاسلامية الجديدة في افتتاحياتها وهى تستهل بالحمد لله والثناء عليه، ثم الدخول في الموضوع، والانتهاء منه بخاتمة شكر لله عز وجل. لكن اذا أخذنا بنظر الاعتبار ما ذكر عن لبيد وابتعاده عن قول الشعر في الاسلام، وانه استغنى عنه بما انزل الله على نبيه، وانه لم ينظم من الشعر سوى هذا البيت (69) :

الحمد لله اذا لم يأتنى أجلى حتى ارتديت من الاسلام سربالا

أو انه لم يقل في الاسلام غير هذا البيت (70) :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

واذا أخذنا أيضا، بنظر الاعتبار أن أكثر شعره الدينى مشوب بفخر جاهلى ونعرة عصبية ومديح لوثنيين، بعضهم كانت لهم مواقف مدانة من الاسلام وبعضهم كانت مواقفهم غير مشرفة، نكون عندئذ أشد ميلا فى حكمنا على جاهلية هذا الشعر من اسلاميته. كقوله (71) :

حمدت الله والله الحميد ولله المؤثل والعديد
فان الله نافلة تقاه ولا يقتالها الا سعيد
ولست كما يقول ابو حفيد ولا ندمانه الرخو البليد
فعمى ابن الحيا وأبو شريح وعمي خالد حزم وجود

---

(69) ديوان لبيد 375.
(70) المصدر نفسه 349.
(71) ديوانه ص 38 (ق 6). ويقتالها : اى يقولها.

تم يستمر بهذا اللون من المديح للجاهليين والفخر بهم .. على أن بعضا من شعر لبيد لا يشك في جاهليته، كالمرثية التى قالها في النعمان ابن المنذر عندما حبسه كسرى وغدر به في السجن، فكان من أسباب يوم ذي قار (72) :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول   أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وتقول رواية السيرة (73) ، عند الحديث عن هذه القصيدة، أن عثمان بن مظعون عندما أعلن اسلامه واذته قريش ، طلب جوار الوليد بن المغيرة احد أعمدة المجتمع المكى آنذاك، فحماه فلم يضطهده أحد، فسولت لعثمان بن مظعون نفسه بأن مثل هذه الحماية تنفي عنه صفة المؤمن الحقيقى ، وبالاخص عندما رأي رفاقه من أتباع محمد (ص) يؤذون ويضطهدون ، فطلب من الوليد أن يرد اليه جواره وان ينزع عنه طوق العبودية، ففعل ، وذهب الى مجلس الشاعر لبيد بن ربيعة وهو ينشدهم مرثيته في النعمان بن المنذر حتى قال :

الا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان بن مظعون : صدقت .

فلما قال لبيد بقية البيت :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال ابن مظعون : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد مخاطبا أهل مكة «يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذ فيكم ؟! ..» فقال رجل من القوم : «هذا سفيه في غسفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله» وقام الى عثمان بن مظعون فلطم عينه وخضرها، والوليد بن المغيرة قريب. يرى ما بلغ من عثمان . فقال : «أما والله يا ابن اخى ان كانت عينك عما أصابها لغنية. لقد كنت في ذمة منيعة» فقال عثمان : «بل والله ان عينى الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب اختها في الله. وانى لفى جوار من هو أعز منك رأقدر يا أبا عبد شمس» وتذكر الروايات أيضا. أن رسول الله (ص) قال (74) : اصدق كلمة قالها شاعر ، قول لبيد :

الاكل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

---

(72) ديوانه ص 254 (ق 36).

(73) ابن هشام 9/2.

(74) ديوان لبيد ص 254.

وقيل أنه وفق الى قوله تعالى : كل شيء هالك الا وجهه (75) وجاء بعده قوله :

وكل اناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الانامل
وكل امريء يوما سيعلم سعيه اذا كشفت عند الاله المحاصل
ليبك على النعمان شرب وقينة ومختطبات كالسعالى أرامل

ويدخل ضمن هذا المنحى في الضراعة والطاعة والاستسلام للمعبود من شعر لبيد قوله (76) .

قضى الامور وانجز الموعود والله ربي ما جد محمود
وله الفواضل والنوافل والعلا وله أثيث الخير والمعدود

ومثلها أيضا (77) :

انما يحفظ التقى الابرار والى الله يستقر القرار
والى الله ترجعون وعند الله ورد الامور والاصدار

ويتضرع عبد المطلب بن هاشم لخالقه عندما يحيق الخطر بالكعبة (78) :

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع حلا لك
ان كنت تاركهم وقبلتنا (م) فأمر ما بدا لك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
ولئن فعلت فانه أمر تتم به فعالك
جروا جموع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
عدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك

وقال أبو قيس صرمة بن أبي أنس (79) :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان جميعا ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستزيد وتأوي في وكور من آمنات الجبال

---

(75) القصص 88/28.
(76) ديوانه ص 34 (ق 54).
(77) ديوانه ص 41 (ق 47).
(78) ابن هشام /52 والطبرى - تاريخ 134/2 والسهيلى 45/1.
(79) ابن كثير 190/2.

ومما تضـرع به عمـرو بن الجمـوح قوله (80) :

الحمـد للـه العلـي ذي المنـن الواهب الرزاق ديـان الديـن
هـو الذي انقذنـي مـن قبـل أن اكـون في ظلمـة قبـر مرتهـن

وأما شعر اميـة بن ابى الصلت ، فهو ترتيلـة دينية من الضراعـة والاستسلام والطاعة للخالق ، وقـد قال عنه محمد بن سلام (81) : كان كثير العجائب ، يذكـر في شعره خلق السموات والارض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكـره احد من الشعراء ، وكان قـد شام أهـل الكتاب، ومـر بزيد بن عمرو بن نفيل أخـى عدي بن كعب بن لـؤى بن غالب. وكان قد طلب الدين في الجاهلية هو وورقة بن نوفـل» وبذلك يكون أمية مـن الحنفاء الذين حلموا بقيـادة حركة التوحيـد الدينية، فلما خصها الله بنبيه محمد (ص) حسده وانحرف به طموحه الى محالفة الوثنيين. ويقال انه هو الذي عنتـه الآيـة الكريمـة : «واتل عليهـم نبـأ الذي آتينـاه اياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكـان من الغاوين» (82). وجاء في التفسيـر الكبير (83) : أما قوله فانسلخ منها، ففيه معنيـان ، الاول بمعنى علمناه حجج التوحيـد ، وفهمنـاه ادلتـه، حتى صار عالمـا بهـا فانسلخ منها. والثانـى ، أي بيناها لـه فلم يقبل واعرض عنهـا.

ولما كنت بصدد أميـة بن أبى الصلـت وحالته الشعرية، فيحسـن بي أن أقـول شيئا عنـه في نقـاط :

أ) هنا، بين أيدينا، رؤيـة شعريـة بالملكوت، مبنية على اختلاط واسع بالأحناف والكهان والرهبان والاحبار والقساوسة . فالمظاهر الكونية والطبيعية مفسـرة تفسيرا دينيـا مختلطـا، وقد تكون للكتب السماوية اثـار في هذه الرؤيـة .

ب) يمدنا شعـره بصورة تجريدية عن خالـق الكون وعرشه والمحيطين بـه من الملائكة، وهم في حالـة خوف ورهبـة من هذا الملك العظيـم،

---

(80) م. ن. 207/2.
(81) طبقـات فحول الشعراء 263/1.
(82) الاعـراف 174.
(83) فخر الدين الرازى 54/15.

ويقدم أمية هذه الصورة كأنها رؤية البصر . فهي صورة للاستسلام والضراعة .

ج) توجد اشارات واهية الى العصيان البشري والخروج على الطاعه الالهيه ودين ابراهيم الحنيف ، ومثل هذه الاشارة وردت في معرض وصف الملائكة الذين يطيفون بالعرش الالهى في خشوع ورهبة ، وفي المقابل يشير الى البشر العاصين ، كأنه بذلك يريد أن يقول أن الخوف الملائكى لهذه الارواح الاثيرية مبعثة تماس أو اتصال مباشر، فهم يرون بعيونهم قبضة الله المهيمن على كل شيء. أما البشر الفانون فهم بعيدون عن هذه المشاهد الفريدة ، يشاهدون رتابة الحياة بأعينهم ولم تباشرهم أية سطوة خارجية وقوة خارقة ليعرفوا الله حق قدره، فضلا عن تماديهم بالظلم والغدر والغواية دون عقاب مباشر وسريع من يد الله ، لذلك مكثوا في ضلالهم سادرين ، ونسوا الله ولم يتهيبوه، وعصوا الرسل . وبعبارة ان الملائكة تخشاه لانها تراه، والبشر العصاة لا يخشونه لانهم لا يبصرونه بأعينهم ، وغشيت عقولهم سحابة الضلال.

د) يؤلف مجموع شعر أمية ترتيلات نسكية لم يستطع أمية أن يعزوها الى الغيب أو يوفق – على الاقل – في اقناع الناس بذلك. وان حاول أن يدعى مثل هذا النسب الغيبى عن طريق ملكين ، كما زعمت الرواية . ولم تلاق اشعار أمية في التوحيد أية مقاومة عاتية من قبل وثنيى مكة وأحلافهم لانها أشعار فارغة من صيغ الرفض الثورية التى كانت تنزل على محمد (ص) في صورة آيات سماوية. ان مضامين الذين الجديد والقرآن الكريم احتوت مقاطع انقلابية في حياة المجتمع المكى خاصة والعربى عامة . وهذا ما يخلو منه شعر أمية ، فقد كان أمية فرديا أقرب الى روح انساك ، وكان محمد (ص) ثائرا عربيا وقائدا يدعو الى المجتمع الانقلابى الجديد. والحنيفية التى يدعو اليها أمية، حنيفية سلفية تقليدية ، أما حنيفية الرسول فهى تؤكد على صلة النسب الحنيفية الخليلية والموسوية والعيسوية والاحناف الثائرين من بعدهم، الا أنها جديدة في منحاها ومبناها، ومكملة لمواضع النقص المتولدة نتيجة تطور الزمن، ومهذبة لبعض صيغ التوحيد القديمة.

ه) ان تورط أمية ببعض مظاهر الكهنوت، قاده الى طريق مسدود في العبادة ، كما ابعده عن طريق النبوة المنشودة . ان ارتداء المسوح

والانقطاع الى الهياكل والمعابد والاديرة النائية أياما، واتخاذ الاسطورة اداة ووسيلة في الشعر للتدليل على الخالق الاوحد ، جعلته محض شاعر قاص، وكان يستقريء الغيب عن طريق الكتب والرهبان والاحبار أو صاحب من الجن ، فهو لا يتعدى في هذا ما يرافق سواه من الشعراء. خلافا لما كانت عليه معجزة القرآن الكريم في انتماء صاحبها الي النبع الاصيل من تأمل الهى في الغار وعدم اعتماد الاسطورة هدفا وانما وسيلة وعظ او ارشاد، لذلك جاءت في القرآن الكريم باعتبارها صيغة رموز واشارات ذات دلالة بليغة لم يزل العلم يكشف عن بعض جوانبها العميقة، ثم ظاهرة هجر الشعر الذي غدا مثار شبهة حتى لدى الاصلاحيين فكيف بأنبياء الله. وجاء الاسلام رفضا لمسوح الرهبنة واردية السحر، ثم ثورة على واقع العالم القديم من أجل حياة جديدة، وفعلا بدأ تاريخ العالم العلمى والجديد بالاسلام. لهذا كله لم يجد الوثنيون شيئا من الخطر يتهدد مصالحهم في شعر أمية ومعتقده الحنفى أو فكره التوحيدي، على عكس ما لمسوه في ظهور الشخصية المحمدية ، لذلك انتهى الامر بأمية الى لبس المسوح والارتماء في احضان الطواغيت المكية. وهى نتيجة طبيعية سار اليها بسبب الطريق المسدود الذي سلكه من البداية عندما ارتدى المسوح وتأثر بالاحبار، وهى مظاهر شاذة ليست من صلب التوحيد .

و) ان التوافق الملفت للنظر في شعر أمية مع الفاظ القرآن وقصصه واخباره يمكن أن يرد الى وجهين : الاول ، أن يكون هذا الشعر منحولا وضعه الرواة الثقفيون أو غيرهم بعد الاسلام ونحلوه شاعرهم أمية لتحقيق مكاسب شعرية وامجاد تاريخية ادبية ، مع أن الحكم بذلك ليس هينا ولا يمكن أن يطلق جزافا بالشكل الذي اطلق على عموم الشعر الجاهلى، فلقى الحكم ردا واعتراضا حيث تراجع المشككون وبقى الشعر الجاهلى مرويا ومقروءا. واذا حكم على جميع شعر أمية بالاعدام، فما حكمنا على اخباره ؟ واذا الحقنا الاخبار بالاشعار فماذا نقول في هذا الاجماع على الرواية ؟ واذا عزونا الاشعار والاخبار الى صانع واحد، فمن هو ؟ وما عصره ؟ وكيف نسبت اليه رواية اشعار دونها علماء عرفوا بالتوثق وصدق العمل ؟ والوجه الثانى أن يكون هذا الشعر في غالبيته صحيحا، وعندئذ يمكن أن ترد اسباب التوافق في اللفظ الى

محاولات الرواة المسلمين في تبديل بعض الالفاظ في بعض الابيات، عندما يستقيم الوزن ولا يتأثر البيت ، فيشابه البيت موضعا من القرآن الكريم بلفظة تناسب القصة أو تحاكيها. ويمكن أن نرد ذلك أيضا الى تأثر أمية بالقرآن في مرحلة متأخرة من حياته حيث استعان ببعض ألفاظه ايمانا منه بصدقه قبل أن يكابر ويقع في العصيان عندما فوجيء بالنتائج المؤسفة له عند مقتل أناس قريبين الى قلبه، برغم شركهم، وذلك في أيام (بدر) فتحول عن عزمه على الايمان الى عزيمته على المعاداة. وربما وقع التوافق بسبب التأثر أيضا لما لالفاظ القرآن من سلطة على النفس بقوة العبارة وعمقها. وقد وجدنا أمية يولي مدبرا لدى محاججته الرسول (ص) وسماعه بعض آيات القرآن. فلم ينفعه شيئا شعره في التوحيد واخبار الماضين. وقد يكون امية قد تعمد اختيار الفاظ قرآنية ليدخلها في شعره من قبيل المكابرة وبيان القدرة اللغوية وابراز الموهبة الشعرية والمعارف الاسطورية.

أما التوافق في القصة أو الاسطورة ، فلا يعنى شيئا مطلقا، لان هذا الموروث الثقافى كان معروفا لدى العرب ويتداولونه، وهو دائر في الشعر الجاهلى أيضا، وليس في شعر أمية فحسب، وان القرآن الكريم لم يكن ليوجز هذه القصص الا لان العرب كانوا يعرفون تفاصيلها، فكان يومىء فقط الى موضع الشاهد من العبرة والموعظة، أو مكان الاستشهاد بالمعجز من الخبر مما لم يكن يعرفه العرب، فقد كانت بعض الاخبار قد عميت عليهم، فكان القرآن يجلوها بصدق مما كان يذهلهم. وكم من المرات وقف أمية والنضر بن الحارث وغيرهما مذهولين امام هذه القدرات المعجزة التى يأتى بها القرآن على لسان محمد (ص).

ز) كانت نهاية أمية نتيجة طبيعية لبداية مشوشة حائرة، فختم رحلته التأملية بهزيمة منسحقة امام الفكر الكبير الذي حمله الاسلام، فانتهى بمثل ما ابتدأ به ناسكا في فكره ، وان أفادت الاخبار أنه ختم رحلة العمر معاقرا الخمرة ومنادما الغواة، الا أن قصيدته التى قالها قبل الموت وعبرت عن خلاصة معمقة لفكره، قد أشارت الى امتداده في منهج واحد سارت عليه حياة الشاعر في الزهد والنسك والتوحيد (84) :

(84) ديوانه ص 246.

كـــل عـيـش وان تطـاول دهـــرا
صـائــرِ مـــرة الـــى أن يــــزولا

ليتنـي كنـت قبـل مـا قـد بـدا لـي
في رؤوس الجبـال ارعـى الـوعـولا

اجعـل المـوت نصـب عينـك واحـذر
غـولـة الدهـر ان للـدهـر غـولا

أما الموضوع الثانـي الكبير الذي تـدور في فلكه أشعار الاحنـاف، فهو موضوع تقديس البيت والحرم، ويستتبع ذلك تقديس (مكة) أيضا. وقد حاول المؤرخون أن يعبثوا كثيرا في الاستشهادات الشعرية لهـذا الموضوع ، لما لمكة من الحرمة في النفوس، فأدخلوا المنحول في الصحيح فأخل به، وضربوا مثلا بأشعار التبع أسعد ابى كرب حين قال (85) :

وكسـونـا البيـت الـذي حـرم	الله مـلاء مقصـدا وبـرودا
ثم سرنـا عنـه نـؤم سهيـلا	وجعلنـا لبابـه اقليـدا
فاقمنا بـه مـن الشهر عشـرا	فترى النـاس حـولهـن ورودا
ونحرنـا بالشعـب ستـة الـف	فرفعنـا لوءانـا معقـودا

واورد الطبري للتبـع هذا (تبـان اسعد ابو كـرب) شعرا يصـف فيه العملية المذكورة في الابيـات المتقدمة ، أي اكسـاء البيت وطوافه به واخذه بنصيحـة الحبرين في عـدم غزوه . وهى قصيـدة تقع في ثـلاث وعشريـن بيتـا (86).

ووردت قدسية مكة في صيغة وصية قالتها سبيعة بنت الاحب شعرا توجهه الى ابن لهـا يقال له خالد، تعظه وتعظم عليه حرمة مكـة، وتنهاه عن البغي فيها (87) وقد سبق الاستشهاد بها في موضع آخر بايجـاز :

ابنـي لا تظلـم بمكـة لا الصغيـر ولا الكبيـر
واحفـظ محـارمهـا بنـي ولا يغـرنـك الغـرور
ابنـي مـن يظلـم بمكـة يلـق اطـراف الشـرور

(85) الروض الانف 27/1.
(86) تاريخ الرسل والملوك 107/2 — 109.
(87) ابـن هشام 26/1 وينظر الجزء الاول من أخبار مكة اللازرقى.

. . .

. . .

ولقـــد غزاهـــا تـبـع فكســـا بنيتهـــا الحبير
واذل ربـــي ملكـــــه فيهـا فأوفـى بـالنـــذور
يمشـي اليهـــا حـافيـــا بفتـائهـا الفـــا بعيـــر
ويظل يطعـم أهلـهــــا لحـم المهارِي والجـــزور
يسقيهم العســـل المصفـ ـــ والرحيض من الشعـير
والفيـــل أهلـــك حبشـــه يرمـون فيهـا بالصخـــور
والملك في أقصـى البـــلاد من الاعـاجـم والخـزيـر
فاسمـع اذا حدثـت وافهـ ـم كيف عـاقبـة الامـور

والقصيدة عكست بوضوح قدسية مكة وعاقبة من يظلم أو يبغي فيها، لذلك أورد الطبري ، أن مكـة سميـت (بكـة) أيضا لانها تبك اعناق البغايا والجبابـرة اذا بغوا فيها، واورد قصة أسـاف ونائلة وما أحدثا من الفجور في داخل الحـرم فمسخا حجرين (88).

ويصور عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي حزنـه الشديد على فـراق مكـة وحرمهـا الآمن بعد أن غلبـت خزاعـة جرهما في الوظائـــف الدينيـة والسيـادة الاداريـة (89) :

وقائلـــة والـدمـــع سكـــب مبـــادر
وقـد شرقـت بـالدمــع منهـا المحـاجـر
كـأن لـم يكـن بيـن الحجـون الى الصفا
انيـس ولـم يسمـــر بمكـــة سـامــــر
فقلـــت لهــا والقلـــب منـــي كأنمـــا
يلجلجــه بيـن الجنـاحيـن طـائــــر
بلـى نحـن كنـــا اهلهـــا فـأزالنـــا
صـــروف الليـالـــي والجـدود العـواثـر
وكنـــا ولاة البيـت مـن بعـد (نابـت)
نطـوف بـذاك البيـت والخيـر ظـاهــر

(88) تاريخ 274/2 والسهيلى 64/1. ويراجع بحث : التلبيات فى هذا الكتاب تابية رقم 48 حول بكة ومكة واستخدام هذه اللفظة.
(89) ابن هشام 120/1 وابن كثير 58/1.

الى أن يقول :

ونبكي لبيت ليس يؤذي حمامه
يظل به امنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أمينة
اذا خرجت منه فليست تغادر

وله شعر غيره في المعنى نفسه (90).

وقال مر بن أد حين نذرت زوجته احد اولاده ان يكون عبدا (سادنا) للكعبة ان هى وضعته ذكرا. فلما ولدته تصدقت به على الكعبة (91) :

اني جعلت رب من بنيه ربيطة بمكة العليه
فباركن لي بها اليه واجعله لي من صالح البريه

وكان اسم الغلام المنذور : الغوث ، فسمي (صوفة) وعرف به كل سادن للبيوت المعظمة عند العرب ، كما عرفوا بالصوفان أيضا لارتدائهم الصوف ، أو لسبب آخر . وكان الغوث يدفع الناس الى عرفة . واذا صح ما أورده السهيلى من أن ملوك كندة هم الذين نصبوا الغوث في اجازة الناس من عرفة ، تكون مكة قد مرت عليها حقبة خضعت لسيطرة خارجية ، وهذا خلاف التصور الشعري والتاريخى المتكون عنها وعن اهلها بأنهم (لقاح) لم يخضعوا لملك .

قال أحد شعراء الجاهلية في ذلك :

ونلقى عند تصريف المنايا شددا رفدا
فان نهلك فلم تملك ومن ذا خالد ابدا

أي لم يكن علينا وال ولا ملك . وكان الغوث اذا دفع بالناس قال :

لاهم اني تابع تباعه ان كان اثم فعلى قضاعة

يريد ما يتبعه الانسان ويقتدي به ، وقد خص قضاعة لان منهم محلين يستحلون الاشهر الحرم، كما كانت خثعم وطي تفعلان ، فهو

(90) ابن هشام 121/1 والقصيدة فى الجزء الاول من اخبار مكة للازرقى.
(91) المصدر السابق 127/1.

أشبه بالدعاء ضد قبائل تخرج على التوحيد وتأخذ ببعض مظاهر الوثنية ويقودنا هذا الحديث الى اتجاه آخر يظهر في شعرهم هو ذكر المناسك والشعائر ومواسم الحج المختلفة في العصر الجاهلى ، كقول أوس بن مغراء السعدي ، يمدح صفوان بن جناب التميمى ، وكان يجيز الناس بالحج من (عرفة) وقد بقى أولاده يفعلون فعله ، حتى كان آخرهم كرب بن صفوان الذي قام عليه الاسلام (92) :

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم
حتى يقال اجيزوا آل صفوانا

وقال ذو الاصبع العدوانى في الافاضة من مزدلفة (93) :

عدير الحي من عدوان	كانوا حية الارض
بغي بعضهم ظلما	فلم يرع على بعض
ومنهم كانت السادا	ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا	س بالسنة والفرض
ومنهم حكم يقضي	فلا ينقض ما يقضى

وكانت الافاضة في عدوان ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى كان خرهم الذي قام عليه الاسلام وهو أبو سيارة عميلة بن الاعزل ، وفيه يقول شاعرهم (94) :

نحن رفعنا عن ابي سيارة	وعن مواليه بني فزارة
حتى أجاز سالما حماره	مستقبل القبلة يدعو جاره

وكان أبو سيارة يدفع الناس على أتان أسود، وفيها يقول :

لاهم، مالي في الحمار الاسود	اصبحت بين العالمين أحسد

وفخر مسافر بن عمرو بن أمية بن عبد مناف على قريش بما ولوا عليه من السقاية والرفادة وما أقاموا للناس من ذلك . وفخر بزمزم حين

---

(94) المصدر السابق. ومعنى مواليه أى أبناء عمه.

ظهرت لهم . وانما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد ، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل (98) :

ورثنا المجد من ابائنا — فنمى بنا صعدا
ألم نسق الحجيج وننحـ — ـر الدلافة الرفدا
ونلفى عند تصريف المنـ — ـايا شددا رفدا
فان نهلك فلم نملك — ومن ذا خالد ابدا
وزمزم في ارومتنا — ونفقأ عين من حسدا

وقال حذيفة بن غانم :

وساقي الحجيج ثم للخير هاشم
وعبد مناف ذلك السيد الفهري (96)
طوى زمزما عند المقام فاصبحت
سقايته فخرا على كل ذي فخر

وتعد أشعار التلبية قبل أن تتداخل فيها تحريفات الوثنيين، صورة مشرقة لشعر التوحيد في تصوير مناسك الحج. وقد كانت التلبية واحدة كما هي اليوم ، فلما انتصرت خزاعة وسادها عمرو بن لحي اصار لكل قبيلة تلبية تذكر فيها صنمها ، فكان من التلبيات ما يصل الثلاثمائة على عدد الآلهة المنصوبة في الحرم وحوله ، تعكس حالة التجزئة التي خلقتها الوثنية يومذاك (97).

وكان شعرهم في تعظيم عقيدتهم التوحيدية وفكرتهم الحنيفية وذم الوثنية والشرك وعبادة الاصنام تمثل اتجاها آخر بارزا لدى الحنفاء حتى أنها لدى أمية بن الصلت تعد كنزا لا تنفد خزائنه (98) :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا
بالخير صبحنا وبي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها
مملوءة طبق الافاق سلطانا

(95) ابن هشام 158/1 والاغانى 8/8 (بولاق). ومعنى الدلافة فى البيت الثانى : الابل المتمهلة بسيرها لشدة سمنها.
(96) الفهرى : القاهر.
(97) يراجع فى التلبيات وعددها وبداية التحريف فيها كتاب الروض الانف ص 62 والمحبر ص 309 ومابعدها ومقالتنا : التلبيات الجاهلية فى متن هذا الكتاب.
(98) ديوانه ص 302.

ومما ينسب لامية أو لابيه ، قوله في تعظيم الحنيفية ايضا (99) :

ان آيات ربنا بينات
ما يماري فيهن الا الكفور

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور.

ولزيد بن عمرو بن نفيل في التوحيد وذم الشرك مواقف شعرية تروى له ، من قبيل قوله (100).

الى الله أهدي مدحتي وثنائيا
وقولا رصينا لايني الدهر باقيا
الى الملك الاعلى الذي ليس فوقه
اله ولا رب يكون مدانيا

وهي طويلة ، زاد عليها السهيلي (101) نقلا عن أبي الفرج في اخبار زيد مما لم يرد في رواية ابن اسحق هذا البيت :

ادين الاها يستجار ولا أرى
ادين لمن لم يسمع الدهر داعيا

وبيتا آخر لم يذكره ابن اسحق أيضا، وقع في جامع ابن وهب :

وأنبت يقطينا عليه برحمة
من الله لولا ذاك اصبح ضاحيا

وذكر عمرو بن مرة الجهني وحدانية الله وهجا الآلهة الحجرية (102)، وكان موحدا سمع ببعثه النبي فبادر مهاجرا الى مكة ليلقاه، فهو يدخل ضمن الاحناف الذين كان لهم موقف ايجابي من الاسلام :

شهدت بان الله حق وانني
لآلهة الاحجار أول تارك
وشمرت عن ساقي الازار مهاجرا
اليك اجوب القفر بعد الدكادك
لاصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول مليك الناس فوق الحبائك

---

(99) ديوانه 338 .
(100) ابن هشام 242/1.
(101) الروض الانف 149/1.
(102) السيرة النبوية لابن كثير 316/1.

وكان أبوه سادنـا لصنم، فقام اليـه عمرو وكسره ولحق بالنبى، وله شعـر ذكـر في المسنـد الكبيـر.

وجارى الشعر التوحيدي في بعض اتجاهاته الفنية، الشعر الجاهلـى في المديح والهجاء والرثاء. بـل اذا شئنـا ان نبحث عن خصائص موضوعيه للشعر الوثنـى الجاهلى ظهر في شعـر الموحدين لوجدنـاه يجاريه فـي موضوع الرثاء اكثـر من اي امـر سـواه، الا انـه رثـاء يقتصـر على العقائديين وحدهم دون سواهم. فقد كان التوحيديون يرثون بعضهم عندما يسمع احدهم بانتقال رفيقه الى جوار خالقه. فقد رثي زيد بن بن نفيل عثمان بن مظعون ورثت عبد المطلب ابن هاشم بناته، ورثى ورقـة بـن نوفـل، زيـد بن نفيل . وهذا مثـال لورقـة يبكى زيـدا (103).

رشـدت وانعمـت ابـن عمـرو وانمـا
تجنبـت تنـورا مـن النـار حـاميـا
لـدينـك ربـا ليـس رب كمثلـه
وتـركـك أوثـان الطـواغـى كمـاهيـا
وادراكـك الـديـن الـذي قـد طلبتـه
ولـم تـك عـن توحيـد ربـك سـاهيـا
فأصبحـت ـن دار كـريـم مقـامهـا
تعلـل فيهـا بـالكـرامـة لاهـيـا
تلاقـي خليـل اللـه فيهـا ولـم تكـن
مـن النـاس جبـارا الـى النـار هـاويـا
وقـد تـدرك الانسـان رحمـة ربـه
ولـو كـان تحت الارض سبعيـن واديـا

وكان شأن المديـح والهجاء كشأن الرثاء، لا يتجاوز في نطـاقـه قضاياه العقائدية . وربما كان مدح الرسول (ص) في العهـد المكي الاول ابـرز سمة لهذا اللون من الاغراض الشعرية ، وان كانت بعض مدلولاتـه لا تنم عن باعث دينى واضح ، كما في مدائح ابى طالب للرسـول في جميع ما ينسب اليه من شعـر، وبالاخص مطولته اللامية التـى اوردها ابـن هشـام (104)، وقـد ضمنهـا كل مقومـات الشعـر التوحيـدي من تقديس

(103) ابن هشام 247/1.
(104) م. ن. 291/1.

للبيت ومناسكه وحجه، وتعظيم مكة وشعابها وجبالها، وذكر لاحداثها والملا الذي فيها، واستطراد في الفخر ببنى عبد مناف. ومما ذكره في مديح الرسول قوله :

كذبتم وبيت الله نبذي محمدا
ولما تطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله
ونذهل عن ابنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد اليكم
نهوض الروايا تحت ذات السلاسل
وابيض يستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة للارامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في رحمة وفواضل

وهي عند ابن هشام تبلغ ثلاثة وتسعين بيتا ، ولو اضيف اليها ما ورد في المصادر، لجاوزت المائة، فليس بين شعر التوحيد قصيدة في مثل طولها، قال : عندما ختمها، ابن هشام : هذا ما صح لي من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر اكثرها. وقال ابن سلام : وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام، ابرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبي (ص) :

وابيض يستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة للارامل

وقد زيد فيها وطولت، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد صاحبنا، منذ اكثر من مائة سنة «وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، ولا ادري أين منتهاها. وسألنى الاصمعى عنها، فقلت صحيحة جيدة. قال اتدري اين منتهاها ، قلت : لا» ثم يعلق ابن سلام قائلا : واشعار قريش اشعار فيها لين ، فتشكل بعض الاشكال» وهى اشارة خفية من ابن سلام الى صحة القصيدة ، وتأكيد لما ذهبنا اليه من كون التوحيدي يمتاز بمثل هذه السمة الفنية .

ومدح ابو قيس صرمة بن ابى أنس، من بنى النجار، قريشا لانها تخدم البيت ، نابرز مآثرها، لانه يعظم فيها الحرمة، ولان دين الحنيفية فيهم. فطلب منهم الكف عن ايذاء الرسول من العهد المكي الاول، ديتهم . ان هم لم ينتهوا ، فسيأذنون بحرب لا تبقى ولا تذر ، وهى قصيدة توضع في عداد القصائد التوحيدية الطويلة أيضا، يقول فيها :

اقيموا لنا دينا حنيفا فأنتم
لنا غاية قد يهتدي بالذوائب
وانتم لهذا الناس نور وعصمة
تؤمنون والاحلام غير عوازب
وانتم اذا ما حصل الناس جوهر
لكم حسرة البطحاء شم الارانب
تصونون انسابا كراما عتيقة
مهذبة الانساب غير اشائب
يرى طالب الحاجات نحو بيوتكم
عصائب هلكى تهتدي بعصائب (105)

وأثر الافتعال في القصيدة واضح، كأننى أقرأ من خلال أبياتها بائية النابغة الذبيانى، ولو شئنا أن نستقرأ كل شعر التوحيد الحنيفى، وبضمنها أشعار الآبار التى احتفرها أبو طالب ورهطه، لامتد البحث لدينا الى صفحات مضاعفة ، لكنا عملنا جهدنا هنا أن نلم بشعر الاحناف وندرسهم تمهيدا للدخول في تفضيلات قادمة ان شاء الله.

(105) اكتفيت من دراسة الشعر عند هذا الحد، وهذا جزء من دراسة نعدها فى (شعر الاحناف) نرجو أن نوفق الى اصدارها فى المستقبل.

مصادر البحث حسب مسلسل ورودها فيه

1 ـ السيرة النبوية لابن هشام دار احياء التراث العربى بيروت. مصورة بالاوفسيت عن طبعة الحلبى مصر 1936.

2 ـ أيام العرب في الجاهلية لمحمد جاد المولى وجماعته مصر 1962.

3 ـ تاريخ الادب العربى ـ ريجيس بلاشير ترجمة د. ابراهيم الكيلانى نشر دمشـق.

4 ـ القرآن الكريم ـ النسخة العثمانية.

5 ـ السيرة النبوية لابن كثير.

6 ـ شعر الحرب في أدب العرب للدكتور زكى المحاسنى دار المعارف بمصر 1970 طبعـة ثـانية.

8 ـ الروض الانف للسهيلى مطبعة الجمالية بمصر 1914.

7 ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ العدد 27.

9 ـ قصص الانبياء والعرائس للثعلبى طبعة بولاق الاولى.

10 ـ المحبر لمحمد بن حبيب طبع دار المعارف العثمانية بالهند تحقيـق الدكتورة ايلزة ليجتن شتيتر.

11 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبعة بيروت.

12 ـ ديوان امرىء القيس ت : أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعاريف بمصر 1964.

13 ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية.

14 ـ المفصل في تاريخ للدكتور جواد علي ـ بيروت دار العلم للملايين ـ عشرة مجلدات 1972.

15 ـ معجم ما استعجم للبكرى تحقيق السقا ـ القاهرة 1945.

16 ـ الاصنام لابن الكلبى. ت : الاستاذ أحمد زكي باشا ـ طبع دار الكتب المصرية 1924.

17 ـ تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ طبعة أوربا.

18 ـ ديوان الاعشى . ت : محمد أحمد حسين. الاسكندرية 1950.

19 ـ تاريخ الادب قبل الاسلام ـ نوري القيسى ـ د. عـادل البياتى ـ د. مصطفى عبد اللطيف ـ طبع على نفقة وزارة التعليم العالى بغداد 1979

20 ـ الطوفـان ـ د. فاضل عبد الواحد. طبع على نفقة جامعة بغداد.

21 ـ العمدة لابن رشيق ـ دار الجيل ـ بيروت. ت : محمد محي الدين عبـد الحميـد 1972.

22 ـ طبقات فحول الشعراء لابن سلام. ت : محمود شاكر. مطبعة المدنى مصـر 1974.

23 ـ الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ـ طبعة دار الكتب المصريـة.

24 ـ الشعر والشعراء لابن قتييبة. ت : أحمد محمد شاكر ـ مصر 1967

25 ـ أخبار مكة للازرقى (الحفيد) طبـع بيـروت للمستشرق فرديـنـاند وستنفلد 1964.

نصـــوص التلبيـــات قبل الاســـلام
ومضات من وحدة الفكر والمصير

تمهيـــــــد :

هذه نصوص دينية يعود تاريخها الى ما قبل الاسلام، كنت في بحث سابق (1) لي، قد أعـددت لها دراسة دقيقة مفصلة ، ثم وجدت أن اكتمال الفائـدة منها تقتضى نشـر هذه النصوص الوثائقية الهامة ، لما تتضمنه من قضايا ذات تخصص عميق ، تتعلق بفكـر العـرب وايديولوجيتهـم ونظرتهم الى الحياة والكـون ، وفلسفتهم في تفسير الذات الانسانيـــة، والبحث عن نقطة البداية والمصير . أو على وجه التحديد ، تعالج مسألـة الدين المتعلقـة بقضية التوحيد العقائدي والوحدة القومية منذ ان طرحت هذه القضية نفسها على الساحة العربية ، وأخذت ابعادها وأطرها الحقيقيـة.

وقد خرجت الدراسة في وقتها بجملة من النتائج ، أهمهـا : أن التوحيد العقائدي والوحدة المصيرية هى منطلق العرب منذ انسيابهم على وجه التاريخ وظهورهم على صفحة الاحداث حتى اليوم . فالعرب اول أمة وحدت عبادة الخالق منذ انبعاث أول نبي مرسـل حتى خاتمهم محمد (ص) ، وكانـت هذه الدعـوة مرتبطـة بوحدة الارض والمصير . ونتيجة أخرى خرجـت منها الدراسة في حينها، هى أن هذه النصوص التلبوية تتحد في مقدمتهـا

---

(1) الواقع أنهما بحثان ، الاول منهما نشر فى :

أ ــ مجلة المستقبل العربى ــ مركز دراســات الوحدة العربية ببيروت ص 34، العدد 28 لسنة 1981 ــ عنوان البحث : أصالة الوحدة العربية فى أقـدم النصـوص الدينية : تلبيات الجاهلية. ويجده القارىء الكريم فى الجزء الاول من هذا الكتاب.

ب ــ والثانى نشر مع نصوصـه فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم العدد *11* طبع بالكويت *1982* ونعيده الان بعد اكتشاف نصوص جديدة عليه. وهو الذى بين يدى القارىء فى هذا الجزء.

بأنها موحية بصيغة توحيدية . وهذا ما جعل العلماء الاوائل يلتفتون الى حقيقة أن العرب كانوا قبل الاسلام يوحدون خالقهم بالتلبية، ثم يدخلون معه الهتهم ويجعلون ملكها بيده، والى هذا اشار (عز وجل) في تنزيله «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» (2) بمعني : ما يوحدونني بمعرفة حقي الا جعلوا معى شريكا من خلقي . وقد علقنا على ذلك في حينه بقولنا : «وهذا النص القيم عكس لنا دور الشعار العقائدي الخالد ، وهو التلبية ، في حفظ وحدة الامة برغم التجزئة الظاهرة، وبرغم الاستلاب والقهر اللذين تسلطا على وحدة العرب القومية والعقائدية، فالتلبية لم تقتصر على كونها صيغة دينية تجمع اليها قلوب العرب فحسب، بل هى الى جانب ذلك هتاف قومى يوحدهم تحت سلطة مركزية، ان لم تكن دنيوية، فهى على الاقل روحية، ومن ثم فالتلبية التى تفعل هذا الفعل في نفوس العرب، لا بد ان يكون لها نفس هذا الاثر العميق في وحدتهم» . ومما خرجت منه تلك الدراسة المشار اليها آنفا (3)، أنها وجدت التلبيات عملا ادبيا فنيا ينتسب الى الشعر والرجز والنثر المسجوع بابعاده المختلفة، هذا وقد تسلسلت مادة الدراسة المذكورة، حول هذه النصوص التى بين يدي القاريء، تحت موضوعات جانبية هى، أولا : أبعاد قيمية . وقد تناولنا فيها ما تطرحه مثل هذه الدراسات الحديثة من قيمة علمية، لان نشر النصوص الدينية التى كان الناس يرددونها قبل الاسلام ولا يعلم الرواة لها مؤلفا أو واضعا كأنها من وحي الغيب ، يعد عملا علميا يقود الى اكتشافات بالغة الاهمية في حقل التأمل الفكري في الانسان والكون . فنحن لا ندري كيف كانت نظرتهم الى هذه التردبدة الشعرية الدينية التى كانوا يرددونها اذا طافوا بين الصفا والمروة (4) :

اليوم قري عينا بقرع المروتينا

أو بأية نظرة تقديس كانت تتسم هذه الصيحة من الشعر الدينى، عندما كانوا يأتون الى معبودهم «هبل» بالقربان ، وهم يضربون القداح مرددين (5) :

---

(2) يوسف آية 106.
(3) مجلة المستقبل العربى (اشارة سابقة).
(4) أخبار مكة للارزقى 74/1.
(5) المصدر نفسه 3/2.

أنــا اختلفنــا فهــب الســراحــا ثــلاثــة يــا هبــل فصــاحــا
الميــت والعـــذرة والنكــاحــا والبـــرء في المرضـــى والصحاحا
ان لــم تقلــه فمــر القــداحـــا

ثانيــا : متابعات لغويـــة ، فسرنا بموجبهــا الاصول الاشتقاقيـــة للفظـة (لبيــك) ومعالجات العلمــاء اللغوين لها . وتطرقت الى لفظـــة التلبيـــة والاهــلال ومدلولاتهمــا.

ثالثــا : تطلعات وأصول غيبية ، ذكرنا فيها الاصول الاولى للتلبيات منــذ عهد ابراهيم الخليل والانبياء حتى البعثة النبوية الشريفة، معللين اسباب خوض العلماء الاوائل في تخريجات غيبيـــة لربط ظاهرة التلبيـــات بالجذر القديــم لتلبيـــة ابراهيــم «عليــه الســلام».

رابعا : مناسك تلبوية ، عرضنا فيها محاولة العرب قبل الاســلام تأدية التلبيات في مشاهد جماهيرية عامة ، وبالاخص عند التوجه الى مكـة والطواف بالآلهــة المنصوبة حول الحرم. ثم ختمت الدراسـة بنقطـــة خامســة هى : منطلقــات فنية لطبيعــة هذه الاعمال، وموقعها بين الانواع الادبية : أهى شعــر أم نثــر فنــي، واذا كانت شعرا فهل هى قصيد أم رجــز ؟ واذا كانت نثــرا فهل نثــر مسجوع أم مرسل ؟ ثم ختمنا البحث بمعالجــة عروضية للظاهــرة.

ومع ذلك، فقد جــدت افكار ، بعد ان مضى على الدراسة ما يقــرب من أربعة أعوام، وبعد أن أتممت تحقيق نصوص التلبيات وضبطها وشرحها والتعليــق عليهــا ، فوددت أن أسجل هذه الافكــار المستجــدة هنا، ثــم اعرض النصوص شارحا لها ومعلقا عليها وموضحا السيرة الذاتية لكــل الــه أو معبود أو صنــم، وكل قبيلــة عبدت هذا الاله، وذلك بردها الــى أصلها أو فرعهــا، ليتضح لنــا شيء اساسى ملاحظ في التلبيــات، هــو اتفاق أكثر من قبيلة في تلبية أو اختلافهم فيها ثم ظهرت نصوص جديدة في مخطوطة سنذكرها بعد قليل وسأعود الى نشر التلبيات كلما عثرت على جديد من نصوصها لانها في عدد القبائل يومذاك.

تلبيات الجاهلية، وتلبية الاسلام : التعدد والتوحد :

التلبية اصطلاح اشتق من أول لفظة في عبارة التلبية نفسها، وهي لفظة «لبيك» وقاعدتها الموحدة المشتركة في الجاهلية والاسلام :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك لبيك ....

وكان الرسول (ص) ينصت الى تلبياتهم في الجاهلية، وهم يرددون بصوت قوي واحد هذه التلبية ، حتى اذا فرغوا من هذين المقطعين قال : قد .. قد .. (أي حسب . حسب) (6) يريد أن هذا الاهلال يكفي دون الحاجة الى اضافات الوثنيين، لكن التجزئة في الشرك تأتى على الوحدة المتمثلة بالتوحيد العقائدي، فتضيف قريش العبارة الآتية :

الا شريكا هو لك
تملكه وما ملك ،
أبو بنات بفدك ..

وكنانة تضيف الى تلبيتها الاصلية ، عبارات الشرك فتقول :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أبنا اليك
ان (سواع) طلبنا اليك.

وسمع عن الرسول (ص) أنه لبى بتلبية بكر بن وائل التى كانت تهل بها لصنمها محرق (7) :

لبيك اللهم لبيك
لبيك حجا حقا
تعبدا ورقا

لكن الرسول (ص) لم يجعل هذه التلبية عامة، وانما كان يهل بها لنفسه دون سائر المسلمين لكى لا تدرج بيننا فتكون سنة سبكا. ولا تعليل لذلك الا كونها لا تصرح بشرك، لذلك صحح لبكر بن وائل تلبيتهم

---

(6) الروض الانف للسهيلى 357/1.
(7) المحبر لابن حبيب 3/2.

لكن قبيلة ثقيف تتحول من صيغة المذكر في مخاطبة الاله القومى لكل العرب الى صيغة المؤنث في مخاطبة الاهة القبيلة :

لبيك اللهم لبيك
لبيك كفى بيتنا بنية
ليس بمهجور ولا بليه

وربما ادخلوا أحلافهم في تلبياتهم :

لبيك عن حمير وهمدان
والحلفين من حاشد وألهان

وقد تدخل خصوصياتهم في التلبية، فيميزوا أنفسهم عمن سواهم من القبائل :

لبيك ان جرهما عبادك
الناس طرف وهم تلادك
ونحن أولى منهم بولائك

وكما أن لفظة «الحج» تعنى التوجه والقصد، فان التلبية تعنى الاجابة بعد الاجابة وكذلك الاهلال، لكن التلبية لفظة مختصة، والاهلال لفظة عامة، فلا يقال للمصلى اذا أهل بأنه يلبى ، وانما تقتصر التلبية على الحاج فقط، لكن الحاج اذا لبى اصح ان يقال فيه : أهل بالتلبية، وكذلك المقبل على النحر أو الذبح يقال فيه (أهل يهل) وقد سبق أن تحدثت بتفصيل اكثر عن أصل اللفظتين وتطورهما في دراستي للتلبيات (8). وطرح قطرب في الازمنة أن التلبية من ألب ، وسيأتى ذكرها.

ولم يترك الرواة العرب والمؤرخون الكلاسيكيون قضية التحريف العقائدي تمر دون أن يوردوا لها خبرا تاريخيا يكون هو حجر الزاوية في تاريخ التحريف ، ويعطى للتلبية دورا رائدا في تفشى الفكر الوثنى الوافد ، وتكون نقطة البداية في هذا المنعطف التاريخى، كما كانت رائد التوحيد في عهد ابراعيم، وكما عادت الى وجهها الناصع الاصيل في عهد محمد (ص)، ويفيد هذا الخبر التاريخى .. على ما حملته ظلمات

(8) يراجع الهامش رقم 1.

العصــور الغابــرة من ذكــر غيبي .. بأن أول محــرف عرفه الفكر العربى هو عمرو بن لحي الخزاعي وكان يلبي على طريقة ابراهيم (9) :

لبيــك اللهــم لبيــك
لبيــك لا شريــك لك لبيــك

فتمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فلما فــرغ عمرو بن لحي من تلبيته، سمــع الشيخ ملبيــا يقــول :

الا شريــك هــو لك

فأنكــر عمــرو عليه ذلك قائــلا : مــا هذا ؟! ..

قال الشيخ يهون عليه التحريف والتجزئة والشرك :

قـــل :

«تملكــه ومــا ملــك»
فانــه لا بــأس عليك بهــذا

فقالها عمــرو وكان في حالة شعورية دينية مرعبة ، لكنه شعر حقــا انــه بعد أن رددها ، لا بأس عليه، فلما نشرها بين الناس، دانت لـــه العرب. أي استقامت له مصالح طبقة رجال الدين الوثنيين المتنفذة، وثم تنفــــع شيئــا صيحات التوحيديين «الاحنــاف» (10) ازاء طغيان المــد الوثنــي الوافــد.

وطبيعى ان هذا الخبــر ، برغم ما يفضح به نفســه مـــن تفسيرات ميثولوجية واتجاهات مغرقه في الغيبية ، فهو لا يخلو من حقيقة واقعيـــة تربط بين التحول الدينى والتغير السياسى والاقتصادي للتركيب الاجتماعى للعرب يومئذ أما الصيغة الاخيرة التى استقــر الاسلام عليها ، واوحيـــت لرسولــه فهــى (11) :

لبيــك اللهــم لبيــك
لبيك لا شريك لك لبيك
ان الحمــد والنعمــة لــك
والملــك لا شريــك لــك

---

(9) السيرة النبوية لابن هشام 79/1 والاصنام لابن الكلبى ص 2، 54، وأخبار مكة 55/2 .

(10) يراجع بحث بعنوان : شعر الاحناف المستنصرية العدد 5 ومجلة الشعر المصرية العدد 36 لسنة 1984 و العدد 37 لسنة 1985. بقلمنا ومنشور هنا أيضا — والمفصل فى تاريخ العرب 41/6 فى اسباب ظهور الشك.

(12) كتاب الام للامــام الشافعى 132/2 (والتلبية برواية جابر بن عبد الله).

وهذه صيغة ملزمة . بما فيهم غير العرب ، يرددها الملايين بالفاظها العربية لا تحرف ولا تغير ولا تترجم الى لغة ثانية . وتؤدى خلال موسم الحج في موكب انشادي رائع يأخذ بمجامع القلوب ويثبت العقيدة في أعماق النفس، وسيتصل بنا لدى التعليق وشرح النصوص حديث عن مدلولات اخرى للتلبيات ، بعضها في اولية هذه الصيحات والترديدات، وبعضها الآخر في المشاعر (جمع مشعر) والطقوس الجماعية التى تؤدي في مشاهد تمثيلية من خلال التنغيم والترديد للتلبيات قبل الاسلام ، اذ تنطلق الجموع الغفيرة من بطون الاودية ورؤوس الجبال، تجري في الطرقات والشعاب عبر الصحارى الموحشة، ملبية مرددة، يملأ صدى صوتها الافق مرتفعا الى عنان السماء ومنتشرا في ارجاء الارض واقاصى المعمورة . لكن هذا الالتزام بالتلبية قد يرافقه حينا نوع من التجوز في تلبيات فردية شخصية، كان الرسول وأصحابه أنفسهم يهلون بها. وقد سبق ان نوهت بتلبية الرسول (ص) مصححا لبكر بن وائل تلبيتهم قبل الاسلام ، عندما وجدها تلتزم بالتوحيد الدينى والاجماع القومى، مع ان بقية عبارات التلبية، كما رواها أبو العلاء المعري (12) تحفل بشرك أو وثنية صارخة. لكن الصيغة الاساسية هى التى ذكرناها قبل قليل، وهى الصيغة الرسمية لكل العرب والمسلمين فقد روى عبد الله بن عمر أن الرسول (ص) لبى فقال (13) :

لبيك لبيك
لبيك وسعديك
والخير بيديك
والرغباء والعمل اليك (14) .

وقال أبو هريرة : كان من تلبية رسول الله (ص) :

لبيك اله الحق
لبيك ..

---

(12) رسالة الغفران 534.
(13) الام 132/2.
(14) الرغباء : الضراعة والمسألة — وردت فى دعاء الرسول (ص) اللسان (رغب).

وتنقل الشافعي (15) أيضا ما رواه مجاهد من أن رسول الله (ص) كان دظهر من التلبية ما ذكرنا، وهي رواية جابر المتقدمة ، حتى اذا كان ذات يوم، والناس ينصرفون عنه ، كأنما اعجبه ما هو فيه فزاد فيها.

لبيك ان انعيش عيش الاخرة .

ولبى الرسول (ص) خارج اطار التلبية الرسمية ، المسموح بها فقال (17) :

لبيك غفار الذنوب
لبيك . . .

ولبى أيضا (18)

لبيك عمرة وحجا

وافتتح صلاته ملبيا (19) :

لبيك وسعديك
والخير في يديك
والشر ليس اليك

وقد تابع الصحابة نبيهم في تلبيات شخصية لا يجهرون بها، فلبى عبد الله بن مسعود قائلا (20) :

لبيك عدد الحصى والتراب

ومع أن هذه التلبيات ذاتية محضة يحتفظ بها الصحابى الملبى في سره، لكنها اثارت الاستغراب لدى سماعها من قبل صحابة أخرين متشددين في قبول غير التلبية الرسمية ، فقد روى عن سعد بن أبى وقاص (رض) أنه سمع أحد أبناء اخوته يلبى قائلا (21) :

لبيك ياذا المعارج ..

---

(15) الام للشافعى (اشارة سابقة).
(16) المصدر السابق نفسه.
(17) العينى، عمدة القارىء فى شرح صحيح البخارى 173/9 وطنطاوى جوهرى، تفسير الجوهر. 182/1.
(18) المصدران السابقان ولسان العرب مادة (سعد).
(19) المصادر السابقة نفسها.
(20) م. ن.
(21) الام 132/2 وعمدة القارى 172/9.

فأبدى سعد تعجبه وقال : المعارج ؟!.. انه لذو المعارج. ما هكذا كنا نلبي على عهد رسول الله (ص).

وواجهتنا تلبيات بعض انبياء الله ، فنجدهم على تشددهم بتلبية أبيهم ابراهيم التى قالت فيها المصادر (22) «وكانت التلبية في عهد ابراهيم، لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك» وبرغم التزامهم بحرفيتها ، يخرجون الى صيغ اجتهادية تنطلق بها السنتهم. قال عبد الله ابن عباس «سلك فج الروحاء» (23) سبعون نبيا حجاجا عليهم لباس الصوف، مخطمين ابلهم بحبال الليف، على نوق حمر، لبوسهم العباءة وتلبياتهم شتى . منهم يونس بن متى، وكان يقول :

لبيك فراج الكرب لبيك ..

وحج موسى النبى على جمل أحمر ، فمر بالروحاء عليه عباءتان قطوانيتان ، متزر باحداهما مرتد بالاخرى، معه سبعون الفا من اتباعه. فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة ، فقال :

لبيك أنا عبدك لبيك ..
فسمع صوتا من السماء يقول :
لبيك عبدي أنا معك ..

فخر موسى ساجدا .
وكانت تلبية عيسى عليه السلام :

لبيك ...
أنا عبدك ابن امتك
بنت عبديك
لبيك ...

انتهت رواية عبد الله بن عباس. ولسنا نريد أن نقرر بمدى اطمئناننا الى نصوص رواية ابن عباس ، لان الرواية متقطعة ، ويصعب القطع في سلامتها ، كما لا نريد أن نردها كلها لان عنصر التوارث قد بعطيها بعض سمات الاصالة ، لكننا ننطلق من زاوية البحث التى تفيد

(22) السيرة النبوية 79/1 والاصنام 54/2 واخبار مكة 55/1، 6/2.
(23) الام 127/9 اخبار مكة 38/1 نهاية الارب فى فنون الادب 309/1 معجم مااستعجم لابكرى (مادة الروحا) والروحاء قرية كانت على مايقولون على بعد ليلتين من المدينة.

بأن خروج أنبيـاء الله الموحدين على تلبيـة أبيهـم ابـراهيـم الخليـل لا يختلف عن خروج الرسول واصحابـه في تلبيـات شخصية أو ذاتيـة يسرها لنفســه ولا يجهـر بهـا بيـن قومـه .

وتفيد كتب الاثر بأن الرسول (ص) عـد الاهلال بالتلبية فريضة من فرائضه، وان كانت عند بعضهم سنة من سننه أو شعيـرة من شعائره، واوردوا حديثا في ذلك (24)، وحضوا الناس على التلبيـة عند الحـج، والزموا المسلم بهـا قائمـا ام قاعـدا، سائرا أم واقفـا، نائما ام يقظا، وخصوا بها الرجال دون النساء، وهو مظهر أخلاقى وتربوي اسلامى، اذ أن خفض الصوت للمراة أولى بها وأستر لها ، فالتلبية تدخـل مع شعـائر الحج ومناسكه وعلاماته واثـاره واعماله ، فهـى لا تختلف عن الوقـوف والطواف والسعى والرمى والذبـح والافاضـة (25).

وهذه النصوص التلبويـة التى بين يدي القاريء مشروحة معلقا عليها، ليست هى كل تلبيات العرب قبل الاسلام ، لاننا نعلم ان القبائل عبدت ما يقـرب من (360) ثلاثمائة وستين صنما على عدد القبائل نفسها (26)، فكان هذا الواقع يفترض ان يكون موروثنا من التلبيات ما يقارب هـذا العدد، لذلك، نحن لا نستبعد ان يكون أحد أعلامنا القدمـاء قد وضع كتابا في التلبيـات أو جمعها أو فعل شيئا من هذا، ولا نستبعـد أيضا أن يظهر مثـل هذا الكتـاب بين مخطوطاتنـا العربية المحفوظة في الاصقاع الاجنبية الغريبـة ، وان ورد الى علمى ما يؤيـد مثل هـذا الظن حقا، لكننى لـم ألمسه الى الآن واقعا أو فعلا. لكن الذي لمسته أن الدكتور حاتم الضامن أفادنى ببعض التلبيات في مخطوطة لقطرب فشكرا لـه، وان المستشرقـة الدكتورة الزة شتيتر قد أخبرت بوجود بعض التلبيات لدى الدكتور معظم حسين وذلك في تحقيقها لكتاب المحبر.

نصـوص التلبيـات قبـل الاسـلام :

وسأورد التلبيـات الجاهلية مشروحة معلقا عليها، ذاكرا في الهامش ارقام المصـادر المستقاة منهـا :

(24) عمـدة القارى 172/9.
(25) المصدر السابق وكتاب الام 132/2.
(26) تنظر مقـالة الدكتور احسان عباس : نصـان جديدان عن الدين فى الجاهلية — مجلة — الابحاث الجامعة الامريكية — بيروت — السنة 26 (1973 — 1977).

1) كانت تلبية نزار كلها، ثم صارت لقريش ومن نسك معها لاساف :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك ان الحمـد لـك
والملـك لا شريك لـك
الا شريـك هـو لـك
تملكـه ومـا ملـك
ابـو بنـات بفـدك ..

وردت التلبيـة في كتاب الاصنام (27) والمحبـر (28) وتاريـخ اليعقوبـى (29) ورسالة الغفـران (30). ووردت كذلك في اكثر مصـادر التحقيق الاخرى ، لكنهـا لم تـرد كاملة «في جميع المصادر، وانما ضممنا الروايـات الى بعضها، فخرجت التلبية على صورتها الحاليـة.

وهى التلبيـة الام، لان جميع القبائل خضعت لصيغتها ورددتهـا أشبه بنشيـد وطنى أو قومى لاي قطـر من الاقطار أو أمـة من الامم، وانه لامـر ملفـت للنظر ان يكون العرب قبل آلاف السنين قد اجتمعوا حـول نشيد قومى واحـد ، ثم تفرقوا، وعادت الصيغة الاسلامية للنشيد الدينى فجمعتهم، ثم تعـددت الاناشيد مع تعـدد الاقطار، كما تعددت من قبل مع تعدد الاصنام . ولهذه التلبيـة خصوصية فهى الاحرف الاولي لاقدم تلبية، والعبارات الثلاث الاولى منهـا هى تلبيـة ابراهيم الخليل عليه السلام. كما تقـدم شرحه، وهى ايضا تحملت أول محاولات التحريف، وقد بـدت واضحة في العبارات الثلاث الآخيرة، وقد تقـدم خبر عمرو بن لحي الخزاعى وكيف جـرى هذا التحريف على يـده. فالتلبيـة مؤلفة من ستـة أشطـر، ثلاثة منها توحيديـة، وثلاثة اخرى وثنيـة . لكن الملاحظ أن انتصـار الشـرك أو الوثنيـة لم يملك الجـرأة علي الغاء الاصل، وانما بنى مجده وبقـاءه عليه. لذلك بقى «الاحناف» يناضلون في الساحة العربية مئـات وآلاف السنين ، حتى كان النصر على يـد الاحناف المسلمين، وعاد للتلبية وجهها الحقيقى، واقتطعت الاضافة الوثنية واصبح العرب يهتفون بشعارهم القومى الاصيل بعد ان توحـدت كلمتهم، والتلبية هى رمـز هذه الوحدة.

(27) لابن الكلبى ص 311.
(28) لابـن حبيـب .ص 311.
(29) وهو المعروف بابن واضح الاخبارى 212/1 .
(30) لابى العلاء المعرى ص 534.

لذلك ذكر الرواة أنها كانت تلبية نزار كلها ، وطبيعى أن المقصود بنزار هى جميع القبائل العدنانية، وهم العرب العارية أو المستعربة، ويقابلهم العرب العرباء، وهى جميع القبائل القحطانية . وتشتق لفظة العرب لدى المؤرخين العرب القدماء من اسم (يعرب) أبى العرب، وان كانت اللفظة تأخذ لدى الباحثين العلميين بعدا آخر يعتمد الكتابات والنقوش ونتائج الحفريات والملاحظة العلمية (31).

ويذكر النسابون ، وبوجه خاص ابن قتيبة في المعارف وابن عبد ربه في العقد والمبرد في نسب قحطان وعدنان والقلقشندي في صبح الاعشى وابن دريد في الاشتقاق ، ونقل عنهم النويري في نهاية الارب، أن نزار بن معد بن عدنان ولد له اربعة : اياد وأنمار وربيعة ومضر، والى ربيعة ومضر ينسب ولد نزار، وهو الصريح من ولد اسماعيل.

فالتلبية لاساف كانت لدى هذه القبائل ، ثم غلبتهم قريش على عبادته. وقريش تحدرت من مضر بن نزار الذي انجب (خندفا) فمدركة فخريمة فكنانة، وهو الجد الاعلى لقريش الذي عرف لدى النسابين باسم (النضر) لكن عملية قتله لقرش البحر وانقاذه الركاب كان السبب في اسمه الجديد، كما يروي لنا (صبح الاعشى) وكانت قبائل اخرى قد دانت لاساف مع قريش بتأثير الحلف الديني معها، فلبت بتلبيته، فضلا عن كون هذه التلبية هى الام.

واساف اله قديم، يقرن بالاهة قديمة تدعى (نائلة) رويت عنها قصة عشق ذات مغزى اسطوري، مجملها : انهما شابان أشعل الحب قلبيهما ، فلما تيسر لهما لقاء في الكعبة، لم يملكا أن يكبحا جماح شهوتهما العارمة ، فزنيا ببعضهما، فمسخا حجرين ، نقلوهما فيما بعد الى خارج الكعبة ليتعظ الناس بهما، ثم نقلهما عمرو بن لحي الى ما بين الصفا والمروة ليكونا إلهين يعبدان . ولعل الذي سوغ قبول الاسطورة يومئذ، انهما وجدا على هيئة رجل وامرأة عاريين ، وان الطواف كان في الكعبة بلا لباس، حتى ان الازرقى في تاريخ مكة يروي عن نسوة كن يطفن عرايا وينشدن :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

(31) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام 13/1 ومابعدها.

ولا أريد أن استطـرد في طقوس عبادة (اســاف) ولا في سيرة حياته في أرض العرب (32)، وانما أود أن أشير الى الشطر الاخـير من التلبية : «أبـو بنــات بفدك» لانـه على علاقة البنــات بأساف ونائله ، وظاهـرة الجنس في هذه العبــادة . والواقع أن اساف هو أوسع عبــادة من معشوقته نائلــة نفسهــا، فهو مذكر أولا، والالــه القومى لدى العرب في عهـد الوثنية كان بصيغــة المذكر دائمــا، لكن الــه القبيلة المحلى قد يأتى مذكـرا وقد تكون الاهــة مؤنثة. لكن ذريــة الالهــة لدى الوثنيين هى الانــــاث دائما في زعمهم، والى هذا أشــار القرآن الكريم في عــدة مواضع. قــــال تعالــى (33) : فاستفتهم الربــك البنــات ولهم البنــون، أم خلقنـــا الملائكــة اناثــا وهم شاهــدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله، وانهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين، ما لكم كيف تحكمون» «وجعلوا لــه من عباده جزءا، ان الانســـان لكفــور مبين، ام اتخذ مما يخلــق بنـــات واصطفاكـم بالبنيــن . واذا بشــر احدهم مما ضرب للرحمن مثلا ظــــل وجهــه مســودا وهو كظيـم» (34). وأوردت كتب التفسير قــول الكفــار بان الملائكــة بنــات الله (35) وفدك قرية كانت فيها بنـــات أســـــاف منصوبــة بناحية من الحجاز للعبــادة، ويبدو أن الالهات قد شيدت عليها ابنية لان الموضع فيــه عين ماء ونخيل، وهى العادة المتبعة الى اليوم حيث ينزل المتعبدون في مثل هذه المواضع وتتحول مقاماتهم الى مزارات، ومما يدل على قدسية موضع فدك ووجود البنات المقدسات فيه، ان الرسول (صلعم) أفاء بهذه القرية. او بالمزارات بالذات لابنته فاطمة، ثم نـــازع العباس عليا (رض) عندما، فسلمها عمر (رض) اليهما (36).

2 ـ وكانت تلبيــة بنى بكـر وسائر بنى كنانة ومن نسك لهبل :

لبيــك اللهــم لبيــك
لبيــك اننــا لقــاح
حرمتنــا على اسنــة الرمــاح
يحسدنــا الناس على النجــاح

---

(32) المفصل فى تاريخ العرب 266/6.

(33) الصافات آية 149 وما بعدها .

(34) الزخرف آية 17 ومابعدها. وتنظر مقالتنا الطفولــة ورموزهــا فى (مجلة مكتبــة الاداب ــ جامعة بغداد) العدد 23. والمفصل فى تاريخ العرب 165/6.

(35) ينظر تفسير الطبرى 83/14 وكتاب روح المعانى 156/14.

(36) ينظر اللســـان مـــادة (فدك).

وردت التلبية في المحبر (37) . وجاء في الاصنام (38) أنه كان لقريش اصنام في جوف الكعبة، وكان اعظمها هبل، ثم أورد صفته.

وبنو بكر قبيلة معروفة الى جانب تغلب، وتشكلان الملحمة العربية المعروفة في تاريخ الادب العربى باسم : البسوس ، وهما ابنا وائل بن ربيعة، وجدهم الاعلى ربيعة هو أخو مضر وأياد وأنمار أبناء نزار. فالتلبية واسعة الانتشار بسبب بكر وتغلب. وكان هبل اعظم الاصنام المنصوبة في جوف الكعبة. واياه عنى ابو سفيان عندما خاطب المسلمين منتصرا بقوله : «اعل هبل .. اعل هبل ..» فرد عليه رسول الله (ص) بصوت عمر بن الخطاب «الله أعلى وأجل .. الله أعلى وأجل» فنادى : «لنا العزى ولا عزى لكم»، فرد عليه عمر : «الله مولانا ولا مولى لكم» (39)، وقد نال هذا الاله عناية الرواة (40) ومثله (ود) وجعله ياقوت صنما لبنى كنانة . وكانت قريش تتبادل عبادة الهتها، وهو الحلف الدينى الذي اشرنا اليه، وسيلقانا حلف مثله في تلبية حمير وهمدان وقد تخالفتا على عبادة الاله «نسر» .

ويبدو لي أن أصل اسم «هبل» هو «هبعل» حذفت منه العين، فبقيت لفظة «هبل» في عربيتنا، وأن (أل) و (ال) هى في الاصل «ايل» التى تعنى الاله ايضا ، فهو (البعل) في لهجتنا المتطورة، واللفظة وردت في القرآن الكريم، لكن بقيت على حالها في الاستعمال عندهم. واشارت التلبية الى ضرب من الحماية اكتسبته سدنة هذا الاله، حيث حرمت دماؤهم ، فلا يتعرض لهم أحد بالاذى والقتل، وهو أمر كان معروفا يومئذ. ومعنى «لقاح» الواردة في التلبية ، أنهم لم يدينوا بدين الملوك، ولم يخضعوا لهم ولم يصبهم في الجاهلية سباء، فهو مصطلح دينى وسياسى واجتماعى شائع يومذاك وله امثلة في الشعر القديم (41).

3 ـ ووردت تلبية اخرى لكنانة ومن نسك معها لسواع :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أبنا اليك
ان سواع طلبنا اليك

(37) ابن حبيب ص 311.
(38) ابن الكلبى ص 27.
(39) ابن هشام ـ السيرة النبوية 99/3.
(40) تراجع العلاقة بين هبل و (ود) من خلال الرمز الدينى للحية. المفصل 253/6.
(41) يراجع اللسان مادة (لقح).

رويت في المحبر (42) وقد وردت لفظة «طلبنا» في السطر الاخير بلا الف على هذه الصورة «طلبن» وهو سهو واضح ، لكن المحققة الامريكية الدكتورة ايلزا شتيتر ابقت اللفظة على وضعها في الاصل المخطوط تحفظا وامانة . وكانت هذيل ومزينة وبعض قيس عيلان يتعبدون لسواع الى جانب كنانة الوارد ذكرها في التعليق على التلبية الاولى. وجاء في كتاب الاصنام (43) : كان سواع برهاط (44) من ارض ينبع، وينبع قرية من قرى يثرب، وكان سدنته من بني لحيان ، وان هذيل بن مدركة أول من تعبد لسواع، وذكرت المصادر ايضا انه كان علي صورة امرأة (45)، ويبدو ان (سواع) كان صنما عزيزا واسع الانتشار، وان له رحلة طويلة في الارض العربية. فقد نشر ربوبيته في أول أمره بين بطون همدان، ويذكر العلماء انه كان قبل ذلك بين قوم نوح عليه السلام، فاصابهم الطوفان فدفنه السيل - كما ينقل الازهري - وغرقه الله فاستثاره ابليس لاهل الجاهلية فعبدوه (46) ، فغادر وطنه الاول الذي غلبه الله تعالى عليه الى وطن جديد بين همدان ، ثم لقى في هذيل تعظيما فحل بينهم، أو نحتت له صورة هناك، ثم بدأت تعاليمه تنتشر بين القبائل العدنانية من مزينة وبعض قيس عيلان .

4 - ووردت تلبية لبكر بن وائل ، ومن نسك لمحرق :

لبيك اللهم لبيك
لبيك حجا حقا
تعبدا ورقا ..

رواها ابن حبيب (47) ، وأضاف ابو العلاء المعري (48) اليها :

جئناك للنصاحة
لم نأت للرقاحة

(42) ابن حبيب 311، 315.
(43) ابن الكلبى ص 9.
(44) قرية جامعة عن ثلاثة أميال من مكة، وفيها سواع صنم لهذيل. معجم ماستعجم رسم (وهاط).
(45) المفصل فى تاريخ العرب 257/6.
(46) اللسان مادة (سوع).
(47) المحبر ص 315.
(48) رسالة الغفران ص 534.

لكن هذه الاضافــة ستأتى في تلبيـــة من نســك للالاهــة (سعيدة) وهى التلبية السابعــة عشــر .

وقــد أوردنا ذكر بكــر بن وائل في تعليقنا وشرحنا للتلبية الثانية.

امــا دلالــة محــرق فقد كان منصوبا بسلمان، وهو ماء على طريق مكة في العــراق، ويقال أنه موضع آخــر وانه ألمم بالطائف (49)، لكن الــرأي الاول أرجح، لان الماء أجلب للمقامات المقدسة.

وقد تعبــدت لمحرق سائــر ربيعة، وهى قبائل ربيعة بن نــزار بـن معــد بن عدنان ، واشهر قبيلة في ربيعــة هى بنو اسـد. وربيعة نصـف العــرب العدنانيين، ونصفها الثانى شقيقتها مضــر التى اشتهرت بخندف. وقيس عيلان التى قال عنها الرسول : هامة العرب. فهــو إلــه يبســط ذراعيــة على مسافات واسعة من أرض العرب، وسبق ان رأينا رســول اللــه لا يصحح هذه التلبية ويلبــى بها، بعــد أن اسقط عنها الاجــزاء المحرفة منها، فجعلهــا خالصة للــه تعالى، ويبدو أن الاله محرق، كــان بيستقبل ضحاياه بشرا احياء يرمون بالنار، وقد تقرب الملك عمرو بن هند الى هذا الطاغيــة بطائفة من الاســرى أحرقهم ليستقبلهــم معبوده القاسى القلــب (50).

ويبــدو من استقراء الاخبار والنصوص الشعرية أن التسمية بالمحرق والحرقة وحريق (بالتصغير) قد تكون من مظاهر الضراعة والتزلف لهــذا الصنــم. فالحرقتان تيم وسعد ابنــا قيس بن ثعلبــة بن عكابة بن صعب. وهما رهط الاعشى قــال

عجبت لآل الحرقتين كأنمــا رأونــى نفيــا من اياد وترخم

وحريــق بن النعمــان بن المنــذر، وحرقة هى بنت النعمــان بـن المنــذر التى كانت سببا من اسباب يوم ذي قــار ضد الفرس المحتلين للارض العربيــة يومذاك، والمحــرق هو عمرو بن هند أخو النعمــان بـن المنذر الذي أحرق مــائة من بنى تميــم منهم تسعــة وتسعون من بنى دارم، وواحد من بنى البراجم ، وكان نذره مائة، فأتــم النذر برجــل برجمى أقبل راكبا، فرمى به في النــار، فقيــل في المثــل : الشقي راكب

---

(49) معجــم مــا استعجــم رسم **(سلمان).**

(50) المفصــل فى تاريخ العرب **قبل الاسلام 81/6.**

البراجم . وهذا هو يــوم أوارة المشهــور في أيــام العرب (51)، ومحرق أيضا لقب الحارث بن عمــرو ملك الشام من آل جفنــة، وانما سمى بذلك لانــه أول من حــرق العرب في ديارهم فهم يدعــون آل محــرق، ولعلــه فعلها مقابل ما فعلــه المنــذر بن ماء السماء اللخمي حيث أحــرق للملك الجفنــى الغسانى أربعمائة من اسراه تقربا لالاهه المزعــوم. وربما يكون الملك الغسانى نــذر لمحرق أيضا، وان كان محــرق من آلهة عــدوه، وهو أمر واقع في تاريخ البشرية جمعاء، وأما قول الاسود بن يعفر :

مــاذا أومــل بعد آل محــرق تركوا منازلهم وبعــد ايــاد

في قصيدته المشهورة، فانما عنى امرأ القيس بن عمــر بــن عــدي اللخمي، لانه أيضــا يدعى محرقــا. قال ابن سيده : محرق لقب ملــك، وهما محرقان محرق الاكبر وهو امــرؤ القيس اللخمي، ومحرق الثانى وهو عمرو بن هند، مضــرط الحجارة ، سمى بتحريقه بنى تميم في القصــة المذكــورة قبل قليل (52) وكلمة الــرق أخر التلبيــة تعني العبوديــه، وكلمــة الحج : القصــد .

5 ـ وكانت تلبيــة ثقيف بالطائف ومن تنسك للات :

لبيــك اللهــم لبيــك
لبيــك كفــى بيتنــا بنيــة
ليــس بمهجــور ولا بليــة
لكنــه مــن تــربــة زكيــة
اربابــه من صالحــى البريــة

ذكرها ابن حبيب (53)، ولم تكن ثقيف وحدها تعظم اللات وتلبى لها بهذه التلبيــة ، وانما كانت معظمــة عند قريش وطوائف اخرى من العــرب، لكن سدانتهــا وحمايتها كانت على يــد الثقفيين، وتنتسب ثقيف الى قيس عيــلان المنحــدرة من مضــر بن نــزار بن معــد بن عدنــان، ولهذه القبيلة أعلام في الفكــر العربى والقيــادة، منهم الطبيب المشهــور الحارث بن كلــدة الملقــب بطبيــب العــرب، والفقيه عبد الوهاب بــن

(51) يراجع كتاب ايام العرب لابى عبيدة 273/1.
(52) اللســان مــادة (حرق).
(53) المحبر ص 311، 315.

المحميد وبطل القادسية الفارس الشاعر ابو محجن، وفيهم من اشتهر بالامارة والقيادة العسكرية مثل الحجاج بن يوسف . ومما يدل على تعظيم اللات من قبل العرب ان لها مقامات منتشرة في الحجاز وغيرها (54) وقد ذكرت في القرآن الكريم ضمن ثالوث وثنى مع العزى ومناة، وأفاد ابن الكلبى في الاوثان أن الرسول ، يوم كان على دين قومه، قرب شاة للات، لكن طائفة من العلماء يضعفون ابن الكلبى وخبره وينزهون الرسول منذ طفولته وصباه. وذكرت المصادر العديدة أن اللات في الاصل صخرة كان عندها رجل يلت عليها السويق للحاج، فلما مات، قيل عنه لم يمت بل دخل الصخرة ، فعبدت الصخرة، وانكر ابن سيدة ذلك، وكان الكسائى يقف على اللاه، قال أبو اسحق ، وهذا قياس، والاجود أتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء. قال أبو منصور : وقول الكسائى (يوقف عليها بالهاء) يدل على أنه لم يجعلها من اللت، وكان المشركون الذين عبدوها عارضوا باسمها اسم الله تعالى. فكأنهم لما وجدوا أن لفظ الجلالة (الله) يوقف عليه بما يوقف على تاء اللاة متحولة الى هاء، قالوا ان الاصل واحد، لكن الملاحظ هنا هو الفرق بين تفخيم اللام المضعفة في لفظ الجلالة وترقيقها في لفظة (اللاة) ، فهل قصدوا الى تطور الاستخدام اللغوى، أم ماذا كان أصل زعمهم ؟ ولا استبعد ان تكون لفظة اللاة قد اشتقت من لفظ الجلالة في اثناء مرحلة التحريف العقائدي.

6 ـ وهذه تلبية أخرى خاصة بثقيف :

لبيك اللهم لبيك .
ان ثقيفا قد أتوك
واخلفوا المال وقد رجوك

وقد تفرد بروايتها ابن واضح الاخباري في تاريخه المعروف (55).

7 ـ وكانت تلبية غطفان ومن نسك معها للعزى

لبيك اللهم لبيك
لبيك وسعديك
ما احبنا اليك

(54) المفصل 272/6.
(55) تاريخ اليعقوبى 212/1.

رواها ابن حبيب (56) وقد انتشرت عبادة العزى في ارض العرب، فاصبح لها عدة مزارات نجد والحجاز واليمن، وهى ثاني معبود من ثلاثة ذكروا في مثلث وثنى سبق ذكره. وكانت تقدم اليها هدايا مختلفة، كما كانت الاهة قاسية القلب أيضا لان هداياها احيانا من البشر، اسرى واطفال وصبيان وفتيات في ربيع العمر (57). وأما اختصاص غطفان بعبادتها وانشاد تلبيتها فهذا أمر وارد في عادات العرب، وقد سبق أن رأينا ثقيفا كيف اختصت باللات.

وغطفان الجد الاعلى لهذه القبيلة، هو ابن سعد بن قيس عيلان، وقد انجب عبسا وذبيان المعروفتين بالملحمة الشعرية النثرية : داحس والغبراء التى احتوت على جيل عمالقة الشعر العربي زهير، والنابغة، وعنترة، وعروة وعشرات سواهم.

والعزى شجرة كانت تعبد من دون الله ، قال ابن سيدة : هى تأنيث الاعز بمعنى العزيز والعزى بمعنى العزيزة وهذه هي صفات الله تعالى واسماؤه الحسنى، وكان العرب قبل الاسلام عند تحولهم الكبير نحو الوثنية قد عمدوا الى جميع اسماء الله الحسنى، واقاموا لكل معنى من هذه الاسماء الها يمثله صنم أو وثن أو رمز من رموز العظمة والقوة على عادة الوثنية في تجسيد كل المعانى المثالية الى مدلوله المادي، لان الوثنيين ماديون في تفكيرهم والتوحيديين مثاليون في عقيدتهم.

وقد تتبعت في دراسة أعدها الآن جميع اسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم وما يقابلها من طواغيت الشرك والوثنية، فوجدت الوثنيين قد نحتوا على مثالها اصناما، فكأنهم قد استقرأوا شريعة ابراهيم الخليل عليه السلام المثالية وجسدوها الى واقع عملي منظور في صورة ألهة واوثان ومعبودات أخرى.

وقال بعضهم : قد يجوز في العزى ان تكون تأنيث الاعز بمنزلة الفضلى من الافضل والكبرى من الاكبر، فاذا كان ذلك فاللام ليست زائدة في العزى ، بل هى على حد اللام في الحارث والعباس. قال : والوجه

(56) المحبر 311 ، 315.
(57) المفضل 235/6.

ان تكون زائدة ، لانـا لم نسمع في الصفات العزى ، كما سمعنا الصغرى والكبرى، وفي التنزيـل العزيز : أفرأيتـم اللات والعـزى. جاء في التفسير ان اللات صنـم كان لثقيـف، والعزى صنم كان لقريش وبني كنانة. قال الشاعـر :

أما ودمـاء مـائرات تخالهـا   على قنة العزى وبالنسر عندما

ويقال : العزى سمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليـا بيتا وأقاموا لها سدنـة، فبعث اليها رسول اللـه (ص) خالد بن الوليد فهدم البيت وأحرق السمـرة وهو يقـول (58) :

يـا عز كفرانك لا سبحانك   انـي رأيت الله قـد أهانك

وانشاده الرجز بهذه الصيغة كأنما يعارض رجزا كان ينشد لهـا بمعكـوس هذه المعانى، وخاصة أنه يؤكد قوله : كفرانك لا سبحانك. موحيا بأنهم قد سبحوا لها بمثل هذه الصيغة لكن الرواة تورعوا عن روايتها.

8 ـ وكانت تلبية من نسك لمناة من اليثربيين والازد وغيرهم :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك لـولا ان بكـرا دونك
يبرك الناس ويهجرونـك
ما زال حج عثج يأتونك
أنـا على عدوائهم من دونـك

جاءت التلبية في المحبـر (59) ورسالة الغفران (60) ولسان العرب(61). ومعنى عثج : الكثير ومعنى عدوائهم : مواقعهم. ومعروف أن يثرب، وهو اسم مدينة الرسول (ص) قبل الاسلام، كان من عناصرها الاوس والخزرج، وهم ازديون كهلانيون من يعرب القحطانية، وهم الشعب الثانى بعـد انقـراض جرهم ، الشعب الاول . وكانت جرهم باليمن ثم انحـدرت الى الحجـاز حتى ظهـور اسماعيل عليه السلام بمكة. وكان مـع اليثربيين عبرانيون (يهـود) عرفوا باسماء قبائلهم وبالاماكن التى نزلوا فيها. أما الازديون، فهم ثلاثة فـروع : ازد شنـوءة وهو لقـب لهم وأزد السـراة

(58) اللسـان مـادة (عزز)
(59) ابـن حبيـب ص 311.
(60) أبو العلاء المعرى 534.
(61) ابن منظور مـادة (عثج) .

وهو موضع باطراف اليمن وأزد عمان، مدينة بالبحرين. وكان اليثربيون عامه والازديون خاصة يتعبدون لهذا الاله ويلبون بتلبيته.

ومناة صخرة ، وفي الصحاح : صنم كان لهذيل وخزاعة بين مكه والمدينه (62). وهذا القول يؤيد انتشار هذا الاله واتساع رقعه نفوده، حتى ذكر انه كان منصوبا بسيف البحر بقديد (63)، حيث تتعبد له بعض قبائل تميم والازد ، فهو اله قحطانى عدنانى معا، وأكثر الالهة العربية تحمل الهويتين . ومناة هى الثالثة الاخرى في المثلث الذي ذكره القرآن الكريم. والهاء في مناه للتانيث ويسكت عليها بالتاء وهى لغة، والنسب اليها منوي. وفي الحديث انهم كانوا يهلون لمناة، هو هذا الصنم المذكور. وعبد مناة ابن أد بن طابخة، وزيد مناة بن تميم ابن مر (64). وعند مراجعة هذه الاسماء، وجدت انها تخص قبائل تدين بالطاعة لهذا الصنم. وفي مشتقات اسمه قولك : منوته أى بلوته واختبرته، والمنية ، ولعله كان آلها لها، ووردت التلبية في اللسان على هذا الوجه (65) : وكانت تسمى مناة الطاغية، وموضعها بالمشلل من قديد فيه ماء.

لا هم لولا أن بكرا دونكا
يعبدك الناس ويفجرونكا
ما زال منا عثج ياتونكا

وهى تختلف قليلا مع الرواية المثبتة .

9 ـ وكانت تلبية همدان وخولان ومن نسك ليعوق :

لبيك اللهم لبيك
لبيك بغض الينا الشر
وحبب الينا الخير
ولا تبطرنا فنأشر
ولا تقدحنا بعثار

رواها ابن حبيب (66).

(62) لسان العرب مادة (منى).
(63) معجم ما استعجم مادة (قديد) .
(64) اللسان مادة (منى) .
(65) المصدر السابق.
(66) المحبر ص 311.

وهمدان قبيلة قحطانية اشتهرت بشجاعتها في جاهليتها واسلامها حتى قال فيها علي بن أبى طالب (رض) يوم الجمل : لو تمت عدتهم الفا لعبد الله حق عبادته . وقد عبر عن لسان حالهم شاعرهم مالك بن حريم (67) :

وكنت اذا قوم غزونى غزوتهم فهل أنا في ذياك همدان ظالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

وخولان تجري مع همدان في النسب نفسه الا انها تتفرع من مذحج التى سميت باسم شجرة تحالفوا عندها.

وكان يعوق منصوبا بارحب (68)، وهو موضع تنسب اليه النجائب الارحبية، وجاء في كتاب الاصنام (69) انه كان منصوبا بقرية في صنعاء اليمن يقال لها خيوان، فعبدته همدان ومن والاها، وكلا القولين صحيح، لان ارحب الموضع يعود لقبيلة ارحب التي هى فرع من همدان، وخيوان الذي ذكره ابن الكلبى هو أحد مساكن همدان، وان انتشار نسخ متعددة من الصنم أمر مألوف . كما أن وجود الهين بهذا الاسم احتمال ليس ببعيد (70) . واورد الكلبى ما نصه (كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين ، ماتوا في شهر، فقام رجل حين رأى جزع قومه عليهم، واقترح أن يعمل تماثيل على صورهم، فعبدت فيما بعد) ووردت القصة مع تغيير وتطويل في مواضع أخرى من المصادر، كما جاء في موضع آخر أن يعوق كان صنما لكنانة (71).

10 ــ وكانت تلبية مذحج ومن نسك ليغوث :

لبيك اللهم لبيك
لبيك أحبنا بما لديك
فنحن عبادك قد صرنا اليك

رواها ابن حبيب (71)، وقال عن يغوث انه كان منصوبا بأنعم، قرية بناحية عمان (73) وانه كان بأكمة باليمن يقال لها مذحج ،

(67) أيام العرب ــ جاد المولى وجماعته ص 411.
(68) اللسان مادة (رحب).
(70) المفصل فى تاريخ العرب 262/6.
(71) اللسان عوف.
(72) المحبر 311.
(73) معجم ما استعجم رسم (انعم)

فعبدته مذجع ومن والاها، وهذه اشارة للحلف الديني. وقال ايضا : أن الذى جاء به هو أنعم بن عمرو المرادي . وتروي لهذا الصنم سيرة حياة ذاتية (74).

وهو احد الاصنام التى سبق ان اشرنا اليها انها كانت في عهد نوح، نحتت على يد رجل فنان، جعلها على صور اصحابها فعبدت، وهى اشارة ميثولوجية للاصل السحري للفن.

11 ـ وتلبية حمير وهمدان ومن نسك لنسر .

لبيك اللهم لبيك
لبيك اننا عبيد
كلنا ميسرة عتيد
وأنت ربنا الحميد
اردد الينا ملكنا والصيد

رواها ابن حبيب (75)، وقال انه صنم كان منصوبا في قصر غمدان بصنعاء ارتفاع بنائه مائتا ذراع وقد شيد من عشرين سقفا طباق، بين كل سقفين عشرة اذرع. قال أبو الصلف الثقفى، وتروى لابنه امية ايضا، يمدح سيف بن ذي يزن بعد طرده الاحباش الاثيوبيين من أرض الجنوب العربى (76).

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا　　في رأس غمدان دارا منك محلالا

وقال ابن الكلبى (76) «ورد ذكر بيت معظم آخر يقال له : ريام» ويبدو من مفهوم هذه التلبية انها انتشرت بعد زوال ملك الحميريين، أو ربما بعد تعرضهم للاضطهاد عندما تهود ذو نواس فاضطهدهم، وهو رأي ترجحه المصادر (78)، وفي مقدمتها كتاب الاصنام، وذلك تعرضه لظاهرة انعدام النصوص الدينية والادبية والشعرية في هذا الاله مع أن له سيرة في المصدر لكن صاحب اللسان ذكر بأن نسرا كان

(74) المفصل 60/6.
(75) المحبر ص 311، 315.
(76) معجم ما استعجم مادة (غمدان).
(77) الاصنام ص 15.
(78) المفصل فى تاريخ العرب 263/6.

صنمـا لذى الكلاع بارض حميـر، وكان يغوث بمذحج ويعوق لهمدان من اصنام قوم نوح. وفي شعر العباس يمدح سيدنا رسول اللـه (ص) (79) :

بل نطفـة تركب السفين وقد   الجـم نسـرا وقومه الغرق

وحميـر قوم من اكبر القبائل العربية القحطانية، ومنها تفرعـت قضاعة التى تفرعت عنها بهراء ، وعذرة التى ينسب اليهم الحب العذري وعشاقه المتيمون مثل عروة بن حزام صاحب عفراء وجميل صاحب بثينة، وقبيلة كلب ومنهم حارثة الكلبى مولى رسول الله (ص) وفروع أخرى مشهورة.

12 ـ وتلبيـة اخرى لحميـر وهمـدان

لبيـك عن حميـر وهمـدان

والحليفيـن من حاشـد وألهـان

جاءت في تاريخ اليعقوبى (80). وقد ارجع علماء الانساب بطون همدان الي حاشد وبكيل وخصص الهمدانى الجزء العاشـر من اكليله في قبيلتـى حاشـد وهمدان . وهمدان وألهـان اخـوان من مالك بن زيـد، وحاشـد حفيـد همـدان والجميع كهلانيون (81). وكانت الهان تعبد قبل هـذه التلبية إلهـا يدعى (قينـان) (82).

13 ـ وتلبيـة أخـرى خاصـة بهمـدان :

لبيـك مع كل قبيـل لبـوك

همـدان ابناء الملوك تدعوك

قد تركـوا اصنامهم وانتابـوك

فاسمع دعـاء في جميع الاملـوك

ذكرها أبو العلاء المعري (83). والاملوك قوم من العرب من حمير. وفي التهذيب : (الاملوك، مقاول من حمير، كتب اليهم النبى (ص) «الـى املوك ردمان ...» وردمان موضع باليمن (84). ولبوك أي : لزموا امـرك (بضم الباء) ومن روى لَبوك بفتح الباء فهو سناد مكـروه.

(79) ابـن منظـور مـادة (نسـر).
(80) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.
(81) المفصـل 33/4.
(82) المصـدر السابـق 213/2.
(83) رسـالة الغفران 534.
(84) اللسـان مـادة (ملك).

14 ـ وتلبيــة اخرى خاصــة بهمــدان

لبيــك رب همــدان
من شاحــط ومن دان
جئناك نبغى الاحسان
بكــل حــرف مذعــان
نطوي اليــك الغيطــان
نأمــل فضــل الغفــران

رواها المعري (85). ومعنى شاحط : البعيد . وحرف : الناقة النجيبة الماضيــة . والغيطــان : الاراضى المتسعــة .

وتوجد ملاحظة على هذه التلبية والتلبيتين (12) ، (13) قبلها، اذ بدأت روايتها بــلا مقدمتها التوحيدية التي تخاطب اله العرب القومي قبل أن تخاطب اله القبيلة الوطنى اذا صح التعبير، وانما بدأت بآلهة الشــرك وتركت الــه التوحيــد الواحد الاحد ، الذي توارثت تلبيته من عهد ابراهيم، وهذا خلاف خرجت عليه هذه التلبيات، ويبدو لى أنه من تصرف الــرواة، أو من تصــرف أبى العلاء المعري نفسه، اذ استثقل أن يعيد الشطر المكرر في أول كل تلبيــة، فدخل بالتلبيــة الوطنية دون القومية، باعتبارهــــا مفهومة ضمنــا أو سياقا، بينما لم يستثقل ذلك محمــد بن حبيــب ولا ابن الكلبى ، وانما حافظوا على الاحرف الاولى لكل تلبية، وليس مــــن السهولــة ترك هذه المقدمــات التى هى أساسية في كل تلبية ، ونحن ثبتنا رواية المعري كما ثبتها هو لكننا أشرنا الى هذا الخروج هنا ونبهنا عليه ليطلــع القــاريء على حقيقتــه.

15 ـ وكانت تلبية بنى كلب واحياء من قضاعة ومن نسك للاله ود :

لبيــك اللهــم لبيــك
لبيــك معــذرة اليــك

رويت التلبية في المحبر (86). وكان ود منصوبا بدومــة الجندل. بين الحجاز والشام (87)، وأورد له ابن الكلبى وصفا في الاصنام (88)، حمل

(85) رســالة الغفران 534.
(86) محمــد بن حبيب ص 313.
(87) معجم مـا استعجــم رسم (دومة الجندل).
(88) كتاب الاصنــام ص 10، 56.

بعض الباحثين على الظن بأنه اله للحب، لان صفته توحي بأنه فارس فاتن نساء، كما ان بيت النابغة الذبياني يوحي بهذا المعنى أيضا :

حياك ود فانا لا يحل لنا   لهو النساء، وان الدين قد عزما

وود من اصنام قوم نوح ايضا، وصار لكلب بدومه الجندل كما اسلفت، لكن صاحب اللسان (89) قال بانه (الود) ثم ذكر بان [ود] صنم كان بعض العرب يهمزه فيقول : اد، وبه سمي عبدود، وسمي اد بن طابخه، وادد جد معد بن عدنان، ووجدنا في اصنام الساميين صنما بهذا الاسم أيضا، وقال الفراء : قرأ اهل المدينه «ولا تذرن ودا» بضم الواو. قال ابو منصور : أكثر القراء قراوا ودا بفتح الواو. وفي التهذيب : الود ، بالفتح ، الصنم ، وانشد :

بودك، ما قومي على ما تركتكم   سليمى ؟! اذا هبت شمال وريحها

فمن رواه بالفتح اراد بحق صنمك، ومن ضم أراد بالمودة بيني وبينك. وقد سبق أن تطرقنا اليه مفصلا في بحثنا في الكتاب الاول تحت عنوان : تراث الحب وقصصه في الادب.

16 ـ وهذه تلبية أخرى لقضاعة :

لبيك عن قضاعة
لربها رفاعه
سمعا له وطاعة

رواها ابن واضح الاخباري (90). وقضاعة كما اشرت سابقا قبيلة حميرية قحطانية .

ومرة أخرى انوه بان هذه التلبية وسابقتها لم تبدأ بالتلبية الاولى أيضا، وانما اقتصرت على تلبية الصنم، وهذا ما فعله المعري فكأنه يساير اليعقوبي في هذا الصنيع.

17 ـ وتلبية اخرى لقضاعه وسعد هذيم ومن نسك لسعيدة :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لم نأتك للمناحة
ولا طلبا للرقاحة
ولكن جئناك للنصاحة

(89) ابن منظور مادة (ودد).
(90) تاريخ اليعقوبي 212/1.

رويـت في المحبر (91) أما رسالة الغفران)92(واللسان [93] فعلـى الصـورة الآتيـة :

جئنـاك للنصـاحة
لـم نـأت للرقاحـة

وبهذه الرواية الاخيرة يكون الـوزن قد استقـام، خلافا لما ورد في المحبـر. وقد عدت ضمن تلبيـات بكبر بن وائل، وكانت تميم تلبـى لمنـاة ايضا وسعد هذيم قضاعية ايضا وهى في جداول النسابين : سعـد هذيـم بن زيـد بن ليث بـن أسلم بن الحاف بن قضـاعة (94) ولهـا شقيق يدعـى (نهـد). اما تميم بن مـر فينتسب الى خندف المتحـدرة من مضـر بن نزار شقيـق قيس عيلان. ولتميم فـروع عظيمة منها قبيلة عمرو بن تميم التى أنجبت حكيم العـرب · اكثـم بن صيفى وأوس بـن حجـر الشاعـر.

أما موضع الصنم المدعو (سعيدة) فهو أحد كما يذكر ابن حبيب (95)، وقد عبدته الازد أيضا، وسدنته بنو عجلان ، وورد في اللسان (96)، ان للسعيدة بيتا كانت تحده ربيعة في الجاهلية ، وهذا يعنى أن لسعيـدة مركـزا ممتـازا في أرض العـرب.

ومعني الرقاحـة الكسب والتجارة، والمياحـة : المنفعة ، وقـد تاتى للاستسقاء، والنصاحة : التوبـة النصوح الخالصـة.

18 ـ وكانت تلبيـه تميـم ومن نسك لشمـس

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك ما نهارنا بحـره
ادلاجـة وحـر وقـره
لا نتقى شيئـا ولا نضـره
حجـا لـرب مستقيـم بـره

---

(91) ابـن حبيـب 311.
(92) المعـرى 534.
(93) ابـن منظـور مـادة (رقـح).
(94) معجم ما استعجـم 36/1 (المقدمة).
(95) المحبـر 315.
(96) ابـن منظـور مـادة (سعد).

التلبية في المحبر (97). ونقل صاحب «التاج» (98) عن ابن الكلبي انه صنم قديم، وقد سمت به العرب فقالت : عبد شمس. والصنم غير مذكور في كتاب الاصنام لابن الكلبي . وعبدته بنو «أد» وكان له بيت يعظمونه (99) ويلاحظ في هذه التلبية وجميع التلبيات اظهار التزلف والتملق والضراعة للصنم .

19 ـ ولتميم تلبية أخرى :

لبيك اللهم لبيك
لبيك عن تميم قد تراها
قد أخلقت اثوابها
وأثواب من وراءها
وأخلصت لربها دعاءها

التلبية في تاريخ اليعقوبي (100).

وتعكس التلبية شعيرة دينية ، حيث كان العرب قسمين في وثنيتهم: الحمس والحلة . والحمس هم المتشددون في دينهم (101). وكان الحلة لا يطوفون بثيابهم لاعتقادهم انها تحمل ذنوب عام كامل، فيقولون : لا نطوف ولا نحج بثياب أذنبنا بها. فكانوا يستأجرون ثيابا من الحمس أو يشترون جديدة يطوفون بها. وهذا هو معنى التلبية .

20 ـ وكانت تلبية هوازن ومن نسك معها لجهار :

لبيك اللهم لبيك
اجعل ذنوبنا جبار
واهدنا لاوضح المنار
ومتعنا وملنا بجهار

التلبية في المحبر (102). وذكر أنه كان بعكاظ أسفل أطحل، وسدنته آل عوف النصريون، وورد في «تاج العروس» (103) أنه كان صنما لهوازن.

(97) ابن حبيب 311.
(98) الزبيدى مادة (شمس).
(99) المفصل 281/6.
(100) ابن واضح الاخبارى اليعقوبى 212/1.
(101) اللسان مادة (حمس) و (حلل).
(102) ابن حبيب 311، 315.
(103) الزبيدى مادة (جهر).

ولـم اقف حتى الآن على قبيلة اخرى تتعبد له. ويـدل اسم الصنم (جهار) وما تشير اليه التلبية من الدعاء بالتمتـع والتأمل بمنظره على أنه كـان صنمـا حسن الهيئـة ، فهو الـه للجمال عندهم. وتشير مـادة جهيـر وجهرة في اللغة الى حسن المنظـر، ولعله يعنـى الواضح المنظور غـير المستتـر المحتجب، ويلاحظ للمقارنة فقط قوله تعالـى في تنزيله العزيز على لسـان المشركين «ارنـا الله جهـرة» وهذا ما تتحملـه المادة اللغوية فحسب (104). واما معنى جبار الواردة في التلبية فهي : هدر الـدم بلاديـة ولا قـود.

21 ـ وكاانت تلبيـة بجيلة وخثعم ومن نسك ذا الخلصـة :

لبيـك اللهـم لبيـك

لبيـك بما هو أحب اليـك

التلبيـة في المحبـر (105) والاصنام (106).

وبجيلـة وخثعم ابنـا أنمـار . ويوجـد حول نسب انمـار خلاف، بعضهم يجعله عدنانيا اذ ينسبه الى نـزار بن عدنـان ثم تحول الى اليمن فلحـق بنسب القحطانيين . والبعض الاخـر ينسبه اصلا الى قحطان، فهم اشقـاء الازد ولحي ومذجح ومراد وهمدان وكنده وجذام ولخم وعاملة والاشعرين . ومن بجيلـة صاحب رسول اللـه (ص) جرير بن عبد الله البجلي الذي هـدم «جهارا» صنـم قبيلتـه المتقدم ذكره في التلبية السابقة، فقـال فيه وفيهم الشاعـر (107) :

لولا جريـر هلكت بجيلـة نعـم الفتى وبئست القبيلة

واما خثعـم ، فمنهـم حمـران الشاعـر القائـل :

أقسمت لا أمـوت الا حـرا انى وجدت الموت طعما مـرا

أخـاف أن أخـدع أو أغـرا

وذو الخلصة موضع ، يقال أنه بيت لخثعم، كان يدعى كعبة اليمامة، وكان فيه الصنم الذي يدعـى بذي الخلصة . وفي الحديـث : لا تقـوم الساعـة حتى تضطرب اليـات نسـاء دوس على ذي الخلصة. وهو بيت

(104) اللسـان مـادة (جهر).
(105) ابـن حبيـب 311.
(106) ابـن الكلبى ص 34.
(107) اللسـان مـادة (خلص).

كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم . وقيل : ذو الخلصة، الكعبة التى كانت باليمن ، فأنفذ رسول الله (ص) اليها جرير بن عبد الله البجلى فخر بها كما ذكرنا . وقيل : ذو الخلصة، الصنم نفسه. قال ابن الاثير : وفيه نظر لان (ذو) لا تضاف الا الى اسماء الاجناس (108). وحمل حديث الرسول (ص) على المجاز وليس الواقع، واكثر احاديثه صلوات الله عليه تحمل على وجه المجاز وان كانت تشير الى حقيقة أو واقع ملموس.

وذكر ابن الكلبى أن أزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن كانوا يعبدون ذا الخلصة أيضا، وكان في تبالة، ويبدو أنه كانت له مقامات أخرى في ارض العرب وذلك لتعدد القبائل التى دانت له ، منها الكعبة اليمانية (109) .

22 ـ وهذه تلبية أخرى لبجيلة

لبيك اللهم لبيك
لبيك عن بجيلة
في بارق ومخيلة
الفخمة الرجيلة
ونعمت القبيلة
جاءتك بالوسيلة
تؤمل الفضيلة

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبى (110) ورسالة الغفران (111)، وقد وجدنا التلبيتين. وقد مضى في التلبية السابقة كلا منا عن خثعم وبجيلة. ومعنى (بارق ومخيلة) أنه السحاب الخلب الذي يبرق ولا يمطر، فاذا أمطر ذهب عنه اسم التخيل (112). فالتلبية للاستسقاء. والرجيل : القوي الصلب.

(108) المصدر السابق.
(109) المفصل 270/6.
(110) ابن واضح 212/1.
(111) المعرى 534.
(112) اللسان مادة (خيل).

23 ـ وكانت تلبية السلف وعك والاشعريين ومن نسك لمنطبق :

لبيك اللهم لبيك

لبيك ...

التلبية في المحبر (113)، وبهذا القدر وصلت الينا التلبية ، وقد تكون صحيحة، واذن فقد اكتفت بجزئها الاصيل، وهو التوحيد، وقد تكون سقطت من ايدي الرواة ، أو ان الراوية التي وقعت في يديه تحرج عن رواية الاجزاء الوثنية. وكان ابن حبيب (114) قد ذكر في موضع آخر في كتابه ان منطبق صنم للسلف وعك والاشعريين، يكلمون من جوفه كلاما لم يسمع مثله، وكان من نحاس (115)، وهذا يعيد الى أذهاننا الاصول السحرية للفنون الجميلة.

وقد مضى الكلام عن الاشعريين ضمن القبائل القحطانية، ومثلها السلف، أما (عك) فهو ثقيف معد بن عدنان، وليس لعك فرع، الا أن لهم في التاريخ موقعا مذكورا ، فهم الذين واجهوا بختنصر عند هجومه على (حضورا) ثم انطلق العكيون بعدها الى اليمن واختلطوا بأصولهم، فعرفوا بكونهم يمنيين اكثر من كونهم عدنانيين، لكن نسبهم هو (عك بن عدنان) وبعضهم ينسبهم (عك بن الديث بن عدنان).

24 ـ وتلبية اخرى لعك والاشعريين

نحج للرحمن بيتا عجبا

مستترا مضببا محجبا

التلبية في تاريخ اليعقوبي (110)

ويطالعنا هنا اسم (الرحمن) وسيتكرر في التلبية (37). وقد كانت عبادة الرحمن قد انتشرت في الارض العربية قبل الاسلام بزمن (112). وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى (113) «قل ادعوا الله أو ادعوا

---

(113) ابن حبيب ص 312.
(113) ابن حبيب ص 312.
(114) المحبر ص 315 .
(115) المفصل 286/6.
(116) ابن واضح 231.
(117) المفصل 306/6.
(118) الاسراء 110/17.

الرحمن، أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى». وتلاحظ صفة البيت بانه (مستتر مضبب محجب) مما يجسد معانى التعظيم والاجلال التى كانت تلقى على البيت من بعد قبل دخولهم الى الحرم، وهذه التلبية، هى الوحيدة بين التلبيات، عكست الروح الشعرية والفنية للترديدة الدينية ، بعيدا عن المصالح الدنوية في بقية التلبيات التى رددت التملق والضراعة للالهة.

25 ـ وكانت «عك» اذا بلغت مكة ، بعثت بغلامين اسودين مملوكين يسيران امام القافلة على جمل، قد جردا، فهما عريانان، فلا يزيدان على أن يقولا :

نحن غرابا عك ..

فتجيب جموع عك من خلفهما مرددة :

عك اليك عانية
عبادك اليمانية
كيما نحج الثانية
على الشداد الناجية

رويت في المحبر (119)، والاصنام لابن الكلبى ، ولم يذكر اسم الصنم الذي كانوا ينسكون له، الا أن ابن حبيب ذكر كما قدمت في التلبية (23) انهم كانوا ينسكون لمنطبق . وتعد هذه التلبية فريدة في بابها بين ما وصل الينا من التلبيات في ابراز الطقوس الاحتفالية لمثل هذه المناسبات الموسمية. كما تعكس مقطعا انشاديا مصحوبا بجوقة ترديدية، ترجح انها من بقايا احتفالات جماهيرية كبيرة، كانت تقام في هذا الموسم، حيث الاصنام منصوبة بين الصفا والمروة وحوالي منى وعرفة وجمع حتى الكعبة ، وهم ينفرون من جبل ثبير الى مزدلفة حين تشرق الشمس، مغيرين على عتائرهم منشدين للاشعار الدينية كقولهم :

أشرق ثبير
كيما نغير

ويتم هذا بشكل منتظم، وكل قبيلة وفق دورها ودور الاهها، فتكون مكة يومئذ مسرحا موسميا عظيما، والناسكون ممثلون لهذه الطقوس الوثنية

(119) ابن حبيب ص 311.

يرافقهـا الانشاد والترديد. واردوا بالثانية : الاشارة الى كعبتهم الاولى. الكعبـة اليمانيـة .

26 ـ وكانت تلبيـة عبد القيس ومن نسك ذا اللبـا :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك رب فاصرفن عنا مضـر
وسلمـن لنـا هذا السفـر
ان عمـا فيهـم لمزدجـر
واكفنـا ، واكفنـا اللهم اربـاب هجـر

التلبية في المحبر (120)، وذو اللب كان منصوبا بالمشقر ، قصـر بالبحرين، وقيل في هجر (121). وسدنته بنو عمر (122)، وتعكس التلبية صراع الارباب في المنطقة أما عبد القيس فتنسب الى جديلة، وهي بطن من بنى أسـد العدنانية . ولعبد القيس فـروع كثيرة أيضا.

27 ـ وتلبيـة اهل حضرموت ومن نسك لمرحب :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك اننـا لديـك
لبيـك حببنـا اليـك

وردت في المحبر (123)، وكان مرحب بحضرموت ، وسادنـــه (أي حافظه) ذو مرحب بن معـد يكرب (124).

28 ـ وتلبية بنى كندة، ومن نسك لذريح :

لبيـك اللهـم لبيـك
لبيـك كلنـا كنـود
فاكفنـا كل حيـة رصـود

التلبيـة في المحبـر (125) :

---

(120) ابـن حبيب ص 315.
(121) البكـرى – معجـم ما استعجـم رسم (مشقر).
(122) المفصـل 286/6.
(123) ابـن حبيـب 311، 315.
(124) المفصـل 286/6.
(125) ابـن حبيـب ص 312، 314، 318.

وكان (ذريح) بالنجير من اليمن، وظنه (ولها وزن) يمثل الشمس، بينما ظنه (تيودور نوادله) : الشارق ومحرق . اما الاسم (ذرح) فهو يرد ضمن الاعلام المركبة مع الاله (ايل) (ذرح ايل) وهو إله جنوبي لم تعرف له عبادة في الشمال (126) وقد سمت العرب باسم ذريح، كما سميت باسم قيس، وكلاهما اله او صنم. وكندة قبيلة قحطانية ذكرتها قبل قليل ، ولها بطون كثيرة منها : بنو معاوية ويسمون بمعاوية الاكرمين، والرائش والسكون والسكاسك وبنو حجر آكل المرار وبنو الجون، والاخيران هم الذين اسسوا مملكة كندة، ومنهم أمرؤ القيس الشاعر .

29 ـ وكانت تلبية هذيل :

لبيك عن هذيل
قد ادلجوا بليل
في ابل وخيل ..

والتلبية في تاريخ اليعقوبي (127). وهذيل قبيلة تنتسب الى مدركة بن مضر بن معد بن عدنان .

30 ـ وكانت تلبية ربيعة :

لبيك ربنا لبيك
لبيك ان قصدنا اليك

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبي (128). وربيعة هو ابن نزار بن معد بن عدنان.

31 ـ وهذه تلبية اخرى لربيعة :

لبيك عن ربيعة
شاخصة لربها مطيعة

التلبية في تاريخ اليعقوبي (129) وتلاحظ معاني الخضوع التام في التلبية .

---

(126) المفصل (اشارة سابقة).
(127) ابن واضح 212/1.
(128) المصدر السابق 212/1.
(129) المصدر نفسه.

32 ـ وكانـت تلبيـه بنـى سعـد :

لبيـك عن سعـد وعن بنيها

وعن نسـاء خلفهـا تعنيهـا

سـارت الى الرحمـة تجتنيهـا

ذكرهـا ابو العلاء المعري (130) وبنو سعد هم من ابناء قيس عيلان ومن قحطـان ايضا ولم يخصص من هو المراد منهم ، فهم كثيـر : سعد هذيل وسعد هزيم وسعد زيد منـاة وسعد العشيرة وسعد لـؤى وسعد علم وسعد قيس وسعـد بكـر . قال طرفـة (131) :

رأيت سعـودا في شعوب كثيـرة فلم تر عينـي مثل سعد بن مالك

هذا وفي العرب صنـم مشهور يعرف بسعـد ايضـا .

33 ـ وكانت تلبيـة بنـى غسـان :

لبيـك رب غسـان

راجلهـا والركبـان

وردت التلبيـة في تاريخ اليعقوبى (132) .

وغسان ازديون وينتسبون الى كهلان، وكانت تتنسك للاقيصر (133).

34 ـ وكانت تلبيـه بنـى جـذام :

لبيـك عن جـذام

ذوي النهى والاحـلام

والتلبيـة في تاريخ اليعقوبى (134)

وجذام من كهلان، قبيلة قحطانية، وكانت تتنسك للاقيصر أيضا وبعض النسابين يردونها الى مصر، ويردها آخرون الى مدين.

(130) رسالة الغفران 534.

(131) اللسان مادة (سـعـد) .

(132) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.

(133) اللسـان مـادة (هلل).

(134) ابـن واضـح الاخبـارى 212/1.

35 ـ وكانت تلبية بنى النمر :

لبيك يا معطي الامر
لبيك عن بني النمر
جئناك في العام الزمر
نأمل غيثا ينهمر
يطرق بالسيل الحمر

وردت التلبية في رسالة الغفران (135)

وبنو النمر هم ابناء عبد القيس بن نزار بن معد. ويلاحظ في هذه التلبية انها دعاء بالاستسقاء، وبوفرة الرزق. ومعنى الامر (بفتح الهمزة وكسر الميم)، الكثير. وزرع أمر ، أي كثير، ورجل أمر، مبارك يقبل عليه المال . ومعنى الزمر : القليل الخير ، الشديد. ويقال للحيوان اذا كان قليل الشعر أو الصوف أو الريش . الزمر ، ومعنى السيل الخمر ، أي الكثير الذي يغطى الوديان.

36 ـ وكانت تلبيه من نسك ذا الكفين من بنى خزاعة ودوس :

لبيك اللهم لبيك
لبيك ان جرهما عبادك
الناس طرف وهم تلادك
ونحن اولى منهم بولائك

وردت في المحبر (136). وجدير بالذكر ان هذا المعبود الذي كان يسدنه عمرو بن حممة الدوسى ، كانت نهاية مجده الروحى على يد الطفيل بن عمرو الدوسي، أرسله النبي ليحرقه والبيت الذي كانوا يعظمونه فيه . وهذا يذكرنا بتلبيه بجيلة (رقم 21) لصنمها ذي الخلصة وارسال النبى لرجل منهم يدعى جرير البجلى فأحرقه، ويبدو أن الرسول (ص) كان يختار لهذه المهمات الصعبة رجالا من القبيلة نفسها لاكثر من سبب، منها أ نيبقى الثأر في القبيلة نفسها ، ، كما فعل عندما ندب علي بن أبي طالب (رض) لينفذ حكم الموت بابن عمه النضر بن

---

(135) المعرى 534.
(136) ابن حبيب ص 312.

الحارث الذي كان يؤذي رسول الله (ص) ومن الاسباب أنه يختبر رجاله اذ يواجههم مع أهلهم ويضرب مثلا بهم امام المسلمين لترتفع معنوياتهم، ومنها أن هؤلاء الرجال اذاهم قومهم في فترة الجهاد السري والعلنى حتى ظهور الاسلام، فسلمهم الرسول رقاب قومهم ليتصرفوا بالعقل والحكمة . وعندما ارسله الرسول (ص) جعل الطفيل الدوسى يرتجز عند قتاله مع هذا المعبود برجز يناقض في معانيه، معانى التلبية الموجهة الى الصنم ، فقال :

ياذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا اكبر من ميلادكا
انى حشوت النار في فوادكا

فكل شطر في الرجز يناقض معانى اشطر التلبية (137). وبنو خزاعة بن سعد بن هذيل بن مدركة ، وهى قبيلة تميمية تنتسب الى خندف بن قيس عيلان ودوس قبيلة ازدية منها ابو هريرة رحمه الله.

37 ـ وكانت تلبيه قيس عيلان :

لبيك اللهم لبيك
لبيك انت الرحمن
اتتك قيس عيلان
راجلها والركبان

وردت التلبية في تاريخ اليعقوبى (138). وسبق في التلبية (24) ان التقينا باسم الرحمن، وتحدثنا عن ذلك. وينظر تفسير الزمخشري حول الخلاف بين عبادة الله تعالى وعبادة الرحمن لدى الجاهليين (139).

38 ـ وكانت تلبيه بنى أسد

لبيك اللهم لبيك
يارب اقبلت بنو اسد
اهل التوانى والوفاء والجلد
اليك ...

(137) يراجع كتاب الاصنام ص 37 وتاريخ اليعقوبى 225/1 وأخبار مكة للازرقى 283/1 وتنظر سيرة هذا المعبود فى المفصل 247/6.
(138) ابن واضح الاخبارى 212/1.
(139) الكشاف 470/2.

والتلبيــة واردة في تاريخ اليعقوبى (140)، والاسديون اخــــوان الكنانيين ، لانهما من خزيمــة بن مدركــة بن خندف بن مضر بن نــزار ومضــر شقيق قيس عيلان. ويقال عن خزيمة بن مدركة أنه أول من نــزل مكــة من مضر فوضع (هبل) في موضعه . وهذا تاريخ قديم لكن بنى أسد، بعــد أن تفرقت بطونها، دانت في الجاهليــة لآلهــة الاحلاف، وان كنــت أظن فقط أن (منــاة) هو الصنم الاكبر في حياتهم، ولو لم يكن ذلك كذلك، لم يتأثــر به الشاعر الاسلامى الكميت بن زيــد الاسدي احد بنــى اســد بن خزيمــة بن مدركــة فقــال (141) :

وقــد آلــت قبائــل لا تولــي   منــاة ظهورهــا متحــرفينا

39 ـ وكانــت تلبيــة كنانــة :

لبيــك اللهــم لبيــك
اليــوم يوم التعريــف
يــوم الدعــاء والوقــوف

رواهــا ابن واضــح (142)، ولم يذكر اسم الصنم الذي تلبــى له بهذه التلبيــة لكننا وجدنا كنانــة تلبــى لهبل في التلبية رقم (2) ولسواع في التلبيــة رقــم (3) .

40 ـ وكانت تلبيــة الازد :

لبيــك رب الاربــاب
تعلم فصــل الخطــاب
لكل ملــك مثــاب

وردت في تاريخ اليعقوبى (143) ولم يذكر اسم الصنم الذي وجهــت التلبية اليه، لكننا التقينا بالازديين يلبون لمناة مع اليثربيين فى التلبية رقم (8). وقد خصصت التلبية مكانا متميزا للصنم، ونحن نعلم ان منــاة كان العرب يعظمونها ويذبحون لها، فكان سدنتها يجنون منها ارباحــا

(140) ابــن واضــح الاخبــارى 212/1.
(141) المفصــل 408/6.
(142) ابــن واضــح الاخبــارى 212/1.
(143) ابــن واضــح الاخبــارى 212/1.

طائلة حتى بعث الله نبيه فأرسل عليا اليها فهدمها (144). وقد يكون المقصود هو الله تعالى، يؤيد ذلك التلبيتـان القـادمتـان.

41 ـ وكانت تلبية كندة وحضرمـوت :

لبيـك لا شريـك لـك

تملكـه أو تهلكـه

انت حكيم فاتركـه

التلبيـه في تارخ اليعقوبـي (145) ، ولم يصرح باسم الصنـم الملبي لـه، الا ان كنـدة لبت قبل قليل للصنـم (ذريح) في التلبية رقم (28) وحضر مـوت لبت للصنم (مرحب) في التلبيـة (29) فهما يجسدان تحالفا دينيـا، فمن المحتمـل ان تكون التلبيـه لاحدهما او كليهما او لصنـم ثالـث . ويلاحظ هنا ايضا ان التلبيه موجهه الى كبيـر الالهـة أو رب الارباب أو الصنم أو الرب الاعلـى ، لان العرب بعد أن أخرجهم عمرو بن لحي من حنفيتهم أو توحيدهم العقائدي واضاف اليهـم صيغه الشرك الى صيغتهم الاولى (تلبيـه ابراهيم الخليـل) صاروا يخاطبون الاله الواحد الاحد بتفريـد خاص ثم يجعلون معه آلهـة الشرك، فأصبحوا مشركين بعد ان كانـوا موحدين وبقى منهم من عرف بالحنفـاء أو الاحناف على توحيدهم، وجرى غيرهم من النصارى واليهود مجرى التفريد أي أنهم آمنوا باللـه الواحد الاحد بتفريد خاص ثـم يجعلون معـه آلهة الشـرك خروجا على التوحيـد أيضا، ولهذا نال المشركون يخاطبون الاله الاكبـر بأن الـه القبيلـة يشاركه لكنه ملك له ايضا، وهذا ما أعـادوه هنا. وقد يكـون المقصود بالمعنى هو العبـد، واذا صح التوجيه الاولى، فأنهم يلتمسـون لاله القبيلة من الاله القومى الكبيـر بقاء وخلودا ونصرا لان فيـه بقـاءهم ونصرهـم.

42 ـ وكانت تلبيـة مذحـج

لبيـك رب الشعـرى

ورب الـلات والعـزى

---

(144) المفصـل 249/6.

(145) ابـن واضـح 212/1.

وهذه التلبية واردة في تاريخ اليعقوبي (146) أيضا، وهي كسابقتها تخاطب الاله الواحد الاحد ، وتتضرع له بأنه رب الارباب جميعا. وهذه التلبية، وقبلها التلبيتان آنفتا الذكر، تمثلان وضوحا تاما للتوحيد العقائدي الاصيل الذي كان العرب عليه، وحافظوا على استمراره وان ظهرت بوادر الوثنية عليهم فيما بعد. وقد اكد الله تعالى في محكم تنزيله العزيز ما جاء في هذه التلبية في قوله : وانه رب الشعرى (147) :

43 ـ وكانت تلبية جرهم :

لبيك مرهوبا وقد خرجنا
والله لولا أنت ما حججنا
مكة والبيت ولا عججنا
ولا تصدقنا ولا ثججنا
ولا تمطينا ولا رجعنا
ولا انتجعنا في قرى وصحنا
على قلاص مرهفات هجنا
يقطعن سهلا تارة وحزنا
أشرق كيما ننثنى في الدهنا
لكي نحج تابلا ونعنا
نحن بنو قحطان حيث كنا
ننحر عند المشعرين البدنا

وردت التلبية في الازمنة «الورقة 11 أ» (148) وذكر قطرب قبل التلبية أن جرهم أول سكان البيت الحرام، وتؤيده المصادر التاريخية في ذلك وتضيف بأن خزاعة استطاعت أن تستأثر بالبيت وما جاوره وأزاحت عنه جرهم وغيرهم. والتلبية تفيد بوضوح ان الجراهمة من قحطان. وأما اشارتهم في التلبية الى الاشراق بقولهم : أشرق. فهي

(146) ابن واضح الاخباري 212/1.
(147) سورة النجم 49/43.
(148) جميع التلبيات التى ستأتى الى آخر هذه النصوص وردت فى مخطوطة الازمنة لقطرب محمد بن المستنير (الورقات 10 ب، 11 أ، 11 ب، 12 أ) والمخطوطة احتجنتها مكتبة الزميل الدكتور حاتم الضامن (نسخة مصورة) عن الاصل فى لندن.

خطاب موجه الى جبل ثبير وقت التشريق ، وقد سبق أن تحدثنا عنه في بحثنا عن التلبيات ضمن هذا الكتاب. وأوردت التلبية مناسك حجية تدل على أصول توحيدية حنيفية للحج كما ليس في التلبية اشارة الى شرك واضح، لكن جرهما كانت وثنية وكان لها صنم أيضا غير ان هذه المسحة من التوحيد هي من بقايا دين ابراهيم الخليل قبل أن يصيبه الشرك على يد وثنيي مكة يومئذ. وشرح قطرب لفظة التلبية من الب، وهي أطول التلبيات ، توشك أن تكون قصيدة، وهذا شيء له خطره في تاريخ النصوص الدينية الجاهلية ودراساتها.

44 ـ وكانت تلبية حمير :

لبيك اللهم لبيك
عن الملوك الاقوال
ذوي النهى والاحلام
والواصلين الاحرام
لا يقربون الآثام
تنزها واسلام
دلوا لرب كرام

وردت التلبية في مخطوطة الازمنة لقطرب (الورقة 11 ا) وهي غريبة في منحاها الاسلامي والفاظها الاسلامية مثل (الاثام) و (النزاهة) و (اسلام) مما يوحي بأن حمير ـ وهي قحطانية أيضا ـ رددت هذه التلبية بعد دخولها في الاسلام، واقبلت الى الحج بها .

45 ـ وتلبية الازد :

يا رب لولا أنت ما سعينا
بين الصفا والمروتين فينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
ولا حللنا مع قريش أينا
البيت بيت الله ما حيينا
والله لولا الله ما اهتدينا
نحج هذا البيت ما بقينا

الازمنة (ورقة 11 ب) وقد سبق للازد أن لبت بتلبية أخرى، وايراد اسم قريش في التلبية والاهتداء للحج بوحى من الله له مدلول ايمانى جديد، يجعل هذه التلبية أحدث من سابقتها.

46 ـ وكانت تلبية قضاعة

لبيك نزجى كل جرم (جرمى) ملهود
ولاحب مثل عجاجات العود
ان الاله للحميد المحمود
نعطى اله البيت منا المجهود

الازمنة الورقة 11 ب

47 ـ وكانت قبيلة مذجح :

اليك يا رب الجلال والحرم
والحجر الاسود والشهر الاصم
على قلاص كحنيات النشم
جئناك ندعوك بحاء وهلم
نكابر العصر وليلا مدلهم
نقطع من بين جبال وسلم
وهول رعد وبروق كالضرم
والعين يحملن حلالا وكرم

الازمنة الورقة 11 ب. واحتوت التلبية وصفا لابلهم التى تحملهم الى الحج، وكانوا يجلون الابل التى تقوم بهذه المهمة ، كما وصفوا اهوال الطريق وما يحملون فوق الابل من هدايا تقربهم لمعبودهم. والاشارة الموجودة في التلبية «بحاء وهلم» تدل على الشوق للوصول باسرع ما يستطيعون، كما احتوت التلبية على بعض مناسك حجهم كالحجر الأسود ورجب الاصم وقد سمى بذلك لانهم لا يسمعون فيه قعقعة السلاح.

48 ـ وكانت تلبية عك ومذجح جميعا «يخرج رجل من مذجح ورجل من عك ، فيقول :

يا مكة ، الفاجر مكى مكا
ولا تمكى مذحجا وعكا
فيترك البيت الحرام دكا
جئنا الى ربك لا نشكا

الازمنة ورقة 11 ب . وقد فسر لفظة الملك بقوله : تمككت العظم أخذت ما فيه من انمح . وقد سبق أن التقينا بتلبية سابقة لعك تؤديها في مثل هذا المشهد الاحتفالى وعلقنا عليه أيضا. وراجع بحث : شعر الاصناف في هذا الكتاب حول كلمة بكة ومكة واستخدامهما.

49 ـ وكانت تلبية كندة :

لبيك ما ارتقى بثبير وجده
وما أقام الجن فوق جده
وما سض صوب الغمام ربده
ان الذي تدعوك حقا كنده
في رجب بوقد شهدنا جهده
لله نرجو نفعه ورفده

الازمنة الورقة 11 ب. وهذه التلبيات المتتابعة تمثل تلبيات العرب الجنوبيين ، وسنعقبها تلبيات أخرى لهم، والفاظ هذه التلبية جاهلية من ذكر الجن وما غير ذلك من مناسك الجاهليين.

50 ـ وكانت تلبية خزاعة :

نحن ورثنا البيت بعد عاد
ونحن من بعدهم أوتاد
فاغفر فأنت غافر وهاد

الازمنة (الورقة 11 ب) وسبق ان ذكرنا أن خزاعة ازاحت جرهم عن البيت.

51 ـ وكانت تلبية النخع

لبيك رب الارض والسماء
وخالق الخلق ومجرى الماء
معصب بالمجد والسناء
لعايش فضائل النعماء
في العالمين جميع يفديه
الآباء والابناء

الازمنة الورقة 11 أ ، وقد ورد آخر التلبية بهذا الشكل المضطرب .

52 ـ وكانت تلبية الاشعريين :

اللهم هذا واحد ان تما
أتمه الله وقد أتما
ان تغفر (اللهم تغفر) جما
وأي عبد لك لا الما

الازمنة (ورقة 12 أ) وقد اضعنا ما بين القوسين في التلبية لورودها بهذا الشكل في بعض مصادر التحقيق وسقطت هنا سهوا كما يبدو . وقد ختم قطرب تلبياته بقوله : «هذا جميع ما سمعنا من التلابى» واستخدامه التلابى استخدام غريب لم يسبق اليه، ولعلها عرفت جمعا بهذا المصطلح، وقد روى قطرب منها ثلاثا وعشرين تلبية، مضيفا الى ما رواه غيره عشر تلبيات (تلابى). وهذا في اعتقادنا قليل اذا قيس الى عدد محجاتهم ومعبوداتهم وقبائلهم، لكننا نعود فنؤكد بأن الاصل في جميع هذه التلبيات هو التوحيد والتوجه لبيت واحد ومدينة واحدة وابتداء هو لبيك اللهم لبيك . وقد وضع قطرب تلبية النبى صلى الله عليه وسلم أول تلبية بين تلبياته المروية، ونحن نختتم بها نصوص تلبياتنا لانها كانت مسك الختام من لدن عزيز كريم على يد خاتم انبيائه ، قال قطرب : تلبية من لبى من مضر، نبدأ بتلبية النبى صلى الله عليه وسلم، حدثنا بعض أهل العلم يرفعه الى ابن اسحق قال ، كانت تلبية النبى صلى الله عليه وسلم :

لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك
ان الحمد لك والملك
لا شريك لك .

قال قطرب : هذه تلبية التوحيد. لبيك من ألب بالمكان وسعديك من السعد، وقال ابن عباس، وكانت تلبية اهل الجاهلية في حجهم مختلفة» انتهى كلام قطرب ثم يبدأ بتلبية قريش والقبائل .

المصـــادر والمـــراجـــع

مصادر التحقيق والدراسة (بما فيها الدراسة السـابقة المنشورة في بيروت ـ مجلة المستقبل العربى / مركز دراسات الوحدة) . والمعاد نشرها هنا في هذا الكتاب الجزء الاول.

1 ـ القرآن الكريم ـ المصحف العثمانى.

2 ـ الأم ـ للامام أحمد بن محمد الشافعى ـ طبع مصر ـ دار مطـابع الشعب (بلا تاريخ).

3 ـ الاصنام ـ هشام بن محمد الكلبى ـ ت : الاستاذ أحمد زكي باشا ـ طبعة ثانية، دار الكتب المصرية 1924.

4 ـ الاوائل ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن كامل العسكري. ت : محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة 1966.

5 ـ أيام العرب لابى عبيدة ـ ج 1 ـ تحقيق ودراسة بقلمنا. دار الجاحظ بغداد 1976.

6 ـ أيام العرب قبل الاسلام ـ جاد المولى وجماعته طبع مصر 1961.

7 ـ البناء الاجتماعى ـ الدكتور أحمد أبو زيد (الدار القوميـة ـ مصـر 1965) .

8 ـ أخبار مكة المكرمة ـ أبو الوليد محمد بن عبد الله الازرقي ـ تحقيـق فرديناند وستنفيلد ـ سلسلة روائع التراث العربـى ـ بيـروت ـ مكتبة خياط 1964.

9 ـ أوغاريت : أجيال. أديـان. ملاحم. نسيب وهيبة الخازن، بيروت دار الطليعة 1961.

10 ـ تاريخ اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب المعروف بابن واضح الاخباري النجـف الاشرف 1358 هـ.

11 ـ تفسير البيضاوي وهو أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ طبع دار الجيل ـ بيروت (بلا تاريخ).

12 ـ تفسير الجواهر ـ للشيخ طنطاوي جوهري ـ طبع مصطفى البـابى الحلبى ـ طبعة ثانية 1350 هـ.

13 ـ تفسير الكشاف لابى القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمى ـ طبع البابى الحلبى 1966.

14 ـ الروض الانف لابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى ـ مطبعة الجمالية ـ مصر 1914.

15 ـ رسالة الغفران لابى العلاء المعري ـ ت : الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) طبع مصر ـ دار المعارف.

16 ـ السيرة النبوية ـ أبو محمد عبد الملك بن هشام ـ ت : مصطفى السقا وجماعته ـ مصر 1936 (مصورة).

17 ـ السيرة النبوية لابى الفداء اسماعيل بن كثير ـ ت : مصطفى عبد الواحد ـ طبع البابى الحلبى ـ مصر 1964.

18 ـ العقد الفريد لابى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه. ت : لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1948 (مصورة).

19 ـ عمدة القارى في شرح صحيح البخاري ـ للامام العينى أبو محمد بدر الدين محمود بن محمد. المطبعة المنيرية ـ مصر.

20 ـ العمدة لابى علي الحسن بن رشيق القيروانى. ت : الاستاذ محي الدين عبد الحميد ـ طبعة رابعة ـ بيروت 1972.

21 ـ الغصن الذهبى ـ السير جيمس فريزر (الترجمة العربية باشراف الدكتور أحمد أبو زيد) وكتاب يايلور من تأليف أبو زيد ـ طبع دار المعارف مصر 1957.

22 ـ فن التقطيع الشعري ـ الدكتور صفاء خلوصى ـ طبعة ثالثة ـ بيروت 1974.

23 ـ قصص الانبياء (عرائس المجالس) لابى اسحق الثعالبى ـ طبعة الحلبى الرابعة 1954.

24 ـ قصص الانبياء لابى الفداء ابن كثير ـ مطبعة دار التأليف بمصر 1968.

25 ـ القواميس والمعاجم (الاشارة بحسب المادة وليس الصفحات)

ـ لسان العرب لابن منظور ـ طبعة بيروت.

ـ تاج العروس ـ طبعة مصر والكويت.

ـ القاموس المحيط ـ طبعة البابى الحلبى.

26 ـ المحبر ـ محمد بن حبيب ت : الدكتورة الزاشتيتر ـ حيدر اباد دار المعارف الهند 1942.

27 ـ مجلة الابحاث (الجامعة الامريكية ببيروت) السنة 26 (1973 ـ 1977) بحث الدكتور احسان عباس : نصان جديدان عن الديـن في الجاهلية .

ـ مجلة كلية الاداب ـ الجامعة المستنصرية العدد 5 مقالة عن شعر الاحناف بقلمنـا.

28 ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة بغداد ـ العدد 23 ـ مقالة عن الطفولة ورموزها في الشعر الجاهلى بقلمنا ـ ومجلة المستقبل العربى ـ مركز دارسات الوحدة العربية ببيروت ـ العدد 17 يوليو 1980 ـ مقالة بعنوان الشعر ونضال الوحدة في صدر الاسلام بقلمنا. والعـدد 28 حزيران 1981 مقالة بعنوان : أصالة الوحـدة العربيـة في أقـدم النصوص الدينية ـ تلبيات الجاهلية ـ بقلمنا.

29 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ـ طبع بيروت دار العلم للملايين 1972.

30 ـ معجم ما استعجم ـ لابى عبيد عبد الله بن عبد العزيـز البكـري . ت : مصطفى السقا ـ القاهرة 1945 ـ مصر.

31 ـ نهاية الارب في فنون الادب ـ أبو العباس أحمد بن عبـد الوهـاب النويري ـ دار الكتب بالقـاهرة 1976/63.

32 ـ الازمنة لقطرب ـ مخطوطة محفوظة في لندن، صورة منهـا في مكتبة حـاتم الضـامـن.

الفصل الثالث

شعراء جاهليون

1 ـ افنون التغلبي

2 ـ الربيع بن ضبيع الفزارى

3 ـ الحارث بن ظالم المرى

4 ـ قيس بن زهير

5 ـ الربيع بن زياد

6 ـ ربيعة بن مكرم

أفنـــون التـــغـــلـــبـــى

سيرتـــه من شعـــره ومن ملاحـــم الايـــام

تزخـــر حياة العرب في عصورها القديمـــة ، قبل الاسلام ، بالالهـــة والمعبودات ، وبالجن والكهنة والسحرة ... والشعراء . يربط بعضها ببعض رباط أسطوري متين ، تضرب جذوره في معتقدات غيبية لا يسبر لها غور في أعماق الدهور الغابرة منذ ظهور العرب على صفحات التأريخ (1).

وربما كانت علاقة الشعر بالسحر والكهانة أوضح من أية علاقة أخرى لبقية المعبودات والظواهر الميثولوجية المذكورة، لان التماس هذا الجـــذر المفقود ، يغدو في الشعر والسحر والكهانة ، اسهل من التماسه في علاقة الالهة بالكهـــان (2). ومع ذلك فان بعض ما يـــروي من قصص العرب وأساطيرهم في العصر الجاهلى، يرمـــز الى وجـــود علاقة من نوع العلاقة المنشودة في الشعـــر والسحـــر.

وكانت للكاهن منزلة كبيرة، دونها منزلة الشاعر في بعض الاحيان، فقد كانـــوا حكاما للناس ينفـــرون اليهم في خصوماتهم، كما فعل هاشـــم ابن عبد مناف عند احتكامه الى الكاهـــن الخزاعـــى لدى منافرتـــه أميـــة ابن عبد شمس (3)، أو كاهن بنى أســـد، عوف بن ربيعة، عندما أوحـــى لقومه أن تابعه اخبـــره انهم سيقتلون حجرا ابـــا امريء القيس، وظـــل يذمرهم على ذلك بوحيه حتى هبـــوا عليـــه وقتلـــوه (4).

---

(1) ينظر بحثنا : الرمز والاسطورة فى الادب الجاهلى. نشر وزارة الاعلام ضمن كتاب: الشعر والمجتمع ص 95 سنة **1974**.

(2) يراجع القسم السادس من كتاب المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام. د. جواد على وهو زاخر بحديث **الكهانة**.

(3) السيرة الحلبيـــة **4/1**.

(4) الاغانى **84/9**.

وربما كان خط حياة الشاعر يمر من خلال الكاهن ، وكان بعض الشعراء يتكهنون مثل زهير وعبيد بن الابرص ولبيد، ان لم يكونوا جميعا في نفس المسار الفكري لطبيعة الشعر والسحر والكهانة، وذلك لارتباطهم بالغيب عن طريق تابع من الجن أو صاحب يقال له : رئى، ويطلق عليه أيضا اسم : شيطان الشاعر (5).

واعطت النهاية التى رسمها خيال القصاص العربى الجاهلى لحياة افنون التغلبى الشاعر مثل هذا المزج الاسطوري الخلاق . فقد روى انه مر بكاهن ، فسأله عن نهايته، فاخبره انه يموت في موضع يقال له : الالاهة أو «الاهة» (6). فاستقرت النبوءة من نفس افنون التغلبى حسا مقلقا طوال حياته ، ورسخت حلما مزعجا يريد أن يفيق منه ولا يريد. يؤيد رفضه أفكرت الموت بالصورة التى أوحت بها نبوءة الكاهن، وانه افاق من سحر هذه النبوءة. فمن ذلك قول أفنون نفسه (7).

يا ايها المزمع وشك النوى
لا يثنك الحازي ولا الشاحج (8)
ولا وعول نجشت كدسا
خارجها من غمرة والج (9)
كل له داع الى وقته
ليس لنفس عن ردي خالج (10)

---

(5) تراجع مقدمة جمهرة اشعار العرب لابى زيد القرشى، وهى مقدمه قيمه تبحث فى اعالم الميثوبى الذى كان يغلف الاجواء الشعريه العربيه قبل الاسلام. ويلاحظ حديث البروفسور نكلسون عن علاقة الشعر بالسحر والكهانه، وقد ساق لهذه العلاقه مثلا قصة شاب رفض ذوو حبيبته زواجه منها لانه لم يكن كاهنا ولا ساحرا [illegible] (تاريخ العرب الادبى).
(6) راجع معنى الكلمة فى شرحنا لقصيدة أفنون الرائية المذكورة بعد قليل.
(7) الابيات فى الحماسة للبحترى ص 259.
(8) الحازى زاجر الطير — انظر تفسير الكلمة فى هامش (12).
والشاحج : الغراب الذى يشحج أى ينعق بصوت خشن غليظ.
(9) نجشت : ثارت. كدس جمع كادس، وهو الذى يجىء من خلف. والعرب تتشاءم به. ويسمى القعيد أيضا. والغمرة : الجماعة من الظباء والوعول. يريد الذى يخرج من بينها بالتخلف أو بالسبق ويدركه أو يدركها سريعا فيلج فيها. وذلك كناية عن شدة عدوها.
(10) خلجه أى انتزعه وجذبه. والمعنى انه لا يمكن أن ينزع الانسان من يد الموت اذا حانت ساعته.

فاقصد لاقصى همة نضوها
قد يدرك المشبوبة الحادج (11)

لكن الصورة رسمتها النهاية المأساوية التى اسدلت الستارة على خاتمة حياته، تؤكد سقوطه تحت وطأة الفكرة، وانه خضع طوال حياته لنبوءة الكاهن ، خضوعا افسد عليه لذة العيش ومتعة العمر.

ويبدو أن زمنا ليس بالقليل قد انقضى على نبوءة الكاهن أو «الحازي» كما سماه افنون (12) . فقد خرج افنون وفي صحبته ركب من قومه يرافقهم أخوه «معاوية» يريدون الشأم في سفر لتجارة أو غارة أو شيء منهما. حتى اذا وجدوا انفسهم في أعماق الجزيرة تاه بهم الدليل، واختفت معالم الطريق ، فلم يعودوا يميزون منها شيئا. وبينما هم يضربون في الصحراء يائسين، ارتفع لهم على البعد شبح لمحوا فيه بعض رجائهم في النجاة والفرج ، فقصدوه، فاذا هم وجها لوجه أمام انسان بدوي من العرب. فتشبثوا به يسألونه، ويستهدون بهديه، فدلهم على الطريق . وكان مما قاله لهم، انكم بعد ذلك تجدون انفسكم قد وقعتم على موضع يقال له الالاهة. ثم منه تجدون الدرب ميسورا الى الشام. فانفرجت اسارير القوم الا شاعرنا، فان نبوءة الكاهن رن صداها في أذنه اشبه بصوت الناقوس ينبيء بالخطر المحدق بالبشر منذرا بالرحيل والفناء. والانسان يحمل في أعماقه حاسة لا تعمل الا مرة واحدة في حياته، هى حاسة الشعور بدنو الاجل واقتراب ساعة الموت.

فلما كان الركب في «الالاهة» حيي لهم الطريق ، وعزموا على النزول للراحة، فأمسك افنون عن النزول، وتشبث بتلابيب ناقته (13) قائلا: «انني

---

(11) المشبوبة : النار المرئية من بعيد. الحادج : الذى يمشى على هون وضعف.
(12) الحازى والكاهن بمعنى واحد. وهى آرامية، وقد جمعها افنون على حوازى فى شعره كما سنرى. وبمقتضى هذا القياس جمع الانبارى فى شرح المفضليات كلمة «كاهن» على «كواهن». وعلق الشيخ أحمد محمد شاكر على قياس الانبارى قائلا : هو حجة. (المفضليات 261). ولعل فى رأى بعض اللغويين العرب شيئا من الوجاهة فى قولهم أن كلمة : حوازى وكواهن جمع للاناث مثل حازيات وكاهنات. ويقال للذكور : حزاة وكهان. الرأى للعلامة المرحوم مصطفى جواد.
(13) فى معجم البلدان ياقوت 347/1 انه كان يركب حمارا وليس ناقة. وانه قال لاصحابه : انى ميت. قالوا : «ما عليك بأس». فنهش حماره ونهق فسقط. فقال : انى ميت. قالوا : ما عليك بأس. قال : «وكم ركض الحمار». فأرسلها مثلا. ثم قال يرثى نفسه، وهو يجود بها. وذكر الابيات.

عــازم على البقاء ، ولن ابــرح ظهر ناقتــى» ظنا منه انه ان وطات قدمه الارض، ميت لا محالــة. وعبثا حالوا ان يثنــوه عن عزمه فلم يفلحــوا. وتــرك ناقته ترتعى من عشب الارض ونباتاتها ، وهو لا يزال على ظهرها. وفجأة علقت بمشفــر الناقــه افعــى، حاولت الناقــة التخلص منها بكــل وسيلة، فمسحت مشفرها في ساق افنون التغلبى، فلسعت الافعى افنونا من ساقه، فسقط على الارض. فلما احس بالموت يسري في احشائه طلب الى اخيه معاوية ان يحفــر له قبرا، وان يرحلوا عنه، ثم تغنى قبل موته، يبكــى نفسه قائــلا (14) :

الا لســت في شــىء فروحــا معــاويـــا
ولا المشفقــات اذ تبعن الحــوازيــا (15)

وان اعجبتــك الدهــر حــال مــن امــريء
فدعـــه وواكـــــل أمـــــره والليــاليـــا

يرحــن عليـــه أو يغيـــرن مـــا بـــه
وان لم يكن في جوفــه العيش وانيا (16)

فــلا خيــر فيمــا يكــذب المــرء نفســه
وتقوالــه للشـــىء يــاليــت ذا لــيـــا

لعمــرك مــا يــدري امــرؤ كيــف يتقـــى
اذا هــو لــم يجعــل لــه الله واقيا (17)

---

(14) القصة فى العقــد الفريد 247/3 والشعر والشعراء 419/1 والبكرى معجــم مــا استعجم 1861 ولويس شيخو 192/1 ووردت الابيات فى العقد (الثانى والثالث والرابع والخامس) وحماسة البحترى 57 (الابيات كلها) بترتيــب مختلــف. والشعــر والشعراء (الاول والثالث ثوالرابع والخامس) والبكرى معجم (الرابع والخامس والمؤتلف والمختلف 225 (الرابع والخامس) ومعجم البلدان 347/1 (الثانى والرابع والخامس) والبغدادى 460/1 (والرابع والخامس) ولويس شيخو 192/1 الاول والثانى والثالث والخامس والسابع).

(15) يراجع الهامش 12 حول كلمة الحازى. والمشفقات النسوة اللواتى يشفقن على أولادهن من الموت والمرض فيتبعن الكهان، ينظرون لهن فى مستقبلهن ، ويصنعون لهن الرقى والتعويذات. فهو يقول : لست سعيدا ولا مصدقا قول الكهان، وكذلك الوالدات.

(16) هذه رواية الحماسة للبحترى واخدى نسخ العقد الفريد وأما النسخة المعتمدة فى العقــد فروايتها : فى خوفه العيث وانيــا. والبيت غير موجود فى المفضليات.

(17) فى رواية : لاتبغى بنفسك باقيا. والذى اثبتناه هى رواية المفضليات.

فكـى حزنـا ان يرحـل الحـي غـدوة
وأصبـح في أعلـى الاهـة شـاويـا (18)

يعلن افنون في هذه الابيـات استسلامه للقدر القاهر، بعد تمرد عتيد، بل اصـرار على تحدي الموت ، سـواء بالسيف في ساحات القتال، حيث يمنع الموت عن نفسه كما تشير مقطوعته في يـوم «حاجر..» المذكورة في آخـر هذا البحث، ام بتتبعه فكـرة (الساعة المحتومة للانسان) باللجـوء الى الحازي أو الكاهن ثم الثـورة عليه معلنا تمـرده، لان فكرة الرفـض لا تزال قائمة في نفسـه. وأخيرا تتساقط الاطـر القديمة كأفكار مهزومـة في صورة مواعظ وحكم تأخذ شكـل عبارات وصيغ مكثفـة وصغيرة علـى عادة أهل الجاهلية . فلا يعـرف العقل ولا تدرك الحكمة الا في ساعة مواجهة الموت .. يستسلم في استغراق عميق ثم يغمض عينيه . «وتقواله للشيء باليـت ذا ليـا» هذه العبارة تتكرر في شعر عنتـرة :

وقولك للشيء الذي لا تناله — اذا ما حلا في الصدر ياليت ذا ليا

من قصيدته التي مطلعهـا :

الا قاتل الله الطلول البواليا — وقاتل ذكراك السنين الخواليـا

وكان الشاعر الجاهلي يريد ان يصـرخ في وجه عبثيـة الحيـاة ولا جدواها : وكل شيء باطل الاباطيل .. ثم حلمه نعي صغيرة، اشبه بمـا يكتب على شواهد القبـور يرثي فيها الشاعر نفسه، وهي عـادة جاهليـة قديمة ، عثـر مثلها في الرقم التذكارية وفي الكتابات العربية قبل الاسلام لرجال غامضين ومتوجين ومشايخ، وقد وجـدت كشواهـد على قبورهم.

وروي ابن قتيبة (19) ان افنونـا بعد لسعة الافعـى مات من ساعته فقبره هناك. فهل ذلك يعني ان قبر افنون ظل شاخصا ومعروفا حتى عصر ابـن قتيبـة ؟ ..

(18) هذه رواية المفضليات. ويروى : القوم بدل الحي. والاهة موضع ذكرناه في متن البحث . وهي أيضا الشمس، وكان قوم من العرب يعبدونها. قالت آمنة بنت عتيبة ترثي أبـاهـا :

تروحنـا مـن اللعبـاء عصـرا — فـاعجلنـا الالـهـة أن تؤوبـا
على مثـل ابن ميـة فـانعيـاه — تشـق نـواعـم البشر الجيوبـا

يراجع العقد الفريد 249/5 واللسان — مادة لعب.

(19) الشعـر والشعـراء 419/1.

ومن الغريب حقا أن يرثى شاعر آخر نفسه، مستعينا بالبحر والقافية نفسهما، وهو مالك بن الريب في قصيدته المشهورة والتى مطلعها (20) :

الا ليت شعري هل ابيتن ليلة ... بوادي الغضا أزجى القلاص النواجيا

وكذلك تروي القصص عن مالك بن الريب انه مات بلسعة افعى، وانه طلب أيضا أن يخط له قبره، ويترك ليموت، مما يدل على أن افنونا التغلبى، هذا البطل الملحمى في «أيام العرب» في العصر الجاهلى، قد أخذ أبعادا شعرية، ثم ضفى الخيال الشعبى الاصيل الى شخصيات متعددة والى ابطال آخرين نفس البعد الميثولوجي . وتوجد قصيدة أخرى تأخذ بالتقليد نفسه مقتفية أثر أبيات افنون التغلبى، وهى رثاء عبد يغوث بن صلاءة الحارثى لنفسه في يوم الكلاب الثانى، يقول في مطلعها (21) :

الا لا تلومانى كفى اللوم مابيا ... فمالكما في اللوم نفع ولا ليا

وقد سبق ان مرت بنا مثل هذه المقارنات في شخصية ربيعة بن مكدم وعنترة وعامر بن الطفيل في بحثنا حول ربيعة بن مكدم (22).

كان أفنون وثنيا، ومع ذلك ترد لفظة «الله» في شعره :

لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى ... اذا هو لم يجعل له الله واقيا

ان دلالة اللفظة واضحة في شعره بالنسبة الينا كموحدين اسلاميين. بل حتى بالنسبة للموحدين من الاديان السماوية الاخرى، ولكن الدلالة في ذهن البدوي الوثنى تختلف ، وهى غامضة جدا .. فهى الان تعنى الخالق الذي يقى البشر اذا اعتصموا بحبله، فان جعلوا سواه واقيا، وبتعبير ادق» اذا لم يجعلوه واقيا ، لا يعرفون كيف يتقون آجالهم أو اقدارهم المجهولة .. وسواء كان اللفظ ، لفظ الجلالة ، منصوبا أم كان مرفوعا بالفاعلية ، فان الدلالة لا تتغير ، وهى ان الله يقى البشر وهو عين المعنى الوارد في التنزيل الحكيم : والله خير حافظا . وقوله :

---

(20) مجموعته الشعرية ص 82 فى مجلة معهد المخطوطات مايو 1969 جمع وتحقيق د. نورى القيسى وانظر ما نقله المحقق بأن الجن رثت مالك بن الريب بهذه القصيدة اليائية. وهذا ليس فكرا اسلاميا بل امتدادا لوثنية جاهلية.

(21) الاغانى 329/16.

(22) تراجع مجلة كلية الاداب — مقالة بعنوان ربيعة بن مكدم «حامى الظعينة» ص 75 العدد 19. وأعيد نشرها فى هذا الكتاب.

ووقاهم ربهم . ولست اسلك افنونا في اصحاب العدل أو القائلين بإرادة الله في البشر كما فعل القدماء بلبيد والاعشى، حين اخرجوا من شعرهما انهما كانا يقولان بالقدر والجبر وما الى ذلك ، فهذه ظاهرة في الشعر الجاهلى تطلب منا دراسة معمقة واهتماما خاصا.

واذا نحن أخذنا برأي «الفراء» ، وجدنا أن كلمة «الاهة» أو «الالاهة» في الاصل هى «الـ» أو «الالـه» ثم زيدت التاء بعدئذ . فان كان الموضع مقدسا لوجود الـه فبه أو وجود بيت للالهة أو حمى أو شىء من ذلك، يصبح حديث افنون من قبيل التشبث بالله ، المعبود كان المكيون ومن يعتقد بعقيدتهم يتخذون له وسطاء من الاوثان والاصنام يتوسطون لهم لديه والالاهة الشمس.

ويبدو أن افنونا التغلبى كان على صلة قريبة بمثل هذه الافكار التى تعد نادرة لدى الجاهليين . بل تدلنا بعض كلمات نونيته التى سترد انه كان يملك فكرة واضحة عن الخلق والعالم، أو أن لديه شيئا ثابتا من قصة الخليقة مشوبا بنموذج مسيحى أو يهودي. ولعله كان يمزج فكر الوثنيين ببعض معتقدات التوحيديين . فذكر في شعره ادم أبا البشر ثم أورد تسميات لابطال اسطوريين في حياة الامة العربية.

لو أننى كنت من عاد ومن ارم ربيت فيهم ولقمان وذي جدن

وليست نبوءة الكهان بالموت في اساطير العصر الجاهلى مسألة غريبة. فلدينا يوم من أيام العرب هو «يوم حجر» وحجر والد امريء القيس الشاعر المعروف ، فقد كان سببه وسبب مقتل حجر، نبوؤة الكاهن الاسدي عوف بن ربيعة، الذي تنبأ بموت حجر على يد الاسديين، فاعطى نهايته، ورسم صورة دموية رهيبة لمصيره، يدفع بموجبها الاسديين الساخطين لينفذوا حكم الموت الذي اصدره هذا الكاهن الرهيب (23).

ويروي لنا يوم آخر من ايام العرب وهو يوم «الكلاب الثانى» قصة كاهن يقتل في الحرب على يد احد محاربى تميم، ثم يسخر منه قاتله قائلا : الا اخبرك تابعك بمصرعك اليوم (24). وهذه القصة تعتبر

(23) الاغانى 84/9.
(24) خبر يوم الكلاب الثانى فى النقائض 149/1 (اوربا) 136/1 الصاوى.

ارهاصة تمرد على عالم الكهان العجيب ، تمهيدا لظهور الافكار الثورية الجديدة التى جاء بها الاسلام ، مؤكدا عالما عقلانيا قوامه الملاحظة الواقعية والتجربة العلمية ، فكان نهاية عصر ميتافيزيقى، وبداية عصر الواقعية العلمية الذي امتزجت فيه العقلية العربية بثقافات الامم الاصيلة .

وتنتشر ظاهرة الكهان في التاريخ العربى ، قبل الاسلام ، انتشارا ملحوظا. فلدينا ـ مثلا ـ كاهنة بنى رئام التى أنذرت قومها بالغارة (25). بل تمتد هذه الظاهرة في اعماق التاريخ العربى، فمن ذلك ما يروى عن زرقاء اليمامة الكاهنة ذات البصر المشهور بحدته، فقد انذرت قومها بالغارة، ثم اخبرتهم بتحرك غابة باكملها نحوهم (26). بل ان ظاهرة الكاهنات والكهان تربط ميثولوجيا العرب وعباداتهم في الشمال من الجزيرة، نجد والحجاز، بميثولوجيا الجنوب، اليمن وعباداتها (27).

ولا نملك من حياة افنون التغلبى ، وراء خبر موته شيئا. كأنما القصة ركزت على النهايات لغرض يتعلق بمعتقدات العالم القديم. لكننا نعرف انه كان يدعى صريم بن معشر بن ذهل بن تميم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمرو بن عثمان بن تغلب، وانه كان يشبب بنساء قومه، فقالت امرأة منهم : لاسمين نفسى وابنتى اسما لا يشبب به صريم. فسمت بنتا لها ; مضنونة ـ فقال صريم عند ذلك ليريها ان ذلك لا ينفعها :

منيتنا الود يا مضنون مضنونا ازماننا ان للشبان افنونا

فسمى افنونا بهذا البيت (28).

---

(25) يقال لها زباء ولها خبر طويل فى الامالى 126/1.
(26) تعيد الى الذهن مشهدا من مسرحية شكسبير المتعلق بقيام الساحرات بأخبار ما كبث عن تحرك غابة برنام. وبالفعل أخبره بذلك حارس القصر.
(27) يراجع فصل (سجع الكهان) فى كتاب العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص 420.
(28) النقائض 886/2 والشعر والشعراء 419/1 والعقد 247/3 والاغانى 55/11 وسمط اللالى 684 والاشتقاق 336 والمؤتلف والمختلف ص 225 صحف الاسم الى (مضمون) بدل (مضنون) والمزهر للسيوطى 435/2 ولويس شيخو 196/1 وتراجع كلمة افنون فى الجمهرة لابن دريد 118/1.

ومما نعرفه عن افنون ايضا انه عـاش فتـرة من عمره مخاصما قومه معرضا عنهم، لانهم لم يتصـروه في حق غبنه عليه نـاس غرباء، فقـال في ذلـك (29).

أبلـغ حبيبـا وخلـل فـي سراتهـم
ان الفـواد انطوى منهم على حـزن (30)

قـد كنـت اسبـق من جـاروا علـى مهـل
من ولد ادم من لم يخلعـوا رسنـى (31)

فـالـوا علـي ولـم أملـك فيـالتهـم
حتـى انتحيـت على الارساغ والثنن (32)

لـو أننـى كنـت مـن عـاد ومـن ارم
ربيـت فيهـم ولقمـان ومن جـدن (33)

لمـا فـدوا باخيهـم مـن مهـولـة
أخـا السكون ولا جاروا على السنن (34)

سألـت قومـى وقـد سـدت أباعـرهـم
مـا بين رحبـة ذات العيـس والعـدن

اذ قـربـوا لابـن سـوار أبـاعـرهـم
للـه در عـطـاء كـان ذا غـبـن

---

(29) المفضلية (22) البيان والتبيين 9/1، 190 (البيت 4+5+8) والامـالى 51/2 (البيت 8+49) وسمط اللالى 684 (ابيت 4+5+6) والكامل للمبرد 52/2 (البيت 8+9) وأمالى ابن الشجرى 37/1 ورغبة الامل للمرصفى 52/2 قال : هى لافنون وقد تبرأ منه قومه لكثرة جرائره. وأورد كما فى المفضليـات. والبغـدادى 455/4 — 460 وقال أوردها لافنون اتغلبى أبو عمرو الشيبانى فى أشعار تغلب والمفضل فى المفضليات. وذكر الابيات الاب لويس شيخو اليسوعى 192/1. والابيات فى الاختيارين ص 403 برواية الاصمعى عن أبى عمرو.

(30) لويس شيخو (بلغ) بدل (أبلغ). وحبيب : قبيلة أفنون. وخلل : أى خصهم بالابلاغ.

(31) خعلوا رسنى : أى تبرءوا منى.

(32) فالوا على : من الفيلون وهى ضعف الرأى. أى أخطئوا فى الرأى.

(33) رواية انعجز فى البيان والتبيين 9/1 (غذى قيل ولقمان وذى جدن) ثم رواه ص 190 نفس رواية المفضليات المثبتة عندنـا. ويروى (غذى سخل) ينظـر مجـالس العلمـاء للزجاجى 42.

(34) انتحيت : اعتمدت. والارساغ جمع رسغ. والثنن : جمع مؤخـر الرسغ. أى اعتمدت على اسافل الناس.

انى جـزوا عــامـرا سـوأى بفعلهــم
أم كيف يجزوننى السوآى من الحسن (35)
أم كيــف ينفع مــا تعطى العلــوق بــه
رئمــان أنــف اذا ما ضن باللبــن (36)

ويخيل الينا ان هذا الحادث وقع لــه في وقت متأخرٍ من حياته، والا فهو أحد القــادة المشهورين في تغلب، وكان عزيزا بقومه وبنفسه، تشهد له الوقعات التى نذكرِها له بعد قليــل، فلم يكـن بحاجة لنصرة احــد.

وتكشف لنا ملاحم الايام العرِبية حلقة من عشرات الحلقات المفقودة من حياة هذا البطل الذي رسمته ريشة العبقرية العربية صانعة روايــات «الايــام» الشعرية والنثريــة ، ذات الطابــع الفنــى الفريد.

فلقد شهد افنــون اكبر ايــام قبيلته، وهو اليوم الذي قتل فيه عمرو ابن كلثوم عمرا الملك المعروف بعمرو بن هند وذلك كما تذكر الروايــات المختلفة (67) بأن عمرو بن هند ، قــال ذات يوم لندمائه :

ـ هل تعلمون ان احدا من اهل مملكتى من العرب، يانــف ان تخــدم امــه امــي .

قــالــوا :

ـ نعم ، عمــرو بن كلثــوم .

قـــال :

ـ ولـم ذلــك ؟

قـالــوا :

ـ لان أباها مهلهل بن ربيعــة (38) وعمها كليــب (39) وائل اعــز

(35) المبرد فى كتابه الكامل، نقل رواية لابى عمرو بن العلاء بأنه استشهد بكلمة السوآى من فعلى، وكــان يقرأ : ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى.

(36) لعلماء النحو أقوال فى كلمة (رئمان) وبعضهم يعطيها ثلاثة وجوه أعرابية، ينظــر الزجاجى ــ مجالس العلماء ص 42 وبالامكان مراجعة البغدادى 455/4 ــ 460 حيث شرح القصيدة شرحا وافيــا.

(37) النقائض 884 الاغانى 53/11 ابن الاثير ــ الكامل 330/1 والشعر والشعراء 419/1.

(38) الشاعر المعروف، بطل الملحمة الشعبية القادمة من العصر الجاهلى : الزير سالم

(39) كليب أخو مهلهل، كانت بسببه ملحمة البسوس، وهى الاصل المثقف للزير ســالم.

العــرب ، وبعلها كلثــوم بن مالك بن عتــاب افــرس العرب، وابنها عمرو بــن كلثــوم سيــد من هو فيه.

فسكــت عمرو بن هنــد على ما في نفســه.

ثم ارسل الى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله ان يزير ليلى هندا.

فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيــرة الى الحيرة في فرسان بنــــى تغلب، وأقبلت ليلــى بنت مهلهل في ظعن من بنى تغلــب ، فنزل شاطىء الفــرات .

وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمــر برواقه فضرب فيما بين الحيــرة والفــرات، وارسل الى وجوه مملكتــه فحضروا، وصنع لهم طعاما وأتــاه عمرو بن كلثــوم في وجوه بنى تغلب، فدخل عمرو بن كلثــوم على عمرو بن هنــد في رواقه، ودخلت ليلــى بنت مهلهل ام عمــرو بن كلثــوم على هند في قبــة في جانب الرواق . وهنــد ام عمــرو بن هنــد عمـــة امريء القيس الشاعر، وليلى بنت مهلهل ام عمــرو بن كلثــوم هى بنت اخـــي فاطمــة بنت ربيعــة ام امــريء القيــس.

وقــد كان امــر عمــرو بن هند امــه ان تنحــى الخـــدم اذا دعــا بالطــرف (40) وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بن هند بمائــدة فتصبهــا، فأكلوا، ثم دعا بالطــرف ، فقالت هنــد :

– يــا ليلــى ناوليني ذلك الطبــق.

فقالــت ليلــى :

– لتقــم صاحبــة الحاجــة الى حاجتهــا.

فأعــادت عليهــا وألحــت . فصاحت ليلــى :

– وا ذلاه .. يــا لتغلــب .

فسمعها عمرو بن كلثــوم فثــار الدم في وجهه، والقــوم يشربــــون، ونظــر الى عمرو بن هنــد ، فعرف الشــر في وجهه، فنظر الى سيف لعمرو ابن هند معلق بالــرواق، وليس هناك سيف غيره. فقــام الى السيـــف مصلتــا ، فضرب بــه رأس عمرو بن هنــد فقتله . ونــادى في بنى تغلــب فانتهبوا جميع ما في الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة.

(40) الطرف : الفواكه وما شاكلها، تؤخذ بعد الطعام.

وقال أفنون التغلبي (41) :

ولسنا كأقوام قريب محلهم
ولسنا كمن يرضونكم بالتملق (42)

فسائل شرحيلا بنا ومحلما
غداة تكر الخيل في كل خندق (43)

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم ليلى امه بموفق (44)

فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنق

وجلله عمرو على الرأس ضربة
بذي شطب صافى الحديدة رونق

وقد كان مهلهل بن ربيعة وكلثوم بن عتاب وعمرو بن كلثوم اجتمعوا في بيت كلثوم على الشراب، وعمرو يومئذ غلام، وليلى أم عمرو تسقيهم، فبدأت بأبيها مهلهل، ثم زوجها كلثوم، ثم عادت فردت الكأس الى ابيها وسقته، وابنها عمرو عن يمينها، فقال مغضبا (45).

صبنت الكاس عنا ام عمرو
وكان الكاس مجراها اليمينا (46)

وما شر الثلاثة ام عمرو
بصاحبك الذي لا تصبحينا

(41) النقائض 884 (الثالث والرابع) والشعر والشعراء 234/1 (الثالث فقط) وعجزه (لتخدم أمى أمه) وهو سهو منه، لان المعنية بالبيت أم عمرو بن كلثوم وليس افنون التغلبي. والمحبر 204 والاغانى 55/11 وابن الاثير — الكامل 549/1 (الثالث والرابع) ولويس شيخو 196/1 كما فى الاغانى. والابيات كلها فى ديوان شعر عمرو بن كلثوم التغلبى ص 16 (نشر فريتس كرنكو بيروت 1922) قال رجل يرثى حنيا التغلبى، لما قتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند، وهو أفنون التغلبى : وحنى التغلبى هو أبو جابر بن حنى التغلبى أحد شعراء المفضليات وقد توهم الجاحظ فى كتابه (الحيوان) 135/3 وعزاها سهوا الى جابر، والصواب ما أثبتناه.

(42) رواية الجاحظ : يرضيكم.

(43) شرحبيل عم امرىء القيس، قتيل الكلاب الاول، ويتصل حديثه بنا بعد قليل. ومحلم هو محلم بن ذهل بن شيبان وكان ابنه عوف مشهورا بوفائه.

(44) رواية الشعر والشعراء : (لتخدم أمى أمه) فجعل أم عمرو بن كلثوم وأم افنون التغلبى واحدة، وهو سهو من ابن قتيبة. يراجع الهامش 41.

(45) الزوزنى — شرح المعلقات السبع ص 163.

(46) صبنت : صرفت.

فلطمه ابوه وقال :

- يا لكع، بلى والله شر الثلاثة، اتجتريء ان تتكلم بهذا بين يدي . فلما قتل عمرو بن هند قالت له أمه :

- بأبى انت وأمى ، انت والله خير الثلاثة .

فقال عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا
وامهلنا نخبرك اليقينا
بانا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا
بأي مشيئة عمرو بن هند
تطيع بنا الغواة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو بن هند
نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وأوعدنا رويدا
متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو اعيت
على الاعداء قبلك ان تلينا

وتتصل قصة حياة افنون التغلبي، لدى الروائيين العرب، بقصة حياة ملوك كندة من بني اكل المرار وحياة بني تغلب التي ساهمت في طرد كندة وملوكها من شمال الجزيرة . فبعد يوم الكلاب الاول، الذي قتل فيه شرحبيل عم امريء القيس، وقد ذكره امروء القيس في شعره (47) :

واعلم انني عما قليل
سأنشب في شبا ظفر وناب
كما لاقى ابى حجر وجدي
ولا أنسى قتيلا بالكلاب

(47) القصيدة رقم (11) فى ديوانه نشر أبى الفضل ابراهيم طبع دار المعارف بمصر 1958.

قامت تغلب فطردت سلمة بن عمرو، عم امريء القيس، وكان يلقب بالغلفاء، لما قتلت اخاه شرجيل بن عمرو، فضمنه اليها قبيلة بكر بن وائل، فاجتمعت تغلب ورئيسها عمرو بن كلثوم، والنمر ورئيسها قيس بن زهير النمري وجعلوا أمرهم الى عمرو بن المنذر وهو عمرو بن هند. وفي هذا اليوم اقسم ابن هند ان هو ظفر ليذبحن من قدر عليه من البكريين على قمة جبل أوارة حتى يبلغ الدم قرار الارض. فلما ظهرت تغلب والنمر على بكر، جعل الملك ابن هند يذبح الرجال والدم يتجمد في موضعه. فتقدم ربيعة بن حبيب التغلبى فقال :

ـ انا ابر يمين الملك .

قال :

ـ بماذا ..

قال :

ـ اذا قتلت رجلا فصب على دمه روايا الماء، فانه يبلغ قرار الارض . فسمى ربيعة يومئذ الوصاف .

فقال اغنون التغلبى في ذلك اليوم (48) :

هزمنا جمع حارثة بن بدر
مع الغلفاء في العصب العجال
رميناهم بأرعن مشمخر
تهد لصوته صم الجبال
فظلوا بين مغتبط قتيل
وكابى الجد يرسف في الغلال
وللغلفاء سلمة بعد هد
نوائح يلتدمن بسوء حال
ونال السيف حارثة بن بدر
وخامت عن حميته الموالي
بهضب من أوارة والمنايا
موكلة باعناق الرجال

(48) أنظر خبر يوم أوارة والابيات فى مخطوطة الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى الورقة 64 وما بعدها. وخبر هذا اليوم مذكور فى النقائض برواية مختلفة بعض الشىء.

ويذكر الشمشاطي في الانوار ومحاسن الاشعار انه ترك اشعار افنون في يوم أوارة لطولها.

وهذا يوم ثالث من «ايام العرب» يبرز فيه افنون التغلبي قائدا يهزم العامريين. وهو يوم حاجر، فقد جاء في الانوار ومحاسن الاشعار (49) انه خرج صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن بكر بن مالك بن حبيب، وهو افنون، في جمع من بني تغلب، يريد بني عامر فأغار عليهم بموضع يقال له : حاجر (50). وكان سيد هوازن ذلك اليوم طفيل (51) بن مالك، فقاتلته هوازن عن حريمها اشد قتال، ثم ولت منهزمة، واخذت البيوت في ايديهم.

وعطف عبيدة بن مالك بن جعفر على بني تغلب في حماة أصحابه، فقاتلوهم حتى ازالوهم عن البيوت. وحمل افنون على عبيدة فطعنه فقتله. وولوا وأسر ابو اسماء حبيب بن الضريبة، وهو فارس بني نصر وشاعرهم، واسر ابنا مسافر وعبد الله بن نصر، وهرب طفيل بن مالك ركضا، واصابت تغلب النساء والنعم.

وقال افنون في ذلك :

سمونا الى عليا هوازن بالقنا
وجرد كأمثال القداح ضوامر

تئن انين الحاملات وتشتكي
عجاناتها من طول نكب الدوائر

فما زال هذا الدأب حتى صبحتها
على ما بها من جهدها اهل حاجر

---

(49) الشمشاطي ورقة 69. ويوجد يوم آخر بهذا الاسم رواه أبو عبيدة، يراجع العقد الفريد 311/5 ونهاية الارب 396/15 ويوم ثالث بالاسم نفسه قتل فيه حصن بن حذيفه، قتله كرز العقيلي فرثاه الحطيئة فقال من قصيدة :

فقبر باجبال وقبر بحاجر وقبر القليب اسعر القلب ساعره

(50) قال أبو عبيدة : هو موضع في ديار بني تميم. معجم ما استعجم 416/2 وينظر الهامش السابق.

(51) هو (طفيل الخيل) والد عامر بن الطفيل، وأخو معاوية بن مالك (معوذ الحكماء) وعامر أبي براء (ملاعب الاسنة) وربيع بن مالك (ربيع المقترين) وهو ربيعة أيضا والد لبيد بن ربيعة الشاعر المعروف، وسلمى بن مالك (نزال المضيق).

فغـودر في وقـــع العجـاجـة منهـــم
عبيـــدة يدعـو شـاعـرا يـا لعـامـــر

صريــع قنــا في عصبــــة عــامـريـة
صريحيــة الانســـاب غـيـــر عـــواور

وقدنــا ابـــا أسمـــاء قائـد قـومــــه
وقـــد وطئتـه خيلنــــا بـالحـوافــر

وحـور كـأمثـال القنــا عــامـريــــة
عـذاري اختلينــــا بالرمـــاح الخـواطـر

ونحــن متــى مـا نــرم قومـا ببغضـــة
شجــى ناشــب بيــن اللهــا فالحناجــر

وقــال ابن داود الرواســي :

ان الفـوارس مــن حبيـــب جـدعــــت
أهـل الحفـائـظ والفعـــال الـزائــــن

أودى صـريـــم بـالــذيـن هـــم هـــم
بعبيـــــدة الوهـــاب حـــي هـــــوازن

صبـروا لكـــل مهنـــد ذي رونــــــق
صافــي الحديـد وكـل أسمـر مـــــارن

حتــى تكشفـت العجـاجــة عنهـــم
صرعــى بابطـح حاجــر المتبـاطـــــن

وابــن الضريبـة في فـوارس قـومــــه
طـوع الجنيبـة كـالقريـع السـاخـــن

ويظل شعر افنـون التغلبـى مدفونـا في بطون الكتب والمخطوطـات حتى تظهـر النسخـة المفقـودة من كتاب اشعـار تغلـب لابـى عمـرو الشيبانى (52) ويظهـر كتاب الايـام لابى عبيـدة، وعندئذ تتوفر لدينـا نخبـة طيبة من الاخبار والاشعـار عن هذا الفارس الشاعر، والله تعالى هو الموفـق الى صـواب الـرأي والعمـل.

---

(52) البغدادى 455/2 ومابعدهـا.

المصادر والمراجع

1 ـ الاشتقاق ـ ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن ـ ت : عبد السلام محمد هارون ـ مصر 1958.

2 ـ الاغانى ـ أبو الفرج الاصفهانى ـ طبعة دار الكتب المصرية.

3 ـ الامالي ـ ابن الشجري أبو السعادات هبة الله ـ حيدر أباد الدكن1348.

4 ـ الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى على بن محمد ـ مخطوطة مصورة عن نسخة طوبقبو. وقد نشرت مؤخرا في بغداد والكويت.

5 ـ البيان والتبيين ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السلام هارون مصر 1948.

6 ـ جمهرة أشعار العرب ـ أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى. ت : البجاوي ـ القاهرة.

7 ـ الحيوان ـ عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت : عبد السلام هارون ـ بيروت 1969.

8 ـ الحماسة ـ أبو عبادة البحتري ـ ت : كمال مصطفى. طبعة أولى. الرحمانية ـ مصر 1929.

9 ـ خزانة الادب ـ عبد القادر بن عمر ـ طبعة بولاق 1299.

10 ـ ديوان امرىء القيس ـ ت : أبى الفضل ابراهيم ـ طبع دار المعارف مبصر 1958.

11 ـ ديوان عمرو بن كلثوم ـ نشر فريتس كرنكو ـ بيروت 1922.

12 ـ ديوان عنترة ضمن مجموعة الشعراء الستة الجاهليين. رواية الاعلم.

13 ـ رغبة الامل ـ للسيد بن على المرصفى ـ حاشية الكامل ـ م. النهضة مصر 1928.

14 ـ سمط اللالى ـ البكري أبو عبيد الله. لجنة التأليف. مصر 1936.

15 ـ شرح المفضليات. القاسم بن بشار الانباري ـ ت : ليال. بيروت 1920.

16 ـ شرح القصائد التسع الطوال ـ النحاس أبو جعفر ـ ت : أحمد خطاب العمر ـ بغداد 1974.

17 ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة. ت : أحمد محمد شاكر. المعـارف 1966.
18 ـ شعراء النصرانية ـ لويس شيخو اليسوعى ـ ط. أولى بيروت 1890
19 ـ الشعر والمجتمع ـ مجموعة بحوث مهرجان المربـد. وزارة الاعـلام العراقيـة 1974.
20 ـ العصر الجاهلى ـ الدكتور شوقى ضيف ـ دار المعارف ـ مصر طبعة رابعـة.
21 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ ت : أحمد أمين وجماعته ـ لجنة التأليـف ـ مصـر .
22 ـ الكامل في اللغة والادب ـ المبرد ـ مطبعة النهضة ـ مصر 1928.
23 ـ الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ بيروت طبعة أولى.
24 ـ المؤتلـف والمختلف. الحسن بن بشر الامدي ـ ت : عبد الستـار أحمد فراج ـ البابى الحلبى ـ مصر 1961.
25 ـ المزهر ـ للسيوطى ـ ت : محمد أحمد جاد المولى وجماعته. طبعة البابى الحلبى. مصر 1958.
26 ـ مجلة كلية الاداب بغداد ـ العدد التاسع عشر.
27 ـ المحبر ـ محمد بن حبيب ـ طبعة حيدر أباد 1942.
28 ـ معجم ما استعجم ـ البكري. ت : مصطفى السقا. لجنة التأليف 1954.
29 ـ معجم الادبـاء ـ ياقوت ـ طهران 1965.
30 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . د. جواد على ـ طبعة أولى بيروت.
31 ـ المفضليات ـ ت : أحمد محمد شاكر وعبد السـلام هـارون. دار المعـارف 1964.
32 ـ النقائض ـ المنسوب لابى عبيدة ـ نشرة (أوربا) ونشرة (الصاوي)
33 ـ نهاية الإرب في فنون الادب. أحمد بن عبد الوهاب النويري طبعة دار الكتب.
34 ـ كتاب الاختياريين. ت : فخر الدين قباوة. طبع دمشق.

الربيع بن ضبيع الفزارى

شاعر الحكمـة والتجربـة الطويلـة

هو أبو سالم الربيع بن ضبيع بن وهب الفزاوي الذبياني (1). واختلف في ضبط أسمه، فأورده بعضهم محلى بالالف واللام (2)، بينما ورد في مصادر أخرى مجردا منهما : ربيع «على وزن أميـر»، في حين ذكرته مجموعة ثالثة من المصادر مصغرا مع اسـم والـده، فقيل : ربيع بن ضبيع (3)، كـأن خفة النطق والنسق وتجانس اللفظتين وزنتهما كان لها نصيب في هـذا التوجه الاخير. وقد رجحنا ما كان أئمة اللغـة والادب قد رجحوه، كما أشارت الى ذلك مصادرنا المتقدمة ، وثبتنـاه هنا. فهو باتفـاق المصادر : الربيـع بن ضبيـع بن بغيض بن مالك بن سعد بن عدي. بن فـزارة ، وزاد صاحب التيجان : بغيض من ذبيـان . وهذا نسب متفـق عليـه في كتب جمهـرة الانسـاب وغيرهـا (4).

والربيـع ـ فضلا عن كونه شاعرا ـ خطيب حكيم ، عاش قبل الاسلام طويلا حتى عـد في المعمرين . وليس في كتب الادب والشعر والثقافة العربية

---

(1) انتيجان ص 118 والاصابة ص 526 ويزيد الاخباريون فى نسبة، على عـادتهم متجاوزين جده (وهب) فى سلسلة طويلة : وهب بن بغيض بن مالك بن عدى بن فزارة ابن ذبيان .

(2) أمالى المرتضى ص 254 وأورد المحقق فى الهامش ما نصـه : «ضبع بالتنوين، وفى حاشية الاصل فى نسخة مقورءة من كتاب سيبويه — وقد قرىء على أبى على انفارسى رحمه الله — وفى أخرى مقروءة على ابن أخته أبى الحسين : «الربيع بن ضبيع منونـا بآخره» وقد وضعه صاحب الاصابة 526 ضمن من اسمه (الربيع) محلى بالالف واللام، وسلكه مع الصحابة ثم عاد فأبدى تحفظه فى ذلك.

(3) ينظر «المعمرون والوصايا ص 8» فى الهامش رقم (3).

(4) المصدر السابق. والتيجان ص 118 والاصابة ص 526 والمصدران الاخيران تفردا بايراد (ضبع) .

ترجمة وافية لهذا الشاعر ولا شعـره، شأنه في ذلك شأن مئات الشعـراء من متقدمى الجاهلية، ممن فقـدت سيرتهم الذاتية أو دواوينهم أو مجموعاتهم الشعريـة.

لكننا استطعنا أن نلقى بعض الضوء على جوانب من مجاهيل حياته، استقيناها من عـدة روافد، بعضها كان السبب الرئيس فيها شخصيـة الربيـع نفسه، فقد كانت متعددة الجوانب على أن الدوافع لسيـرورة جانب ولو ضئيل من أخبـاره كثيـرة ، أبـرزها :

أ ـ كان الربيع بن ضبيع كثير التطرق لاخبار الماضين في شعـره، مما لفت انتبـاه رواة الاخبار والمؤرخين اليه، فقـد تعرض لشـىء مـن سيرته صاحب كتاب : «التيجان في ملوك حمير» فأورد عنه خبرا مطـولا، لانه لمس في شعـره اشـارة واضحـة لملوك حمير، مثل ذي القرنين في قوله:

ألا أين ذو القرنين أيـن جموعـه لقـد كثـرت أسبابه ثم قلـت

ومثل التبـع ولقمـان وسليمـان حيث يقول :

سيدركنـي ما أدرك المـرء تبعـا ويغتالنى ما أغتـال أنسـر لقمان
أجـار مجيـر النمل من عـز ملكـه وأنزل سيف البأس من رأس غمدان

ومثل هـود والصعب وغيرهمـا :

أيـن بنـو هـود النبـي ومـن شمـر عن راحتيـه وابتكـرا
والصعب لما عتـت أرومتـه وخـان ريـب المنـون فـاذكـرا

هذا غير ذكره لامريء القيس وحجر أبيه والملوك والرؤساء العـرب، فكان استشهاد المؤرخين بشعره يعد من قبيل توثيق الخبر بالشعر، ومن ثم اضطرهم ذلك الى التعرض بشىء من الايضاح لسيرته الذاتية .

ب ـ والسبب الثانى وراء استعادة المؤرخين لشىء من اخبار الربيع، كونه أحد المعمرين المعدودين في الجاهلية، فكان هذا المظهـر في حياته دافعا للعـودة اليه عند حديثهم عن هذا الجانب من حياة الاعلام، فوضعه الرواة العـرب ضمن الاسماء التى تذكر في هذا المجال. ولو لـم تكن هذه المزيـة

في سيرته لاهملته المصادر أيضا، لكن اصرارهم علي أنه عاش طويلا جدا هو في نظر المعتدلين مائة عام، وفي نظر المبالغين يربو على الثلاث مائة عام، جعله يذكر ولو بشيىء يسير من الخبر في كتاب المعمرين والوصايا، كما ورد في أمالى المرتضى في الفصل الخاص منه بالمعمرين. ونقل أبو عبيد البكري في السمط عن أبى حاتم انه عاش ثلاثمائة وأربعين سنة ولم يسلم.

ج – وتدخل مزية ثالثة في حياة الربيع لتكون سببا في عودة العلماء الى سيرته، فلم تنطمس تماما مع مئات السير المطموسة من رجال العصر الجاهلى ، وهى احتواء شعره على الفاظ وعبارات وصيغ عربية بانت مع تقدم العصور ومضيها، ذات استخدام خاص جعل ائمة اللغة والنحو ورجال الادب والثقافة يستشهدون بنتف من ابياته ومقطوعات من اشعاره تثبيتا لمذهبهم او تاكيدا لقواعدهم أو تأييدا لما في قواميسهم ومعاجمهم، وعلى سبيل المثال نقول ان سيبويه ذكره في كتابه مرتين (5)، وان كان في الموضع الثانى قد وهم حين نسب البيت المستشهد به من شعر الربيع الى يزيد بن ضبة فنقله ابن المستوفى عنه كما سيتضح لنا في القطعة رقم (1) من شعره. وممن ذكره في شواهده ايضا، الرضى في الكافية، وابو زيد في النوادر (5)، والزجاجى في الجمل، وتابعه ابن السيد في شرح الجمل، كما ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (7). هذا بالاضافة الى ورود ذكره في الصحاح للجوهري واللسان لابن منظور (8). ولا يخفى علينا ان هذه الكتب تعد اصولا في اللغة والنحو، غير ما يرد في الذيول والتكملات والشروح، لكنه ذكر لا يتعدى التعريف الذي لا يبل ظما طالب المعرفة الى المزيد، لتتضح اجزاء الصورة لديه.

د – لقد كانت شخصية الربيع في قضايا القوم والامة فذة كبيرة، فكان له أكثر من باع في اكثر من قضية عصرية ملتهبة يومذاك. وهذا ما دفع برجال الادب والثقافة والمؤرخين العرب ان يتناولوا جانبا من سيرته الذاتية . فنلاحظ كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى (9) مثلا.

(5) الكتاب لسيبويه 106/1، 293 (طبع بولاق) 1316 – 1317 هـ.
(6) النوادر لابى زيد ص 158. المطبعة الكاثوليكية بيروت 1894.
(7) أدب الكاتب – ابن قتيبة. 232.
(8) تراجع مصادر تحقيق شعر الربيع بن ضبيع بعد هذه الدراسة.
(9) الاغانى لابى الفرج 118/21.

عندما يبسط سيرة امريء القيس ورحلته الى ملوك الغساسنة قاصدا القيصر، يشير الى ان الربيع بن ضبيع هو الذي رافق الشاعر الثائر الى الغساسنة وكان واسطته اليهم لمعرفته اياهم واتصاله بهم ومكانته لديهم ومديحه أياهم كما افادتنا القطعة رقم (8) من شعره، يمدح بها السموأل الشاعر، صلة الوصل بين الربيع وملوك الغساسنة. وكذلك تعود اخبار الربيع الى الظهور مرة أخرى عند الحديث عن اكبر حدث تاريخى في زمانه يخص قومه وأمته العربية، الا وهو يوم «داحس والغبراء» (10) وشعره فيها معروف، وموقفه منها واضح، فقد ذكر ايامها في قصائده، مثل قوله في يوم الهباءة، اخطر ايام هذه الحرب :

تجاوت في يوم الهباة هنيدة　　　والفيت عودا حين ما حين حلت

أي جاوزت المائة في هذه الحرب وأصبحت كالعود أي الجمل المسن. وقال ينصح حمل بن بدر الفزاري ويمنعه عن التمادي في الضلال والقتل والحرب لان خصمه قيس بن زهير العبسى لا يزال سادرا في هذا الضلال مثله :

ياحمل هل تعلم مالا أعلمه　　　سديت غزلا لا تطيق تلحمه
والظلم للظالم حتما يلجمه　　　الا ترى قيسا تأطت اسهمه
يقتل ذا الظلم ومن لا يظلمه

وقال أيضا، ينصح غطفان كلها بما فيهما عبس وذبيان ، ايام حرب داحس، أن يكفوا لانهم ابناء عم (11).

أخاك أخاك ان من لا أخا له　　　كساع الى الهيجاء بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه　　　وهل ينهض البازي بغير جناح

والربيع من الشخصيات المهمة التى ساهمت في عكاظ لايقاف هذه الحرب وله خطب مشهورة فيها سنعود اليها بعد قليل.

هـ ـ ويزخر شعر الربيع ـ مع قلته ـ بفقرات من الحكمة البالغة والموعظة الحسنة. وحكمته تأخذ عدة اتجاهات ، اهمها تذكيره الناس بفاجعة المصير الانسانى ، واتخاذ العظة في الذاهبين الاولين، ومن ثم ردعه

(10) تراجع دراستنا حولها فى كتابنا الشعر فى حرب داحس والغبراء ـ طبع الاديب بالنجف 1972.
(11) تراجع أشعار الربيع بن ضبيع فى موضعها من التحقيق.

للظلم والبغي مانحا الانسانية بعدا حضوريا من انسانيتها وتعاطفها في هذه الحياة الزائلة مهما طال المقام فيها. وهذا الاتجاه في شعر الربيع مثله في نثره الذي بناء على خطب تدعو الى الرفق والصفح والاعتراف بالخطأ والعودة الى العقل وتحكيم الضمير. ان هذا الموضوع الحيوي الخالد في شعر الربيع ونثره منحهما خلودا وزادهما قوة وسيرورة، مما ترتب عليه ان يعود الناس الى سيرة الربيع في اكثر من موضع وموقع.

و ـ ولعل السبب الاخير في عدم ضياع هذه الصبابة من شعر الربيع ونثره وبقاء اسمه وعدم اختفاء سيرته نهائيا، انه كان علما في الرجال ومعلمة تاريخية من معالم هذه الامة، فكانت اخباره في كتب الامالي والادب تتردد احيانا برغم ضياع السيرة الرئيسة له ولشعره. ويبلغ من حب المتتبعين لاخباره في التراث برغم معلوماتهم الشحيحة حوله، انهم امدوا في عمره حتى جاوزوا الجاهلية الى الاسلام فجعلوه مخضرما، وادرجوه في سلسلة الصحابة والتابعين فوضعه ابن حجر ضمن رجاله الذين ادركوا الاسلام وان عاد وشكك في ذلك، وكذلك فعل الشريف المرتضى في أماليه عندما ناقش قصة دخول الربيع بن ضبيع على معاوية بن ابى سفيان وعبد الملك بن مروان. قال الشريف المرتضى : ومن المعمرين الربيع بن ضبيع الفزاري ويقال انه بقى الى أيام بنى أمية. وروي انه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : ياربيع اخبرنى عما ادركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية. قال : أنا الذي اقول :

ها آنذا آمل الخلود وقد ... ادرك عقلى ومولدي حجرا

فقال عبد الملك : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبى. قال : وأنا القائل :

اذا عاش الفتى مائتين عاما ... فقد ذهب اللذاذة والفتاء

قال عبد الملك : «قد رويت هذا من شعرك وأنا غلام. وأبيك ياربيع، لقد طلبك جد غير عاثر، ففصل لى عمرك» قال : «عشت مائتى سنة في فترة عيسى عليه السلام، وعشرين ومائة في الجاهلية، وستين سنة في الاسلام . قال : أخبرنى عن فتية من قريش متواطىء الاسماء. قال : سل عن أيهم شئت . قال : أخبرنى عن عبد الله بن العباس. قال : فهم وعلم، وعطاء جذم، ومقرى ضخم . قال : فاخبرنى عن عبد الله

بـن عمـر قال حلـم وعلم وطول كظم وبعـد من الظلم. قال فأخبرنى عن عبد الله بن جعفـر. قال : ريحانـة طيب ريحها، ليـن مسها، قليل على المسلمين ضرها. قـال : فاخبرنـى عن عبد اللـه بن الزبيـر.

قال : جبل وعـر، ينحدر منه الصخر . قـال : للـه درك ياربيـع ما اعرفـك بهم ! .. قـال : قرب جواري ، وكثـر استخباري.

وقد ناقش الشريف المرتضى في اماليه هذا الخبر قائلا : ان كان هذا الخبـر صحيحا فيشبه ان يكون سؤال عبد الملك لـه انمـا كان في ايـام معاوية ، لا في ايـام ولايته، لان الربيـع يقول في الخبـر : «عشـت في الاسلام ستين سنـة» وعبد الملك ولـي في سنة 65 من الهجرة، فان كـان صحيحا فلا بد مما ذكرنـاه، فقد روي ان الربيـع ادرك أيـام معاويـة. ويقـال انه بلغ مائتـى عـام فقال :

اذا بلـغ الفتـى مئتيـن عـامـا فقـد ذهـب اللـذاذة والفـتـاء

انتهـى كلام الشريـف المرتضـى .

لتلك الاسباب المتقدمـة ظلت سيرة الربيع تذكر بايجاز مخل، لكنـه لو قيس بسـواه ممن يحمل نفس مميزاته لوجدناه أوفـر حظا وأعلى قدحا، لاسيما اذا نظرنـا الى هذه السيـرة والاخبار والاشعار بعين التمحيـص والتدقيـق والتوثيـق ، فقد جاءت صحيحة سليمـة لانها تستمـد قوتها واصالتهـا من صدق المنابع التى صدرت عنها، ومن صحة الرواية التـى خرجت عنها. فلو شئنا أن نلقـى نظرة على العلمـاء الرواة الذين مـرت بهم هذه الاشعار وخرج تمن بين اصابعهم، لوجدناهم في غايـة السمو والرفعة في سلامة لغتهم وصـدق روايتهم مثل أبى الاسود النوشجانـى والعمري وابى عمـرو الشيبانى والقاسم بن معن ووهب بن عنبـة. أمـا المؤلفون من العلمـاء فخير مثال لهم ابـو حاتم السجستانى والشريـف المرتضى وأبو الفرج الاصفهانى وابو محمد عبد الملك بن هشام . وقـد سبـق ان رأينـا خيرة النحاة يتمثلون بشعره يتخذونـه شواهد لمذاهبهم كما فعل سيبويه والزجاجى . ان استشهادهم ببعض شعر الربيع انمـا هى تزكيـة لما يروى له من اشعار رغم شحتها، وتثبيت لشخصيتـه بابعادها التاريخية رغم غرابتها. ومثلهم فعل المعجميون كالجوهري وابـن منظـور ، وكذلك المعنيون بالتـراث والادب من المتأخريـن كالبغـدادي في الخزانـة والالوسى في بلـوغ الادب.

هذه لمحة سريعة للقنوات الجيدة التي مر بها شعر الربيع بن ضبيع الفزاري ولا ننسى ان ابن قتيبة الدينوري كان ممن اطلع على شعره، وكذلك ابو علي الفارسي والرضي والبطليوسي صاحب الاقتضاب وابو علي القالي في الامالي والنوادر وغيرهم. واذا اتجهنا بنظرتنا الفنية والذوقية نحو طبيعة الشعر لوجدناه مما يدخل ضمن لغة ذلك العصر واجوائه ومعطياته فليس لعالم بلغة العرب، عارف بكلام الجاهلية مميز له عن كلام اهل الاسلام، الا ان يحكم بأن هذا الشعر يمثل العصر الذي وجد فيه الربيع.

ولو عمدنا الى مزيد من التعرف على سلاسل الرواية والرواة في الكتب التى اوردت شعر الربيع ، لوجدناها رويت عن ثقات. مثل ابن هشام عن ابى مخنف عن كميل بن زياد النخعى، وهى رواية لكتاب وهب بن منبه. اما كتاب .. «المعمرون والوصايا» لابى حاتم السجستاني فهو عن أبى الاسود التوشجانى عن العمري عن ابى عمرو الشيبانى قال : سألنى القاسم بن معن ، ثم اورد خبر الربيع. وأما كتاب الاصابة لابن حجر العسقلانى ، فهو ينقل مباشرة عن ابن هشام وابى حاتم السجستانى، ولم يذكر الشريف المرتضى في أماليه الجهة التى نقل عنها خبر الربيع، ولا اسم الراوية العالم الذي استقى عنه شعره، لكن الشريف المرتضى رجل موثق الرواية مصحح الخبر.

شعره :

حكم ابو محمد عبد الملك بن هشام (12) للربيع بن ضبيع الفزاري في كتاب «التيجان» بأنه اشعر شعراء عصره . ويبدو انه لم يبعد كثيرا في حكمه، لان الروايات تفيد بأن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) كان يتمثل بشعره في مواقفه المعهودة، والخليفة عمر معروف بنقده للشعر وانتقائه لما يحفظ ويتمثل وينشد. ومما زاد في ذلك ان الخليفة علي بن أبى طالب (رض) سمع مرة انشاد عمر بن الخطاب لشعر الربيع بن ضبيع فاهتزت له اعطافه واجازه متمما الابيات ببيت أو أكثر من وزنها وقافيتها ومعناها . والامام علي كرم الله وجهه، هو من هو في الشعر

---

(12) ص 118.

والفصاحة والبلاغـة ليس بحاجة الى فضـل بيان وزيـادة تعريـف : تقول الروايـة : انـه لما خرج عمـر بن الخطاب الى الشـام في خلافته، سـار بعلي بن أبى طالب فغادرا المدينة حتى بلغـا الشـام، ثم جعـل الموكب يعبـر وادي الاردنين، قال عمر : قاتـل الله الربيـع بن ضبيـع حيـث يقـول :

وكم غمـرة ماجت بأمواج غمـرة تجرعتها بالصبر حتى تجلـت
وكانت على الايـام نفسـى عزيزة فلمـا رأت عزمـى على الامر ذلت
هى النفس مامنيتها طال شوقهـا والا فنفـس اويست فتسلـت

فـزاد علـي بن أبـي طالب عليهـا بيتا فقـال :

وما جزت وادي الاردنين تطربـا ولكن امـورا وكلـت بـي فحلت

فالشاعـر مشهود له عند اعلم النـاس بالشعر والرواية مثل ابن هشام، ومروي لـه عند من لا يرقـى الشك الى ذوقهم وانشادهم كعمر وعلي رضي اللـه عنهمـا .

وشعر الربيع أعف شعـر وأصدقه، لانه ينطلق من عاطفة يتحكم فيها العقل والسـن والتجارب فجاء حافلا بالتأمل وبعد النظرة، فعده الاوائـل من حكماء العرب في الجاهليـة وعقلائهم. وحكمته الشعرية منطلقـة مـن تجاربه الشخصية وامتـداد حياته وسلامة فطرته ولم يستمدها من تأمـل فلسفى مدروس أو كتاب من وضع حكيم أو فيلسـوف وهذا شأن شعراء عصره حتى جاء الاسلام فآل الناس الى كتاب اللـه واصبحت تأملاتهـم مستمـدة منه ومن سنة رسول الله (ص) واحاديثه واثـره وأقـوال صحابته، فكانت هذه الظاهـرة أول وسيلـة للمعلومات المنسقة المبنية على تأمل عقلى مسبـق . فاذا أراد الربيـع ان يعظ الناس ليكفـوا عن اندفاعهم وراء اطماعهم ولذائذهم الحسية، لم يتجاوز منطـق حكماء عصره أمثـال اكثـم بن صيفى وقـس ابن مساعدة الايادي وذي الاصبـع العدوانـي والاضبط بن قريـع ومعد يكـرب الحميري وغيرهم. ممن يعيدون الى ذاكرة النـاس سيـرة الجبابـرة الملـوك الذين كانـوا ممتنعين بقوتهم وممالكهم، والفاتحين الذين بسطـوا اكفهـم على وجـه المعمـورة، فلم ينفع الجبـار بطشه ولا الملـك منعته ولا الفاتح سطوته، ومضى الجميع كأن لم يكونوا وعـادت الحياة ثانية الى مجراهـا هادئة بسيطة، ينعم بها الناس علـى

مختلف اصنافهم، كأن يـدا خفيـة انتزعت عنهم ما كان قـد أفسد عليهـم عيشهم. وتـدور هذه المعانى في شعرهم وسجعهم، لكن في تنوع بالاسلوب وتعـدد في التنـاول ، بحسب نظرتهـم أو نظـرة الحكيم نفسه الى الوضع الذي يناسبـه عند التعبير والارشـاد.

ان اكثر مواعظ الربيع وحكمته، في شعره تقريرية في نظر النقد الحديث مثل قوله : اذا عاش الفتى مئتين عاما فقد ذهب اللذاذة والفتاء وهذا في نظر الدراسات النقديـة مما لا يستوجب التامل العميـق وانما هى بديهيـة ، وأكثـر شعـره من هذا القبيل، لكننا لا نقيس ذلك العصر على ما يقيسون به اليوم، فهي بسيطة اذا قيست الى أفكار هذا العصر، لكنها في زمانهـا جديدة أصيلة، لانها تمثـل مرحلـة متطـورة بالنسبة الى مراحل الشعر السابقـة عليهـا، عندما كان الشعـر يـدور في اجـواء بعيـدة عن هـذا الواقـع الجديد، غارقـا في افكـاره الغيبيـة البدائية الساذجـة، لا يتعدى عالم الاساطير والملاحم، ثم جـاء بعدها الشعـر الجاهلى بواقعيته الجديدة، وشعـر المعمريـن وحكمتهم من ضمنه ولو شئنـا ان ننثـر كـل افكـار الربيـع في حكمته لما جـاوزت هذه المعانى أو الصيغ البديهية البسيطة : ان امتداد العمـر يسلب المـرء أحاسيس اللذة والشبـاب، وان السنين العديدة التى تمشـت فوق جسـدي تركتـه متهدمـا فانيـا، وعافتنـي وقـد سئمت من نفسى ومن بقية حياتى، فغدوت مسلوب الارادة والقـوة لا أحمل السـلاح ولا أميـز الاشياء، وأخشى الظـلام والمطـر والذئب ولا أملـك رأس البعير اذا نفـر وأفلت من يدي، وان الانسان ينبغى أن يتعـظ من تجاربه وتجارب الآخريـن، وان هزائم الاقويـاء أمام الدهـر وطرقـات الزمن على أبوابهم مؤشـر كبير لضعف الانسان اذا بغـى وظلم وتجبـر، وان سرقوة الانسان في عدله وتراحمه وتوادده وتواصله، وان الملوك والسوقة والموسرين والمقترين يؤولون الى مصير مشترك واحـد.

لكن حكمة هذا الشعر خرجت بعد قـرون قليلـة عن هذا الاطار التقليدي الى رؤيـة شعرية معمقـة، وجدت في أبى تمـام وابى الطيـب المتنبى ومن نهج نهجهما، خير راع لهذا الاتجـاه. وقد سبق أن استشهدنا بالابيات التى رواها الخليفـة عمـر واجازها الامـام علي، فهى مثال طيب لشعـر الحكمـة الناضج. والحقيقة أن هذه الابيات والقصيدة نفسها تمثل اتجاها سليما في شعـر الحكمة أكثر من غيرهـا في شعـر الربيع، ومثل قوله أيضا:

لابـد أن الـقي المنون، وان نـأت عني الخطوب ، وصرفه المحتوما

أمـن الامور أخو الدهور فهل رأى ذا مـرة من قبلـه معصومـــا

وما سوى الهموم الذاتيـة والمواعظ والحكمة لا نلتقى في شعره بشيء بذكر، لان غرض الاستشهاد بشعره من قبل العلماء كان منصبا علي هـذا الجانب، فليس بين ايدينـا من مديحه شيء سوى أبيات أربعة قالهـا في مديح السموأل لا يمكن أن نبنى عليهـا حكما في اتجاهات شعر المديح لدى الربيع. كما ليس بين ايدينـا من شعـره في الهجاء الا ابياتـا ثلاثة أيضـا قالها في هجاء حمل بن بـدر احـد سادة بنـى فزارة قـوم الربيع نفسـه، وكان احد اسباب حرب داحس والغبـراء وداعية من دعاتها، فهجاه الربيع لموقفه الظالـم منها، ولكى يحقن دمـاء القوم، فالحكم على شعـر الهجاء عند الربيع من خلال ابيات قليلـة يعد ضربا من التمحـل. أما الغـزل في شعـره فهو تقليـدي يسوقه في مقدمـات قصائده أو نثـره في حنايا شعره ليعبـر عن حالة وعظ مطلوبة لديه، كقولـه بعد أن مهـد لموضوعه عن هلاك البشـر.

لا تعجبى يـا أميم من صصفتى فقبـل ما كنت أخسـف القمـرا

أصبـو بهنـد وزينـب أممـــا ونسـوة كـن قبلـهـا دررا

لما رمانى الزمـان عـن عــرض وقامرتنـــى خطوبــه قمـــرا

اصبـح عنـى الشبـاب قد حسرا ان ينـأ عنـى فقـد ثـوى عصرا

ان الاوشال الباقية من شعـر الربيـع لتدل على التزامه بالبنـــاء الفنى للقصيـدة العربية في افتتاحياتها قبل الدخول في الغرض، كقوله :

أقفـر من اهله الجريب الى الزجيـن الا الظبـاء والبقـرا.

وهو مطـلع طللـى . ومثلـه :

طال الثواء عن السنين أميما ألقـى عذابا للسنين اليمـا.

ان هذه الإشارات الطلليـة والممهدات المعنوية للبلوغ الى غـرض القصيـدة تـدل على قصائـد طوال مفقـودة من شعـر الربيـع.

نثـــره :

وكما امتلك الربيـع بن ضبيـع الفزاري ناصية الشعـر، فقد تمتع بملكـة ادبيـة أخرى، الا وهى موهبته الفـذة في الخطابـة والقـــدرة الكبيرة على التعبير بالنثـر الفنـى. قـال ابـن هشـام : كان الربيـع أحكـم العرب في زمانــه واشعرهم وأخطبهم وشهـد يوم الهباءة وهـو ابـن مائة عام، وكان أنجـد فـارس في حـرب داحس والغبـراء» وتتجلى الحكمـة في نثـره بنفـس القـوة التى تجلت بها في شعـره، وقد حفلت بمعانى الدعوة الى الخير والمحبـة وتحكيم العقل والضمير في جميـع الامور. كمـا وردت في نثره اشارات قوية الى تزيين الصلح ونبـذ الخلاف، كمـا اشار الى رغبـه صادقة في نشـر العلم والمعرفة، واغاثة الملهوف واجابـة السائل والتأكيد على معانى السلم والحرية بمفهومها القديم، ومقاومـــة السفـه والظلم والتصدي للمعتدي ودحـر كيـده وايقافه عند حـده.. وهكذا!. وتدور أكثر معانيه في فلك الخطب التى دارت فيها خطب العصر الجاهلـى، وما كان يقوله قس بن ساعـدة وأكثم بن صيفى وسواهما. وتنفيد اخباره أنه كان يقف في ســوق عكاظ خطيبا ناصحا داعية متكلما عن عشيرتـــه وعن العرب في كثير من أمورهم الخطيرة. فمن امثلة خطبه يوم همت عبس الى صلح ذبيـان ساعيا في السلم بينهما رجـال عظماء مثل عـوف بـن حارثـة، نيابـة عن بنـى مـرة بن سعـد بن نصـر بن ذبيـان، وحصن ابن حذيفـة، نيابـة عن بنى فـزارة، وقام هـرم بن سنان المري، نيابة عن بنى عبـس. فأتى بنـو عبس بديـات بنى ذبيـان ، وأتى بنـــو ذبيـان بديات بنى عبس، ووقع على حصين بن ضمضم المري عشـــرة أبكـار، وكان بخيلا أكـولا فأدركه البخل فأراد نقـض الصلح حتى لايدفع ماعليه من الغرامـة فقال : «يا بنى عبس لا نصالحكم الا الصلح المخزيـة جـدع الانـوف والاذنين» وكان ذلك في ســوق عكاظ، فوقف الربيـع بن ضبيع وقال.. «.. الحريم (14)، ولج الغريـم، وطال الشـرر، وغـدر الدهـر» فدارت معارك ادبية وكلامية دخل فيهـا الحصين بن ضمضـم وعنتـرة وعـروة بن الـورد العبسـى فأوردوا شعـرا حاميـا، فلم يقـف الربيـع الى جانب الحصين برغم انه من عشيرته، وانما قال له : «ياحصين

(13) المصدر السابق (التيجان لوهب بن منبه — رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام.
(14) كذا وردت فى التيجان ، وقبلها كلمة ساقطة.

لقد تعرضت للسب» يريد انه بسوء تصرفه جعل من نفسه غرضا وعرضة للتشهير . فلما رأي العبسيون والذبيانيون حكمة الربيع ورجاحة عقله، جعلوا أمرهم الى حكمه، فاسترسل يخطب في عكاظ بين الحيين المتقاتلين عبس وذبيان فقال :

«أيها الناس أصاب الاياس ، وأخطأ القياس، وبين الحق والباطل التباس. أيها الناس، من عبر غبر، وكل عثار جبار، وكل فائت مطلول، الخير والشر على اللسان، والنجاة في البيان. يابني ذبيان داروا الحروب فانها تذل. يابنى ذبيان طلب الثأر ضالة الاشرار ومزالق الاعمار وهلاك الاخيار. اخوكم عبس، عدوكم أمس، فطلاب أمس الذاهب هلاك غد المقبل. هلا سألتم عن الاحقاد طسم وجديس وعاد وثمود. اعلموا ان كل ذاكر ناس، وكل مقيم ظاعن وكل ثابت زائل. وبين الاموات موت الاحياء، والسرعة الى الاجل ذهاب العاجل، والذل غنيمة الظالم» وانشد من شعره في هذا الموقف :

على حرج يا عبس اضحى اخوكم وبت على أمر بغير جناح

وهى في شعره :

والربيع بن ضبيع هو القائل في يوم شبيم وأمر شبيم وهو شخص قتلته فزارة بعد الصلح مع عبس، وقال فيه زهير بن سلمى معلقته. قال الربيع «ظلمتم يا بنى فزارة، والظلم عاقبته وخيمة، فداروا الظلم بالرفق ، أو فأنتم شاه الذئب، وغرض الرامى».

ثم قال : «يا بنى اجمعوا لى بنى ذبيان» فلما حضروا قال : «يا بنى فزارة بن ذبيان : من أعزكم ؟! قالوا أنت يا أبا سالم.. قال : ان لكم ان تدوسوا اعزكم عليكم بارجلكم، فذلك ارفع لقدره عندكم. يا بنى ذبيان، آمركم بأربع وأنهاكم عن اربع : آمركم بالحلم فانه يحسن المعاشرة، وبالجود فانه يزرع المودة، آمركم بحفظ بعضكم بعضا يهابكم الناس الاباعد، آمركم بالعلم فانه زين ومحبة في قلوب العالم. وانهاكم عن السفه فانه باب الندم ومنزل الذل، وأنهاكم عن البخل فانه سلم السب، وانهاكم عن التخاذل فانه آفة العز، وأنهاكم عن الجهل فانه رزية ومهلكة.

وأسالـوا عما جهلتـم فأن في السـؤال هدى، وفي الصمت على الجهل عمى، ولا تستصغروا من لاتعرفونه، ولا تحسـدوا من لا تدركونه، ولا تحمدوا غير كريـم، ولا تبخلوا على شريف، ولا تفضلوا على غير محتاج فيذهب فضلكم هبـاء. ولا تمنعـوا السائل فان منعه مقـت، ولا غيبـة فأنها قـــرض مـردود، ولا سيما انها تعقب. يـا بنى ذبيـان اجعلوا قبري علما فانى قدمت للنـاس خيـرا، فأنه شأن وذكـر حسن، وتركت للبنين فخرا، ولـو قدمت شيئا أمرتكـم ان تخفـوه، فانه علم السـب. احفظوا قولى فانـه مقامـى ورائـى فيكـم . وأنشـأ يقـول :

لقـد عزفت نفسى عن اللهو جمة وان نـهلت من لهوها ثم علت

القصيــــدة .

ويلاحظ في وصيته كيف يأتى بالشىء ونقيضه حين يأمر وحين ينهى، فهـو بذلك يكون قد ثبـت الغرض المطلوب والهدف المنشود، وهذه غايـة في الامـر لانه اعـرض عن تكـرار الوصيـة لكنه عـاد اليهـا بذكـر مـا يناقضهـا، فكأنه ثبتهـا مرتين في وجهتين مختلفتين وهو قمـة الابـداع في التوجيـه. ويلاحـظ ايضـا أنه وضع أسسـا لقيم اجتماعية صـارت فيما بعـد شرائع وقوانين وسننـا في الاسلام، وهذا هو الـدور الكبير الـــذي قـام به اولئك الرجـال العظماء من معاصري الربيع بن ضبيع وسابقيـه ولاحقيه، عندما صنعوا مجـد الامـة وأرسـوا تقاليدها العربية والانسانية. وجاءت تعاليمه اشبه بوصايا انبيـاء الله والمبعوثيـن في النـاس.

والملاحظة الثالثـة في نثـر الربيـع بن ضبيع الفـزاري انه كان ينقد نفسـه نقـدا بناء حين أوصـى بأن يجعل قبـره علما، فان كان الذي قدمه للناس خيرا فليكـن قبـره رمزا للخير وحسن الذكر، وان كان ما قدمه مما يسـىء الى شخصه فليكن قبره كقبر ابى رغـال، علما للسب واللعنة، تلك هى لغة الربيـع في شعره ونثـره ،وهذه هى بعض خطبه وأقواله ووصايـاه مما بقى في يـد الزمن، وأما بقية شعره فسأذكر ما وقعت عينى عليه في المصادر التى بين يـدي الان، وعسـى أن يسعدنا الحظ بالمزيد في مستقبل الايـام.

- 1 -

شعـــــره :

قـال الربيـع بن ضبيع الفزاري لما بلـغ من العمر مئتـى عام :

الا أبلـغ بنـى بنـى ربيـع (1) فأشرار (2) البنيـن لكـم فـداء
بأنى قد كبرت (3) ودق عظمـى فـلا تشغلكم (4) عنـى النسـاء
وان كنائنـى لنسـاء صـدق وما آلى بنـى ومـا أسـاءوا (5)
اذا كـان (6) الشتـاء فادفئونـى فأن الشيخ يهدمـه (7) الشتـاء
فأمـا حيـن يذهـب كـل قر (8) فسربـال خفيـف أو رداء
اذا عاش الفتى مائتين عاما (9) فقـد أودى المسرة والفتـاء (10)

مصـادر تخريـج الشعـر :

الابيات في كتاب : المعمرون والوصايا (9 ـ 10) وأمالـى المرتضـى ص 255 والتيجان ص 118 عـدا البيت الاخير، وحماسـة البحتري ص 322 عـدا الثالث والسادس. ووردت في الخزانـة 3/306 وبلوغ الادب 3/166 بتمامها، وروى صاحب الاقتضاب ص 369 والاصابـة ص 526 الابيـات 4 ـ 5 ـ 6 والسمـط 702 البيتيـن 4 و 6 واللسـان مـادة (الا) و (فتا) البيتيـن 2 و 4 والصحاح مـادة (الـى) روى الثاني فقـط.

وقد رويت الابيات في المصادر بترتيب يختلف بعضها عن الآخر، وما ثبتنـاه هنا هى روايـة كتاب : «المعمـرون». وقد ناقش صاحب الخزانة روايـة ابن المستوفـى في كون الابيات ليزيـد بن ضبه وكون البيـت الاخير يروي ستين عاما بدلا من مائتين عاما وسأذكر ذلك في الهامش رقم (9) في الصفحـة التاليـة .

اختـلاف الروايـات وشـرح المفردات الغريبـة :

1 ـ ضبطت في بعض مصادر التحقيق مصغرة، وقد تعرضت لهـا في أول سطـور الدراسـة المتقدمـة عن الربيـع.

2 ـ في النـوادر والخزانـة (انـذال) بـدلا من (اشـرار).

3 ـ في النـوادر (رق) .

4 ـ التيجـان والنـوادر (يشغلكـم).

5 ـ روايــة البيــت في التيجان.

وان كنــا نتــى لانت بقســر وانى لا أســـر ولا أســاء

واثبتنا اتفاق الروايات الاخرى. واختلف في (الي) و (الا) وهي لدى العلمــاء بمعنى أبطأ وقصر. والكنائن جمع كنة : امــرأة الابن أو الاخ.

6 ـ كان هنا تامــة، ورويــت ، في التيجان والاصابــة (جاء).

7 ـ في التيجــان والاصابــة والسمــط (يهرمــه).

8 ـ التيجان : وان دفع الهواجــر كل قــر .. البيت. والقر : البــرد. الاقتضاب : رقيــق بــدل خفيــف.

9 ـ ذكــر صاحب الخزانــة ان ابن المستوفى رواها : اذا عاش الفتــى ستيــن عامــا..

ونسبها ليزيد بن ضبة ، ورد عليه صاحب الخزانة بأن هذه الروايــة نفت الشاهد ونفت ضرورتها، لان البيت سيق مع مجموع الابيــات بسبــب كلمة (مائتيــن) فاذا روي البيــت بلفظــة (ستين) بطلت الرواية وانتفــى سيــاق الابيات، وان اجماع الــرواة ورد في المصادر على أنهــا للربيع بن ضبيع الفزاري. ثم تعــرض البغدادي لقــول شــارح اللبــاب بأن رواية البيــت هى : اذا عــاش الفتــى خمسين عامــا. فأسقط صاحب الخزانــة هذه الروايــة وعدها واهيــة ، لان ابن الخمسين لا يبلــغ من الضعف هذه الحالــة التى صورهــا البيــت والابيــات التي قبلــه.

10 ـ في أمالي المرتضى والاصابة والاقتضاب واللسان (فتا) وبلــوغ الارب وردت بهذه الرواية : (فقــد ذهب اللذاذة والفتــاء) لكن الاقتضاب نص على (المســره) ايضا والنــوادر 214 (المــروءة) بــدل [المسرة] وفــي هامش الاصــل (اودى) بــدل (ذهب). ورويت في الاقتضاب 369 ايضا :

فقــد ذهب التخيل والفتــاء :

ـ 2 ـ

وقــــال :

لقد عزفت نفســى عن اللهــو جمــة وان نهلت من لهوهــا ثــم علــت (1)

رأيت قرونــا ، بعد قــرن ، تقدمــت فلم يبق الا ذكرهــا حين ولــــت

الا أين ذو القرنيــن اين جمــوعــه لقــد كثــرت اسبابــه ثــم قلت (2)

خرفت وافنتني السنون التي خلت ... فقد سئمت نفسي الحياة وملت (3)
تجاوزت في يوم الهباة هنيدة ... والفيت عودا حين ماحين حلت (4)
فكم مشهد اوردت نفسي وطيسه ... اجشمها مكروهه حين كلت (5)
وكم غمرة ماجت بأمواج غمرة ... تجرعتها بالصبر حتى تجلت (6)
وكانت على الايام نفسي عزيزة ... فلما رأت عزمي على الامر ذلت
هي النفس مامنيتها طال شوقها ... والا فنفس أويست فتسلت (7)

مصادر التخريج :

كتاب التيجان ص 118 .

الشروح :

1 ـ عزفت : اعرضت. نهلت : شربت الشربة الاولى. علت : الشربة الثانية ثم الشرب مستمرا.

2 ـ ذو القرنين : الاسكندر . اسبابه : وسائله نحو المجد.

3 ـ خلت : مضت .

4 ـ الهباءة: هو الهباءة. يوم من أيام داحس والغبراء بين عبس وذبيان قتل فيه حذيفة بن بدر واخوه حمل، وهما سيدا بني فزارة، قتلهم قيس بن زهير العبسي عندما استغاثا بماء يقال له جفر الهباءة. هنيدة: المائة من الابل، وأراد هنا أنه بلغ مائة عام. عودا . مسنا.

5 ـ وطيسه : اشتداده. وحمي الوطيس : أي اشتدت الحرب. اجشمها : التجشم، تكلف الصعاب والمشقة. مكروهه : أى ما اشتد من الامور والمشاهد . كلت : تعبت.

6 ـ غمرة : ما يغمرك من الماء أو الشدائد. تجرعتها : تقبلتها على مرارتها تجلت : انكشفت.

7 ـ أويست : ادركها اليأس.

ـ 3 ـ

وقال :

على حرج ياعبس أضحى أخوكم ... وبت على أمر بغير جناح (1)
حذار حروب الاقربين وانه ... ليأتي افتلانا وجه كل صباح

أخاك أخاك ان من لا أخا له كساع الي الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المريرِ فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح
لنا عظة في الذاهبين وعبرة تفيد ذوي الالباب أمرِ صلاح
الم تعلموا ما خاول الصعب مدة وما صبح الساعى وآل رزاح (2)
فهل بعد ذي القرنين ملك مخلد وهل بعد ذي الملكين يوم فلاح (3)
تريش له الاطيار عند غدوه وتجنح ان أومى لها برواح

التخريج :

التيجان ص 118

الشروح :

1 ـ الحرج : الضيق من الامور

2 ـ الصعب : لقب المنذر بن ماء السماء ، وعرف بذلك ايضا أحد ملوك اليمن القدماء.

3 ـ أراد بذي الملكين : النبى سليمان

وقال الربيع في الحكمة ، مخاطبا الحصين بن ضمضم المري :

دارِ الصديق اذا استشاط تغيظا والغيظ يخرج كامن الاحقاد
ولربما كان التعصب باحثا لمثالب الآباء والاجداد

التخريج :

التيجان ص 118

وقال ايضا :

الا أيها الباغى الذي طال طيله وتبلاله في الارض حتى تعودا (1)

التخريج :

اللسان مادة (بلل).

الشروح :

1 ـ طيله : عمره. تبلاله : مكثه . تعودا : صار عودا، أي مسنا.

ـ 4 ـ

وقال :

أقفر من أهله الجريب الى ال الز ... جين الا الظباء والبقرا (1)
قل للذي راح عن اخيه وقد ... أودعه حين ودع الحجرا
هل أبصرت عينه له أثرا ... أو سمعت أذنه له خبرا
أين همام الجديل اذ امرا ... وأين رب السدير اذ قدرا (2)
أين بنو هود النبي ومن ... شمر عن راحتيه وابتكرا
والصعب لما عتت ارومته ... وخان ريب الزمان فادكرا (3)
لم يدفع الموت بالجنود ولا ... رد بأسباب علمه القدرا
فار علي الدهر ينحني فرمى ... فوق جناحي ومفرقي شررا
لا تعجبي يا اميم من صفتي ... فقبل ما كنت احسف القمرا (4)
اصبو بهند وزينب امما ... ونسوة كن قبلها دررا (5)
لما رماني الزمان عن عرض ... وقامرتني خطوبه قمرا
أصبح مني الشباب قد حسرا ... ان ينأ عني فقد ثوى عصرا (7)
ودعنا قبل ان نودعه ... لما قضى من جماعنا الوطرا
اصبحت لا احمل السلاح ولا ... املك رأس البعير ان نفرا
والذئب اخشاه ان مررت به ... وحدي وأخشى الرياح والمطرا
من بعد ما قوة أسر بها ... أصبحت شيخا أعالج الكبرا
ها انذا آمل الخلود وقد ... أدرك عقلي ومولدي حجرا (8)
أبا لمريء القيس هل سمعت به ... هيهات هيهات طال ذا عمرا

التخريج :

الابيات ـ عدا الاول ـ في التيجان وسبعة ابيات في «المعمرون والوصايا» وهي : 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ، وثلاثة ابيات في حماسة البحتري من 322 في أمالي الغالي 2/185 والخزانة 3/309 (الاول والعاشر والثاني عشر) وبيتان في الزاهر 1/495، 2/279 (الاخيران) وامالي المرتضى ص 255 وبلوغ الارب 3/268 واللسان (مادة ضمن) البيتان «الرابع عشر والخامس عشر» والسمط 2/187 واللسان مادة (درر) الاول والعاشر. وترد الابيات بترتيب مختلف في مصادرها ، وقد ثبتت رواية التيجان لانها جمعت كل الروايات.

الاختلاف والشروح :

1 ـ السمط ، واللسان (مادة درر) (مية) بدلا من [اهله]. والجريب

2 ـ الهمام : الملك . والجديل محبس للابل كبير كان للنعمان بن المنذر. والسدير قصر معروف للمناذرة.

3 ـ الصعب : هو ذو القرنين ، قال طرفة بن العبد.

اذا الصعب ذو القرنين ازجى لواءه   الى ملك ساسان لقامت نوادبه

وهو الصعب بن الحارث الرائش الحميري.

لكن قسما من المفسرين والرواة يؤكدون انه الاسكندر المقدوني، والرومى كما يسمونه (ينظر فاروق خورشيد) «في الرواية لعربية ـ عصر التجميع» طبع دار العودة بيروت ، طبعة ثالثة 1979.

الارومة : الاصل الثابت . وعتت : قويت وتجبرت.

4 ـ (ما) هنا زائدة.

5 ـ اللسان مادة (درر) : كأنها درة منعمة.

6 ـ قامرتنى : لاعبتنى فغلبتنى.

7 ـ في حماسة البحتري وامالى القالى والخزانة (مبتكرا) بدلا من «حسرا».

8 ـ أمالى القالى (عمري) بدلا من عقلى وترد في الروايات (سنى) ايضا. وأورد محقق الامالى في هامشه اختلاف النسخ بين (سنى) و (عقلى) فتكون نسخ الامالى اوردت ثلاث روايات

حماسة البحتري : (ارتجى) بدلا من (آمل).

ـ 5 ـ

وقال لما مضى بامرىء القيس الى السموأل الشاعر ليوصله بملوك الغساسنة :

قل للمنية اي حين نلتقى   بفناء بيتك في الحضيض المزلق
ولقد رأيت بنى المضاض مفاخرا   والى السموأل زرته بالابلق (1)
فأتيت أفضل من تحمل حاجة   ان جئته في غارم أو مرهق (2)
عرفت له الاقوام كل فضيلة   وحوى المكارم سابقا لم يسبق

التخريــج :

الاغانى لابى الفرج 19/96 ـ 22/118 قال ابو الفرج : وهى قصيدة طويلــة.

الشــروح :

1 ـ بنو المضاض من ملوك اليمن، ورويت اللفظة بالصاد والصواب مـا اثبتنـاه وهو يوافـق نسخ الاغانى والمختار. الابلق حصن معـروف كان فيه السموأل بن عاديـا، وللسموأل شعر في ديوانه يفخـر بـه.

2 ـ غـارم : ما يترتب على المرء من غرامة لقاء ما أحدثته يده كالدية مثلا. ومرهق : اي أمر يرهق صاحبه من فاقة أو حاجة أو سواهما.

ـ 6 ـ

وقال في يـوم الهبـاءة وقد اثخنتـه الجـراح :

رايــت موتيـن عليـنـــا نـــزلا موتى وموتِ الغر من قومى الملا (1)
بذلـت روحـا دونهـم معجــــلا كيما الاقى الموت منهـم منهـلا (2)

التخريــج

التيجـان ص 118.

1 ـ اطلق الشاعر هنا على قومه لفظة «الملا» ولم يشتهر عن فـزاره انهـا عرفت بهذا الاســم . وانما كان العرب يطلقون على قريش اسـم (المـلا) اللســان مـادة ملا (والمفصـل 4/5).

2 ـ لفظـة الروح تبـدو غريبـة هنا، اذ لم تـرد في الشعر الجاهلى وانما يقولون «النفس» لكن الربيـع قال هذين البيتين في يوم «جفر الهباءة» قبل الاســلام. (ينظر في الروح والقمر والنسمة والنسم والدم كتاب المفصل في تاريـخ العرب قبل الاســلام للدكتور جواد علي 6/136 الفصل الخامس والستــون في الروح والنفـس والقــول بالدهـر.

ـ 7 ـ

وقـــال أيضـا :

طال الثـواء عـن السنيـن أميمـــا القـى عذابـا للسنيـن اليمـــــا
أنسيــت أم لـم أنـس أم عاهدتـــه فوجدتــه بعـد السفــاه حليمــــا
لابـد أن ألقــى المنـون ، وان نـأت عنــى الخطـوب ، وصرفـه المحتوما
هـلا ذكـرت لـه العرنجـح حميـزا ملـك الملـوك على القليـب مقيمـا

والصعب ذو القرنين عمر ملكه الفين أمسى بعد ذاك رميما
ونبت به اسبابه حتى رأى وجه الزمان بما يسوء نسيما
أمن الامور أخو الدهور فهل رأى ذا مرة من قبله معصوما (1)
طال الزمان وطال عنى غيبه ما زال من قبلى الزمان قديما
ألوي بشمر والمقعقع بعده وأباد سعدا بعده وتميما (2)
لما حشون حشا على لطيفة واستحسن القيصوم والتنوما (3)

التخريج :

التيجان 118

1 ـ ذو مرة : ذو قوة وشدة.

2 ـ شمر والمقعقع وسعد وتميم : اجداد القبائل.

3 ـ القيصوم والتنوم : نبات.

ـ 8 ـ

وقال :

الا يا لقومى قد تبدد اخوانى
ندامای في شرب الخمور واخدانى (1)
وانسى قليلا ثم اتي سبيلهم
فتبلى عظامي يال سعد وذبيان
وابلى ويبقى منطقى بعد ميتتي
وكل امريء الا أحاديثه فاني
سيدركني ما أدرك المرء تبعا
ويغتالنى ما إغتال أنسر لقمان (2)
أجار مجير النمل من عز ملكه
وأنزل سيف البأس من رأس غمدان (3)
وألوى بذي القرنين بعد بلوغه
مطالع قرن الشمس بالانس والجان
اذا بين يومين ، فأمسى الذي مضى
وصرف غد لابد بالحتم يلقاني

ألـم تـر أن الدهـر يـاقـوم طـالـب
وان لـم أكـن يومـا لاوتـاره جانـى
سيأخـذ ما أعطـى وان كـان محسنـا
ومـا كـان مـن شـرخ الشبيبة أولانـي

التخريـج :
التيجـان ص 118
الشـروح :
1 ـ اخدان جمع خـدن، وهو الصاحب.
2 ـ تبـع : احـد ملوك حمير. وانسر لقمان ثلاثة قصنهم معروفه في التـراث العربى قبل الاسلام . عاش لقمـان عمر نسـوره، وكان اخرهـا اطولهـا عمـرا.
3 ـ مجير النمـل : النبى سليمان. وغمـدان قصر تاريخى عربي.

ـ 9 ـ

وقـال :
يـا حمـل هـل تعلـم مالا أعلمـه سديـت غـزلا لا تطيـق تلحمـه (1)
والظلـم للظالـم حتمـا يلجمـه الا تـرى قيسـا تأطـت اسهمه (2)
يـقـتـل ذا الظلـم ومـن لا يظلـمـه

التخـريـج :
التيجـان ص 118.
الشـروح :
1 ـ حمل : هو حمل بن بـدر الفزاري كـان أحـد اسباب حـرب داحس والغبـراء مع اخيه حذيفـة.
سديـت غـزلا : اي مددت. تلحمه : تنسجه. بمعنى اشعلت حربـا لاتطيـق عليهـا.
2 ـ قيس : هو قيس بن زهيـر العبسى قـاد قومه في حرب داحس.
تأطـت اسهمـه : صوتت وهى منطلقة. يريد ان الحرب استعرت وجدت.

ـ 10 ـ

وقال :
كاننى والذي نغـم الالـه لـه حول الاقيصر تسبيح وتهليل
التخـريـج :
الاصنـام ص 39.

مصادر التحقيق والدراسة :

1 ـ أدب الكاتب ـ ابن قتيبة ت : محيي الدين عبد الحميد . مط : مصر السعادة 1963.

2 ـ الاعلام ـ الزركلي ـ طبعة ثالثة.

3 ـ الاغاني ـ ابو الفرج الاصبهاني طبع دار الكتب والهيئة المصرية للكتاب.

4 ـ الاصابة في تمييز الصحابه ابن حجر العسقلاني مصورة عن الطبعة الاولى 1328 هـ.

5 ـ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد البطليوسي بيروت 1901 م.

6 ـ أمالي المرتضى ـ علي بن الحسين تحـ : ابو الفضل ابراهيم القاهرة 1954.

7 ـ بلوغ الارب تحـ : الشيخ محمد بهجة الاثري ـ طبع الرحمانية مصر 1925.

8 ـ التيجان ـ منسوب لابن هشام طبع حيدر اباد 1347 (رواية وهب بن منبه).

9 ـ الحماسة للوليد بن عبيد البحتري ـ طبعه وعلق على حواشيه كمال مصطفى بيروت 1929.

10 ـ خزانة الادب ـ البغدادي ـ بولاق 1299 هـ.

11 ـ سمط اللالىء لابى عبيد البكري تحـ : عبد العزيز الميمنى طبع لجنة التأليف مصر 1936 م.

12 ـ الزاهر لابى بكر محمد بن القاسم الانباري تحـ : الدكتور حاتم الضامن وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد 1979.

13 ـ الشعر في حرب داحس والغبراء ـ عادل البياتى مط الاداب بالنجف 1972 م.

14 ـ الصحاح ـ الجوهري اسماعيل بن حماد تحـ : احمد عبد الغفور عطار ، القاهرة 1956.

15ـ الكتــاب لسيبويه ـ طبـع بـولاق 1306 ـ 1307 هـ.
16 ـ لســان العــرب ، ابن منظـور محمد بن مكرم. طبع بيــروت.
17 ـ المعمــرون والوصايا ابــو حاتم السجستانى تحـ : عبد المنعم عامر
طبـع البابــى ، مصــر 1961 م.
18 ـ المفصــل من تاريــخ العــرب. قبل الاســلام للدكتــور جــواد علي،
المجلــد الســادس طبــع بيــروت 1970 م.
19 ـ النوادر لابــى زيــد ـ طبــع المطبعــة الكاثوليكية ببيروت 1894 م.
20 ـ في الرواية العربيــة ـ عصر التجميع ـ تأليف فاروق خورشيــد ـ
طبع دار العودة ـ بيــروت ـ طبعة ثالثــة 1979.

الحارث بن ظالم المرى
الوافى الفاتك

حياته :

هو أبو ليلى ، الحارث بن ظالم بن يربوع، فتى بنى مرة وشاعرها (1) وجميع المصادر التى أوردت خبر الحارث، ذكرته اما لوفائه أو لفتكه. فقد عرفت فيه خلتان : الوفاء والفتك، وكانتا سببا في جر معظم المصائب والاحداث التى اعترضت مسار حياته، ثم قلبت هاتان الخلتان، الحياة في وجهه الى سلسلة محكمة الحلقات، من النضال الدامى، والقتال المستمر، دفاعا عن نفسه وقبيلته وعن الآخرين الذين استجاروا به. ثم كان الحارث نفسه سببا مباشرا في حروب ومعارك وغارات عنيفة بين عدد كبير من القبائل العربية كما ستكشف لنا هذه الدراسة بعد قليل. وهو مقاوم عنيد، لاشكال التدخل الرومانى والفارسى في البلاد، خلال العصر الجاهلى المتاخر او القريب من الاسلام.

ان المؤلفين القدماء يضربون في وفاء الحارث أمثلة متعددة. منها قصته مع المرأة ديهث المرية، التى استجارت به ضد الملك النعمان. وقصته نهوضه في نجدة جاراته، والقصتان واردتان في تضاعيف هذه الدراسة. وليس الحارث وحده معدودا في اوفياء العرب، وانما يخبرنا القدماء عن آخرين معروفين بين العرب بوفائهم، منهم السموأل الذي استودعه امرو القيس أدراعه، فوفى بها ولم يسلمها، وبسببها ذبحوا صغيره أمام ناظريه، وعوف بن محلم وابنته خماعه، والحارث بن عباد (2) وغيرهم.

---

(1) (الحادث بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ بن مرة) ومرة بطن من ذبيان القبيلة الغطفانية الكبيرة، وقد نبه ذكر غطفان فى الجاهلية منذ زمن متقدم، وقد أورد ابن الاثير فى الجزء الاول من الكامل حديثا عن تاريخ هذ القبيلة وطوافها فى الجزيرة. المستقصى من أمثال العرب للزمخشرى 266/1. وانظر النسب فى شرح الاعلام لشواهد سيبويه 103/1، وكذلك أنظر ص 46 من كتاب الامثال للمفضل الضبى.

(2) الفاخر ص 254 الميدانى 339/2. المستقصى 154/1 والحيوان للجاحظ 246/2.

وقد أورد المفضل الضبى في كتابه «امثال العرب» قصة طريفة، فيها تصوير دقيق لوفاء الحارث، وشجاعته النادرة، لم أجد الموضع مناسبا لتطويل البحث بها، فمن شاء فليرجع اليها (3).

واما الفتك، فهو في اللغة القتل، وهذا ما اتفقت عليه المعاجم القديمة. الا أن الخلاف واقع في تحديده كاصطلاح مستعمل في العصر الجاهلى. ففى «لسان العرب» مادة «فتك» ان الفتك ركوب ما هم من الامور، ودعت اليه النفس، والفاتك الجريء ورجل فاتك جريء. وقيدوه بأنه القتل أو الجرح مجاهرة. الا أن قسما من العلماء جعلوا القتل غرة (4) من الفتك، فقال أبو عبيد : الفتك إن يأتى الرجل صاحبه (5)، وهو غار (6)، حتى يشد عليه فيقتله ، وان لم يكن اعطاه امانا قبل ذلك، ولكن ينبغى له ان يعلمه ذلك (7). والعبارة الاخيرة المنصوص عليها، لا تعطى تعريفا محددا واضحا لمصطلح الفتك، واحسبها مضطربة ولكننى افهم منها، بعد مقارنتها بالنصوص الواردة بعدها، إن ابا عبيد يريد بها ان الرجل اذا أعطى امانا لاخر، فلا يحل له الفتك به، وهو امر يتبادر الى الذهن بالبداهة، فاذا امنه واراد الفتك به، فليعلمه بنيته لكى يكون على أهبة من امره. لذلك لا يعد فتكا ما فعله الملك النعمان بن المنذر بالحارث بن ظالم، حين أعطاه الامان ثم قتله، في رواية الكوفيين (8)، بل يعد غدرا.

ومما يؤكد كلام ابى عبيد ، بأن الفاتك يجب ان يعلم ضحيته، قول الحارث نفسه، عندما نوى الفتك بخالد بن جعفر العامري (9) :

تعلم أبيت اللعن انى فاتك ... من اليوم أو من بعده بابن جعفر

وقال ابو منصور في تحديد معنى الفتك : اصله، ما ذكر ابو عبيد، ثم جعلوا كل من هجم على الامور العظام فاتكا (10). وحدده الفراء بأنه

(3) الامثال للضبى، الصفحات 48، 49، 50. مطبعة الجوائب .
(4) اللسان (فتك).
(5) قال صاحبه ويريد ضحيته.
(6) غار : غافل.
(7) المصدر السابق.
(8) أنظر الاغانى 120/11.
(9) أنظر المقطوعة 6 من شعر الحارث فى آخر المقالة.
(10) اللسان (فتك).

القتل مجاهرة (11)، لذلك لا يعد من الفتك قول أبى عبيد ، بأن يأتى ضحيته ويقتله غارا أي غافلا. لانه هو نفسه انكر ذلك في آخر التعريف.

واما الغيلة فهى ان تخدع الضحية وتخرج بها الى موضع يخفى عليها فتقتلها.

وأورد اللسان، من معانى الفتك، اشتقاقا، هو المفاتكه، وعرفه بأنه مواقعه الشيء بشدة، كالاكل والشرب وغيره. ويؤيد ما ذهب اليه صاحب اللسان، الحادثة التى وقعت بين خالد بن جعفر وبين الحارث بن ظالم، في دعوة طعام جمعهما فيها الملك النعمان، وقد جعل الحارث يأكل طعامه بشدة، لدرجة دعت خالد بن جعفر ان يلفت نظر الملك اليه.

ومما تقدم ، تجمعت لنا للقتل ، في غير الحرب ، ثلاثة انواع : الفتك والغيله والغدر (12)، والنوعان الاخيران مذمومان عند العرب، وبالاخص النوع الاخير، واشرف انواع القتل عندهم الفتك، لان صاحبه لم يغدر بالضحية ولم ياخذها غيله، بل اعطاها العلامة قبل وقوع القتل. ولذلك افتخر العرب بفتاكهم وتناقلوا قصصهم واخبارهم. فاشتهر من الفتاك عمرو بن كلثوم الشاعر، وخبر فتكه بعمرو بن هند الملك، في دار ملكه بين الحيرة والفرات مشهور (13). والبراض بن قيس الكنانى، وكان خليعا، جاور حرب بن امية بمكة، ورحل الى العراق فجاور الملك النعمان بن المنذر، وفتك بعروة الرحال، الوارد ذكره بعد قليل عند مقتل خالد بن جعفر، ونهب لطيمة النعمان الى عكاظ، وبسببه ايضا هاجت حروب الفجار بين حي خندف وقيس . وتمثل به أحد شعراء الاسلام فقال (14) :

والفتى من تعرفته الليالى والفيافى كالحية النضناض
كل يوم له بصرف الليالى فتكة مثل فتكة البراض

ومن فتاك العرب، في الاسلام الجحاف بن حكيم السلمى، أهدر دمه الخليفة عبد الملك فهرب الى الروم، وبقى سبع سنين، ومات عبد

(11) المصدر نفسه.
(12) الفاخر ص 254.
(13) مجمع الامثال للميدانى 340/2 والمستقصى من أمثال العرب للزمخشرى 154/1.
(14) مجمع الامثال 35/2.

الملك وقام الوليد ابنه فاستؤمن للجحاف فأمنه ، فرجع. قال الاخطل يصف احدى وقعاته وفتكه (15).

لقد اوقع الجحاف بالبشر وقعة الى الله منها المشتكى والمعول (16)

هذا مع ان الاسلام قيد الفتك في حديث، ان رجلا أتى الزبير فقال : ال اقتل لك عليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ فقال افتك به. فقال الزبير : سمعت رسول الله (ص) يقول : «قيد الايمان الفتك. لا يفتك مؤمن» (17).

وانما عد القدماء الحارث بن ظالم فاتكا، لفتكه بخالد بن جعفر العامري، وبأمن الملك الاسود بن المنذر، وبابن السموأل عندما اتاه الحارث الى حصنه، وطلب منه ادراع أمريء القيس، وأبى السموأل تسليمها، فأمسك الحارث بغلام للسموأل كان خارج الحصن، في الصيد، وضربه بالسيف فقطعه تصفين. فقال السموأل (18) :

وفيت بأدرع الكندي اني اذا ما خان اقوام وفيت

وفي هذه الضربة قال جرير للفرزدق (19) :

بسيف ابى رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ولعل اكثر ما يميز هذا المحارب العنيد، والشاعر الفاتك، هو تصديه لاشد ملوك الجزيرة ضراوة وعنفا، ونريد بهم النعمان بن المنذر واخاه الاسود وكلاهما معروفان بولائهما للفرس، وخضوعهما المباشر الى كسرى، وغيره من ملوك ساسان ، وكذلك تصديه للغساسنة عند مجاورتهم، وهم ملوك في حماية دولة الروم الشرقية، كذلك هم حماتها.

وقد كانت الاطماع الفارسية والرومانية، اسفرت عن وجهها في الجزيرة العربية، وانطلقت لتلعب اخطر الادوار الدموية بين رجالات القبائل وملوك الجزيرة . فتؤلب بعضهم على البعض الاخر. وهذا هو السبب الحقيقى الذي يختفى وراء الحروب والايام المستمرة بين

---

(15) المصدر السابق وانظر ديوان مالك بن الريب ص 54 حيث أورد المحقق بأنه كان فاتكا.
(16) البشر موضع.
(17) الحديث فى مادة (فتك) من كتاب النهاية فى غريب الحديث.
(18) الاغانى 332/6، 120/9.
(19) النقائض لابى عبيدة 385/1، 413.

القبائل (20). بل سبب اتجاه العرب نحو كعبتهم ونحو مكة، وتشدد البدوي والحضري في وثنيته، وابتعاده عن كل دين غير الوثنية، ودخولهم في الاسلام، بعد أن لقى المسلمون على ايديهم عنتا كبيرا. هذه كلها تفسير لظاهرة الاطماع الاجنبية. وسوف ترى الحارث وغيره يلتجئون الى مكة.

ولذلك نحن نرى الحارث بن ظالم، في حربه ضد النعمان، يلجأ الى الغساسنة في الشام، عندما ضاقت عليه الارض العربية في الجزيرة. وهناك لقى مصرعه كما صرحت بعض الروايات (21). لانه في قرارة نفسه لم يكن جادا من مجاورتهم، ولا راضيا عن نفسه في ولائهم، فهو يمثل الوجه العربي الحر في شبه الجزيرة.

وازاء هذا العالم المضطرب، وهذه الاحداث الملتهبة، ينشأ شاعرنا، ملتمسا طريقه الى السيادة والمجد.

فمنذ سنوات طفولته الاولى، تفتحت عيناه ينظر الى الحياة بمنظار مظلم، وشب فوجد اليتم في انتظاره، فجعل يتجرع أنواع المرارات بين اهله وذويه، الى ان كبر على كره خصومه، وقاتلي والده ظالم بن غيظ المري الذبياني، سيد قبيلة مرة. وكان القتلة بنى عامر بن صعصعة، القبيلة المجاورة، حيث اغار خالد بن جعفر علي رهط الحارث، وهم في واد يقال له حراض، فقتل حتى اسرف (22)، فهلك ظالم في تلك الوقعة بسبب جراح اصابته يومئذ. فكانت النسوة في حي الحارث، لا يجدن رجلا يشد لهن عصاب الناقة ليحلبها، فيدعون الحارث – وهو صبي لم يدرك – فيشد لهن العصاب ويبكين رجالهن، ويبكى الحارث معهن ، فنشأ حاقدا موتورا. وكان الحارث كما وصفته المصادر التى أوردت خبر أشعاره وسيرته، من احسن الناس وجها وحديثا (23).

---

(20) انظر تاريخ الشعر العربى – البهبيتى ص 31.
(21) الاغانى 119/11 العقد الفريد 147/5 معجم البلدان لياقوت مادة (خربة).
(22) الاغانى 16/10 الكامل فى التاريخ 559/3 العقد الفريد 305/3 يوم بطن عاقل.
(23) المصادر السابقة والناخر ص 165 ومجموع الامثال 263/2.

واول شيء تلقنه الشاعر، هو الفتك، وكيف يصبح فاتكا، فقد احس من عنف الاحداث التى المت به، ان الحياة في الصحراء ليست مضمونة ، لان القاعدة التى تجلس عليها حياة البدوي، حادة وقلقة. فاستقر في اعماقه ان الفتك امضى سلاح يتخذه المرء في مثل ظروفه، لبلوغ غاياته من أعدائه الكثيرين . ويضاف الى التعليل المتقدم، سبب آخر ، هو ان اعتماد الحارث على الفتك دون الفروسية والحرب الجماعية، في ادراك الثار، له ما يبرره في حياته نفسه. فقد قتل ابوه ولم يدرك ثأره احد، ولم يقتل قاتله. بل كل ما فعلته غطفان انها بدات تتجهز لحرب العامريين، بينما العامريون قتلوا لقيس بن زهير أباه (24)، بعد ان كانوا قتلوا للحارث أباه من قبل. ولولا قتلهم لزهير بن جذيمة، لما تجهزوا لحربهم. فعرف الحارث ان الحرب مع غطفان ضد هوازن (25) لاتجدى، ولن تطفىء غليل النفس، وان المضى الى القاتل مباشرة اجدى لقبيلته، واشفى لنفسه.

والفروسية تتجلى قدراتها في الحروب الجماعية، والفتك صفة فردية. والحارث نشأ يتيما منعزلا، منطويا على نفسه، بسبب مقتل أبيه، وعدم ادراك ثاره. فكانت هذه الحالة الخاصة، من مبررات اتجاهه الى الفتك، مع أنه كان فارسا معلوما، ومحاربا شهدت له المواقع العديدة، وان كان ابو عبيدة قد اورد في النقائض انه اشترك في معركة رحرحان (26)، ولكن لم يؤثر عنه بلاء يذكر. وهذا الخبر الذي أورده ابو عبيدة، يقوي من حكمنا المتقدم عليه في سبب اتجاهه الى الفتك، ويضيف الى الاسباب المذكورة سببا آخر.

وكان أول درس في الفتك تعلمه على يد ابى الخريف «ويقال الغريف» وهو عبيد بن نشبه بن غيط بن مرة بن سعد بن ذبيان، عندما قدم عليه فقال له : علمنى الفتك. فقال له : اذا هممت فافعل. فأعادها عليه الحارث، فقال له : كذاك. ثم قال له الثالثة، فشد عليه بالسيف. فقال له الحارث : ما تصنع ؟ قال : هذا الفتك، هممت ان اضربك. وتعلل هذه الرواية ظاهرة أخرى من ظواهر تعلق الحارث بالفتك. اذ يبدو

(24) يوم النفراوات الاغانى 10/10 والعقد الفريد 558/1.
(25) هوزان هو الجد الاعلى وعامر من قبائل هوازن.
(26) النقائض 226/1.

لـى أن قبيلته معروفـة به، وان أبا الخريف أو الغريف هذا من بنـى مرة، وكان يعلـم الفتك فيها (27). ثم اصبح الحـارث بعده من مدربى شباب بنـى مـرة على الفتـك ، بعد ابـى الخريف (28).

وكان الحارث من وجوه الجزيـرة العربية المرموقين . بل هو أحـد عشـرة من وجهاء العرب، استدعاهم النعمـان بن المنذر بعد رجوعه من فـارس، وفي نفسه ما فيها، مما سمعه من كسرى، فالبسهم حلل الملوك وعممهم بعمائمها وأرسلهم ليمثلوا بين يدي كسرى في المدائن. ومثلوا، وتكلم الجميع فكان الملك بين راض عن بعضهم، ومنكر لاخرين، الى ان صـار الكلام الى الحارث فقام ثم قال (29) : ان افة المنطق الكذب، ومن لـؤم الاخلاق ، ومن خطل الراي خفة الملك المسلط، فان اعلمنا ان مواجهتنا لك عن ائتلاف، وانقيادنا لك عن تصاف، فما انت لقبوله ذلك منا بخليـق، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفـاء بالعهود، واحكام ولث العقود، والامر بيننا وبينك معتدل، ما لم يات من قبلك ميل او زلل. قـال كسرى: من انت ؟ قال : الحـارث بن ظالـم. قـال : ان في اسمـاء آبائك لدليلا على قلـة وفائك، وان تكون اولى بالغـدر، أو أقـرب من الوزر، قـال الحارث : ان في غضبة الملك السرو والتفاضل (30)، ولن يستوجب احد الحلـم الا في القـدرة، فلتشبه افعالك مجلسك. قال كسرى : هذا فتى القوم.

وكانت له عند الحصين بن الحمام الشاعر المري مكانة. وجـرت لـه مرة معه مشادة حادة، فقد قتل المثلم بن رياح رجلا في جوار الحارث يقال لـه حباشة فلحق المثلم بالحصين بن رياح، فبلغ ذلك الحارث، فأتـى الحصين، وطلب منه دم حباشة، فسأل الحصين قومه، وسأل بنى حميس جيرانه، فامتنعوا جميعـا، وقالـوا نحن لا نعقل بالابل، ولكن اذا شئـت اعطيناك الغنم، فتألـم الحصين من مقالتهم، ومن كفرهم بنعمته، لان بنى

---

(27) امالى اليزيدى ص 77.

(28) شروح سقط ازند ص 1686 (حيث أورد الشارح خبرا عن الحادث يعلم ابن اخيه الفتك ويدربه عليه).

(29) العقد الفريد 12/2 ونحن اذ نستشهد بالنصوص النثرية الجـاهلية ، لا نقطـع بكونها مروية حقا بنصها، لكن النص المزوى، على علاته، يخدمنا فى ايضاح الفكرة أو استخلاص التاريخ الموجود فيه.

(30) السـرو، المروءة والشرف.

حميس كانوا في ارض الحصين وهو متفضل عليهم، وحارب قومه من اجلهم، فقال في ذلك شعرا أوله :

خليلي لا تستعجلا أن تزودا — وان تجمعا شملي وتنتظرا غدا

والابيات والخبر في الاغاني (31).

وهو أحد وجوه بني مرة، استغاث بهم اجو الجذامي، ليشفعوا له عند قيس بن عاصم المنقري، ليفك اسر اخيه، وكان استغاث بسنان بن ابي حارثة والحارث بن عوف (ممدوحي زهير بن ابي سلمى) وهاشم بن حرملة (قاتل معاوية بن عمرو أخي الخنساء الشاعرة، ومراثيها فيه مشتهرة) وبالحارث بن ظالم.

وعندما اسرته عنزة، وهم حي من ربيعة ينتمي الى نزار بن معد بن عدنان مرت به امرأة منهم فقالت (32) : احتفظوا بأسيركم فانه ملك وخدن ملك، وقدمت الدليل على ذلك من علامات ظاهرة عليه، كانوا يعرفونها، فصدقوا كلامها. وان تضاعيف قصة حياته، تكثر فيها الاشارات الى شرف محتده ونبل اصله. ويكفي ان نشير الى قول ابن ميادة الشاعر، وكان ابوه من اولاد ظالم المري ابن الحارث، حيث يقول :

سقتني سقاة المجد من آل ظالم — بأرشية اطرافها في الكواكب (33)

وبعد ان اشتد عوده واكتمل، شاءت ظروف غطفان، ان تمهد للحارث سبل السيادة والملك. وذلك عندما احتدم الصراع بين العامريين وبين الغطفانيين وبلغ الذروة، فقتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة، كبير غطفان وسيد معد كلها، قتله لينقذ هوازن من ظلمه، فقد كانت هوازن تدفع أتاوة سنوية لزهير، وعامر قبيلة من هوازن، وكان زهير أكثر من اذلالهم واهانتهم (34).

---

(31) الاغانى 14(9 — 10.

(32) عيون الاخبار 96/4.

(33) الشعر والشعراء ابن قتيبة ص 655 وانظر قوله فى بيتين آخرين من طبقات ابن المعتز ص 107.

أنا ابن أبى سلمى وجدى ظالم — وأمى حصان أخاصتها الاعاجم

أليس غلام بين كسرى وظالم — بأكرم من نيطت عليه التمائم

(34) أنظر المصادر الواردة فى الهامش رقم 24.

فلما قتل خالد زهيرا، آلت الرئاسة الى الحارث بن ظالم، وهو فتى في حداثة سنه، فنشط لحرب العامريين ليدرك ثارين : ثار والده المقتول منذ أعوام، وثأر زهير العبسي المقتول حديثا، لان مرة وعبسا حيان في غطفان.

واتصل الحارث بأكبر ولد زهير، وهو قيس بن زهير، فوجده غير جاد في ثأره واعتذر بأنه يتأهب لحرب داحس، ويتجهز لها بشراء السلاح من مكة (35).

وعجم الشتاء (36)، ولم يصبر الحارث، فترك قومه قائلا لهم : انتم ادرى بحربكم مع العامريين، اما أنا فذاهب لاقتل خالد بن جعفر. فقيل له : لن تصل يدك اليه، فهو في حماية الملك النعمان. فقال : اقتله ولو كان في حجر الملك. وهذه شهامة الفاتك اذ أعطى الانذار.

وكان خالد بن جعفر، بعد ان قتل زهيرا، ضاقت به الارض، فأشارت عليه قبيلته ان يفارقها ويلحق بالنعمان، ويطلب حمايته، فهو اسلم له من بطش الغطفانيين (37).

وهنا تبرز لى مسألة غاية في الغموض، نحاول اجلاءها وهى التجاء خالد الى النعمان من يد الغطفانيين. الامر الذي ينتهي بنا الى وقوع احتماليين قويين ، لعل تعليلهما يفسر سبب هذا الالتجاء، الاول، اما ان يكون الغطفانيون ضعيفي الولاء للنعمان، وبالتالى للفرس، أو انهم كانوا في هذه الاثناء حلفاء للغساسنة. والثانى، انهم كانوا غير متفقين، والوحدة بين احيائهم وبطونهم مفقودة. وأنا الى الافتراض الثاني اميل. لان احداث التاريخ ترد الافتراض الاول وتحدثنا عن علاقة حسنة بين العبسيين والنعمان سوف تثمر نتائجها في قادم الايام، عندما عزم النعمان على حرب كسرى والخروج من طاعته (38)، وهى مقدمات حرب ذي قار الكبرى. هذا من جهة عبس، وأما بالنسبة لذبيان،

---

(35) كامل في التاريخ لابن الاثير 340/1

(36) انظر الفاخر ص 165.

(37) اغاني 95/11 والعقد الفريد 559/1 وابن الاثير، الكامل في التاريخ 560/1

(38) انظر أيام العرب اجاد المولى وجماعته 281/1 و 294 وانظر أبيات زهير بن أبي سلمى في مدح عبس ديوانه 290.

فانهـا غالبـا ما كانـت تتعرض لغـارات الغساسنة فتمتلىء يـد الملـك الغسانـى بأسـرى ذبيـان وغنائمهـا (39).

وسبب اخر يقوي ترجيحنا للافتراض الثاني في انعدام الشعور بوحدة القبائل الغطفانية، هى هذه التفرقة بين الرؤساء انفسهم، فالحرب كانت سجالا بين المريين والذبيانيين (40)، وبين العبسيين والفزاريين، وبين العبسيين انفسهـم، بين بنى جذيمـه وبين بنى زيـاد (41). ولولا هذه التمزقـات الداخليـة في جسـم القبيلـه ، لحدمت غطفان الجزيرة كلها، بما تملكـه من امكانية بشريـة وطبيعيـة (42).

وازاء هذا التمزق ، نشط الحارث بن ظالم للثار وحـده، فتوجه الى الحيرة، فوجـد خالد بن جعفر لـدى الملك، مرحب به الملك. وكان خالـد قد اهدى النعمـان فرسـا من خيل بنـى عامر يعـد ان امتدحها، فاهـداء الحـارث فرسـا من خيل بنـى مـرة، وقـال للملك، انـى كنت ارتبطتهـا لغـزو بنى عامـر، لكننى وجدتهم عزيزين لديـك فصفحت عن ذلك وهو بهـذا يعرض بخالـد ويلمـح له بقتلـه (43).

وفي احدى اجتماعاتهم بالنعمان، دار بين خالد والحارث حوار عنيـف، كان في خاتمتـه ان قال خالـد للملك : ابيت اللعن، لى عند هذا يد عظيمـه، قتلت زهيرا سيد غطفان، وصار بعد قتله سيدها. فغضب الحارث وقـال : أنت قتلته ؟ قال نعم. قال الحارث : سأجزيك على يـدك عندي.

وخـرج الحارث مغضبا، فلما امسـوا اجتمعوا عند قينة من اهل الحيرة يقال لها بنت عفرز، يشربون ، فقال خالد للقينة غنى لنا :

دارٌ لهند والربـاب وفرتنـا ولميس قبـل حوادث الايـام

وهند والرباب وفرتنا ولميس نسوة من عبس ، وقيل من خـالات الحارث بن ظالم، ونحن نرجح القول الاول، لان البيت وارد في شعـر

(39) أنظر تاريخ الادب فى العصر الجاهلى لشوقى ضيف ص 261 وانظر ديوان النابغة ص 178 يتشفع لبنى ذبيان لدى الغساسنة وانظر أيضا كتاب الحيوان للجاحظ 470/4 حيث أورد قصيدة الحصين بن الحمام فى وصف هذه الحروب.

(40) المفضليات ص 100 — 121.

(41) الكامل فى التاريخ 344/1.

(42) أنظر حياة الشماخ بن ضرار الذبيانى لصلاح الدين الهادى ص 54 ومابعدهـا وأنظر حديثه عن طبيعة غطفـان.

(43) الاغانى 95/11 وفى الخبر اضطراب يحتاج الى تحقيق علمى جيد.

امريء القيس (44)، وهو موجود في ديوانه، فلا يعقل ان تكون خالات الحارث ادركن امرأ القيس، والحارث متأخر عنه. هذا الى جانب ان هذه القصة وردت في النقائض بين قيس بن زهير وبين حذيفة بن بدر (45). ولما سمع الحارث الغناء حنق على خالد وامتلا غيظا فقال له : ما تزال تتبع أولى بأخرة.

وكان مع خالد ابن اخيه عروة الرحال، وابن اخته عبد الله بن جعدة، فحذراه من فتك الحارث، وحذره الملك ايضا فلم يحفل بكلامهم، مع ان عبد الله بن جعدة كان رجل قيس رايا (46).

ولما اظلم الليل، اقبل الحارث حتى انتهى الى ابن جعدة وعروة، فتعداهما ثم توجه الى قبة خالد، فهتك شرجها، ومضى الى الحارس، وكان خالد قد وضع رجلا ليحرسه فعجنه الحارث بكلكله حتى كسره، وجعل يكلمه فلا يعقل، ثم خلى عنه لما عرف انه ليس بخالد. فلما وصل الى خالد ايقظه. فلما استيقظ قال له : أتعرفني ؟ قال : أنت الحارث . قال خذ جزاء يدك عندي، وضربه بسيفه المعلوب، ويدعى ذو الحيات ايضا، فقتله. ثم خرج من القبة، وركب راحلته وسار. وانتبه عروة وهو يصيح : واجوار الملك، فبث الملك الجند في طلب الحارث. ومن طريف ما يروي في هذه المناسبة، ان الحارث خاف ان يكون لم يقتله، رجع الى الحارث متنكرا، واختلط بالناس، فدخل عليه ونخسه بالسيف حتى تيقن انه مقتول، فعاد ولحق بقومه (47).

ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حياة الحارث، وتبدا رحلاته وأسفاره في أطراف الجزيرة ووسطها، الى ان يستقر في مثواه الاخير.

وبعد ان قتل الحارث خالد بن جعفر ، عاد الى قومه، فلم يلمس فيهم ما يحمسه على المكوث بين ظهرانيهم، فلم يكونوا ليطيقوا قتال الملك النعمان، فعزم على مغادرتهم الى بني دارم، فلجأ الى بني

(44) ديوانه 140.
(45) النقائض لابى عبيدة 85/1 . وانظر كتابنا الشعر فى حرب داحس والغبراء ص 95.
(46) الاغانى 97/11.
(47) المصدر السابق.

ضمرة منهم (48). فسمع بتحوله عن قومه قيس بن زهير العبسى، فأسف لذلك اشد الاسف، لانه كان يتأهب لحرب عامر، وهجم الشتاء فأرجأ حربه الى ما بعد انقضائه كما تقدم قبل قليل.

قال قيس بن زهير في خروج الحارث من غطفان (49) :

جزاك الله خيرا من خليل ... شفى من ذي تبولته الخليلا
ازحت بها جوى ودخيل نفس ... تمخخ أعظمى زمنا طويلا
كسوت الجعفري أبا جزيء ... ولم تحفل به سيفا صقيلا
أبأت به زهير بنى بغيض ... وكنت لمثلها ولها حمولا
كشفت له القناع وكنت ممن ... يجلى العار والامر الجليلا

فلما بلغت الابيات الحارث اجابه بأبيات يفضح بها خذلانهم له (50).

وغزا الاحوص أخو خالد دارما لما علم بوجود الحارث بين ظهرانيهم، فاضطر الحارث على الخروج، وتوجه الى تميم فلما وقعت عامر على خبر وفوده على حاجب بن زراره التميمى، والتجائه اليه، سارت اليه بعليا هوازن، فنشبت حرب «النسار» وأسر معبد أخو حاجب، وارسله العامريون الى رجل بالطائف، كان يعذب الاسرى فقطعه اربا اربا حتى قتله (51). فقال حاجب للحارث : تنح عنا غير ملوم. فتنحى عنهم ولحق بعروض اليمامة.

خرج الحارث من التميميين، وجعل يطوف في البلاد، حتى سقط في ناحية من بلاد ربيعة. ومرة، وبينما هو في طوافه، وضع سلاحه، وكان في

---

(48) الفاخر للمفضل بن سلمة ص 166 والكامل لابن الاثير 337/1 طبعة بولاق. وفى ذلك يقول ضمرة بن ضمرة :

ولن أذكر النعمان الا بصالح ... فان له فضلا علينا وأنعما
سنمنع جارا عائذا فى بيوتكم ... بأسيافنا حتى يؤوب مسلما

ووالبيت الاخير نسبه محقق ديوان عدى بن زيد الاستاذ محمد جبار المعيبد ص 166 الى عدى استنادا الى تفسير الطبرسى مع اختلاف فى رواية عجز البيت «فان له عندى يديا وانعما» ولم ينظر المحقق الفاضل هذه الابيات فى الاغانى 113/11 — 114.

(49) الاغانى 98/11.

(50) أنظر القطعة 9 من شعر الخارث فى آخر هذا المبحث.

(51) الاغانى 90/11 يوم رحرحان فى النقائض 226/1 ومعجم البلدان (رحرحان) والعقد الفريد والكامل فى التاريخ.

فلاة ليس فيها أثـر، ونام، فمـر به نفـر من بني قيس بن ثعلبـة وقوم من بني هزان من عنزة وهو نائـم. فاخذوا سلاحه وفرسه، ثم أوثقوه، فانتبـه وقد شـدوه، فلا يملك من نفسه شيئا. فسألوه من أنت ؟ فلـم يخبرهم، وطوى عنهم خبره. فضربوه ليقتلوه أو ليخبرهم من هو، فلـم يفعل. فاشتراه القيسيون من الهزانيين بزق خمر وشاة. وانطلقوا به الى بلادهم، وهناك عاودوا الضرب معه، وكـاد يدركه المـوت، فلم ينطـق بحرف ، فلمـا ملوا تركوه في وثاقه ، فانفلت ليلا فتوجه نحو اليمامـة. وكان قريبـا منها، فلقى غلمة يلعبون، وبينهم غلام تلوح عليه علامـات الخير والرفاه، فلما عرف الحارث انه ابن بجير العجلى أتاه ولاذ بحقويه (52)، والتزمـه وقـال لـه : أنا لـك جار . فأتـى الغلام أبـاه وأخبـره، فأجاره، وقـال لابنه : ائـت عمك قتـادة (53) واخبـره، فاتى قتادة فأخبـره، فأجـاره ، وكانـوا قوما ذوي عـز وحصون.

وظل القيسيون يطلبونه، وهو في الحصن، فابى قتادة ان يسلمـه، وخيرهم بين امريـن ، ان شاءوا دفع اليهم ثمنـه الذي اشتروه بـه، او ان يعطيه سلاحا كاملا ويحمله على فـرس ويدعه يقطع الوادي حتي يبتعد. ومن ثم شأنه وشانهم. فوافقوا . ويبدو انه اتفـق مع الحارث على تدبير هذه المسألة ، بعد ان بالغ القيسيون في المطالبه به. فالبسه عدة وسلاحـا وحمله على فرس، وقـال له : ان افلتهم فـرد الى الفرس، وخذ السلاح وجاز الوادي ، فلم يـزل يقاتنهم، ويطاردهم، حتى ورد بلاد قشير.

وعرفه القشيريون ، فانطووا عليه واكرمـوه. ورد الى قتـادة فرسه، ومعها مائة من الابـل ، قال ابـو عبيـدة : لا ادري هل وفرها من مالـه أم اعطـاه ايـاه القشيريون (54). وكان كلما نـزل في قبيلة مدحها، وشكـر لهـا اكرامها، وواضح ذلك في شعـره.

وسار الساعـون بين الحارث وبين الملك النعمان فصالحه وأمنه. وعاد الى حياته الاولى بين قومـه الى ان وقعت حادثـة المرأة ديهث (55)، وهي من مرة قبيلـة الحارث، آخذ مصدق الملك أبلها، فاستجارت بالحارث قائلة

---

(52) أغاني 115/11.
(53) اغاني 115/11.
(54) اغاني 116/11.
(55) اغاني 105/11 والمحبر ص 168 وبلوغ الارب للنويري 1331.

«يـــا أبا ليلـــى، اتيتك مضافة» (56) فوغد على النعمان في أمرها، وجعـل ينتزع ابلها من يـد رعاته واحدا واحدا، والملك في اشـد حالات الغضب. وفي ذلـك قـال الفـرزق (57) :

كما كان أوفى اذ ينادي ابن ديهث، وصرمته كالمغنـــم المتنهـب
فقـام ابــو ليلى اليــه ابن ظالم وكان متى ما يسلل السيف يضرب

وتوارى الحارث مرة اخرى من انظـار النعمان . وخرج هاربا الـــى صديـق لـه من كنـده، فالح الاسـود بن المنذر اخـو النعمان في طلبه، وبعث في اثــره كتيبته «الملحـاء» (59) تطبه في ارجــاء الجزيرة، فقال له الكنـدي : ما ارى لك نجـاة الا ان الحقت بحضرموت في بلاد اليمن، فلا يوصـل اليك.

وانقطـع ببلاد اليمن واغترب بها زمانا، فاضمرته البـلاد (58).

وتعود الينا اخبار الحارث مـره اخرى فـاذا هو في ارض بكر بن وائـل، لاجئا الى بنى عجل بن لجيم فنزل على زبـان، فاجـاره، وضرب عليـه قبـه، فقال العجلى في ذلـك (60) :

ونحن منعنا بالرماح ابن ظالم فظـل يغني آمنا في خبائنـــا

وظل عندهم، الى ان جاءت بنـــو ذهل بن ثعلبـــة، وبنو عمرو بـــن شيبان ، وطلبـــوا من عجل أن يخرجوا الحارث من بين اظهرهم، لانهـــم لاطاقـة لهم بالملحـاء فأبت عجل ، وقاتلت دونـه . وقال الحارث : لقـد اشتهـر امري فيكم، وانـــا راحل عنكم. وكان الاسود قد اكثــر من غــزو العجليين بسببه. فلحـق بقبيلة طى الساكنـــة بين جبلـــى أجا وسلمى.

ومكــث في طى زمانـــا الى ان اهتـــدى الاســـود الى وسيلـــة يغيظ بها الحـــارث، فقد قيل له : انك لن تنـــال منه أغيظ من اخذك جارات له من بلـــى بن عمرو، يجيرهن ويحميهن. فبعث الاسود، فأخذهن واستاق اموالهن

(56) أى لاجئة. وانظر الخبر فى أمثال العرب للمفضل الضبى ص 46 حيث نسب الحادثة لابن المرأة المذكورة، وهو عياض بن ديهث، وقد جاءت أبيات الفرزدق مصداقا له.
(57) أغانى 105/11 والدرر الفاخرة لحمزة الاصفهانى ورقة 125 (مخطوطة).
(58) اغانى 106/11.
(59) العقد الفريد 147/5.
(60) اغانى 116/11.

وقتل صبيتهن، فلما سمع الحارث خرج من بين الجبلين ، وانساب في غمار الناس، حتى عرف موضع جاراته ومرعى ابلهن. فاستاق الابل وسار مع جاراته حتى انقذهن. ثم اندس مرة اخرى حتى اتى سنان بن أبى حارثة المري، فاستعار منه سرج فرسه، وكان سنان متزوجا من سلمى بنت ظالم أخت الحارث ، وكانت تربى ابن الملك النعمان (61)، فعرض عليها سرج سنان، وقال لها : يقول بعلك ابعثى ابن الملك حتى استأمن به للحارث عند ابيه، وهذا السرج آيه ذلك. فزينته ودفعته اليه، فانتحى به ناحية الشربة وقتله، ليفجع به أباه ويغيظه، كما فعل هو بجاراته وبالصبية (62).

فلما قتل الحارث ابن الملك، وكان يدعى شرحبيل، طالب الملك عمه (63) وسنانا وآخرين به، فاعتذروا بانهم كانوا اخرجوا الحارث من غطفان ولم ينصروه. فغزا الاسود بنى ذبيان واسد، وقتل فيهم قتلا ذريعا، واستاق اموالهم، وسبى نساءهم، واشهر وقعة أوقعها بهم هى المعروفة ، بشطى أريك . قال اعشى ميمون (64) :

وشيوخ صرعى بشطى «أريك» ونساء كأنهن السعالى

وعثر الاسود على نعل ابنه شرحبيل عند بنى محارب ، فأحمي لهم الصفا التى بصحراء اضاخ ، موطنهم، وقال لهم : انى أحذيكم نعالا. فأمشاهم على الصفا المحمي ، فتساقط لحم اقدامهم . ففى ذلك يقول جوشن الكندي في الاسلام ، وكان قتل رجلا من بنى محارب فأقيد به في المدينة :

على عهد كسرى نعلتكم ملوكنا صفا من اضاخ حاميا يتلهب

وقال آخر ، وقد سرقوا سهاما له :

بنى الثوس ردوا اسهمى ان اسهمى كنعل شرحبيل التى في محارب

(61) اغانى 108/11 ونهاية الارب للنويرى ص 354.
(62) المصدر السابق. والشربة موضع. وفى ذلك يقول الحارث :
فان تك اذواد أصبن وصبية فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم
أنظر الابيات فى القطعة رقم 2 من شعره.
(63) أنظر الاغانى 102/11 وقصيدة عم الحارث فى هذه الحادثة.
(64) اغانى 109/11.

وقـال احـدهم في الجاهليـة :

ومولاك الذي قتـل ابـن سلمى   علانيه، شرحبيل بن نعل (65)

وقـد أوحت هذه الحادثة لعدد من الشعراء، ووردت في شعرٍ كثير.

وأخذ الاسود جماعة من اسد ، لما علم انهم عاونوه على الهرب، الا انـه عاد فاطلقهم لما علم ان الحارث يهجوهم. وكان الحارث قد أوهمـه بهـذا الهجـاء ليخلى عنهم.

والحقيقـة ان الاسود لم يكف عن الحارث اذ بعد ان علم ان الحـارث سيفتك به، وبلغه قوله فيه (66) او في اخيه الملك النعمـان نفسه :

بدات بهـذى ثـم اثنـى بهـذه   وثالثـه تبيض منها المقادم

يقـول لـه : بدات بقتل ابنك ، وسافتك بك في المرة الثانيه . واما الثالثـة فيبيـض لهـا مقـدم الرأس.

ولحق الحارث بمكـه (67)، وانتمى الى قريش ومدحهم. والقريشيون يحبون المريين ، وكان عمر بن الخطاب (رض) يقول : «لو كنت مدعيـا احـدا من العرب لادعيـت بنى مرة» لنسـب قديم بين القبيلتيـن يذكره الـرواة والنسابـون في كتبهم (68).

ثم تحـول عن جوارهم، بعد ان بلغـه مالا يرضاه منهم. فلم يبـق لـه بعدهم ملاذ يلـوذ به غير الشـام والغساسنه، لان قبائل الشمـال صارت تتحرج من ضمه اليهـا، فلم يعـد يطمع الى واحـدة منها، فدخل في حلف الغساسنة حماةالامبراطوريـة الرومانية الشرقية في الشـام، فأجاره يزيـد بن عمـرو الغسانـى (69).

---

(65) المصـدر السابق .

(66) المفضليات ص 615 وانظر القطعة 2 من شعره.

(67) كانت مكة مطمح كل عربى يقاوم التدخل الاجنبى. وقبل الحارث لجأ اليها سويد، أحد بنى عبد الله بن دارم لدى قتله ابـن الملـك عمرو ابن المنذر اللخمى. فهم الذين بمكة من بنى دارم حلفاء لقريش. «النقائض لابى عبيدة 651/2».

(68) المفضليات ص 618 وذكر الشـارح خبر النسب بين بنى مـرة وبين لؤى بن غـالب، وينفـى النسـابون ان يكون قوم الحارث من بنى بغيض ويؤيد ذلك قوله «سفهنا باتبع بنى بغيض.. البيت» ويوردون قصة التبنى لجد الحارث فى فزارة.

(69) اغانى 118/11 وانظر العقد الفريد 147/5 وذكر ان مقتله بالشام فى موضع يقال له الخربـة ومعجـم البلـدان، ياقوت مادة (خربة).

وكان في أول امره عندهم معززا مكرما الى ان قتل الخمس التغلبى. فذاق الاذى والسجن ثم القتل، في خبر طريف نسوقه ، مستخلصين منه التاريخ لا الحادثة ، وملخصه، ان الملك الغسانى تعود ان يترك احدى نوقه على رسلها بين الناس دون ان يحرسها أحد، وقد علق في عنقها مدية وزنادا وصرة ملح. والملك يقصد من هذا ان يختبر قومه، ويعرف مدى خضوعهم وطاعتهم لملكه. وصادف ان وحمت احدى امرأتي الحارث في سنة شديدة، وطلبت الشحم، والدت في الطلب، فاضطر محرجا على ان يأخذ ناقة الملك، ودخل بها واديا بين جبلين، ونحرها وأخذ الشحم، وطلبت الناقة فعثر عليها منحورة، وقد أخذ منها السنام وتركت. فأشار الملك على كاهن يدعى الخمس التغلبى ان يكتشف له الفاعل، فذكر الخمس الحارث بن ظالم. فتذمم الملك وكذب عنه ورد التهمة. وبعد زمن، دسوا للحارث من يتسقط خبر الناقة، فقتل الحارث الشخص الذي وقع على الخبر عن طريق امرأة جاسوسة. فأخبر الخمس الملك بمقتل الشخص، فنهض الحارث الى الخمس التغلبى وقتله.

ومكث الحارث في سجون الغساسنة زمنا، لقى فيه العذاب، حتى انهم كانوا يحرمون عليه الماء. فمن ذلك قوله لسجين معه كان يقدم له الطعام والشراب (70).

لقد قال لى عند المجاهد صاحبى	وقد حيل دون العيش هل انت شارب
وددت بأطراف البنان لو اننى	بذى ارونا ترمى ورائى الثعالب

ثم اقتيد الى مجلس الملك فقال الملك للحضور : من كان له عند هذا ثأر فليقتله، فقام اليه ابن الخمس التغلبى، وكان حاضرا. فقال له الحارث : اتقتلنى يا ابن شر الاظماء. قال ابن الخمس : اقتلك يا ابن شر الاسماء. فقتله وأخذ سيفه المعلوب ، وهو ذو الحيات ، فأتى به سوق عكاظ، وجعل يعرضه على البيع ويقول : هذا سيف الحارث بن ظالم، فاستراه أياه (أي طلب أن يراه) قيس بن زهير، فأراه أياه، فعلاه به حتى قتله بالحارث بن ظالم في الحرم، وقال قيس يرثى الحارث **(71)** :

(70) المصدر السابق (اغانى). وأرونا موضع. والثعالب بنو ثعلبة، كانوا مشهورين برمى السهام. يقول ليتنى هناك، بذل وجودى هنا، عند الغساسنة، تدافع عنى بنو ثعلبة، وتدفع **أعدائى.**

(71) اغانى 119/11 والعقد الفريد 150/5.

وما قصرت من حاضن ستر بيتها ... أبر وأوفى منك حار بن ظالم
اعز وأحمى عند جار وذمة ... واضرب في كاب من النقع قاتم

ورثاه ايضا رجل من ضرى، وهم حى من جرهم، فقال (72) :

يا حار حنيا ... حرا قطاميا
ما كنت ترعيا ... في البيت ضجعيا
ادعى لباخيا ... محلأ عيا

هذه رواية ابى عبيدة والبصريين في مقتله (73). لكننا وجدنا في كتاب النقائض (74)، رواية أخرى منسوبة لابى عبيدة في مقتل الخمس على يد قيس بن زهير، حيث يذكر ان العبسيين في حربهم الطويلة ضد الذبيانيين ، ارادوا ان يدخلوا في حلف مع التغلبيين، فأرسلوا وفدا لمفاوضتهم، فجعلوا ينتسبون ، الى ان وقف أحدهم، ليعرف بهويته أمام العبسيين فقال : أنا ابن الخمس التغلبى، فقام اليه قيس بن زهير وقال له : ان زمانا تجيرنا أنت فيه لزمان سوء ، والله لانت أحقر من قراد تحت منسم بعيري. ثم دار نفس الحوار الذي ذكره البصريون بينهما وقتله. ولا اعلم سببا لهذا الاضطراب، ولعله توهم وقع به صاحب كتاب الاغانى.

وأما الكوفيون ، فهم يعتقدون ان النعمان بن المنذر هو الذي قتله. ورواية الكوفيين مستقاة من على بن سليمان بن الاخفش، عن محمد بن حبيب، عن ابن الاعرابى عن المفضل الضبى (75). واجمالها، ان النعمان، بعد أن هرب الحارث الى مكة، أسف على ذلك، فلطف له وراسله، الامان، واشهد على نفسه وجوه العرب «ربيعة ومضر واليمن» واسكنه مع جماعة، وأمرهم ان يتكفلوا له بالوفاء، ويضمنوا عن النعمان، ان لا يهم الحارث أحد ولا يزعجه . ففعلوا.

---

(72) أغانى 119/11.
(73) أغانى 118/11 والعقد الفريد 147/5.
(74) 103/1.
(75) هذه رواية الاغانى 120/11 والذى فى الامثال للضبى ص 47 أن الحارث قدم الحيرة بعد زمن طويل من هذه المسألة، فألقى القبض عليه، واقتيد الى عاصمة النعمان، فأمر به ابن الخمس فضرب عنقه.

ومرة، كان النعمان في قصر بني مقاتل، فأتـاه الحارث وقال للحارس: استأذن لي عند النعمان. فقال النعمان للحارس : ائذن له وخذ سلاحه فعاد الحارس الى الحارث وقال له : ضـع سيفك وادخل. قال الحارث : ولـم اضعه. قال : ضعه لا بأس عليك. فوضعه ودخل، فوجد عنده ابن الخمس التغلبي، فجرى بينهما نفس الحوار أيضـا كالذي سبق في روايـة البصريين، بأن قال الملك للحاضرين من كان له عند هذا ثـأر فليقتله فهجم عليـه ابن الخمس وقتله، وكان ذلك في موضع يقال له الخربـة (76)، ولعـل قصـر بنـى مقاتـل كان هنـاك أيضـا.

واذن فالمصادر متفقـة على ان قاتلـه ابن الخمس، قتله بابيه، وان قاتـل ابن الخمس هو قيـس بن زهير، قتله بالحارث. والخلاف واقـع حول الـذي أمـر بقتله. أهو الملـك الغسانى ام الملك المنذري. البصريـــون يسندون القتل الى الغساسنـة، والكوفيون يسندونه الى المناذرة. وليس من السهولة التكهن بما تخفيه اختلافات الروايـات والاقوال. لان الاهواء والمشارب متنوعة، واذا اختلطت الحقيقة علينا، فهى لن تضيع، لان جـزءا منها يبقى طافيـا على السطح. ونحن نتلمس طريقة وسط الظـلام، مهتدين ببصيـص نـور.

وننتهـى بذلك من موجز سيرة الحارث بن ظالم، الذي شغل الجزيرة العربية فترة حياته، وبعدها. وكان سببا في حروب عديدة : يوم رحرحـان عندما اجارته تميم، وجـر هذا اليوم يوم شعب جبلة. ويوم النسار، يوم منعت فيه ضبة الحارث (77) من الملك ويوم شطى اريك عندما غزا الاسود بنى اسـد بسبب تسترهم عليه، ومعاونته على الهـرب.

ونكتفى ايضا بهذا الموجز ولن نطمـع الى مزيد، لكى نوسـع للشعر وتحقيقـه.

شعـــره :

ان من دوافع اقدامى على هذا الشاعر ، وورود شعــره وخبـره في المفضليات، والمفضل الضبى لا يحفل بشاعر الا اذا كان من المجيدين، وان

---

(76) العقد الفريد 147/5.
(77) النقـائض 790/2.

كان مقلا. ولقد رأيت شعـره وخبره مفرقـا في الكتب، ولم تمتـد اليه يد، فرأيت ان افعـل صنيعـا، ولو يسيرا، فاعرف ابنـاء هذه الامة باحـد شعرائهـا وفرسانها، في صورة متكاملـة او شبه متكاملة، الى ان يتيسر لنـا في قـادم الايـام جديد. وفي اعتقادي، ان لكـل شاعر عربى قديـم او متأخـر حقـا علينا في ان نعلـى ذكـره ونظهـر اسمه، ونعرفه على ابنـاء قومـه. وقد آن لكثيـر من الشعراء والادباء ورجـال الفكـر ان ينهضـوا من رقدتهم الطويلة بيـن الكتـب القديمة، على يـد أرباب البحث والدراسة.

ومـع انى، بعد التقصى والتنقيب، اصبت بقسط من خيبة الامل، اذ لم احصـل على بغيتـى كما املـت، لكننى لست بآسف على ذلك ولا مبتئـس، وسوف احاول ان اعقـد دراسـة ولو قصيـرة لشعره، من خلال النصوص التى توفـرت لـدى.

يمدنـا شعـر الحـارث بن ظالـم، ببعض اضـواء انبعثت من ظلمات حياتـه التى اكتنفـت جوانب عصره، ففيه قصة حب مـع فتاة تدعـى سلمـى، وهى من بنـى عامـر، القبيلـة العـدوة، فهى اشبـه بقصـص المتأخريـن من العـرب أو غيرهم، عندما يجمـع الحب بين قلبين ويتحابان. وقومهمـا أو عائلتاهمـا عدوتـان تتقاتلان. ومع ان الـرواة لم يـوردوا خبـر هذا الحـب في سيـرة حياته، الا ان الحارث يتحـدث عنه بشكـل ظاهـر وواضح في قصيدتـه (78) :

نأت سلمى وأمست في عـدو   تحث اليهم القلص الصعابا

فحديثه عنها حديث مشوق مشوب بألم، ويعزو سبب فرقتهما الـى سيفه الذي لم يفصل رأس خالـد بن جعفـر عن جسده فحسب، بل قطـع ايضـا وصل سلمى به فلـم يعد يراهـا بعد حادثـة الثأر. فانظـر الـى اي مدى يتغلل الثأر في دمـاء العربى، لقد ضحى بحبه من أجل ثـأر قديم لابيه، وثـأر جديد لرجل لا يمـت اليـه الا عن طريـق غطفان، جدهـم الاقدم، مع أن أولاد المقتـول يتجهزون لثأر أبيهـم.

وفي شعره إشارة الى أنـه أحـبـهـا، عـنـدمـا كان أهلـه قريبين من أهله، تحت تأثير عامـل التنقل، حيث استوطن أهل سلمـى موضعا يدعى

(78) المفضليات ص 615.

«روض بيشــة» و «الربــاب» واستوطـن اهل الحــارث موضعا يقــال له «النعـف» .

وحل النعف من قنويـن اهلـى   وحلت روض بيشــة فالربابا

وعلى هذا فهو يحث كل يوم قلوصه، كما ذكــر في مطلع القصيدة، ليلتقــى بها هناك. أما الآن ، وقد اصبح في ارض غريبة عنه، وعن ديار حبيبته، فليس بامكانه ان يلتقــى بها، لاسيما وان الاحوص بن جعفــر، اخــو خالــد وابنه عمــرو بن الاحوص، هما وليــا أمرها، وقد غضبا عليه، بعــد قتلــه خالــدا :

وان الاحوصيــن يــوليــاهــا   وقد غضبــا علي فما اصابا

ولسنا نقطع بواقع هذا الحب، أو نؤكــده، كما اننا لا ننكره مطلقــا، فليس احتمال وقوعه ببعيد. بل نرجح وقوعه بين فتيــان وفتيات القبائل المتجاورة، وهو بعد ذلك مظهر من مظاهر النشاط الانسانى والادبى عندهم. لان البيئة الصحراوية تساعد على تطور مثل هذه العلاقات الانسانيـــة وتنميتها. اما ان يكون الحارث قد قــال هذه الابيــات، وضمنها تعريضا لاحدى نسوة عامر، لينال أو يثلم من عرضهم، فهو أمــر استبعده منــه، لانه لم يقــل في الابيات المذكورة شيئا اكثر من وصف لمشاعر الحــب المتشوق الى لقــاء حبيب، لم يعد الى لقائــه من سبيل. وان خلــق الحارث يمنعــه عن ركوب الزلل. اليس هو القائل عن نفسه في القصيدة نفسها :

فيــا لله لــم اكسب أثامــا   ولم اهتك لــذي رحم حجابــا

وتميز شعر الحارث بصفة غلبت عليه، وقلما وجدت في اشعــــار الجاهليين . الا وهى هذه النفحة من الروح الحنيفية المنبعثــه من اعمــاق التوحيد، والتى يعزوها الدكتور نجيب البهبيتى الى الشعــور القومى لدى العــرب، المتمثل في اجتماعهم حول كعبتهم (79)، وهى ملاحظــة تصــدق على الحارث، لما رأيناه فيه من حرص على قوميته، ودفاعه عنها ووقوفه في وجــه كل جور وظلم، ونفحــة التوحيد التى تلامس حسنا، كلما مررنا باشعاره القليلة. فكأنى أمام رجل من الاحنــاف الموحدين، لانه يذكر الاله، او ينطق بلفظ الجلالة منبعثا من اعماق نقيــة لم يشبها كفر ولا وثنيــة مــع انه جاهلى، ولم يــدرك الاسلام. وفي ظنى انه لــو ادركه لاسلم وحسن اسلامه.

(79) تاريخ الشعر العربى ص 39.

فمن امثلة شعره في هذا المجال، قوله يخاطب خالد بن جعفر، عندما قتل خالد بن جعفر عددا من فرسان بنى مرة وعير الحارث بقتلهم (80) :

اعيرتنى ان نلت منا فوارسا   غداة حراض مثل جنان عبقر
اصابهم الدهر الختور بخترة   ومن لا يق الله الحوادث يعثر

وقوله (81) :

ارانى الله بالنعم المندى   ببرقة رحرحان وقد ارانى

وقوله في المكيين يمدحهم ويمدح (82) كعبتهم رمز الشعور القومى الموحد في شبه الجزيرة :

فان يك منهم اصلي فمنهم   قرابين الاله بني قصى

ويتجلى توحيده في اوضح صورة، في خطابه لعمرو بن الاطنابة الشاعر، وكان عمرو قد ذكره بسوء تجنيا، فظفر به الحارث وعفا عنه (83) :

ما ابالى اراشدا فاصبحانى   حسبتنى عواذلى أم غويا
بعد الا اصر لله اثما   في حياتى ولا اخون صفيا

وهو الى جانب هذا كله، يكثر من قسمه بالله. واكتفي بالاشارة الى مواضع هذا القسم في اشعاره (48).

ويعطينا شعره صورة لحياته المتنقلة بين قبائل العرب، وكان كلما لقى عونا من قوم عبر لهم عن شكره، ولا تكاد قبيلة تفضلت عليه بجوار او غيره تفلت من مدحه. ومن هذا القبيل مدحه لحاجب بن زراره التميمى (85).

فان تك في عليا هوازن شوكة   تخاف ففيكم حد ناب ومخلب
وان يمنع الجار الزراري جاره   فأعجب بها من حاجب ثم اعجب

وقال يمدح قتادة بن مسلمة الحنفى، الذي اجاره في اليمامة :

قتادة الخير نالتنى حذيته   وكان قدما الى الخيرات طلاعا

---

(80) أنظر شعر الحارث المقطوعة 6.
(81) أنظر المقطوعة 15.
(82) أنظر المقطوعة 13.
(83) أنظر المقطوعة 3.
(84) أنظر البيت 8 مقطوعة 4. والبيت 1 من المقطوعة 14 والبيت 8 من المقطوعة 23.
(85) أنظر المقطوعة 5.

وقال يمدحهم ايضا ويشرك في مدحهم يشكرا :

جاءت حنيفة قبل جيئة يشكر　　　كلا وجدنا اوفياء ذؤابة

ولا اريد ان اطيل بالامثلة وهى بارزة في شعره، لانه مدح اقواما عديدين، مثل الطائيين والمكيين والعجليين، ومدائحه في اهل مكة اكثر من سواهم.

وقصيدته اليائية التى رد بها على عمرو بن الاطنابة، فيها دليل قوي على وفائه عندما ظفر به وعفا عنه، وفاء لحقوق قديمة. وتضاف الى قصص الوفاء التى ترددت في ثنايا قصة حياته. وهى ايضا تقوي الفكرة التى كونتها عن الحارث في كونه احد الشعراء الجاهليين الذين كانوا يغنون بشعرهم. يضاف الى ذلك قول العجلى المتقدم في تضاعيف هذه الدراسة (86).

ووفاؤه وارد بشكل واضح في كثير من اشعاره. قبل وضوح اي غرض آخر فيه. وكل الابيات التى انتخبناها لدى الكلام عن مدائحه أو شعره التوحيدي، يصلح اتخاذه مثلا لوفائه. وخاصة شعره في المدح، فهو يقدمه بين يدي ممدوحه اعترافا منه بالجميل. ومدحه لا يتجه الى اشخاص بعينهم، بل الى قبائلهم، لانه كما رأينا لم يكن شخصا متكسبا في مدحه، بل معترفا بجميل.

وضياع شعر الحارث أمر لم يعد سببه خافيا علي دارسى الادب الجاهلى، لانه يتعلق بالشعر الجاهلى نفسه وضياعه من جهة، ويتعلق بحياة الحارث من جهة ثانية فهو متنقل، كثير الطواف والتخفى، فلم يذع شعره بين الناس ، فتعذرت روايته.

والكتب التى أوردت مقطوعته الشعرية، هى الاخرى ليست بذات اختصاص، اذا استثنينا كتاب المفضليات والاغانى ومنتهى الطلب. فقد وردت اكثر اخباره في الامثال وكتب الشواهد، أو كتب التاريخ والمعاجم اللغوية والجغرافية.

---

(86) أما مطلع اليائية فهو :

أعزفا لى بلذة قينتيا　　　قبل أن يبكر المنون عليا

وأما قول العجلى فهو :

ونحن منعنا بالرماح ابن ظالم　　　فضل يغنى آمنا فى خبائنا

أنظر المقطوعة 3 من شعره والاغانى 116/11.

الشعر والتحقيق :

- 1 -

قال الحارث بن ظالم المري، بعد ان قتل خالد بن جعفر العامري وهى مفضلية :

نأت سلمى وامست في عدو ... تحث اليهم القلص الصعابا
وحل النعف من قنوين أهلي ... وحلت روض بيشة فالربابا
وقطع وصلها سيفي واني ... فجعت بخالد عمدا كلابا
وان الاحوصيين تولياها ... وقد غضبا علي فما اصابا
على عمد كسوتهما قبوحا ... كما اكسو نساءهما السلابا
واني يوم غمرة غير فخر ... تركت النهب والاسرى الرغابا
فلست بشاتم ابدا قريشا ... مصيبا رغم ذلك من اصابا
فما قومي بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعرى رقابا
وقومي ان سألت بنو لؤي ... بمكة علموا الناس الضرابا
سفهنا باتباع بني بغيض ... وترك الاقربين بنا انتسابا
سفاهة فارط لما تروى ... هراق الماء واتبع السرابا
لعمرك انني لاحب كعبا ... وسامة اخوتي حبي الشرابا
فما غطفان لي بأب ولكن ... لؤي والدي قولا صوابا
فلما ان رأيت بني لؤي ... عرفت الود والنسب القرابا
رفعت الرمح اذ قالوا قريش ... وشبهت الشمائل والقبابا
صحبت شظية منهم بنجد ... تكون لمن يحاربهم عذابا
وحش رواحة القرشي رحلي ... بناقته ولم ينظر ثوابا
كأن السيف والانساع منها ... وميثرتي كسين أقب جابا
فيا لله لم اكسب اثاما ... ولم أهتك لذى رحم حجابا
اقاموا للكتائب بكل يوم ... سيوف المشرفية والحرابا
فلو اني اشاء لكنت منهم ... وما سيرت اتبع السحابا
ولا قطت الشربة كل يوم ... اعدى من مياههم الذبابا
مياها ملحة بمبيت سوء ... لبيت سقابهم صردى سغابا
كأن التاج معقود عليهم ... اذا وردت لقاحهم شزابا

المفضليات ص 618 _ 621 (عدا البيت 18).

منتهى الطلب مخطوطة رقم 53 ش بدار الكتب المصرية الورقة 144 ـ 145 (عدا البيتين 7 ، 18) (البيت 15) الشمايل بدل الشمائل والبيت 23 سقائهم بدل سقابهم.

سيرة ابن هشام 1/100 الابيات (8 الشعر الرقابا بدل الشعري رقابا + 9) (مضر بدل الناس) + 10 + 11 مخلف بدل فارط 21 البيت مروي على الوجه التالى :

فلو طووعت عمرك كنت فيهم   وما الفيت انتجع السحابا

+ 17 بناجية بدل بناقته + 18.

الاغاني 11/117 البيت 15 + 8 + 9 + 10 + 17 + 18 موافق لابن هشام.

النقائض 15 + 8 موافقة لابن هشام.

المحبر ص 169 ـ 15 + 8 (بينت بدل شبهت) (الشعرى رقابا بدل الشعر الرقابا).

المعانى الكبير 1/522 البيت 21.

شرح المرزوقى على الحماسة ص 198 (ولا بفزارة الشعر الرقابا).

الحماسة البصرية 1/79 البيت 15.

وانشد سيبويه ايضا 1/103 البيت 15.

وفي المقتضب منسوبا الى الحارث بن ظالم.

شرح شواهد العينى الخزانة 3/609 (هامش).

معانى المفردات :

1 ـ عدو مفرد وجمع . تحث أي أنت تحث.

2 ـ نعف جانب من الجبل شاخص يشرف على فجوة. وقنوان جبلان. وروض بيشة والرباب موضعان.

3 ـ يقول : لما قتلت خالدا صار أهلى أعداء لي وانقطع ما بينى وبينها من الوصل. وكان سبب ذلك سيفى.

4 ـ الاحوصان : الاحوص بن جعفـر وابنه عمـرو.

5 ـ كسوتهما قبوحا أي أوقعت بهما فنث ذلك عنهم، وهجوتهم فشاع ذلك عليهم. والبست نساءهم ثياب الحزن، وهى ثياب ســود وخضــر.

8 ـ 9 البيتان يرويان خبر انتفائه من قيس والتحاقه بقريش. وجاء في شرح المفضليات ص 515 ان فزارة بن ذبيان بن بغيض مر بجد الحارث بن ظالم وقد مـات ابوه لؤى بن غالب فارتحلت امه الى بنى ثعلبة بن سعد، فارتحلوا وتركوه في دارهم فقال فزارة: ما خلفكهاهنا. قال : خلفنى القوم لانى لست منهم فقال فزارة:

عرج علي ابن لؤى جملك تركك القوم ولا مترك لك

ثم الحقه فزوجه ابنته. لذلك قال الحارث «سفهنا باتباع بنى بغيض ... البيت».

11 ـ الفارط، المتقدم على الماشية لاصلاح الحياض والدلاء والارشيه. يقول : لما روي من الماء هراق ما كان معه منه، واتبع السراب من جهله، وكذلك نحن اذ تبعنــا بنى بغيــض.

10 ـ أي اننى كنت في حالة حرب فلما علمت ان القوم هم قريــــش رفعت السيف عنهم، ثم بدأت امتدح شمائلهم وصروحهـــــم وامجــادهــم .

16 ـ شظية جماعة . (17) أي ان رواحة اكرمنى وملا رحلى ولم يطلب جــزاء على فعلتــه الكريمــة علي.

18 ـ النسع سير مظفور تشد به الرحال. والميثــرة وطاء محشــو يوضع على رحل البعير تحت الراكب. والاقب الظامر. والجاب القــوي الغليــظ.

21 ـ أي أنى لو اشاء لكنت من قريش التى ما كانت تنتجع الغيث، ولا تطلبــه بغير أعلها كما تفعل العرب . وقال السحاب وأراد الكــلا لانه يكــون بــه.

22 ـ الشربة موضع . اعدى أصدف، والذباب الاذى. ويروي الذئاب أي ذئــاب العــرب.

23 ـ الصردي الواجدة من البـرد، والصرد البرد. والسغاب الجياع، قال تعالى : أو اطعام في يوم ذي مسغبة أي ذي مجاعة.

24 ـ النزاب الضامـرات. الواحـد شازبـة.

ـ 2 ـ

وقـال بعـد ان قتـل شرحبيل (ابن النعمان بن المنـذر المـلك) وهي مفضليـة :

قفـا فاسمعا اخبركما اذا سألتما	محارب مولاه وثكـلان نـــادم
فاقسـم لولا من تعـرض دونـه	لخالطه صافى الحديـدة صـارم
حسبت ابـا قابـوس انك سالم	ولما تصب ذلا وانفك راغـم
فان تلك اذواد اصبـن وصبيـة	فهذا ابـن سلمى رأسه متفاقـم
علـوت بذي الحيات مفـرق رأسه	وهل يركب المكروه الا الاكـارم
فتكت بـه كما فتكت بخـالـد	وكان سلاحى تجتويـه الجماجـم
اخصيـى حمار بات يكـدم نجمة	أتـا كل جاراتى وجـارك سالـم
تمنيتـه جهرا على غيـر ريبـة	احاديـث طسم انما انت حالـم
بدأت بهـذى ثـم اثنى بهـــذه	وثالثـة تبيـض منهـا المقـادم
شفيـت غليـل الصدر منه بضربة	كذلك يأبـى المغضبـون القماقم

المفضليات ص 616 (عدا البيتين 8 ، 10) وأمثال العرب للمفضـل الضبى ص 46 الابيات كلها عدا (8 ـ 10) والثالث فائز بدل سالم، وتذق بـدل تصب . والرابع لولا بدل الا . والسابع أيؤكل بدل أتاكل . والتاسع (بدات بتلك وانثنيـت بهـذه).

الاغانى 103/11 ـ 104 الابيات (1 + 3) (سابقى بدل سالم ولما تذق فتكى بدل ولما تصب ذلا +) (فان تلك أواد «اصبت ونسوة» + 5 + 6) (فتكت به فتكا كفتكى بخالد) في هذا البيت والبيت الذي قبله جعل صدر البيت الاول مع عجز الثانى وبالعكس (وامره بدل رأسه) + 7 (اتؤكل بـدل اتاكل) + 8 + 9 (بمثلها بـدل بهذه) + 9.

الكامـل في التاريخ 563/1 البيت 7 + 5 + 6 (كما في الاغانى) + 8 (موافقـة للاغانـى).

العقد الفريد موافقــة لما في الكامل لابن الاثير. والبيت 3 (محفزي بـدل سالـم).

شـروح سقط الزند ص 1888 ضربت بذى الحيات مفرق رأسـه.
حماسة البحتري ص 32 البيت 6 مع عجز البيت 7 وبالعكس.

معـانـى المفـردات :

1 ـ **يقول** : اسمعا اخبر كما الخبر : أنا محارب مولاه «يريد ابن عمه» قتلت ابن الملك الذي كان في حجـر سنان بن ابـى حارثه، فجاربنى ونفاني. وثكلان نـادم، أي الملك، قتلت ابنه فهو ثكلان نـادم.

2 ـ **يقول** : لولا من دون الملك من حرسه واحبائه لطلبته حتى اقتله.

4 ـ **ابن سلمى** يعنى ابن الملك الذي ربته سلمى بنـت ظالم أخـت الحـارث «وفي رواية سلمى من بنى أسـد» وأخذه الحارث وقتله. ورأسـه متفاقـم أي ليس بملتئـم.

5 ـ ذو الحيـات سيفه عليـه تمثـال حية. فلما ثلمته التروس سما، المعلوب، لانه كان يشد قبضته بالعلباء وهى قطعة من قماش.

6 ـ تجتويه الجماجم ، أي لا يوافقها . تقول اجتويت بلدة كـذا اذا لـم توافقـك.

7 ـ **يشبهه** بخصيى حمار يعض نباتا أو يكدمه ، أي يعبثه، وهذا النبـات يدعى نجمـة وهو من غير سـاق.

9 ـ أي بـدأت بقتل ابـن الملك ثم اقتـل الملـك.

ـ 3 ـ

وقـال الحـارث بن ظالم يجيب عمـرو بن الاطنابـة الشاعـر :

اعزفـا لـي بلـذة قينتيـــا … قبـل ان يبكـر المنـون عليـا
قبـل ان تبكـر العـواذل انـي … كنـت قدمـا لامرهـن عصيـا
بعـد ألا اصـر للـه اثمـــا … حسبتنـى عواذلـى أم غويـا
مـا أبالـى أراشدا فاصبحانـى … في حياتـى ولا أخـون صفيـا

من سـلاف كانهـا دم ظبـــي | في زجـاج تخالـه رازقيـا
بلغتنـا مقالـة المـرء عمـرو | فأنفنـا وكـان ذاك بديـا
قـد هممنـا بقتلـه وبـرزنـا | فلقينـاه ذا سـلاح كميـا
غيـر ما نائـم تعلـل بالحـ | ـلم معدا بكفـه مشرفيـا
فمننـا عليـه بعـد علـو | بوفـاء وكنـت قدمـا وفيـا
ورجعنـا بالصفـح عنـه وكـان | المـن منـا عليـه بعـد تليـا

اغانى 11/123 ـ 124 وروي البيت الثالث على الوجه الآتى ايضا :

ما أبالى اذا اصطحبت ثلاثـا | ارشيـدا صحبتنـى أم غويا

وروي البيت السابع أيضا (اذ برزنـا) بدل (وبرزنا).

ابن الاثير الكامل 1/565 الابيات 6 (فالتقينا بدل فأنفنا) + 7 (اذ برزنا يـدل وبرزنا) + 8 على الوجه الآتـى :

غير ما نائـم يـروع بالفتـك ولكن مقلـدا مشرفيـا.

عيـون الاخبـار 1/184.

المعـانـى :

5 ـ وصف نكهة الخمرة الطيبـة بـدم الظبى الذي يستخرج المسك منه. والرازقى الكتان أو ثياب تتخذ منه. وهو أيضا عند الطائف.

6 ـ عمرو، أي عمرو بن الاطنابة، وكان هجا الحارث بن ظالم بقوله:

ابلـغ الحارث بن ظالم الرعـد | يـد والنـاذر النـذور عليـا
انما يقتل النيـام ولا يقتـل (م) | يقظـان ذا سـلاح كميـا

في قصيـدة له ذكرها صاحب الاغانى 11/121 وابن الاثير في الكامل 1/564 .

ـ 4 ـ

وقـال ايضـا :

الا ابلـغ النعمـان عنى رسالـة | فكيف بخطاب الخطوب الاعاظـم
وانت طويل البغـى ابلخ معـور | فزوع اذا ما خيف احدى العظائم
فما غـره والمـرء يدرك وتـره | بأروع ماضى الهم من آل ظالـم

أخى ثقة ماضى الجنان مشيع　كميش التوالى عند صدق العزائم
فأقسم لولا من تعرض دونه　لعولى بهدى الحديدة صارم
فأقتل اقواما لئاما أذلة　يعضون من غيظ أصول الاباهم
تمنى سنان ضلة ان يخيفنى　ويأمن ما هذا بفعل المسالم
تمنيت جهدا ان تضيع ضلامتى　كذبت ورب الراقصات الرواسم
يمين امريء لم يرضع اللؤم ثديه　ولم تتكنفه عروق الالائم

الاغانى 116/11

معانى المفردات :

2 ـ الابلخ المتكبر في نفسه . الجري على اتيان الفجور. ومعور قبيح السريرة . مريب.

3 ـ المشيع الشجاع لان قلبه لا يخذله، أي يشيعه. كميش التوالى أي مشمر جاد.

4 ـ رقص الابل ضرب من سيرها، والرواسم من الرسيم ضرب من سير الابل أيضا.

ـ 5 ـ

وقال يخاطب حاجب بن زرارة وقد طلب منه ان يتنحى عن جوارهم :

لعمري لقد جاورت في حى وائل　ومن وائل جاورت في حي تغلب
فأصبحت في حى الاراقم لم يقل　من القوم يا حار بن ظالم اذهب
وقد كان ظنى اذ عقلت اليكم　بنى عدس ظنى بأصحاب يشرب
غداة اتاهم تبع في جنوده　فلم يسلموا المرءين من حيحصب
فان تك في عليا هوازن شوكة　تخاف ففيكم حد ناب ومخلب
وان يمنع المرء الزراري جاره　فأعجب بها من حاجب ثم أعجب

الاغانى 100/11 الزراري نسبة الى زرارة بن عدس التميمى.

ـ 6 ـ

وقال أيضا يخاطب الملك النعمان :

تعلم ابيت اللعن انى فاتك　من اليوم أو من بعده بابن جعفر
اخالد قد نبهتنى غير نائم　فلا تأمنن فتكى يد الدهر واحذر

اعيرتنى ان نلت منا فوارسا   غداة حراض مثل جنان عبقر
اصابهم الدهر الختور بخترة   ومن لا يق الله الحوادث يعثر
فعلك يوما ان تنوء بضربة   بكف فتى من قومه غير جيدر
يغص بها عليا هوازن والمنى   لقاء أبي جزء بأبيض مبتر

الاغانى 97/11 (وكلمة يد في البيت الثانى بمضى مدى) معجم ما استعجم للبكري مادة (حراض) البيت الثالث فقط.

معانى المفردات :

4 ـ الخترة الخديعة .

5 ـ جيدر قصير .

6 ـ ابو جزء هو خالد بن جعفر الكلابى، المقصود في القصيدة.

ـ 7 ـ

وقال :

الا سائل النعمان ان كنت سائلا   وحى كلاب هل فتكت بخالد
عشوت عليه وابن جعدة دونه   وعروة يكلا عمه غير راقد
وقد نصبا رجلا فباشرت جوزه   بكلكل مخشى العداوة حارد
فأضربه بالسيف يافوخ رأسه   فصمم حتى نال نوط القلائد
وافلت عبد الله منى بذعرة   **وعروة من بعد ابن جعدة شاهدي**

الاغانى 97/11 ـ 98.

معانى المفردات :

2 ـ ابن جعدة هو عبد الله وكان ذا رأي، وهو عم خالد بن جعفر، يكلا يحفظ ويحرس.

3 ـ رجلا لغة في رحل. وجوزه وسطه. وحارد غاضب.

4 ـ اليافوخ ملتقى عظم الرأس في المقدمة . صمم مضى. ونوط جمع نياط ، ونياط كل شيء معلقه.

- 8 -

وقال يرد على قيس بن زهير :

أتاني عن قيس بني زهير ... مقالة كاذب ذكر التبولا
فلو كنتم كما قلتم لكنتم ... لقاتل ثأركم حرزا أصيلا
ولكن قلتم جاور سوانا ... فقد جللتنا حدثا جليلا
ولو كانوا همو قتلوا اخاكم ... لما طردوا الذي قتل القتيلا

الاغاني 98/11 .

معاني المفردات

1 ـ التبولا الثارات مفرده التبل.

- 9 -

وقال أيضا :

ابلغ لديك بني قيس مغلغلة ... اني اقسم في هزان ارباعا
ابنا حلاكة باعاني بلا ثمن ... وباع ذو آل هزان بما باعا
يا ابنا حلاكة لما تأخذا ثمني ... حتى اقسم افراسا وادراعا
قتادة الخير نالتني حذيته ... وكان قدما الى الخيرات طلاعا

الإغاني 116/11 وحذيته عطيته.

- 10 -

وقال :

يكلفني الكندي سير تنوفه ... أكابد فيها كل ذي ضبة مثري
واقبل دوني جمع ذهل كأنني ... فلاة لذهل والزعانف من عمرو
ودوني ركب من لجيم مصمم ... وزبان جاري والخفير على بكر
لعمري لا اخشى ظلامة ظالم ... وسعد بن عجل مجمعون على نصري

الاغانى 106/11 والضبة القطعة من الغنم أو بقية منها.

- 11 -

وقـــال :

همت عكابة أن تضيـم لجيمـــا ... فأبـت لجيم ما تقـول عكابـــة
فما سقى بجيرا من رحيق مدامة ... واسقى الخفيـر وطهري أثوابـــه
جاءت حنيفة قبل جيئة يشكـــر ... كـلا وجدنا أوفيـاء ذؤابـــــة

الاغانـى 116/11 .

معـانـى المفـردات :

1 ـ لجيـم قبيلـة .

3 ـ أوفيـاء . أي انهم اجاروه، وذوابة أي سـادة قومهـم.

- 12 -

وقـــال :

لعمري لقد حلت بى اليوم ناقتى ... على ناصر من طىء غير خـــاذل
فأصبحت جارا للمجرة فيهـــــم ... على باذخ يعلـو يـد المتطـــاول
اذا اجـأ لفـت على شعـابهـــا ... وسلمــى فانى انتم من تناولــى

الاغانى 107/11 الاول والثانى (منهم يدل من فيهم). العقد الفريـد 147/5 ونهايـة الارب للنويـري 354/15.

- 13 -

وقـال :

اذا فارقـت ثعلبـة بن سعـــد ... واخوتهـم نسبت الـى لــــؤي
الى نسب كريـم غيـر دغـــل ... وحي من اكـارم كـل حـــــي
وان يك منهم أصلـى فمنهـــم ... قرابيـن الالـــه بنـي قصــــى

العقـد الفريـد 149/5 .

نهايـة الارب 355/15. الثالـث (وغل بـدل دغل).

- 14 -

وقال في قتله خالد بن جعفر :

باللـه قد نبهته فوجدته رخو اليدين مواكلا عسقالا
فعلوته بالسيف أضرب رأسه حتى أضل بسلحه السربالا

الكامل في التاريخ 1/560 .

- 15 -

وقال يتظاهر بهجو بني اسد حتى يصرف انظار الاسود بن المنذر عنهم :

اراني الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد اراني
لحي الانكدين وحي عبس وحي نعامة وبني غدان

الخزانة للبغدادي الاول وبعده الابيات التالية منسوبة لمالك بن نويرة :

اان قرت عيون فاستفيئت غنائم قد يجود بها بناني
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم ترعد يداي ولا جناني
تمشى يا ابن عوزة في تميم وصاحبك الاقيرع تلحياني
ألم آك نار رائية تلظى فتتقيا أذاي وترهباني
فقل لابن المذب يغض طرفا على خلع المذلة والهوان

ولعل الابيات مختلطة ببعضها من قصيدتين مختلفتين للحارث ولمالك.

- 16 -

وقال بعد ان لحق بمكة وقريش :

الا لستم منا ولا نحن منكم برئنا اليكم من لؤى بن غالب
غدونا على نشز الحجاز وانتم بمنشعب البطحاء بين الاخاشب

سيرة ابن هشام 1/100 .
العقد الفريد 5/149 .
نهاية الارب للنويري 15/355 .

- 17 -

وقال في سجنه لدى الغساسنة في الشام :

لقد قال لى عند المجاهد صاحبي بذي ارونى ترمى ورائى الثعالب
وددت بأطراف البنان لو انني وقد حيل دون العيش هل انت شارب

اغاني 11/118.

- 18 -

وقال :

الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائهم نطف

شروح سقط الزند ص 1307 نطف أي تلطخ بالعيب والفساد.

- 19 -

وقال :

«.. وما الفتك الا ان تهم فتفعلا».
شروح سقط الزند 1686 .

- 20 -

وقال .

متى تملك القلب الذكى وصارما وانفا حميا تجتنبك المظالم

الاشتقاق ص 11 للهذلي أو الحارث بن ظالم.

التصحيف ص 174 قال ابن دريد «وغطفان تروى البيت للحارث بن ظالم لانه اجتلبه». ويروي لابن حريم ايضا.

وأوردته مصادر التحقيق الاخرى لعمرو بن براقة وهو الراجح واليك بيانها :

الاشتقاق ص 11 وورد أيضا في ص 254 لمالك بن حريم.

والبيت في الحماسة البصرية 111/1 لعمرو بن براقة أيضا وكذلك امالى القالى 122/2 مع القصة . والاغانى 332/3 دار الكتب و 113/21 ساسى والعينى 333/3 وابن الجراح ص 8، والوحشيات ص 23 وابن الشجري (7) 10/1، ومقاتل الطالبيين ص 132 والبيان والتبيين 138/2، وانظر ص 749 وحماسة البحتري ص 220 والعقد الفريد 61/1 والمؤتلف والمختلف ص 67 وعيون الإخبار 237/1 لمالك بن حريم والاشباه والنظائر 8/7 .

— 21 —

وقال :

أنا أبو ليلى وسيفى المعلوب
كم قد اجرنا من حريب محروب
وكم رددنا من سليب مسلوب
وطعنة طعنتها بالمنصوب
ذاك جهيز الموت عند المكروب
هل يخرجن ذودك ضرب تشذيب
ونسب في الحى غير ما شوب
هذا أوانى وأوان المعلوب
من يشتري سيفى وهذا أثره

أمثال العرب للضبى ص 50 البيت (6 + 7 + 8).
الفاخر للمفضل بن سلمة البيت (1 + 7).
مجمع الامثال للميدانى 263/2 البيت (1 + 7).

الاغانى 105/11 الابيات (1 + 2 + 3 + 4 + 5).

الخزانــة للبغدادي الابيــات (1 + 2 + 3 + 4 + 5) والرابــع.

شــروح سقط الزنــد ص 1888 البيت الاول.

اللســان مــادة (علب) البيــت الاول .

التــاج مــادة (شذب) البيــت (1 + 6).

- 22 -

وقـــال :

اذا سمعــت حنــــة اللــفـــــاع منطقــا بصـــارم قطـــــــاع

فادعـــي أبــا ليلــى ولا تــراعـــى يغـــري بــه مجامـــع الصـــداع

ذلــك راعيــك فنعـــم الــراعـــي وتلــك ذود الحـــارث الكســـاع

يجبـك رحب البـــاع والـــــذراع دعـــوت باللـــه فــلا تــراعـــى

الاغانى 105/11 ، 107 البيت 1 + 2 + 3 + 4 + 5 ورواه ايضا : يمشى لها بصارم قطاع 4 + 6 ، 11 يسفى يدل يقرب + 7.

الكامل في التاريخ 560/1 البيت 1 + 2 فادعى ابــا ليلى فنعـــم الداعى + 5 «يمشى بعضب صارع قطاع + 6».

مجمــع الامثال للميدانـــى (1 + 2 + 3).

الــدرر الفاخــرة مخطوطة ورقـــة 125 (1 + 2 + 3) فلن تراعـــى بـــدل ولا تراعـــى.

المستقصى من امثال للعرب للزمخشري 154/1 (1 + 2 + 3).

خزانـــة الادب للبغدادي 176/3 البيت 1 + 2 + 3 + 5 (يمشـــى لها بصـــارم قطـــاع) + 7 + 8 .

ـ 23 ـ

واما المفضل الضبي في امثاله ص 49 فقد اورد الابيات على الوجه الآتي :

انى سمعت حنة اللفاع في النعم المقسم الاوزاع
ناقة ما وليدة جياع أما اذا اجدبت المراعى
فانها تجلب في الجماع أما اذا اخصبت المراعى
فانها تقى من النقاع فادعي أبا ليلى ولا تراعي
ذلك راعيك فنعم الراعى الا يكن قام عليه ناعي
لا تؤكلي العام ولا تضاعي منتطقا بصارم قطاع
يغري به مجامع الصداع

قال المفضل ، ان صاحب الابل أبا الطماح بن عمرو بن قعين وقف يرتجز بهذه الابيات. قال في الاغانى 105/11 ، 107 أن الحارث بن ظالم هو الذي وضع هذا الرجز على لسان صاحب الابل المذكور، فالنسبة راجحة للحارث.

ـ 24 ـ

وفي بنى حرملة بن الاشعر يقول الحارث بن ظالم.

أبلغ جذيمة ان عرضت فانني عمداً تركتهم عبيد سنان
لو كنت من رهط الحرامل لم أعد وبنيت مكرمة بكل مكان
القاتلين من المناذر سبعة في الكهف فوق وسائد الريحان

كتاب نسب قريش للزبير بن بكار 26/1 وجذيمة رهط الحارث بن ظالم . والمناذر النعمان بن المنذر ورهطه. يقول «لو ان قومى مثل قوم حرملة بن الاشعر»، إذن لبنيت المكارم في كل مكان، لكنهم، وقد اظهروا عجزهم عن موازرتى ، فقد تركتهم يعانون العبودية على يد سنان بن أبى حارثة. الكهف التى قتل فيها بنو حرملة من اشراف المناذرة سبعة. والاشارة الى وسائد الريحان دليل سمو مكانتهم.

مصادر شعر الحارث بن ظالم ومراجع دراستـه

1 ـ البغـدادي ـ عبد القـادر بن عمـر .
خزانـة الادب ولب لبـاب العـرب ط بـولاق
2 ـ وفي حاشية الخزانـة كتاب شـرح الشواهد للعينى.
3 ـ البحتري ـ أبو عبـادة الوليد بن عبيـد الطائـى .
ديـوان الحماسـة تحقيـق لويـس شيخـو .
4 ـ البكري أبـو عبيـد الله بن عبـد العزيـز .
معجـم ما استعجـم تحقيـق السقـا .
5 ـ التبريـزي أبـو زكريـا الخطيـب.
شـرح سقط الزنـد طبع الدار القوميـة 1964.
6 ـ ثعلـب أبـو العبـاس احمـد بن يحيى .
شـرح ديـوان زهيـر بن أبي سلمى ط. دار الكتب المصرية.
7 ـ ابـو تمـام حبيب بن أوس الطائـى .
الوحشيات (الحماسة الصغرى) تحقيق الميمنى وشاكـر.
8 ـ الجاحـظ أبـو عثمـان عمـرو بن بحـر .
البيـان والتبييـن تحقيـق عبد السـلام .
الحيـوان ط. ساسـى
9 ـ ابن الاثيـر محمـد بن الجـزري .
الكامـل في التاريـخ . بيـروت
10 ـ الخالديـان ابو بكـر محمد ، وابـو عثمان سعيـد .
الاشبـاه والنظائر ط. لجنة التأليف والنشـر .
11 ـ ابـن دريـد محمـد بن الحسـن الازدي .
الاشتقـاق ط. مصـر خانجـى 1958 .
12 ـ الزبيـدي محمد بن محمد بن عبـد الرزاق
تـاج العـروس المطبعـة المنيريـة .
13 ـ الزبيـر بـن بكـار
نسـب قريـش مكتبـة دار العروبـة

14 ـ الزمخشري ، جـار اللـه، محمود بن عمـر
المستقصى من امثـال العرب ط. حيـدر آبـاد.
15 ـ الزركلـى خيـر الديـن .
الاعـلام ط. مصـر .
16 ـ السهيلى ابو القاسم ، عبد الرحمن بن عبد اللـه.
الـروض الانـف . ط الجماليـة 1914
17 ـ صدر الدين البصري على بن أبى الفرج بن الحسن البصري.
كتـاب الحماسـة البصريـة ـ ط. حيدر آبـاد .
18 ـ صـلاح الديـن الهـادي
الشمـاخ بن الضرار ط. مصـر .
19 ـ الاصفهانى أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي.
الاغانـى ـ دار الكتب أو بحسب الهامش.
20 ـ الضبي ـ المفضـل بن محمـد .
امثـال العـرب طبـع الجوائـب .
المفضليـات ط. لايـل .
21 ـ ابن عبد ربـه احمـد بن محمـد الاندلسى
العقـد الفريـد ـ طبع لجنـة التأليـف.
22 ـ أبـو عبيـدة معمـر بن المثنـى .
نقائض جريـر والفرزدق ـ تحقيق بيفـان .
23 ـ عـروة بن الـورد العبسـى ، الشاعـر .
ديـوانـه ـ نشـر الجزائـر.
24 ـ محمـد بن حبيـب .
المحبـر ط. حيـدر آبـاد .
25 ـ المرزوقى ابو علي احمـد بن محمد الحسين .
شـرح حماسة ابى تمـام ط. لجنـة التأليـف .
26 ـ ابن منظـور محمد بن مكـرم بن علي .
اللسـان ط. بـولاق .
27 ـ الآمدى ابـو القاسـم الحسن بن يحيى بن ابى بشر.
المختلـف والمؤتلـف . تحقيـق عبد الستار فراج 1961 .

28 ـ ابـن ميمـون .
منتهـى الطلـب ـ مخطوطـة ـ دار الكتب المصرية.
29 ـ حمـزة الاصفهانـى
الـدرر الفاخـرة مخطوطـة .
30 ـ النابغـة الذبيانـى .
ديوانـه ـ تحقيق أبو الفضل ـ مصـر 1974.
31 ـ المفضل بن سلمـة بن عاصـم
الفاخر في الامثال. طبع وزارة الثقافة والارشاد القومى 1960
32 ـ الميدانى ابو الفضل احمد بن محمد .
مجمـع الامثال ط. القاهـرة 1955 .
33 ـ النويري احمـد بن عبد الوهـاب .
بلـوغ الارب ط. دار الكتـب المصريـة .
34 ـ ابن قتيبـة ابو محمـد عبد الله بن مسلـم.
المعانى الكبيـر ط. حيـدر آبـاد .
الشعـر والشعراء ط. دار المعـارف بمصـر.
عيـون الاخبار ط. دار المعـارف بمصـر.
35 ـ سيبـويـه
الكتـاب، مع شـرح شواهـده للاعلـم
36 ـ شوقـي ضيـف
تاريـخ الادب ـ العصـر الجاهلـى
37 ـ امـرؤ القيـس
ديـوانـه .
38 ـ عـدي بن زيـد العبـادي
ديوانـه ، تحقيـق محمـد جبـار المعبيـد
39 ـ جـاد المولـى وجماعتـه .
أيـام العـرب ـ طبعـة أولـى.
40 ـ ابـن المعتـز .
طبقـات الشعـراء .

41 ـ اليـزيـدي
الامــالــي .
42 ـ ياقــوت الحمـــوي
معجــم البلــدان طبــع لايبزك ـ والسعــادة .
43 ـ البهبيتــى
تاريــخ الشعر العربى ـ طبعــة أولــى.
44 ـ مالــك بــن الريــب .
ديوانه، تحقيق الاستاذ الدكتور نوري حمودي القيسى، ضمن مجلة معهد المخطوطات. مصر.
45 ـ القالــى ابــو علي اسماعيل بن القاســم البغــدادي.
الامالــى ـ ط. دار الكتــب المصريــة .
46 ـ عادل البياتى ـ الشعــر في حرب داحس والغبــراء.
طبــع مطبعــة الاديــب بالنجف 1972.

قيس بن زهير

هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي، يكنى أبا هند (1)، شاعر، فارس، عرفت منه الشجاعة في كل موقعة حربية فجعلته عبس رئيسا لها بعد مقتل أبيه. وهو أحد طرفي النزاع مع حذيفة بن بدر، رئيس ذبيان، عند بدء الرهان، وآخر السباق، حتى وضعت الحرب أوزارها. وقد اشتهر بجودة الرأي، حتى سمي بقيس الرأي. فقاد قومه في حروبهم وغاراتهم، وكان داهية في التخطيط الحربي، حتى ضرب به المثل فقيل: «أدهى من قيس» (2): وقد بلغ من دهائه وجودة رأيه أنه مر، ومعه الربيع بن زياد، ببلاد غطفان، فلم تغره ثروتها وعددها فقال له الربيع: «أيسوؤك ما يسر الناس» فقال قيس: «لا ولكن مع الثروة التحاسد والتباغض، ومع القلة التعاضد والتآزر»: ومواقفه التاريخية في القيادة الحربية جعلته معدودا في الخالدين. ففي حرب «جفر الهباءة» لجأ الى خدعه انقذته وانقذت قومه، يوم تجمعت ذبيان واحلافها، فمزق تجمعهم واكتسب النصر: ذلك انه عمد الى المال والنساء فسرحهم جميعا، وسرح معهم من لا يقدر على حمل السلاح، ثم سيرهم بعيدا، وابقى الرجال والمقاتلين. فلما اقبل العدو اخذ طريق المال، فلما انشغلوا في سلبه وتمزقت وحدتهم، اعمل قيس فيهم السيف، حتى ناشدتهم ذبيان وأحلافها البقية،، فاسترجع قيس ماله، وسبى، واسر وغنم. وهو صاحب المشورة، يوم «شعب جبلة»، عند قدوم ذبيان وأحلافها، فاستجاروا بالجبل وأحكموا الخطة، حتى اذا أقبل العدو انطلقت الجمال من أعالي الجبل نحو العدو ضاربة بخفها وهي تنحدر، كل حجارة أو صخرة. والمقاتلة من ورائها، تضرب من تمر بهم، حتى كانت الهزيمة نكراء في ذبيان وحلفائها. فالجبل حصن منيع، والقائد الذكي يستطيع أن يتخذ منه وسيلة لنصر محقق. وقد سبق في قصة الحرب ذكر هذا كله ولا داعي لتكراره (3).

(1) الزمخشري — المستقصى من أمثال العرب 121/1.
(2) ابن قتيبة — عيون الاخبار 11/4.
(3) ينظر كتاب الشعر في حرب داحس والغبراء.

وفي صفة قيس، ذكر القدماء، أنه كان «أحمر ، أعسر ، أيسر، بكر بكرين» (3)، وكانت العرب تتشاءم من هذه الصفات. ولم يؤثر ذلك في شخصية قيس : فالحروب التى خاضها لم تكن من صنع يديه، انما هى مرحلة حياة كان لها أسبابها، وقد مر بها عرب الجاهلية، وهى التى أملت عليهم هذا اللون من الحياة ، فضلا عن طبيعة النظام الاجتماعى والاقتصادي والسياسى الذي كان البدوي يعيشه، وكذلك الحضاري على حد سواء. ولعل قيس بن زهير خفف كثيرا من آلام قومه، بسبب حكمته ، ودرايته، وحسن تدبيره. ولو لم يكن قيس على مسرح الاحداث لكان سواه ، ولكانت حياتهم مع غيره أكثر معاناة . الم تكن القبائل في كل أرجاء الجزيرة تتطاحن في حروب وأيام مستمرة، وكانت حرب داحس من أشدها ضراوة ؟!

وقيس ابن زعيم، دانت له غطفان كلها، اجتمعت عليه، ولم تجتمع على أحد قبله ولا بعده في جاهلية ولا اسلام (4). وكان أبوه زهير أبا لعشرة، وأخا لعشرة، وكانت له علاقة حسنة بملوك الحيرة حتى أنه زوج أخته لاحدهم، والتى اشتهرت فيما بعد «بالمتجردة» وقد قتل على يد خالد بن جعفر بن كلاب العامري (5).

وكان قيس فخورا، بلغ من فخره، أن قريشا أجارته، عندما التجأ اليها في مشاحنته للربيع بن زياد العبسى، بسبب الدرع التى غلبه الربيع عليها. فكرهت قريش مفاخرته، ومل هو ذلك، فتركهم مستجيرا بفزارة قبل حربه معهم، فأجاره حذيفة بن بدر وظل في جوارهم، حتى تفاخرا في الخيل وتجاريا ووقع النزاع فنشبت الحرب.

واشتهر قيس بحزمه، حتى ان الحطيئة كان يعادله بالف حازم، عندما ساله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال الحطيئة : كنا الف حازم، قال كيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير، وكان حازما، ولا نعصيه، فكأنا ألف حازم، وكنا نقدم باقدام عنترة،

---

(3) المرزباني معجم الشعراء 197.
(4) المصدر السابق.
(5) ابن الاثير الكامل 556/1، 565 بيروت.

ونأتم بشعر عروة (6) . «وفي كتب الامثال طائفة من أقوال قيس، ذهبت مثلا بين الناس، قالها في مناسبات متعددة خلال حربه وسلمه».

واختلف الرواة في نهاية قيس، والثابت أنه عاصر الحرب منذ البداية حتى يوم أشار عليهم بالصلح، والرجوع الى أرض غطفان، وانطلق الى قوم النمر بن قاسط وتزوج فيهم. وانجب ولدا سماه «فضالة» وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وكان تسعة هو عاشرهم. وقد اغترب قيس في حياته كلها اغترابا مؤلما، قال التبريزي: «غربة كغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض، وهى أشد غربة وأطولها» (7) .

ومن أقواله ، عندما أراد مجاورة قوم النمر : «انى قد جاورتكم واخترتكم فانظروا لى امرأة قد أدبها الغنى، وأذلها الفقر في حسب وجمال» ثم قال : «ان في خلالا ثلاثا ، انى غيور، وأنى فخور، وانى أنف ، ولست أفخر حتى أبدا، ولا أغار حتى أرى، ولا آنف حتى أظلم» «ولما أراد الرحيل عنهم قال لهم» : انى موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال، عليكم بالاناة، فان بها تنال الفرصة، وتسويد من لا تعابون بتسويده، وعليكم بالوفاء، فان به يعيش الناس، وباعطاء من تريدون اعطاءه قبل المسألة، ومنع من تريدون منعه قبل الالحاح، واجاره الجار علي الدهر . وتنفيس المنازل عن بيوت الايامى، وخلط الضيف بالعيال. وانهاكم عن الرهان، فان به ثكلت مالكا أخى، والبغى فانه صرع زهيرا أبى وحملا، والسرف في الدماء فان قتل أهل «الهباءة» أورثنى العار. ولا تعطوا في الفصول فتعجزوا عن الحقوق. ومنع الحرم الا من الاكفاء فان لم تصيبوا لها الاكفاء فخير منازلها القبور. واعلموا انى كنت ظالما ومظلوما ظلمنى بنو بدر بقتلهم مالكا. وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له (8)» وهذه العبارات تعد وثيقة صريحة تدين النظام الاجتماعى في الجاهلية، وتبرز الوجه الانسانى الرائع للاسلام.

---

(6) المرزبانى ص 84.

(7) ابن حجر ـ الاصابة 266/3 رد على غلط الرواة بأن قيسا مات فى خلافته عمر وذكر أنه مات قبل البعثة. ابن الاثير الكامل 355/1 والتبريزى فى شرحه لديوان أبى تمام تحقيق محمد عبده عزام طبع مصر دار المعارف . وجاء قوله المذكور عندما فسر قول أبى تمام فى البيت الاتى :

غربة تقتدى بغربة قيس بن زهير والحارث بن مضاض

(8) الشريف المرتضى ـ الامالى 208/1 وابن الحديد ـ شرح نهج البلاغة 151/4.

وقيل في نهايته، أنه خرج من قوم النمر بن قاسط واتجه نحو عمان، واقام فيها متبتلا مترهبا يرتدي المسوح، ويرافقه صاحب له من بني أسد يقال له «رافع بن المعتصم»، وقيل أنهما خرجا مرة يسيحان في الارض يتقوتان مما تنبت. الى أن دفعا في ليلة برد الى أقبية اشتد بهما الجوع فسعيا نحو رائحة شواء فلما قارباها أدركت قيسا شهامة النفس، فقال لصاحبه «دونك وما تريد» فان لي لبثا على هذه الاجارع، أترقب داهية القرون الماضية. فمضى صاحبه، وعندما رجع في الصباح، وجده قد لجأ الى شجرة في اسفل الوادي ، فنال من ورقها شيئا، ثم مات فقال الحطيئة (9) :

ان قيسا كان ميتته	أنفا والحر منطلق
شام نارا باللوي اقتدحت	وشجاع البطن يختفق (10)
في دريس لا يغيبه	رب حر ثوبه خلق

وقيل بل مات مقتولا على يد «حوج بن مالك العبدي» الذي لقيه مترهبا فعرفه فقتله وقال : «لارحمني الله ان رحمتك» (11).

وتنتهي حياة هذا الرجل الفذ، وقد حدد له صاحب كتاب الاعلام تاريخ وفاته في سنة 631 ميلادية : 10 هجرية (12).

شعره

الصفة الغالبة في شعر قيس بن زهير، انه شعر مقطعات أما القصائد فقليلة، وحتى هذه، فان اطولهن يبلغ عدد أبياتها واحدا وعشرين بيتا (13)، وله قصيدة أخرى من أحد عشر بيتا (14) وثالثة

---

(9) الخالديان — الاشباه والنظائر 129/1 وشرح العيون ص : 140. ولعل هذه النهاية هى التى حدت بالاب لويس شيخو اليسوعى أن يلحق قيس بن زهير بشعراء النصرانية، على رأى من تنصر فى أخريات أيامه ولم يسلم، ان كان أدرك الاسلام.
(10) الشجاع الافعوان، والمعنى أن الافعوان الجوع يختفق فى بطنه، وهذا من أوابد العرب حيث يعتقدون أن الانسان اذا اشتد به الجوع تحرك الافعوان فى بطنه.
(11) ابن الاثير — الكامل 355/1.
(12) الزركلى — مادة «قيس».
(13) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 32 والعينى شرح الشواهد الكبرى 130/1.
(14) أبو حاتم السجستانى — كتاب المعمرين ص 145 .

في تسعة (15) أبيات، ورابعة مثلها (16) ، وخامسة من ثمانية أبيات (17) وسادسة من سبعة أبيات (18)، ومقطعات يتراوح عدد أبياتها بين الستة الابيات والبيتين وهى لا تتعدى عشر مقطعات (19).

ولا يعني هذا أنه ليس لقيس شعر غيره، لان الذي أحصيناه يتعلق بهذه الحرب فقط . ولقيس شعر غيره في مناسبات أخرى، بعضها حربية لا تمس حربنا، والبعض الآخر يتعلق بشؤون الحياة العامة. وجميع هذا الشعر لم يدخل في احصائية هذه الحرب. والواقع، أن شعر قيس بن زهير جدير بالجمع والتحقيق والدراسة، ففيه مادة وفيه خبر، كما أن له صفة متميزة يلاحظها المتصدي لدراسة الشعر الجاهلى عامة والحرب بصفة خاصة، كما ستظهر لنا خلال هذه الدراسة. والذي أحصيناه ليس كل شعره ، بل المتعلق منه بحربنا، ولم نتطرق في الدراسة الى غيره. لكن هذه الحرب استأثرت بثلثى شعر قيس تقريبا.

ان الناظر في شعر قيس بن زهير يرى أن طابع الحماسة والفخر غالب عليه، وهو أمر ليس بغريب عنه، فالرجل خاض غمار حرب طويلة، أخذت أربعين عاما من عمره، عاش لها وكان أحد فرسانها المجلين، يكتب مع اخوان له في السلاح سطورها، ويفكر ويدبر، وكلما خرج من بلاء وجد ان الدهر أعد له بلاء جديدا. فما أحرى بشاعر مثل قيس، أن يكتب شعرا يصور فيه هذه الحرب، ومن يدري لعله فعل فكتب القصائد الطوال التى تحكى جوانب حروبه وأيامه، ولكن الزمن عفى عليها.. لا سيما وانه لم يبق لنا منه سوى هذه الشذرات، نحاول أن نصنع منها شيئا يصل بنا الى حقيقة، أو الى شىء نستطيع أن نطمئن اليه.

---

(15) المفضل الضبى ص 36 وأبو عبيدة ــ النقائض 96/1 والاغانى 138/17.
(16) المفضل الضبى ص 38 وأبو عبيدة 100/1.
(17) المفضل الضبى ص 40 وأبو عبيدة 102/1.
(18) المفضل الضبى ص 39 وأبو عبيدة 102/1.
(19) المفضل ص 32 وأبو عبيدة 92/1 ــ 270/2 والمفضل بن سلمة ــ الفاخر ص 222 وأبو تمام ــ ديوان الحماسة (المرزوقى) 203/1 و 469. والتبريزى 23/3 والخالديات
وأبو تمام ــ ديوان الحماسة (المرزوقى) 203/1 و 469. والتبريزى 23/3 والخالديان
ــ الاشباه والنظائر 268/2 ــ وابن الاثير ــ الكامل 348/1 و 353/350 .

والمادة التى يتألف منها الفخر في شعره مستمدة من أحداث الحرب اليومية، يدعمه واقع الحال، فلا يجيء بما يوحى أنه ادعاء، أو قريب منه، بل هى شواهد قائمة، لها ما يؤيدها. ففى رثاثة لاخيه القتيل، يستهل القطعة بأبيات في الفخر، فيعطى كل المناسبات التى يفتخر بها الاقران، وكانت ذبيان قتلت أخاه مالكا فقتل به أخاهم عوفا ولذلك فهو يجري الموازنة بين الاخوين، أخيه وأخيهم، ويخرج بالنتيجة التى مهدت لها مقدماته، وهى أن قتله اخاهم وخير سعد معه، هو البديل الوحيد ليبوء دم مالك أخيه فقال (20) :

أخي والله خير من أخيكم ... اذا ما لم يجد بطل مقاما

أخي والله خير من أخيكم ... اذا ما لم يجد راع مساما

اخي والله خير من اخيكم ... اذا الخفرات أبدين الخداما (21)

قتلت به أخاك وخير سعد ... فان حربا حذيف وان سلاما

ومع أن المناسبة تتطلب الرثاء والدموع، لكن قيسا كما ترى بعد قليل لا يبكى قتلى قومه ، بل ان رثاءه فخر لهم . وهذه صفة المحارب من شعراء الجاهلية .

واقتران الفخر بالحماسة ظاهرة عامة مألوفة في الشعر الجاهلي. وهي تتجلى في شعر قيس بن زهير بصورة واضحة، ولكنه قد يفخر بقومه وبنفسه، ثم يعرج فيعرض بعدوه ويمدح قوما آخرين، يتم هذا كله في آن واحد، وفي قصيدة واحدة، وهو شيء كثير الورود في شعر الحرب، غير أن التنقل بين الاغراض المختلفة، في القصيدة الواحدة. دون سابق ارتباط، يكون أحيانا مفاجئا، مما يوحى وكأن أبياتا في القصيدة لم يذكرها الرواة ، قد سقطت فأحدثت هذه الثغرات أو الفجوات، وكان من حقها أن تذكر بين الاغراض المختلفة ، لكى يكون التنقل منطقيا.

---

(20) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 39.

(21) الخفرات النساء فى الخدر. وابين الخداما أى كشفن عن ساقهن ايذانا بخطر. وهى عادة المرأة فى حرب أو غارة. والخدام الخلخال، وقد تسمى الساق حملا عليه. وهنا كناية عن الحرب أو عن الفضيلة.

فليس معقولا أن يكون الانتقال بمثل هذه السرعة لا سيما ونحن نلاحظ أن أغلب القصائد الجاهلية الطوال بل حتى القصار منها تمهد للغرض قبل ان تنتقل اليه. ومع ذلك فان الحالة في شعر الحرب مختلفة جدا، لان طبيعة هذا الشعر تفترض الايجاز، وان التماس الغرض مباشرة، غالبا ما يكون في قصائد الحرب، لكي يؤدي الشعر مهمته بمثل ما تكون الحرب سرعة ومضيا، فالشاعر المحارب غير الشاعر الفنان، فذاك يقول الشعر ليخدم به المعركة ويصل الى الفوز الذي هو بغيته قبل أي شيء آخر، وهذا يقوله لاجل الشعر نفسه. الاول يتخذه سلاحا والثاني يتخذه صنعة وفنا، فلا غرو اذا ما قصر باع الاول وبرز الثاني. وتعليل آخر نراه أكثر شمولا لهذه الظاهرة، ظاهرة الانتقال السريع بين الاغراض المتنوعة خلال القصيدة الواحدة، مرده ان الرواة لم يذكروا القصيدة كاملة أو هكذا وصلت اليهم، فانها أحيانا تصل اليهم وقد خرج منها أبيات ، فالذي ينظر الى دالية قيس بن زهير يخرج منها بعدة ملاحظات :

على الرغم من أن القصيدة قيلت في أيام متأخرة من حرب داحس والغبراء، فان قيس بن زهير بدأها في ذكر المشاحنة على الدرع مع ابن عمه الربيع بن زياد العبسي، فقد أخذها منه الربيع أو غلبه عليها، فاستاق قيس بدلها من ابل الربيع أربعمائة، وباعها لعبد الله بن جدعان القرشي، واشترى بأثمانها أفراسا وسلاحا :

ألم يبلغك والانهاء تنمى ... بما لاقت لبون بنى زياد (22)
ومحبسها على القرشي تشرى ... بأدراع وأسياف حداد

ثم يفجؤك بأول الرهان ، وبدء الحرب مما يدل على أن قضية «الدرع» كانت عنده أعظم بكثير من قضية «لطم الفرس» ورده عن الغاية، لاسيما وأن الامر لم يصل حتى اللحظة الى سفك دماء، وانما قيام بنى بدر بالتفاخر عليه وردهم لفرسه ولجوئهم الى الخديعة. بينما كان الامر بالنسبة لقضية الدرع قد بلغ حد استياق اربعمائة من ابل الربيع، وقتل رعائها (23)، لذلك فهو بالنسبة لبنى بدر لم يفعل أكثر من

(22) المفضل الضبي — أمثال العرب ص 32 وأبو عبيدة — النقائض 96/1.
(23) العينى — شرح الشواهد الكبرى 230/1.

امتناعه عليهم، ودفعه للخسف بالسيوف، ثم يبدأ بالتوعد مقتصداً في كلامه على عادة الفرسان :

كما لاقيت من حمل بن بدر — واخوته على ذات الاصاد
همو فخروا على بغير فخر — وذادوا دون غايته جوادي
وقالوا قد قمرناه خداعاً — وأين الخدع من مائة الجياد
كرهنا أن يقر الخسف فينا — دفعنا بالمهندة الحداد
فمهلا يا حذيفة عن بناتي — فان القول مقتصد وعادي

ومن خلال توعده ينتقل الى الفخر ، وليس في انتقاله الى الآن ما يشعر بسقوط أبيات من القصيدة :

وكنت اذا منيت بخصم سوء — دلفت له بداهية نآد
بداهية تدق الصلب منه — فتقصم او تجوب عن الفؤاد
وقد دلفوا الى بفعل سوء — فالفوني لهم صعب القياد
وكنت اذا أتاني الدهر ربق — بداهية سددت لها نجادي
ألم يعلم بنو الميقاب (24) انى — كريم غير معتلث الزناد

أما الابيات التى ختم بها القصيدة ، فيبدو انها نظمت في زمن متاخر عن الابيات السابقة، بل ان بين الابيات السابقة والتى سوف تليها ما يقرب من ثلاثين عاما او يزيد، لان الخصومة بسبب الدرع كانت قبل الحرب. وعندما جرى الرهان كان الربيع مشاحنا لقيس، كما وضح في الشعر، وقصة الحرب. وبدء القتال، ومرت أعوام طوال، كان بعدها يوم «جبلة» ، ومعارك اخرى، التجأ بعدها قيس والربيع الى ربيعة بن قرط. وكان يسمى «ربيعة الخير» وكان ذلك كله بعد حرب «جبلة»، باتفاق جميع المصادر.

قال أبو عبيدة (25) : «وكان قيس جاور ربيعة بن قرط بعد وقعة «جبلة» وربيعة هذا هو الذي عقد حلف بنى عبس مع بنى بكر بن أبى كلاب. واذا فتاريخ الابيات التى ختمت بها القصيدة، وسنذكرها بعد هذه السطور، يبتعد كثيرا عن تاريخ الابيات التى ذكرناها.

---

(24) الميقاب : التى تلد الحمقى.
(25) النقائض 408/1 والتبريزى — شرح ديوان الحماسة 27/3.

وعلى هذا يرجح الرأي عندنا انها قيلت فيما بعد. ويتأيد لدينا أن بعض القصائد الطوال - مثل معلقة عنترة - يظل أصحابها يضيفون اليها مع مر الزمن، الامر الذي يفسر تباعد الاحداث في بعض أبياتها. وهذه القصيدة التى نحن بصددها توضح ذلك، فاذا انبرى قائل يقول : وما يمنع أن تكون القصيدة كلها قيلت بعد يوم «جبلة»، أو بعد مجاورة ربيعة بن قرط، قلنا أن طبيعة الاشياء ووقائعها تأبى هذا. ذلك ان حرب داحس بعد مجاورة قيس لربيعة بن قرط قربت من نهايتها. فاية جدوى من ذكر حادثة تافهة مثل حادثة الدرع وتقديمها على حرب عظيمة في غطفان والقبائل المجاورة ؟ ثم ما الذي يدفع قيسا أن يعود الى هذه الحادثة، وقد اصطلح مع الربيع بن زياد، وهما الان يد واحدة على عدوهم ؟ فالراجح أن القسم الاول، ويضم ابياتا في حادثة الدرع، قيل قبل اول أيام الرهان، وقيس ما يزال مشاحنا للربيع.

اما الابيات الاخيرة فانها قيلت بعد مجاورة ربيعة، وقد مضى على الحرب نحو من ثلاثين عاما. ثم اضيفت الى القصيدة فيما بعد، وفيها مدح لربيعة، ووصف لحال قيس، وقد طوف في البلاد، خلال سنوات الحرب وتألب القبائل عليه وخوفه من كل شىء يحيطه أو أرض يهبطها. لكنه ما ان استجار بربيعة وشعر أن خيوله وفرسانه تطوف حوله كالجوارح، أحس بالامن والاستقرار فأناخ راحلته وكأنه يعقلها الى جبل :

أطوف ما أطوف ثم أوي	الى جار كجار أبى دواد (26)
اليك ربيعة الخير بن قرط	وهوبا للطريف وللتلاد (27)
كفانى ما أخاف أبو هلال	ربيعة فانتهت عنى الاعادي
تظل جياده يجمزن حولى	بذات الرمث كالحدأ الغوادي (28)
كأنى اذ أنخت الى ابن قرط	أنخت الى يلملم أو نضاد (29)

(26) جار أبى داود اختلفت الروايات فى تسميته ففى النقائض المصدر السابق انه هلال بن كعب بن مالك. وفى الشعر والشعراء 238/3 قال ابن قتيبة «وكان أبو عبيدة يذكر أن جار أبى داود كعب بن مامة» وفى شرح ديوان الحماسة قال التبريزى 27/3 «ان جار أبى داود الحارث بن همام».

(27) ويروى البيت منيع وسط عكرمة بن قيس — نقائض 408/1.

(28) ذات الرمث موضع والحدأ جمع حدأة وهى طائر جارح.

(29) ابن قرط هو أبو هلال ربيعة الخير المذكور فى البيت الاسبق. ويلملم ونضاد جبلان.

وقد فطنت بعض المصادر الى هذا الخلط، وحاولت أن تعطى حكما غير مباشر فيه، بأن فصلوا أبيات الهجاء في الربيع وحمل بن بدر عن أبيات المديح في ربيعة بن قرط، فذكروا الاولى أول أيام الحرب، وذكروا الثانية في موضعها من القصة عند لجوء قيس الى ربيعة. وبذلك يتجنبون اختلافها ولعلها هى الرواية الصحيحة (30). غير أننا لا نستبعد كونها قصيدتين اتفقتا وزنا ورويا، غفل عنها الرواة أو اخطأ بها الناسخون عن جهل. ونستبعد ان يقع في هذا الغلط أو السهو عالم مثل أبى عبيدة وغيره، وهو الذي كان في بيته ديوان العرب.

وقيس عندما يفتخر، لا ينسى أنه لم يبلغ ما بلغه الا بقبيلته وقومه، ولولاهم لكان نسيا منسيا. وقد علمته حادثة الدرع مع أبناء عمه درسا لن ينساه . ولذلك ظله يحرص على وحدة قومه بعدئذ، فلم يفرط بأحد. وقد انعكست هذه العصبية وآثارها على نفسه بشكل جعله يلتزم بها حتى النهاية. ولا غرابة فالشاعر الجاهلى يعبر بصدق عن مفاخر قومه ونفسه، وبالاخص اذا كان رئيسا لقبيلة، فان اشادته بكل أمجادها وفخره بتاريخها فرض عليه قبل سواه. اذ أن كل قول يقوله يسير في القبائل ويتنقل بين مجتمع شبه الجزيرة، ويؤخذ عنه اكثر مما يؤخذ عن شاعر آخر، أو فرد من أفراد القبيلة نفسها، فالظلم الذي أصابه من ذبيان ابت عبس كلها أن تغمض عينها عنه، وان جاء الاحتجاج على لسان قيس :

كرهنا أن يقر الخسف فينا ... دفعنا بالمهندة الحداد

ومن هنا نستخلص تعليل الظاهرة البارزة في قصة الحرب وهى أن قيس بن زهير يسجل أحداث الحرب ووقائعها أولا بأول، مراعيا

(30) المفضل بن سلمة — الفاخر ص 220 والميدانى مجمع الامثال 58/2 وذكرها العينى فى شرح الشواهد الكبرى 230/1 كلها فى الربيع بن زياد حول حادثة الدرع ولم يذكر ابيات المدح فى ربيعة بن قرط وزاد عليها الابيات التالية :

جزيتك يا ربيع جزاء سوء ... وقد تجزى المقارض بالايادى
وما كانت بفعلة مثل قيس ... وان تك قد غدرت ولم تغاد
أخذت الدرع من رجل أبى ... ولم تخش العقوبة فى المعاد
ولولا صهر معنى لكانت ... به العثرات فى سوء المقاد

جميع الاعتبارات المذكـورة في الرئاسـة والفخر والحماسة. وهو حتى في الهجـاء يعبـر بلغـة الجمع عما في النفـوس (31) :

تعرفـن مـن ذبيـان مـن لـو لقيتـه
بيـوم حفـاظ طـار في اللهـوات

ولـو أن سافـى الريـح يجعلكـم قـذى
لاعيننـا مـا كنتـم بقـذات (32)

ولعل شعـر الرثاء عند قيس متميـز بخصائص، لم نجدها عند غيره من الشعراء. ورثاؤه الذي جمعنـاه يدخل في دائـرة الفخـر والحمـاسة بلا نـزاع ، بل يكاد يكون فخـرا وحماسة، يرفع من شـأن القتيل ويفضله على من سـواه من اعدائه. ثم يعـد بأخذ ثـأره متهددا، ثم يتطـرق لذكر الامجـاد، كانه بذلك يذكـر خصومه بما أنزلـه فيهم من العـذاب. أمـا التوجـع والدموع فليس لهما في شعـره أثـر، وقد تقـدم ذكر الابيـات التى قالهـا في أخيه مالك وهـى تصور هذه الخصائص :

أخي والله خيـر من أخيكـم | اذا ما لم يجد بطـل مقامـا

ويتكرر الامر نفسه في رثائه لقرواش بن هنى عندما ظفرت به فزاره وقتلتـه فقـال قيـس يرثيـه (33) :

مالى أرى ابلى تحن كأنهـا | نـوح تجاوب موهنا أعشارا (34)

هذا الالـم الدفيـن ، وهذا الحزن الموجع، أبت أنفـه صاحبه أن يفصـح عنه، فنقله الى ابلـه التى يقتلها الحنين والشوق الـى ارض الوطن في جنوب «مويسل» وغيرها. ولكن ما وقع يمنع ذلك، وقد اصـاب منهم قوما كثيرين. وكانه بذلك يـرد عليهم فخرهم بقتل قرواش. ثـم يعود الى حديـث الثـأر والتهديد، فوعـد بالغارة والتزاور فـوق ظهـور الخيـل :

---

(31) الخالديان — الاشباه والنظائر 198/2 والحماسة البصرية «باب الهجاء» وابن نباته — السرح ص 121.
(32) سافى الريح : الريح التى تسفى التراب. والأبيتان تصغير لشأن ذبيان.
(33) المفضل الضبى.. أمثال العرب ص 39.
(34) نوح نساء ينحن والاعشار جمع عشر وهو ان يرد المـاء فى اليـوم التـاسع. والموهن بعـد صدر من الليل.

لـن تهبطـى أبـــدا جنـــوب مويســـل
وقــنـــا قــراقــرتيـــن والامـــوارا

أجهلـــت مــن قــوم هرقــت دمــاءهـــم
بيــدي ولم أدهــم بجنــب تعـــارا (35)

ان الهـــوادة لا هـــــوادة بيــنــنـــا
الا التجـاهـــد فاجهـــدن فـــــزارا

الا التــزاور فـــوق كـــــل مقلـــــص
يهــدي الجيــاد اذا الخميــس أغـــــارا

فـلاهبِطــن الخيـــل حـــرِ بــلادكـــم
لحـق الايــاطــل تنبــذ الامهـــــارا (36)

حتى تـزور بــلادكـــم وتــرى بهــــا
منكـم ملاحم تخشــع الابصــــارا (37)

وفي رثاء قيس تبـرز ظاهرة «الانصاف» واضحة، فلقـد وقـف بعـد معركة «جفـر الهبـاءة» وقد أفزعه مشهـد الدمـاء تجري سيولا في أرض غطفــان، وعز عليــه القتيــل برغم عداوتــه فجعل يرثيه . وهو أول شاعر يرثــى مقتولــه (38) :

تعلـم أن خيـر النـاس ميـــت علــى جفـر الهبـــاءة مــا يريـم
ولـولا ظلمــه ما زلـ تـأبكـــى عليــه الدهـر ما طلـع النجـــوم

وفي هذه القصيدة مصداق قولنا للذي بسطناه في شعر الرثاء عند قيس بــن زهير : ذلك أنه أبت عليــه انفته أن يجلس ليـذرف دمعة علي قتيل : ولكنه يريـد أن يبكـى، الا أن البكــاء يمتنــع عليه لان المقتــول كــان ظالمــا ، ولولا ظلمــه لبكــاه الدهــر ما دامت النجـوم طالعــة، وقد جاء استعمالــه للاداة «لـولا» مناسبــا، ومع ذلــك فان قيســا كان سيبكيــه

(35) ادهــم ادفــع ديتهــم.
(36) لحق الاياطل اللاحقة الظامرة وهى الخيل اذا ضمرت.
(37) الملحمة الحرب ذات القتل الشديد، الحرب العظيمة.
(38) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 35 أبو تمام — ديوان الحماسة (المرزوقى) 428/1 والاغانى 221/17 وغيرهما وفى بعض المصادر «لايريم بدلا من ما يريم» والمذكور فى أعلاه هو الاصح لان لا للدعاء وليس هذا موضعها.

فعــلا، لان المقتــول لـيــس من قومه، فــلا يدخل ضمن خطة قيس في رثاء قتلاه، لان ابــن القبيلة بطل لا يستحق من قيس دمعة فانية ، بل خلودا باقيــا وثــارا شافيــا.

وفي هذه القصيــدة تظهر عيوب الرواة وجنايتهم على الشعــر الجاهلي، فالابيات متنافــرة، يأبى ان ياخذ بعضها برقاب بعض كما يقولـــــون، وفجوات الانتقال بين الاغراض واسعة، ففي البيتين اللذين يليان المطلـع غير المصــرع، ما يــزال الشاعر في صــدد رثاثة لحذيفــة بن بــدر، وأن كـــان قد انتقل فجأة لهجــاء أخي حذيفــة، وهو انتقــال له ما يسوغه : وبعــض شارحي الابيات ظنــوا أن المرثــى والمهجو واحــد (39)، هو حمل بــن بــدر. ولكن الصحيح عند من ذهب الى أن الرثــاء في حذيفــة، والهجــاء في أخيه حمل ابــن بــدر، وان كان الشاعــر قد عــاد ووصـــف حذيفــة بالظلــم :

ولــولا ظلمــه ما زلت أبكـــــى عليــه الدهــر ما طلــع النجــوم
ولكــن الفتــى حمل بــن بــــدر بغــى والبغي مرتعـــه وخيــــم

فالظالــم هو حذيفــة بــن بــدر، حيث امتنع عن دفع السبــق، والباغــى هو أخوه حمل بن بدر. ثم ينتقل الى الحكمة فيسوق الواحدة تلو الاخرى.

أظن الحلم دل علــى قومــي وقــد يستجهل الرجل الحليــم

ويصــف حاله مع الذين أنكــروا عليــه سبقــه :

ألاقي من رجــال منكــرات فأنكرها وما أنــا بالظلـــوم

وفي البيــت اقــواء ملحــوظ (40) :

وخروج قيس من الرثــاء الى الحكمة لــه ما يبــرره، لانهما غرضان قريبــان من بعضهما، قرب ما بين المــوت وحكمته من صلـــة قديمــة. فلطالمــا كانت حكمــة الموت وما تــزال شغل الفلاسفــة والمفكرين، وان أحدنا في مشهــد المــوت ليصبح أكثــر تأملا في الحياة.

وعلى الرغــم من هذا الرثاء البليــغ ، فان الشــاعر لم ينس الظلم الذي صبه القتيــل على قوم الشاعر، والبغــى الذي كان محــور حيـــاة

(39) المصادر الســابقة.
(40) فى البيتين اللذين يليان هذا البيت أيضا حيث تتبدل حركة الروى الى الكسر.

أخيه حمل بن بدر. وكان حذيفة يؤيد أخاه في كل ما يذهب اليه. لقد اجتمعت هذه المميزات وهذه المعاني كلها في مرثيته.

وتظل ذكرى دماء قتلى «الهباءة» عالقة في في ذهن شاعرنا حتى يعترف بذنب لم يسبقه الى الاعتراف بمثله أحد. وكأنه بذلك يتمم رسالته الانسانية في اعطاء قبائل العرب المتقاتلة درسا بليغا. لقد ظلت نفسه الحاقدة التي أعماها طلب الثأر على حقدها وعماها. فلم يشفه الا ادراك الثأر فأدركه، وشفى ثم ندم فكأنما «ذهبت السكرة وجاءت الفكرة». وتكشف هذه الابيات ندمه حيث يقول (41) :

شفيت النفس من حمل بن بدر … وسيفى من حذيفة قد شفاني
فان أك قد بردت بهم غليلى … فلم أقطع بهم الا بناني
قتلت باخوتي سادات قومي … وقد كانوا لنا حلي الزمان

وظلت فكرة الندم هذه تطارد قيسا، فكانت ابياته المؤثرة التي بلغت احد عشر بيتا، يصور فيها اعوام الحرب واحداثها في فكر منظم دل علي اتزان وعمق (42) :

ولقد أجمعت المصادر المختلفة، دون استثناء ، أن قيس بن زهير كان كارها لهذا الرهان في أوله ولم يرغب فيه. وشعره يؤيد ذلك، ففيه تهويل للحرب، وتذكير للقوم بوجوب الصلح والعودة الى الاحلام. وكان يسفه رأي سنان بن حارثة المري الذي كان يزين لحذيفة الحرب. وظل يدب في الفساد دبيب النمل الى حجرها ليفسد بين القوم. ثم أطلق قيس على الاقوام لقب جدهم «بغيض بن ريث» لعله يحرك في القوم أنبل عاطفة لها خطرها في نفس البدوي، ويصف لهم الحرب بأنها وعرة، مضلة، وطريق السلم بانها امنة سهلة، لكى يستطيع أن يصل بصوته اليهم ، ويستجيبوا الى النداء المخلص حقنا للدماء (43) :

يود سنان لو يحارب قومنا
وفي الحرب تمزيق الجماعة والازل (44)

---

(41) أبو تمام — ديوان الحماسة — المرزوقى — 203/1.
(42) السجستانى المعمرين 145.
(43) المفضل بن سلمة — الفاخر ص 222 الميدانى — مجمع الامثال 58/2.
(44) الازل : التشتت والتفرق.

يـــدب ولا يخفـــى ليفســـد بيننــا
دبيبــا كمــا دبــت الى حجرهــا النمــل

فيــا ابنـــى بغيـض راجعا السلم تسلمـا
ولا تشمتــا الاعــداء يفتــرق الشمـــل

وان سبيـــل الحــــرب وعــر مضلــة
وان سبيـــل السلـم آمنــة سهــــل

ومع الزمـن رانت على نفس قيس احـزان عميقـة، تبـدو آثارهـا في نغمتـه اليائسـة في نشـدان السلـم (45) :

لحا الله قوما ارثوا الحـربِ بيننا — سقونا بها مرا من الشرب اجنـب
وحرملة الناهيهـم عـن قتـالنـا — وما دهـره الا يكـون مطاعنـا

ويقـــول (46) :

ان تـك حـرب فلـم اجنها — جنتهـا صبارتهـم أو همـو

وعالج قيس أغراضا شعرية أخرى، فله في المـدح مقطعات ولكنه مدح لاشخاص يضارعون قيسا في المكانة. وطابع مدحه يتسم بالصدق تعبيرا ومضمونا، كمدحه لربيعـة بن قـرط المار ذكره أول هذا الحديث، ومدحه للربيـع بن زيـاد يتسم بهذه السمات فيقـول (47) :

لعمـرك مـا أضـاع بنـو زيـاد — ذمـار ابيهـم فيمـن يضيـــع
بنـو جنيـة ولـــدت سيـوفـا — صـوارم كلها ذكـر صنيـع (48)
شـرى ودي وشكري من بعيـــد — لآخـــر غـالـب ابـدا ربيـــع

والحكمة في شعـر قيس مبثوثـة خلال أبيات القصائـد والمقطعات : مع أن شعـر الحرب يكـاد يخلـو من الحكمـة وعمق الفكرة. ولكن قيسا أغنته خبراته، وطول تأملاته في الحـرب والحياة، ولم تمنعه ضغائـن العصبية، أن يكون حكيما ذا فكـر عميق يتدبر أمر هذه القتول الكثيـرة التى تذهب بلا ذنب ودون جنايـة :

---

(45) المفضل الضبى — أمثال العرب ص 39 وأبو عبيدة — نقائض 100/1 .
(46) المرجع السابق ص 32 وأبو عبيدة 92/1.
(47) شرح ديوان الحماسة — التبريزى 24/3.
(48) الذكر من صفات السيف.

أما خلو شعر قيس من الغزل والنسيب، فيرجع الى أنه رجل سياسة وحرب، شغلته المعارك بأمورها، وصرفته السياسة وشئون القبيلة عن التفرغ للغزل. وربما وجدت في مطالع قصائده ابيات في الغزل، ضاعت مع ضياع القصائد.

ومن خصائص شعره الفنية، وضوحه وابانته، وخلو معناه من التعقيد، ولغته من وحشى اللفظ، كانما كان ذلك منه مقصودا، يدرك معنى زعامته، ووجوب ايصال أفكاره الى أبناء قبيلته والقبائل الاخرى، ونحن نعلم، أن الشعر كان سلاحا ماضيا يستخدم لكسب المعركة، وقيس كان رجل قضية، من أجلها نذر حياته، ولم تكن تهمه النتائج بمقدار ما يهمه ارتفاع مكانة عبس، واستتباب الصلح بين قبائل قيس، والقبائل العربية كما طالعنا بذلك شعره.

شعر قيس بن زهير

قال قيس بن زهير يذكر حادثة الدروع مع بنى زياد، ويتطرق الى مقدمات حربه مع بنى ذبيان :

- 1 -

ألم يبلغك والانباء تنمى ... بما لاقت لبون بنى زياد (1)
ومحبسها على القرشي تشرى ... بأدراع واسياف حداد (2)
جزيتك يا ربيع جزاء سوء ... وقد تجزى المقارض بالايادي (3)
وما كانت بفعلة مثل قيس ... وان تك قد غدرت ولم تفاد
اخذت الدرع من رجل أبى ... ولم تخش العقوبة في المعاد
ولولا صهر معنى لكانت ... به العثرات في سوء المقاد
كما لاقيت من حمل بن بدر ... واخوته على ذات الاصاد (4)
هموا فخروا علي بغير فخر ... وذادوا دون غايته جوادي (5)
وقالوا قد قمرناه خداعا ... وأين الخدع من مائة الجياد
كرهنا أن يقر الخسف فينا ... دفعنا بالمهندة الحداد
فمهلا يا حذيفة عن بناتى ... فان القول مقتصد وعادي
وكنت اذا منيت بخصم سوء ... دلفت له بداهية نآد
بداهية تدق الصلب منه ... فتقصم أو يجوب عن الفواد
وقد دلفوا الى بفعل سوء ... فالفونى لهم صعب القياد
وكنت اذا أتانى الدهر ربق ... بداهية سددت لها نجادي (6)

الـم يعلـم بنـو الميقــاب أنى كريـم غيـر مغتلـث الزنــاد (7)
أطـوف مـا أطـوف ثـم آتــي الـى جـار كجـار أبـى دواد (8)
اليـك ربيعــة الخيـرِ بن قــرط وهوبا للطريـــف وللـتـــــلاد
كفانى مـا أخـاف أبـو هـــلال ربيعــة فانتهـت عنــى الاعــادي
تظـل جيـاده يجمـزن حــولـى بذات الرمث كالحدأ الغوادي (9)
كأنــى اذ أنخــت الى ابــن قــرط عقلت الى يلملم أو نضــاد (10)

مصــادر التخريــج :

المفضل الضبى ـ أمثال العرب ص 32 وابو عبيدة النقائض 96/1 الابيات كلها عـدا البيت الثالث والرابـع والخامس والرابع عشر. والمفضل بن سلمــة بن عاصــم ـ الفاخر ص 220 ، 223 ، 231 (الابيــات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20) أبــو الفــرج الاغانــى 131/17 ، 132 (الابيــات كلهــا عــدا 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 ـ 9 ـ 10 ـ 11) الشريف المرتضى الامالــى 210/1 الابيــات (7 ـ 8 ـ 14 ـ 15) الميــدانى ـ مجمع الامثال 58/2 ـ 59 ـ 64 الابيــات (1 ـ 2 ـ 3 ـ 7 ـ 8 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20) العينــي ـ شــرح الشواهــد الكبرى 230/1 الابيات (3 ـ 4 ـ 5 ـ 6) ابن عبد ربــه العقــد الفريد 67/3 ، 68 (بــولاق) الابيات (1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12) شروح سقط الزنــد ص 1449 ، 1822 (الابيات 1 ـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 5 ـ 12) معجــم البلدان مــادة (أصاد) (الاول والسابع] سرح العيون ص 157 (البيت السابع والثامن والثانى عشــر والرابع عشر) السيوطى ـ شرح شواهد المغنى ص 329 (الاول والثانى والثالــث) البغدادي ـ خزانة الادب 535/3 (الابيــات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12 ـ 3 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 21) نهايــة الارب 357/15 (الابيــات السابــع والثامن) لويــس شيخو ـ شعراء النصرانية 926/1 ـ 927 (الابيــات 1 ـ 2 ـ 7 ـ 8 ـ 12 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ـ 19 ـ 20 ـ 21.

1 ـ الفاخر ، شروح سقط الزنــد، وامثال الميدانى، والعقد الفريــد وشــرح شواهد المغنى، ومعجم البلــدان ، والعمــدة 211/2 وشــرح ابن الانباري للقصائد السبع الطوال الجاهليات ص 459 (ألم يأتيك) بــدل (ألــم يبلغك) «وهو شاهد مشهور يأتى به النحويون) انظر سيبويه 15/1 و 59/2 والانصاف ص 17 قال «أراد ألم يأتك، فأشبع الكسرة فنشأت

اليـاء «ألم يأتيـك» . واشباع الحركـات حتى تنشـأ عنها هذه الحروف، كثيــر في كلامهـم».

2 ـ الفاخر، وامثال الميدانى «ومحبسها لدى القرشى».

7 ـ شروح سقط الزنـد ، والعقد الفريـد، ونهايـة الارب «وما لاقيت.»

8 ـ الفاخر، أمالى المرتضى، أمثال الميدانى، العقد الفريد، شـرح العيـون، خزانـة الادب «وردوا دون غايتـه جوادي».

12 ـ العقـد الفريد «دلفـت لـه بداعيـة الفـواد».

13 ـ خزانـة الادب «بقصـم أو تجـرب ..»

16 ـ أبـو عبيـدة «ويروى غيـر معتلـث»

17 ـ خزانة الادب 539/3 «أحاول ما احـاول»

18 ـ خزانـة الادب :

منيع وسط عكرمـة بن قيـس وهـوب للطريف وللتـلاد

20 ـ الاغانى وشيخو «يجرين حولى» خزانة الادب «يعسلن حولـى»

21 ـ خزانـة الادب «انخـت الى يلملـم».

معـانـى المفـردات :

1 ـ يتطرق في الحديث الى درعه التى أخذها منه الربيع، وامتنع عن ردها، فاطرد من ابل الربيع ما يقرب من خمسمائة برعائهـا وباعهـا، واشترى بأثمانها خيـلا ، كان داحـس من بيـن هذه الخيـول «روايـة ابـن الاثيـر».

2 ـ القرشى هو عبد الله بن جدعان، ومنه اشترى قيس دروعـه وسيوفه لحرب هوازن ادراكا لثأر أبيـه.

4 ـ 5 ـ يقول : ان ما اصابنـى من ظلم بنى زيـاد، أصابني مثله مـن قبل بنى بـدر بذات الاصاد، عندما انكـروا سبقى بردهم جوادي عن غايتـه وكـان فائـزا.

6 ـ الريـق ما يتقلـد به. والنجـاد حمائل السيـف.

7 ـ الميقاب المرأة التى تلـد الحمقى. والمغتلث الذي لا يوري مـن الزنـاد. والمعتلث الذي لا خير فيـه.

8 ـ أبـو دواد احد اسياد الجاهلية، وكان شاعرا، أجـاره الحـارث ابن همام من ذهـل بن شيبان . فخرج صبيان الحى يلعبون في غدير، فأغرق الصبيان ابن أبى دواد فقتلوه ، فوقف الحـارث وقال : لا يبقى صبى في الحـى الا وغـرق أو يرضى جـاري فأرضـوه بديـات عـدة.

9 ـ يجمزن يسرعن . وذات الرمـث موضـع.

10 ـ يلملـم ونضـاد جبـلان.

ـ 2 ـ

وقـال يرثـى قتلى «جفـر الهبـاءة»، وهو أول شاعـر يرثى مقتوله:

تعلـم أن خيـر النـاس ميـت ... على جفـر الهبـاءة مـا يريـم
لقـد فجعـت به قيـس جميعـا ... موالـى القوم والقـوم الصميـم
وعـم بـه لمقتلـه بعيـد ... وخـص بـه لمقتلـه صميـم
ولـولا ظلمـه مـا زلـت أبكـي ... عليـه الدهـر مـا طلـع النجوم
ولكـن الفتـى حمـل بـن بـدر ... بغـى والبغـى مرتعـه وخيـم
أظـن الحلـم دل علـى قـومـي ... وقد يستجهل الرجل الحليم (1)
فـلا تغشـى المظالـم أن تـراه ... يمتـع بالغنـى الرجـل الظلـوم
ولا تعجـل بأمـرك واستدمـه ... فما صلـى عصـاك كمستديم (2)
ألاقـى مـن رجـال منكـرات ... فأنكرهـا ومما أنـا بالغشـوم
ولا يعـييك عـرقـوب لـلأي ... اذا لم يعطك النصف الخصيم(3)
ومارسـت الرجـال ومارسونـى ... فمعـوج علـي ومستقيـم

تخريـج الابيـات :

المفضل الضبى ـ أمثال العرب ـ ص 35 وابو عبيـدة ـ النقائـض 96/1 (الابيـات عدا الثانى والثالـث والرابـع) المفضل بـن سلمـة ـ الفاخر ص 227 (الابيات الاول والرابع والخامس والسادس والتاسـع والحادي عشر) ابـن هشام ـ السيـرة النبوية 287/1 (البيت الخامس)

البكري ـ سمط اللالى ص 581 (البيت الاول) الاغانى 17/138 (الابيات كلها عدا الثانى والثالث) الحماسة بشرح المرزوقى 1/428 (البيت الاول والرابع والخامس والسادس) أمالى المرتضى 1/214 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) أمثال الميدانى 2/62 (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) ابن الاثير ـ الكامل 1/353 (الاول والثانى والثالث والرابع والخامس) العقد الفريد 3/70 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) المرزبانى معجم الشعراء ص 97 (السادس والحادي عشر) أمالى القالى 1/261 الاول والرابع والخامس والسادس) الزمخشري ـ اساس البلاغة ص 289 ، 424 ، 636 (الرابع والثامن) ابن نباته ـ سرح العيون ص 140 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) خزانة الادب 3/538 (الاول والرابع والخامس والسادس والتاسع والحادي عشر) نهاية الارب 15/361 (الاول والرابع والخامس والسادس والحادي عشر) لويس شيخو ـ شعراء النصرانية 1/920 (الابيات عدا الثانى والثالث).

1) النقائض والاغانى والحماسة وأمالى المرتضى وامثال الميدانى والكامل (ابن الاثير) وسرح العيون وشعراء النصرانية (لا يريم) الامالى وسمط اللالى (ألم تر أن خير الناس أضحى) والميدانى «خير الناس طرأ». وقد ذكر ابن الاثير البيت في موضعين على الوجه الاتى :

(أ) الم تر أن خير الناس أمسى على جفر الهباءة لا يريم

(ب) أقام على الهباءة خير ميت وأكرمه حذيفة ما يريم

2) أساس البلاغة «سجيس الدهر ما طلع النجوم» أي طوال الدهر سرح العيون «ما بدت النجوم» (7) أساس البلاغة (استدمه) بدل (أن تراه).

(10) شعراء النصرانية (لا يعتبك عن قرب بلاء).

معانى المفردات

1 ـ قال المرزبانى في تفسير هذا البيت «ليس قوله يستجهل الرجل الحكيم، بمعنى ينسب الى الجهل. وانما هو بمعنى يستخرج

الجهل من الحليم، يريد أن حلمه جرأ عليه قومه فتوعدهم بقوله وقد يستدعى الجهل من الحليم.

2 ـ صلى عصاك كمستديم، أي فما قوم عصاك مثل الامر الذي تداوم عليه، وكنى بتصلية العصا عن تسوية الحال واصلاحه. وصلى العصى على النار أو بالنار لومها ولينها وقومها. وفي البيت والذي يليه اقواء ملحوظ. وقال ابو عبيدة في تفسير البيت «يقول عليك بالتأني واياك والعجلة فان العجول لا يبرم أمرا، كما أن الذي يثقف العود اذا لم يجد تصليته على النار لم يستقم له». وقال الزمخشري «استدمه تأن فيه. وفلان يصلى عصا فلان أي يدبر امره».

3 ـ يقول «اذا لم ينصفك خصمك فادخل عليه عرقوبا يفسخ حجته»

ـ 3 ـ

وقال في مجاورة النمر بن قاسط، بعد اعتزاله الحروب :

ان يوم الهباة اورثني الذل فصبحت ظالما مظلوما (1)
كان ظلمي قتل سراة بني بدر فأصبحت بعدهم مرحوما
فخضبت السنان من ثغر القوم وكانوا للناظرين نجوما
كان ثاري لمالك بن زهير واحدا كان فيهم معلوما (2)
فقتلت الجميع من حذر الثكل لقد كنت في الدماء نهوما
كأن ظلمي وكان ظلمهم امس عظيما ورأيهم موصوما
لطم القوم داحسا حذر السبق لقد كان داحس مشئوما (3)
ظلمونا بقتلهم وظلمنا معشرا كان يومهم محتوما
ان للنمر في اجارتها الجار وأمن الطريد حظا عظيما (4)
يأمن الجار فيهم وترى وسطهم ذا خئولة وعموما
يملا الدلو قبل دلو أخى النمر وما حوض جارهم مهدوما

التخريج :

أبو حاتم السجستانى ـ كتاب المعمرين ص 145.

معـانــي المفـردات :

1 ـ يوم الهباة هو يوم جفـر الهباءة الذي قتل فيه حذيفة بن بـدر الفـزاري واخوته، وقد نـدم قيس على قتلهـم.

2 ـ مالـك بن زهير العبسى، أخـوه. وهو أول قتيـل في الحــرب رثـاه عنتـرة .

3 ـ في كتب الامثال «اشأم من داحس» ثم يوردون خبر الحرب.

4 ـ يريد النمر بن قاسط، وكان قيس تزوج في هذه القبيلـة بعـد اعتزالـه الحـرب.

ـ 4 ـ

وقـال يذم أناسا سعـوا في الحـرب واشعال نارهـا :

لحـا الله قومـا ارثـوا الحـرب بيننـا
سقونـا بهـا مـرا من الشـرب آجنا (1)
وحرملــة النـاهيهــم عـن قتـالنـا
ومـــا دهـره الا يكـــون مطـاعـنــا
أكلـف ذا الخصييـن ان كـــان ظـالمــا
وان كـان مظلومـا وان كـان شاطنا (2)
خصـاه امـــرؤ مـن اهـل تيمـاء طابـن
ولا يعـدم الانســى والجـن طابثـــا (3)
فهـلا بنــى ذبيـــان وسـط بيـــوتهــم
رهنــت بمـر الريــح ان كنــت راهنـا
وخالستهـــم حقـــى خـــلال بيوتهـم
وان كنـت القـى من رجـــال ضغائنــا
اذا قلـت قـد أفلـت من شــــر حنبـص
لقيـت بأخـــرى حنبصـا متبـــاطنـــا
فقـد جعلـت اكبـادنـا تحتـويهـــــم
كما تحتـــوي سوق العضـــاة الكرازنا (4)
تـدروننــا بالمنكـــزات كـأنمـــا
تـــدرون ولدانـا ترمـى الرهـادنـا (5)

تخريـج أبيـات القصيـدة :

المفضل الضبى ـ امثال العرب ص 39 وابو عبيـدة ـ النقائض 1/100 (الابيات كلها) المفضل بن سلمة بن عاصم ـ الفاخر ص 223 (الاول والثالث والخامس) والميدانى ـ مجمع الامثال 2/65 (الاول والثالث والخامـس) والجاحظ ـ كتاب الحيوان 1/20 ، 21 (الثالث والرابع والخامس والسابع والثامن) شعـراء النصرانية 1/932 (عدا الرابـع والخامس).

3) الجاحظ (وان كنت مظلوما وان كنت شاطنا) الميدانى (وكايـد ذا الخصييـن).

4) الحاحـظ (طائـر) بـدل (طابـن).

5) الحيوان والفاخر ـ وامثال الميدانى «فهلا بنى ذبيان امك هابـل» الجاحظ «رهنت بهيف الريـح».

7) الجاحظ «أتانـى بأخرى شـرة متباطنا».

معانـى المفـردات :

1 ـ أرثوا اشعلوا . والماء الآجن . المتغير الطعم واللـون.

2 ـ أراد بذي الخصيين ، الاسير الذي كان يعقب اليهودي في زوجته بعد غيبته، فلما ضبطه خصاه، فطالب آسره قيسا بديته.

3 ـ الطابن الفطن، يقول : خصاه يهودي من تيماء وكلفونى ديته.

4 ـ العضاه، كل شجر له شوك. الكرازن المعـاول. الواحد كرزيـن وترمـى من الترمـى.

5 ـ تدروننا تختلوننا . الرهادن جمع رهدن، وهو شبيه بالعصفور

ـ 5 ـ

وقـال يرثـى أخـاه مالـك بن زهيـر :

أخـي والله خيـر مـن أخيكـم — اذا مـالـم يجـد بطـل مقامـا
أخـي والله خيـر مـن أخيكـم — اذا مـالـم يجـد راع مساما (1)
أخـي والله خيـر مـن أخيكـم — اذا الخفـرات أبديـن الخداما (2)

قتلت بـه أخـاك وخيـر سعـد — فان حربا حذيف وان سلاما (3)
تـرد الحـرب ثعلبـة بـن سعـد — بحمـد اللـه يرعـون البهامـا
وتغنـى مـرة الاثريـن عـنـا — عـروج الشاء تتركـه قيامـا (4)
وكيـف تقول صبر بنـى حجـان — اذا غرضوا ولـم يجدوا مقاما (5)
ولـولا آل مـرة قـد رأيتـم — نواصيهن ينضـون القتامـا (6)

التخـريـج :

المفضل الضبى ـ أمثال العرب ص 39 وابو عبيدة ـ النقائض 102/1 (الابيات كلهـا) وشعراء النصرانية 931/1 (الابيات عدا السادس)

2) ابـو عبيـدة : مساما بفتـح الميم ويـروي مساما، بالضم.

معانـى المفـردات :

1 ـ مساما (بالفتح) يقال سامت الابل مساما بالفتح ويقال اسمتها مسامـا بالضـم .

2 ـ الخفرات ، النسـاء المحتجبـات في خدورهن . الخدام الخلخال يقول : اخـى في الروع عندما يشتد فـزع النسوة راكضات وقد كشفن عن اسؤقهـن ، خيـر من أخيكـم.

3 ـ حذيف ، حذيفـة بـن بـدر

4 ـ العروج من الشـاء ، العدد الكبيـر منهـا

5 ـ اذا غرضـوا ، اذا ملـوا في هـذا الموضـع

6 ـ نواصيهـن ، نواصى الخيل ، والقتام الغبـار

ـ 6 ـ

وقـال :

مالـى أرى ابلـى تحـن كأنهـا — نـوح تجـاوب موهنـا أعشـارا
لـن تهبطى ابـدا جنوب مويسل — وقنـا قراقرتيـن والامـوارا
اجهلت من قوم هرقـت دماءهـم — بيـدي ولـم أدهم بجنـب تغـارا
ان الهـوادة لا هـوادة بيننـا — الا التجاهـد فاجهـدن فـزارا

الا النزاور فوق كل مقلص — يهدي الجياد اذا الخميس أغارا
فلاهبطن الخيل حر بلادكم — لحق الاباطل تنبذ الامهارا
حتى تزور بلادكم وترى بها — منكم ملاحم تخشع الابصارا

التخريج :

المفضل الضبي ـ أمثال العرب ص 39 وأبو عبيدة ـ النقائض 102/1 وشعراء النصرانية 931/1 .

7) شيخو (وتروا بها)

معاني المفردات :

1 ـ نوح ، نساء ينحن . والاعشار جمع عشر وهو أن يرد الماء في اليوم التاسع، وهذا مثل . والموهن بعد صدر الليل.

2 ـ الخطاب للابل. وجنوب مويسل : وقناقراقرتين والاموار، كلها مواضع.

3 ـ لم ادهم لم ادفع ديانتهم ، وتغار موضع :

ـ 7 ـ

وقال قيس بن زهير في مسيره الى بنى بدر بعد ارتحاله عن أهل مكة :

أسير الى بِنى بدر بأمر — هم فيه علينا بالخيار (1)
فانِ قبلوا الجوار فخير قوم — وان كرهوا الجوارِ فغير عار
اتينا الحارث الخير بن كعب — بنجران وأي لجا بجار
فجاورنا الذين اذا أتاهم — غريب حل في سعة القرار
فيأمن فيهم ويكون منهم — بمنزلة الشعار من الدثار (2)
وان نفرد بحرب بنى ابينا — بلا جار فان الله جاري

التخريج :

ابن الاثير ـ الكامل 345/1.

معــانــــى المفــردات :

1) يقول هم الذين يختــارون ، فان قبلوا جوارنا فنعم القوم هــم، وان كرهوا ذلك فليس عــارا علينا لانهم ابنـاء عمومتنـا، وما يخزبنا يخزيهم

2) الشعار ظاهــر اللباس والدثار بطانته ، يريد أن جارهم يصبــح منهــم ويخلطونــه بعيالهــم.

ـ 8 ـ

وقــال يمدح الحــارث بن ظالــم المري. وكان الحــارث قتل خالــد بن جعفــر بزهيــر بن جذيمــة :

جـزاك الالــه خـيـرا مــن خلـيـــــل
شفـى مــن ذي تبولتـــه الخلـيـــلا (1)

أزحــت بهـــا جــوى ودخـيـل نفــس
تمخـــخ اعظمــى زمـنـــا طـويــــلا

كســوت الجعفـــري أبـــا جــــزيء
ولــم تحفـــل بــه سيفـــا صقيــلا (2)

أبــــأت بــــه زهيــر بنــى بغـيــض
وكـنـــت لمثلهـــا ولهـــا حمـــولا (3)

كشفـ تـلـه القنــاع وكـنـــت ممـــن
يجلـــي الـعـــار والامـــر الجلـيـــلا

التخـــريـــج :

الاغــانــى 11/98 .

1) التبولــة الذحـل والعـداوة

2) الجعفــري خالد بن جعفــر العامري ، قتله الحــارث بن ظالم المري ثــارا لزهيــر بن جذيمــة العبســى .

3) أبــأت من بــاء الدم بالــدم اذا أدرك ثــأره .

- 9 -

قـال قيس بن زهيـر في الربيـع بن زيـاد :

ان تـك حـرب فلـم أجنهـا ... جنتهـا صبارتهـم أو هـم (1)
حـذار الـردى اذ رأوا خيلنـا ... مقـدمها سـابـح أدهـم (2)
عليـه كمـى وسـرِ بـالـه ... مضاعفـة نسجهـا محكـم
فـان شمـرت لـك عن ساقهـا ... فويهـا ربيـع ولا تسأمـوا
نهيـت ربيعـا فلـم ينزجـر ... كمـا انزجـر الحارث الاضجم (3)

التخـريـج :

المفضـل الضبى - امثال العرب ص 32 وابو عبيـدة النقائض 1/92 وأبو الفرج - الاغانى 17/132 وشعـراء النصرانيـة 1/927.

1) الاغانـى (خيارهم) بدل (صبارتهم) وشيخو [جناها خيارهـم]

4) شيخـو (ولـم يسأمـوا).

5) شيخو (نهيت ربيع فلم يزدجر) . ابو عبيدة (ويروى الحـارث الاحـذم).

معـانـى المفـردات :

1 - صبارتهـم ، خيارهـم

2 - السابـح ، السريـع الجـري.

3 - الحارث رجل من ضبيعـة بن ربيعـة بن نزار، وهو صاحـب المربـاع .

- 10 -

وقـال :

أينجـو بنـو بـدر بمقتـل مالك ... ويخذلنـا في النائبـات ربيع (1)
وكـان زيـاد قبلـه يتقـى بـه ... من الدهـر ان يـوم الم فظيـع
فقل لربيـع يحتذى فعل شيخـه ... ومـا الناس الا حافـظ ومضيـع
والا فمالى في البـلاد اقامـة ... وأمـر بنـى بـدر علـي جميـع

التخريج :

ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ 1/348

معاني المفردات :

1 ـ بنو بدر ، حذيفة واخوته، وربيع هو الربيع بن زياد. والابيات حث من قيس للربيع بن زياد ان ينهض مع قومه العبسيين لحرب الذبيانيين .

ـ 11 ـ

وقال :

يود سنان لو نحارب قومنا
وفي الحرب تفريق الجماعه والازل (1)
يدب ولا يخفى ليفسد بيننا
دبيبا كما دبت الى حجرها النمل
فيا ابني بغيض راجعا السلم تسلما
ولا تشمتا الاعداء يفترق الشمل (2)
وان سبيل الحرب وعر مضلة
وان سبيل السلم آمنة سهل

التخريج :

المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص 22 وامثال الميداني 2/58.

معاني المفردات :

1 ـ الازل التشتت والتمزق

2 ـ ابنا بغيض عبس وذبيان المتقاتلان .

ـ 12 ـ

وقال يمدح بني زياد ، وهم الكملة :

لعمرك ما اضاع بنو زياد ذمار ابيهم فيمن يضيع
بنو جنية ولدت سيوفا صوارم كلها ذكر صنيع (1)
وجارتهم حصان لن تزنى وطاعمة الشتاء فما تجوع
شرى ودي وشكري من بعيد لآخر غالب ابدا ربيع (2)

التخريج :

الاغانى 20/16 (بولاق) (الابيات 2 ـ 3 ـ 4) والحماسة بشرح المرزوقى 469/1 وشعراء النصرانية ص 931 (الابيات 1 ـ 2 ـ 4).

2) الاغانى قواطع بدل صوارم.

4) شرى ودي ومكرمتى جميعا طوال زمانه منى الربيع

معانى المفردات :

1 ـ صنيع أي مصنوعة من أجود أنواع المعدن، أراد مدحهم.

2 ـ غالب جدهم وهو من عبس أيضا، وتعتبر من العائلات الكبيرة فيها الى جانب «بنى بجاد وجروة وجذيمة وغيرهم».

ـ 13 ـ

وقال قيس بن زهير حين أخذ منه سلمة بن قشير فداء حاجب بن زرارة ألف بعير، ثم أخذ منه للزهدميين مائة ناقة :

جزانى الزهدمان جاء سوء وكنت المرء يجزي بالكرامة (1)
لقد دافعت قد علمت معد بنى قرط وعمهم قدامة
اجاثيهم على الركبات حتى اثبتكم بها مائة ظلامة

التخريج :

أبو عبيدة ـ النقائض 425/1 وأبو الفرج ـ الاغانى 41/10 (بولاق)

2) الاغانى (بنو قرط)

3) الاغانى :

ركبت بهم طريق الحق حتى اثبتهم بها مائة ظلامة

معانى المفردات :

1 ـ الزهدمان ، زهدم العبسى واخوه، طالبا بدية حاجب لدى قتله في معركة (شعب جبلة). وكان زهدم اطلق حاجبا على الثواب

والثواب عطاء الاسير لاسره جزاء ابقائه على حياته (انظر تفصيل الحارث في قصة الحرب).

2 ـ اجاثيهم ، اي جلست على ركبتى متحفزا للخصومة ضدهم حتى أعيد لكما حقا انكروه عليكما ، وكان جزائى منكما الجحود والنكران .

ـ 14 ـ

وقال قيس بعد صلحه مع الربيع لكى يفرغ لحرب بنى بدر واحلافهم :

فان تك حربكم امست عوانا	فانى لم اكن ممن جناها (1)
ولكن ولد سودة أرثوها	وحشوا نارها لمن اصطلاها (2)
فانى غير خاذلكم ولكن	سأسعى الآن اذ بلغت مداها

التخريج :

المفضل بن سلمة ـ الفاخر ص 224 وأمثال الميدانى 2/59 والعقد الفريد 3/68 منسوبة الى الربيع بن زياد وشعراء النصرانية 1/799 منسوبة لعنترة ، وهى في ديوانه ينازعه في نسبتها الربيع .

معانى المفردات :

1 ـ الحرب العوان التى اشتعلت مرة بعد مرة.

2 ـ ولد سودة ، أراد حمل بن بدر واخوته.

ـ 15 ـ

وقال وقد ندم على اسرافه في القتل :

شفيت النفس من حمل بن بدر
وسيفى من حذيفة قد شفانى
فان أك قد بردت بهم غليلى
فلم اقطع بهم الا بنانى
قتلت بأخوتى سادات قومى
وقد كانوا لنا حلي الزمان

التخـــريـــج :

الابيــات في عيون الاخبار المجلــد الثالث 7/88 والحماسة بشـــرح المرزوقى 1/203 (الاول والثانــى) والبكري ـ سمط اللالــئ ص 583 (الاول والثانــى) وامالى القالى 1/262 (1 + 2) والمرزبانى ـ معجـــم الشعراء ص 198 (2 + 3) وشعــراء النصرانية ص 924 (1 + 2) وامالى المرتضــى 1/214 (الاول والثانــى).

3) في معجـم الشعــراء :

قتلــت باخوتــى سادات قومــى	وهم كانــوا الامان على الزمــان
فان أك قــد شفيت بذاك قلبــى	فلــم أقطــع بهـم الا بنــانــى

ـ 16 ـ

وقـــال :

كـم فــارس يــدعــى وليــس بفــارِس
وعلى الهبــاءة فــارس ذو مصـــــدق
فابكـــوا حذيفـــة لــن ترثــوا مثلـــه
حتــى تبيــد قبــائـل لـــم تخلـــق

التخـريـــج :

ابن هشام ـ السيــرة النبويــة 1/306

ـ 17 ـ

وقـــال :

تعرفن من ذبيان من لولقيتـــــه	بيوم حفاظ طار في اللهــوات (1)
ولو أن سافى الريح يجعلكـم قذى	بأعيننــا مــا كنتـم بقـــــذاة

التخـــريـــج :

الخالديــان ـ الاشباه والنظائـر 2/198 والحماسة البصرية (بـــاب الهجــاء) ابن نباتة ـ سرح العيون ص 141 وشعراء النصرانية 1/931.

معانـي المفـردات :

1 ـ اللهوات لحمة سقف الفم، وفي البيت تصغير لشأن الذبيانييـن وكذلك البيت الذي يليه، حيث استحقر أمرهم بحيث لا يكونون حتى بمقدار قذاة في عيـون العبسيين.

ـ 18 ـ

وقـال :

اذا أنـت اقـررت الظلامـة لامـرىء
رمـاك بأخـرى شعبها متفـاقـم (1)
فـلا تبـد للاعـداء الا خشـونـة
فما لـك منهـم ان تمكـن راحـم

ابن نباتة ـ سرح العيون ص 142 شيخو ـ شعراء النصرانية 932/1

1) أي أمرهـا أشـد خطـرا من سابقتهـا.

ـ 19 ـ

وقـال يخاطب مالكـا اخـاه :

امالـك لا تامـن فـزارة واخشهـا
فـانـك ان تـامـن فـزارة هـالـك
أمـالـك أن تحسب مقامـك فيهـم
صوابـا فقـد اخطـأت في الـرأي مـالـك

التخـريـج :

شـرح التبريـزي على الحماسـة 24/3

ـ 20 ـ

وقـال في الحـارث بـن ظالـم المـري :

ومـا قصـرت من حاضـن ستـر بيتهـا
ابـر وأوفـى منـك حـار بـن ظالـم
اعـز وأحمـى عـنـد جـار وذمـة
واضـرب في كـاب مـن النقـع قاتـم (2)

التخـــريـــج :

الاغانى 119/11 والعقـد الفريد 150/5

1) الكابى العظيـم . أراد الغبار القاتـم العظيـم .

- 21 -

وقـال يـرد على عـروة بـن الـورد :

لا تشتمنى يا ابن ورد فاننـــى تعـود على مالى الحقـوق العوائد

أتهـزأ منى أن سمنت وقد تـرى بجسمى مس الحـق والحق جاهد

التخـريـــج :

أبو عبيـدة البكري ـ التنبيـه ص 112

1) كان عروة يعير قيسا بأنه أكول مبطان، ويعرض به في أشعاره

2) هذا البيت يروى في وجوه مختلفة منسوبا الى عروة نفسه، والحق مـا اثبتـه أبو عبيـدة .

- 22 -

ولـه يقـول قيس بـن زهيـر أيضـا :

اذنب علينـا شتـم عروة خالـه بقرة أحسـاء ويـومـا ببـدبـد

هلـم الينـا نكفـك الامـر كلـه فعالا واحسانا وان شئت فابعـد

التخـريـــج :

ابـو عبيـد البكري ـ التنبيـه ص 112 .

1) قرة احساء وبدبد ، مواضع معروفة في شبه الجزيرة.

- 23 -

وقـال قيـس بن زهيـر :

متـــى تتحـــزم بـالمنـاطـق ظـالمـا

لتجـري الـى شــأو بعيـــد وتسيـح

تكـــن كالحبـاري ان اصيبـت فمثلهـا

أصيـب وان تفلـت مـن الصقـر تسلح

التخـريـــج :

الجاحظ ـ كتـاب الحيـوان 5/448.

1) المناطـق جمع منطقـة وهى ما يشـد به الوسط. والشأو الغاية. ويسبـح يسـرع في جريــه.

2) الحباري ضرب من الطير، اذا داهمها الصقر تسلح من شدة الذعر

ـ 24 ـ

قال قيس بن زهير في معرض الـرد على من يفاخره من القرشيين :

تفاخرنى معاشـر من قـريــش بكعبتهــم وبـالبلــد الحــرام
فاكـرم بالـذي فخـروا ولكـن مغـازي الخيـل دامية الكــلام
وطعـن في العجاجـة كـل يــوم نحور الخيـل بالاسـل الدوامـى
أحب الى من عيـش رضــــي مـع القرشى حـرب أو هشــام
وما عيـش ابن جدعـان بعيـش يجـر الخـز في البلـد التهامـى

البلاذرى (احمد بن يحيى) أنسـاب الاشـراب مخطوطة الورقة 1.94 أ مخطوط عاشر افنـدي 8/597 استنبـول.

ج. 1 طبـع محمد حميد الله ـ القاهـرة 1959 م.

ج. 3 طبـع جاو سينجـر ـ القـدس 1968 م.

ج. 5 طبـع كويتيـن ـ القـدس 1926 م.

نقـلا عن بحث بعنوان مكـة وتميـم مظاهـر من علاقانهـم .

البـروفيســور م. ج. كستــر تـرجـمـة الاستــاذ الـدكتـور يحيى الجبوري نشر في مجلـة الكتاب البغدادية سنــة 1975 طبـع دار الحريــة ـ مطبعـة الجمهـورية في 46 صفحـة .

ـ 25 ـ

وقـــال :

فما أم أدراض بأرض مضلـة بأغدر من عوف اذا الليل أظلما

التخـريـــج :

في ديــوان الطفيــل الغنوي (تحقيق محمد عبد القادر) قال ابن بري ذكر ابن السكيت ان هذا البيت لقيس بن زهيــر . وعن الاخفـش انـــه لشريـح بن الاحـوص . وقال الصاغانـــى ، البيــت لعامر ملاعب الاسنة.

مصـــادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمــر ـ خزانة الادب ولب لباب العرب ط. بــولاق 1347 .

2 ـ البكري ، عبد الله بن عبد العزيــز ـ التنبيــه ـ ط. دار الكتب المصرية 1926 ، وسمط اللالىء ، ط. لجنة التاليف والترجمـــة والنشر ـ تحقيق عبد العزيز الميمى ومعجم ما استعجم ـ ط. لجنة التاليــف والترجمــة 1949 تحقيــق السقــا.

3 ـ التبريزي ابو زكريا يحيى بن علي شرح ديوان الحماسة ط ة السعادة 1346 ط دار الكتب وشرح العقائد العشر بالقاهرة 1367 وشـــرح سقــط الزنـــد.

4 ـ ابن الاثيــر محمد بن الجزري طبعة حجرية غير مؤرخة أو كمـا يذكــر في الهامــش .

5 ـ أبــو عثمان بحــر بن عمرو . البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون والسندوبى، والحيوان ط. ساس وتحقيق عبد الســـلام هــارون.

6 ـ ابن حجر شهاب الدين ابو الفضل العسقلانى . الاصابة في تمييز الصحــابــة ـ طبعة حجريــة ـ بولاق .

7 ـ ابن أبى الحديد م. السعــادة 1323 عبد الحميــد بن وهبــة . شرح نهج البــلاغة ط. دار الكتب المصرية الكبرى (الحلبى).

8 ـ الخالديان (أبو بكر عمر وابو عثمان سعيد) الاشباه والنظائـــر ط لجنـــة التأليف والنشر والترجمــة 1958.

9 ـ الزمخشري ، جار الله ، محمــود بن عمــر . المستقصى في امثال العــرب ط. حيدر أبــاد الدكــن 1962.

10 ـ الزركلى (خير الديــن) الاعلام . ط مصــر 1927.

11 ـ السجستانى . أبو حاتم سهل بن محمد . كتاب المعمرين ط. القاهــرة 1961 .

12 ـ سيبويه الكتاب. طبعة أولى.

13 ـ الشريف المرتضى. على بن الحسين . الامالى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار احيـاء الكتب العربيـة 1954.

14 ـ الاصفهانى أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي ط. دار الكتـب أو كما يذكـر في الهامـش.

15 ـ أبن عبد ربـه احمـد بن محمد الاندلسى ـ العقد الفريد ط. بـولاق او كمـا يذكـر في الهامش.

16 ـ العينى شرح الشواهد الكبرى ، حشامية خزانة الادب للبغدادي

17 ـ ابو عبيـدة معمر بن المثنى، نقائض جرير والفرزدق، روايـة السكري ط. بريل . لنـدن 1907 ، وانساب الخيل الهند 1358.

18 ـ القالى ابو علي، اسماعيل بن القاسم ، الامالى والنوادر ط دار الكتـب المصريـة .

19 ـ ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم . الشعر والشعراء. ط. دار المعـارف بمصـر.

20 ـ لويس شيخو اليسوعى شعراء النصرانية القسم الاول.

21 ـ المرزبانى محمد بن عمران معجم الشعراء . ط. عبد الستـار احمـد فـراج.

22 ـ المفضل بن سلمة بن عاصم. الفاخر ط. وزارة الثقافة والارشاد القومى القاهـرة 1960.

23 ـ المفضل بن محمد الضبى ـ المفضليات . شرح ابن الانباري ط. لايل 1920 . ديوان المفضليات تحقيـق عبد السـلام هارون، أمثال العرب مطبعـة الجوائب سنة 1300 هـ. قسطنطينيـة.

24 ـ الميدانى أبو الفضل ، احمد بن محمد . مجمع الامثال ط القاهـرة 1955 م.

25 ـ ابن نباتـة جمال الدين محمد . سرح العيون ط. مصر 1321 ه

26 ـ ابن الانباري ابو بكر محمد بن القاسم . شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات دار المعارف بمصر 1962.

27 ـ النويري احمد بن عبد الوهاب . نهاية الارب في فنون الادب ط دار الكتـب المصريـة .

28 ـ ابن هشام ابو محمد عبد الملك السيرة ط. السقا ورفيقه 1955
29 ـ الانباري الانصاف في مسائل الخلاف ط. السعادات.
30 ـ د. يحي الجبوري ـ مكة وتميم ـ مقالة مترجمة للاستاذ م. ج كستر ـ نشر مجلة الكتاب البغدادية ـ سنة 1975 مطبعة الجمهورية بغـــداد.

شعر الربيع بن زياد

حياته :

هو الربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان، وينتهي نسبه الى عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وغطفان حي من اكبر احياء قيس بن عيلان بن مضر بن نزار (1).

وام الربيع فاطمه بنت الخرشب، واسم الخرشب، عمرو بن النضر ينتهي نسبه الي انمار بن بغيض بن ريث بن غطفان (2). فابوه القيسى وامه الانماريه يلتقيان نسبا وموطنا في غطفان ، ألارض الكبيرة من بلاد نجد التى امدت شبه الجزيرة العربيه، والعالم الاسلامى فيما بعد، بأعظم رجالاتها.

ومن المناسب ان نذكر، في هذا الموضع، بشيء من الكلام عن أمه التى اشتهرت بين قبائل العرب بعقلها وتدبيرها، فنقلت عنها الكتب القديمة اخبارا في مناسبات مختلفه. وقد بلغ من تقدير الناس لها حدا أن معاوية لما سال العلماء يوما عن البيوتات والمنجبات وحظر عليهم ان يتجاوزوا في البيوتات ثلاثة وفي المنجبات ثلاثا ، عدوا فاطمة بنت الخرشب فيمن عدوا (3) .

(*) توخينا فى حياة هذا الشاعر الفارس «من العصر الجاهلى» الايجاز لكى نوسع للشعره وللتحقيق.

(1) أبو عبيدة. النقائض 193/1 والاغانى (دار الثقافة) 116/17 وابن حزم جمهرة الانساب ص 248 (مع) اختلاف بسيط، ذكر معاوية بدل سفيان) والبكرى معجم ما استعجم ص 1178 وعمر رضا كحالة معجم قبائل العرب 728/2 (قيس بن عسلان).

(2) أغانى 116/17 ولويس شيخو — شعراء النصرانية 787/1.

(3) أغانى 117/17.

وكان الربيع يلقب «بالكامل» لاكتمال صفات الرجل والفارس فيه من شجاعة وفصاحة وحزم وكرم، الى جانب السيادة وشرف المحتد من ابيه وأمه. وقد سئلت فاطمة أمه في صفته فقالت «لا تعد مآثره، ولا يخشى في الجهل بوادره» (4).

وقال فيه خاله سلمة بن الخرشب يمدحه (5) :

أتيتم الينا ترجفون جماعة — فأين أبو قيس وأين ربيع
وذاك ابن اخت زانه ثوب خاله — وأعمامه الاعمام وهو نزيع
رفيق بداء الحرب طب بصعبها — اذا شئت رأس القوم فهو جميع
عطوف على المولى ثقيل على العدى — أصم عن العوراء وهو سميع

وأما أخوته فهم : عمارة بن زياد ويدعى الوهاب ويلقب «دالقاء» (6) وانس وهو «انس الفوارس» ويدعى «الواقعة» أيضا وقيس ويقال له «البرد» والحارث وهو «الحرون» ومالك وهو «لاحق» وعمرو وهو «الدارك». ولما لقى عبد الله بن جدعان امهم فاطمة وهى تطوف بالكعبة وسألها عن بنيها أيهم أفضل، قالت «الربيع لا بل عمارة .. لابل أنس. ثكلتهم ان كنت أدري أيهم افضل ..» وكل فرد من هؤلاء قاد جيشا ورأس قبيلة فاشتهروا الى جانب الشجاعة ، بالعقل والحكمة.

وكانت للربيع مكانة عالية لدى الملك النعمان بن المنذر الى أن اوقع بينهما لبيد بن ربيعة العامري الشاعر (7)، فوقعت القطيعة . ولم تنفع الربيع محاولاته في رأب الصدع واعادة الحال الى سابق عهدها. لان الملك النعمان تأثر بشعر لبيد ـ ولبيد آنذاك غلام صغير يدين بالفضل الى الربيع لانه ربى أمه، فالربيع بمنزلة خالة ـ ولم يلتفت الملك الى صدق الشعر أو كذبه، يتجلى ذلك في قول النعمان نفسه :

قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا — فما اعتذارك من قول اذا قيلا (8)

---

(4) المصدر السابق.
(5) المصدر السابق.
(6) وذكر أبو عبيدة فى النقائض 193/1 (الدالق الدلو من دلق القارة على العدو. وعماره قتله سرحان بن المثنم فى خبر ذكرن أبو عبيدة. وقال الفرزدق يفتخر :
وهن بشر حاف تداركن دالقا — عمارة عبس بعد ما جنه العصر
(7) اغانى 117/17 والجاحظ فى الحيوان 174/5 وبسط خبره مفصلا السيد المرتضى فى أماليه 189/1.
(8) والبيت مروى بوجوه أخرى. وهو مادة للغويين يوردونه فى شواهدهم.

وكان الربيع في مطلع حياته مجاورا ابناء عمومته في غطفان مع قبيلته عبس الى أن وقعت حادثه الدرع التى اشتراها قيس سيد عبس واميرها من القريشي بمكة واخذها الربيع عنوة، فتحول عن جوارهم الى جوار فزارة من بني ذبيان ابناء عمه ايضا. وتزوج من «معاذة» ابنة حذيفة أمير ذبيان الذي كان يدعى «رب معد» في الجاهليه، وكان يخاطب بتحية الملوك فيقال له «ابيت اللعن» (9) والتى ابطلت في الاسلام ولم تكن كفرا. لكن الربيع عاد فرجع الى قومه يوم اشتعلت الحرب الكبيرة بين الحيين العظيمين في غطفان وانجرت اليها كل الاحياء العربية، ودارت رحى الحرب في ارض الجزيرة ودامت اربعين سنة، فالتزم الربيع جانب قومه العبسيين، وكان الفارس الشاعر لهذه الحرب، وأخباره فيها كثيرة (10). وهو صاحب الفكرة التى نصرت قبيلته عندما نصح قومه بالدخول في حلف بني عامر، لان عامرا كانت تدعى «حجر العرب» والربيع قال : «والله لارمين العرب بحجرها» (11) ونجحت خطته، مع أن دخول اهله مع العامريين، أطفأ جمرة أخرى من جمرات العرب كانت متقدة الى حين قريب قبل دخول الحلف المذكور. واشتهر في الشجاعة، فعرفته العرب بأنه قاتل مسعود بن مصاد الكلبى يوم «عراعر» وكان مسعود رئيس كلب وفارسها الشجاع، واحد جراري (12) العرب ، فبرز له الربيع وطلب لقاءه فالتقيا، وفيما هما يتبارزان تعانقا وسقطا على الارض فثار به الربيع وقطع رأسه، فهجمت عبس على كلب والرأس محمول على رمح، وانتصر العبسيون بفضل هذه العملية الحربية.

ومات الربيع فرثاه ورثى أخاه عمارة رجل من طي فقال (14) :

فان تكن الحوادث جربتني ... فلم أر هالكا كابني زياد
هما رمحان خطيان كانا ... من السمر المثقفة الصعاد
تهال الارض أن يطئا عليها ... بمثلهما تسالم أو تعادي

---

(9) المفضل الضبى ــ أمثال العرب ص 30 والجاحظ ــ البيان والتبين 328/1 وانظر خبر حادثة الدرع فى ابن الاثير ــ الكامل فى التاريخ 350/1.
(10) المفضل الضبى ــ أمثال العرب ص 26 وأبو عبيدة ــ النقائض 105/1.
(11) أبو عبيدة ــ النقائض 660/2 (خبر يوم «شعب جبلة»).
(12) قال أبو عبيدة : الجرار من قاد من الجيش ألفا أو عشرة آلاف.
(13) ابن الاثير ــ الكامل فى التاريخ 354/1.
(14) 117/17 وذكر أن قائل الابيات «الربيع بن عمارة» وانظر الابيات من أمالى القالى 207/1.

ولم تتحدد لنا سنـــة وفاته لا على وجه التحديد ولا على وجه التقريب، لكننا نرجح أن تكون خلال العشرة الاولى من الهجرة. وذكر الزركلـــي في أعلامه انه توفى في (590 م ـ 30 قبل الهجرة). وما أظنه صحيحـــا. لانه ـ كما ذكرت المصادر (15) ـ شارك في مفاوضات أول صلح للحـــرب، وورد لـــه ذكر في الصلح الثانى أيضا، وبين الصلحين عام واحد. وقد أورد ابن الاثيـــر في الكامـــل ان الصلح الثانـــى الذي دفع ديـــه القتيل العبسى فيه سنان بن ابى حارثـــه المري، كان معاصـــرا للاسلام، لان ديه هذا القتيل كانت مائتى ناقـــه، دفع سنان منها مائـــه وحـــط الاسلام عنـــــه مائـــة (16). ونحن ـ لذلك ـ نرجح ان وفـــاة الربيع ليست ببعيدة عـــن وفـــاة قيس بن زهير التى حددها صاحب الاعلام في (631 م ـ 10 هجريه) وهو تحديد معقـــول، لان فـــارق العمر بينهما ليس كبيرا. وكلاهما عاصـــر الحرب منذ البدء حتى الختام. فكيف يعقل ان يكون فرق وفاتهما احـــدى واربعين سنة ؟ .. ونحن اذا استندنا الى تاريخ الزركلى في وفاته يصبـــح لدينـــا أن الربيـــع لم يـــدرك هذه الحـــرب مطلقا ، وهو أمـــر ترفضه كـــل مصادر التحقيـــق المتوفـــرة لدينـــا.

شعـــره :

لم يصل الينـــا من شعر الربيع بن زيـــاد الا مقطعات صغيرة وبضع قصد لا تتجاوز اطولهن اربعة عشر بيتـــا. وهذا الذي وصل الينا هـــو عبارة عن استشهادات الرواة والمؤرخين والنحويين واللغويين وغيرهم في الموضع الذي يبحثون فيه. فيأخذ المؤرخ او اللغـــوي او الباحث القدر الذي يعنيـــه أو يسعف روايته وخبره، ويترك بقية الابيات. لهذا تنتشـــــر في المجموعات الشعرية ظاهرة المقطعات والابيات المفـــردة، وأما القصائد الثلاث الاخريات فيرجع الفضل في حصولنا عليها الى اصحاب «الحماســـــــــات والاختيارات» . فشعـــره اذن ضاع مع ضياع الشعـــر الجاهلى.

---

(15) المفضل الضبى ـ أمثال العرب ص 41 وأبو عبيدة ـ نقائض 105/1 والمنضل بن سلمة ـ الفاخر ص 219 وابن الاثير ـ الكامل 344/1 وابن عبد ربه العقد الفريد 67/3 والزركلى الاعلام (قيس) و (الربيع).

(16) ابن الاثير ـ الكامل 359/1 (6) انظر محاضرة الحوفى فى توثيق الشعر الجاهلى محاضرة عامة . طبع أم درمـــان 1967.

ومن الغريب حقا أن يغفل القدماء شعر الربيع فلا ترد اشارة منهم الى ديوان للربيع في جميع المصادر، مع أن صاحب الاغانى عده مع من عدهم ممن يعرفون القراءة والكتابة في العصر الجاهلى. فأحرى برجل مثل الربيع أن يدون شعره ويجمعه بنفسه طالما انه يقرأ أو يكتب. لكن شيئا من هذا لم يؤثر عنه ولا عرفنا خبره. ومع ذلك ففى المصادر اشارات الى قصائد طويلة كانت موجودة واطلع عليها العلماء. فآخر اشارة وردت لدى التبريزي عندما استشهد ببيت للربيع قال عنه أنه من قصيدة طويلة. واشارة أخرى لابن هشام حيث أورد بيتا للربيع أيضا وقال : وهذا البيت من قصيدة له . والقصيدتان مفقودتان الى اليوم ولم نحسس لهما على أثر (17).

وما جمعناه من شعره مضافا الى ما جمعه الاب لويس شيخو اليسوعى، يؤيد ايضا أن لهذا الشاعر شعرا كثيرا ضاع ولم يصل. فقد أضفنا الى مجموعة شيخو ستة وثلاثين بيتا هى عبارة عن «قصيدة باربعة عشر بيتا واخرى بسبعة أبيات ومقطوعتين بستة أبيات، وثالثة ببيتين، ورابعة ببيت واحد». اضافة الى مقطوعة بخمسة ابيات يتجاذب نسبتها الشاعر قيس بن زهير .

وجل شعره الذي بين ايدينا يتسم بطابع الحماسة والفخر. وهو طابع يسم غالبية الشعر الجاهلي، حتى أخذ المؤلفون في القرون الاسلامية المتقدمة، يطلقون على مجموعاتهم واختياراتهم اسم (دواوين الحماسة) لغلبة أشعار الحماسة على سواها. ومع ذلك، ففى المجموعة شعر في الرثاء وعتاب الاهل والاصدقاء والزمان، يتخلل هذا كله وصف جميل يزين به مطالع ابياته. وظاهرة الحماسة والرثاء والوصف في شعر الربيع ليست غريبة عليه، لانه، كما ثبتنا في مطلع هذه المقالة، كان فارسا استنزفت الحروب سنى حياته، ولم يكن له شغل سواها.

وعلى العموم فاننا لا نستطيع ان نقول في شعره أكثر مما قلناه، وهى حقائق الغرض منها التثبيت ليس اكثر، تعين من يبحث في العصور القديمة، وتكون دالة يهتدى بها الباحث الى كثير من مآربه في الشعر الجاهلى. وقلة

---

(17) أنظر ابن هشام — السيرة 186/1 والتبريزى — شرح ديوان الحماسة 24/2.
(18) أنظر شعراء النصرانية 792/1.

شعـرِ الربيع تجعله ممتنعـا عن اعطاء ايـه فكـرة شخصيه للـــدارس يتوسع فيها، الا انــه يكون قطرة لهـا نفس مميزات وخصائص البحــر العظيم الــذي تنتمــى اليــه. وعسى ان يسعفنـا البحث والتنقيــب في مستقبــل الايــام بالمزيــد.

– 1 –

قــال الربيــع بن زيــاد يصــف الحــرب :

جــاءوا معـــا فيلقــا جـــأواء مشعلـــه
للمــوت تمــري وللابطـــال تقتســر (19)
صريف أنيابهــا صـــوت الحـديـد اذا
فـض الحديـث بهـا ابناؤها الوفـر (20)
ودرهـــا المـوت يقـــري فـى مخالبهـا
للواردـيـن يوفــى شربــه القـــدر (21)
مــن اقتراهــا قــرت كفــاه حتفهمــــا
أو اجتـلاهـا بـــدا منهـا لــه عـبـــر
في جوهـا البيـض والمـاذي مختلـــط
والجـرد والمـرد والخطـيــة السـمــر
حتــى اذا واجهتهـــم وهــى كـالحـــة
شوهــاء منها حمــام الموت ينتظـر (22)
جــاءت بكـــل كمــى معلـــم ذكـــرِ
في كفــه ذكـــر يسعــى بـــه ذكـــــر
مستــورديــن الوغــى للمـــوت ردهـم
يــوم الحفــاظ علــى ذوادهـم عســـــر

---

(19) الفيلق : الجيش العظيم. وجأواء : حمراء ضاربة الى السواد. ومشعلة : فيها نــار. وتمرى : من مرى يمرى أى تحتلب الموت وتقتسر : تقهر.
(20) صريف : صوت.
(21) يقرى : يطعم.
(22) الذكر : الشجاع والسيف والفرس. وقد وردت فى البيت بالمعانى الثلاثة.

لهـم سرابيـل من مـاء الحديـد ومـن
نضـح الدمـاء سرابيل لهم أخـرِ (23)

مظـاهـرات عليهـم يـوم بـأسهـم
لونان جون وأخـرى فوقهـا حمـر (24)

في يـوم حتـف يهـال النـاظـرون لـه
مـا أن تبين لـه شمس ولا قـمـر (25)

فالبيـض يهتفـن والابصـار طـامحـة
ممـا تـرى وخـدود القـوم تنعفـر

تكسـوهم مرهفـات غـيـر محـدثـة
يشفى اختـلاس ضباها من به صعر (26)

هنديـة كاشتعـال البـرق يعصمهـم
بهـا مغـاويـر عـن احسابهـم غـيـر

1 ـ البيت في الاشباه والنظائر 2/142 واما في الحماسة البصرية 1/59 فعلى الوجه الآتـي :

قيدت لهم فيلق شهباء كالحة بالموت تمري وللابطال تقتسر

2 ـ في الحماسة البصرية 1/59 عض الحديد بدل فض الحديـث.

3 ـ في الحماسة البصرية 1/59 للواردين يوافى وردها الصـدر.

4 ـ في الاشباه والنظائر 2/144 البيت على الوجه الآتـي :

من امتراها مرت كفاه حتفهما أو اجتلاها بـدا منها له غبر

8 ـ في الحماسة البصرية 1/59 (روادهم) بـدل (ذوادهـم).

13 ـ في الحماسة البصرية مجدية بـدل محدثـة .

مصـادر التخريـج :

الخالديـان ـ الاشباه والنظائـر 2/144 .

وصدر الديـن البصري ـ الحماسة البصرية 1/59.

(23) سرابيل جمع سربال وهو لباس المحارب.
(24) مظاهرات : أى السرابيل. من ظاهر بين الثوبين طابق بينهما والظهارة من الثوب نقيض البطانة، وجون سود.
(25) البيـض : السيـوف.
(26) أى أن هذه السيوف تمضى الى الفارس المتصعر نتذه فلا يبقى به صعر.

وقال الربيع بن زيادة يرثي مالك بن زهير :

نام الخلي وما أغمض حار
من سيىء النبأ الجليل الساري (27)

من مثله تمسي النساء حواسرا
ونقوم معولة مع الاسمار (28)

من كان مسرورا بمقتل مالك
فليأت نسوتنا بنصف نهار

قد كن يخبأن الوجوه تسترا
واليوم حين بدون للنظار

يجد النساء حواسرا يندبنه
يضربن أوجههن بالاحجار

يخمشن حرات الوجوه على امريء
سهل الخليقة طيب الاخبار

أفبعد مقتل مالك بن زهير
ترجو النساء عواقب الاطهار (29)

ما ان أرى في قتله لذوي الحجا
الا المطي تشد بالاكوار (30)

ومجنبات ما يذقن عذوفة
يقذفن بالمهرات والامهار (31)

(27) حار : حارث (مرخم).

(28) حواسرا : كاشفات عن رؤوسهن، كناية عن المصيبة.

(29) فى هذا البيت قطع، وهو عيب. وسوف نرى بعد قليل أن ابن قتيبة والشاعر البحترى يعملان على اصلاحه. والمعنى أفبعد مقتل مالك ترجو النساء أن يخلون بأزواجهن.

(30) الحجا — العقل. والمعنى ليس لاصحاب الراى والعقل سوى أن يشدوا على أحزمة خيولهم متأهبين للحرب.

(31) المجنبة مجموعة من الخيول عليها رجال مسلحون. وعذوفة — شيء من الطعام والمعنى أن خيول الحرب ضمرت ومنع عنها الطعام. وهو احسن لها فى الجرى. واجهدت حتى تقذف ما فى بطونها من الاجنة.

ومسـاعـرا صـدأ الحـديـد عليهـم
فكـأنمـا طلـى الـوجـوه بقـار (32)

يـا رب مسـرور بمقتـل مـالـك
ولسـوف يصـرفـه لشـر مـحـار

1 ـ في الحماسة ـ شرح المرزوقي 2/991 وشرح التبريـزي 3/24 وشيخو 1/792 (انى أرقت فلم أغمـض حـار). وفي الفاخـر للمفضل بن سلمـة ص 223 ومجمع الامثـال للميدانى 2/59 وخزانـة الادب للبغـدادي 3/538.

منع الرقاد فما أغمض حـار   جلل من النبأ المهم الساري

3 ـ الفاخر للمفضل بن سلمة ص 223 والامثال للميدانـى 2/59 وخزانة الادب 3/538 (من كان محزونا).

4 ـ في الخزانة 3/538 عجز البيت : يندبن بين عوانس وعذاري. وفي سرح العيون لابن نباته ص 158 : بالصبح قبل تبلج الاسحار

5 ـ في شـرح الحماسـة للتبريـزي 3/24 والمـرزوقـى 2/991 وشيخـو 1/792.

يخمشن حرات الوجوه على فتى   عف الشمائل طيب الاخبار

6 ـ في شرح الحماسة للتبريزي 3/24 والمرزوقـى 2/991 ما أن أرى في قتله لذوي القوى . وشيخو 1/792 لذوي النهـى.

7 ـ في المعانى الكبير لابن قتيبة 2/97 زهير بالتصغير ينصلح البيت، وحماسة البحتري ص 33 بمضيعـة بـدل زهيـر.

8 ـ في ديوان الحماسة للبحتري ص 22 (ما ان أرى من بعد مقتل مالك)

9 ـ في ديوان الحماسة للبحتري ص 22 (يمضغن) بدلا من (يقذفن).

مصـادر التخريـج :

المفضل الضبى ـ امثال العرب ص 30 (عدا البيت الرابع).
أبـو عبيدة ـ النقائض 1/89 (عد البيت الرابـع).

(32) المساعر ـ الابطال شديدو البأس.

وقال : في مجاورة حذيفة بن بـدر لقيـس بن زهيـر.

ألا أبلـغ بنـى بـدر رسـولا | على ما كان من شنأ ووتـر (33)
بأنـى لـم أزل لكـم صديقـا | أدافع عـن فـزارة كـل أمـر (34)
أسالـم سلمكـم وأرد عنكـم | فوارس أهل نجـران وحجـر (35)
وكـان أبـى ابـن عمكـم زيـاد | صفـى أبيكـم بـدر بن عمـرو
فالجأتـم اخـا الغـدرات قيسـا | فقـد أفعمتـم ايغـار صـدري
نحسبـى من حذيفـة ضـم قيس | وكان البدء من حمل بن بدر (36)
فـامـا ترجعـوا أرجـع اليكـم | وان تأبوا فقد اوسعت عذري (37)

الاغانـى 17/129 وشرح ديوان الحماسة للتبريزي 3/24 والمرزوقى 2/991 عدا البيت 11 الحادي عشر وبترتيب مختلف والفاخر ص 223 والميدانى ـ الامثال 2/59 الاول والثالث والرابع والسابع والسيد المرتضى ـ الامالى ـ 1/210 (عدا السادس والحادي عشر) والسيرة لابن هشام السابع فقـط. وابن قتيبـة الشعر والشعراء 1/96 الثامن والمعانى الكبير السابع. وحماسة البحتري 22 (السابع والتاسع). واللسـان مـادة عذف (التاسع). وخزانة الادب للبغدادي 3/538 (1 + 3 + 4 + 7). والسـرح لابـن نباتة ص 158 (3+4+7) وشعراء النصرانية الابيات (عدا البيت (7))

مصـادر تخريـج الابيـات :

الكامـل في التاريـخ ـ ابن الاثيـر 1/345.

---

(33) الشنأ : الشنأ : العداوة والبغضاء، والوتر : الثأر والانتقام.
(34) فزارة — حى من ذبيـان فى غطفـان.
(35) فوارس نجران وحجر، كانوا يغزون فزارة ويدفع عنها الربيع، فهو يعاتبهم بعد أن ضموا اليهم عدوه قيس بن زهير.
(36) حمل بن بدر الفزارى أخو حذيفة بن بدر لابيه.
(37) أى : ان ترجعوا الى جوارى وودى، وتتركوا جوار وود قيس بن زهير، أرجع اليم، والا فانى معذور فى عداووتكم وحربكم.

قال : الربيع بن زياد في رجوع قومه عن بنى تغلب وعودتهم الى الصلح مع فزارة :

حرق قيس علي البلاد ... حتى اذا اضطرمت أجذما (38)

جنية حرب جناها فما ... تفرج عنه ولا أسلما (39)

عشية يردف آل الرباب ... يعجل بالركض أن يلجما (40)

ونحن الفوارس يوم الهرير ... اذا تسلم الشفتان الفما (41)

عطفنا وراءك افراسنا ... وقد مال سرجك فاستقدما (42)

اذا ذعرت من بياض السيوف ... قلنا لها أقدمى مقدما (43)

1 ـ الطبري ـ تاريخ الملوك (ضرم) بدلا من (حرق).

3 ـ المرزوقى ـ شرح ديوان الحماسة 484/2 (غداة مررت بآل الرباب ...) .

4 و 5 ـ المصدر السابق .

وكنا فوارس يوم الهرير ... اذا مال سرجك فاستعدما

عطفنا وراءك افراسنا ... وقد اسلم الشفتان الفما

وفي النقائض لابى عبيدة : ويروي (اذا تقلص الشفتان الفما) 104/1 وقال في تفسيرها : من الهول.

6 ـ المفضل الضبى ـ امثال العرب ص 41 والمرزوقى ـ شرح الحماسة 484/2 وشيخو 791/1 (اذا نفرت) بدل (اذا ذعرت).

---

(38) أجذم. أسرع. اى هرب لما اشتعلت البلاد حربا.

(39) يريد أن هذه الحرب جناية جناها قيس بن زهير، فلا هى فرجت ولا اهم اسلموه لاعدائه، ولكن منعوه وثبتوا معه.

(40) يخاطب قيسا : بعد هروبك عند اشتعال البلاد مارا بالرباب (قبيلة) مسرعا بركضك دون أن تاجم فرسك. اى انك كنت مرتبكا فى وضع محرج.

(41) مال سرجك : أى اضطرب امرك، ولكننا حفظنا لك الود ونصرناك فى يوم الهرير.

(42) يقول : كنت فى دهشة من امرك. شغلك كالختان والخوف اجهدك، لكننا من ورائك نحميك.

(43) اذا نفرت افراسنا خوفا من السيوف شددنا عليها حثا وقدمناها تقديما.

مصادر التخريج : أمثال العرب ـ للمفضل الضبى ص 41 والنقائض ـ أبو عبيدة 104/1 وحماسة أبى تمام شرح التبريزي 4/2 وحماسة أبى تمام بشرح المرزوقى 484/1 بترتيب مختلف . والمعانى الكبير ابن قتيبة 73/1 (البيت الاول) والطبري 97/2 الاول فقط ولسان العرب 356/14 الاول فقط.

ـ 5 ـ

قال الربيع عندما غادر جوار بنى ذبيان ولحق بقومه :

فان تك حربكم أمست عوانا	فأنى لم أكن ممن جناها (44)
ولكن ولد سودة أرثوها	وحشوا نارها لمن اصطلاها (45)
فانى غير خاذلكم ولكن	سأسعى الآن اذ بلغت مداها

2 ـ في أشعار الستة الجاهليين ـ الاعلم 154/2 (شبوا نارها) بدلا من (حشوا نارها).

3 ـ في الاعلم 154/2 (لست خاذلكم) بدل (غير خاذلكم) (واناها) بدل (مداها) وكذلك في الفاخر للمفضل ص 224.

مصادر التخريج :

أمثال العرب ـ للمفضل الضبى ص 23 والفاخر للمفضل بن سلمة ص 224 ونسبه لقيس بن زهير والعقد الفريد لابن عبد ربه 68/3 واشعار الشعراء الستة الجاهلين ـ اختيار الاعلم 154/2 نسبها لعنترة وقال : وتروي للربيع بن زياد.

وواضح أنها للربيع كما ذكر المفضل الضبى والمفضل بن سلمة وابن عبد ربه . وحتى الاعلم ذكرها ضمن اشعار عنترة واشار الى الرواية التى تجعلها للربيع وهى رواية الاصمعى . ومعناها يدل على أنها للربيع من ذكره لمغادرة جوار بنى ذبيان واشتراكه في الحرب بعد أن بقى محايدا

(44) العوان ـ الحرب الى قوتل فيها مرة بعد مرة وهى أشد الحرب.
(45) سودة أم حذيفة بن بدر وعوف وحمل، كذا فى الاعلم وفى النقائض قال أبو عبيدة أن حمل بن بدر أمه أسدية. وقال المفضل فى الفاخر : وسودة أم بنى بدر ماخلا حملا. وبنو بدر حذيفة واخوته الخمسة أمهم سودة بنت نضلة بن عمرو بن جوية.

زمنا طويلا ، اضافة الى انها تدل من صيغتها أن القائل ليس عنترة الذي كان في أول أمر الحرب عبدا لا يوزن لم رأي ولا يقدم في الحرب شيئا ولا يؤخر ، وانما ظهرت شجاعته مؤخرا في هذه الحرب وبها عرف.

- 6 -

وقال الربيع بن زياد ، وهو فيما يقال في الانفة والامتناع من الضيم والخسف :

كن مثل مولاك اذ قال المليك له
حذيفة الخير قولا غير تعذير (46)

الحرب أحلى اذا ما خفت نائرة
من المقام على ذل وتصغير (47)

فأذن بحرب يغص الماء شاربها
أو أن ندين الى احدى التحاسير (48)

مصادر تخريج الابيات :
ديوان الحماسة جمع واختيار الشاعر البحتري ص 22.

- 7 -

وقال عندما صرفه قيس عن حرب ذبيان في معركة اليعمرية :

أقول ولم املك لنفسي نصيحة
أرى ما ترى والله بالغيب أعلم (49)

أتبقى على ذبيان في قتل مالك
فقد حش جانى الحرب نارا تضرم (50)

---

(46) حذيفة بن بدر، كان يدعى «رب معد» فى الجاهلية ويحيا بتحية الملوك . واطلق الربيع اسم المليك عليه. وكان يدعى أيضا حذيفة الخير، قتل فى معركة جفر الهباءة ومثل به أبشع تمثيل بسبب بغيه وظلمه.
(47) نارت نائرة فى القوم، هاجت هائجة. والنائر الملقى الشرور بين القوم.
(48) التحاسير : الدواهى.
(49) أى انه يؤيد نصيحة قيس فى عدم التصدى للعدو وحربه بل تركه أن يكون هو البادىء بها الى أن ينشغل بالسلب والنهب ثم يبادرونه.
(50) مالك بن زهير، شقيق قيس، قتلته فزارة ظلما وهو فى جوارهم.

مصادر التخريج : الفاخر ـ المفضل بن سلمة ص 225 والعقد الفريد ـ ابن عبد ربــه 69/3 والامثال ـ للميــدانى 60/2.

ـ 8 ـ

وقال : يحاول أن يقبل استمالة قيس له بعد افتراق وجفوة :

وأكره أن أقــر بــرد قيس وأكــره أن أسوء بنى زياد (51)

مصدر تخريج البيت : شــرح التبريزي على ديوان الحماسة 24/3.

ـ 9 ـ

وكتب الربيع بن زيــاد العبسى الى الملك النعمان بن المنذر عندما أمــره بالانصراف بعد مهاجاته للشاعر لبيد بن ربيعــة العامري في بــلاط الملك في خبر معروف ذكره الشريف المرتضى في أماليه 192/1 والرجز في ديوان لبيــد : يارب هيجا هى خير من دعــه.

فأرسل الربيع الى النعمان بهذه الابيــات :

لــئــن رحلت جمالى ان لى سعة ما مثلهــا سعة عرضا ولا طــولا
بحيــث لــو وزنت لخــم بأجمعها لم يعدلوا ريشة من ريش شمويلا
ترعى الروائــم احرار البقول بها لا مثل رعيكم ملحا وغسويــــلا
فابرق بارضك يا نعمان متكئــــا مع النطاسى يوما وابن نوفيــلا

فكتب اليــه النعمان جوابــا عن ابياتــه :

شرد برحلك حيـــث شئــت ولا تكثر علي ودع عنــك الا باطيــلا
فقد ذكــرت به والركــب حــامله وردا يعلل أهــل الشــام والنيــلا
فما انتفاؤك منه بعد ما ضرعــت هوج المطي بــه ابراق شمليــلا
قد قيل ذلك ان حقا وان كذبــــا فما اعتذارك من قول اذا قيلا (1)
فالحق بحيث رأيت الارض واسعة وانشر بها الطرفانعرضا وانطولا

(1) هذا البيت يذكره اللغويون شاهدا في خذف الاسم والاداة مع بقاء الخبر. ويروي : ان صدقا وان كذبــا .

(51) قيس بن زهير، وبنو زياد أهله، وسبب هذا التردد يرجع الى عداء قديم مع قيس بسبب حادثة الدرع التى سبقت الاشارة اليها عند معرض الحديث عن حياته.

مصـــادر التحقيـق :

الاغانى (دار الكتب) 16/22 وأمالى المرتضى 1/192.

- 10 -

وقال الربيــع بن زيــاد يرثى حمل بن بــدر :

تعلــم ان خير النــاس طــــــزا ... على جفــر الهبــاءة ما يريم (52)

ولــولا ظلمــه مــا زلت أبكـــــى ... عليــه الدهــر مــا طلــع النجـوم

ولكــن الفتــى حمــل بن بــــدر ... بغــى والبغــى مرتعــه وخــيــم

أظــن الحلــم دل علــى قومــــى ... وقــد يستجهــل الرجــل الحكيم

الاقــى من رجــال منكـــــرات ... فأنكرها وما أنــا بالظلــوم (53)

مصــادر تخريــج الابيــات :

خزانــة الادب للبغدادي 3/538 الا اننا وجدنا جميــع مصادر التحقيق التى بين ايدينا تنسب الابيات الى قيس بن زهير ، وهو الصحيح الراجح لان الخزانة انفردت بهذه النسبة. ولعل المؤلف رحمه اللــه توهم أو ربما الناســخ أو غيرهمــا والله أعلــم .

- 11 -

وقال الربيع بن زياد في مقتل مالك بن زهير.

فان طبتم نفسا لمقتل مالــك ... فنفسى لعمري لا تطيب لذلــك

---

(52) جفر الهباءة موضع فى نجد فيه آبار ماء بخرقة الاسافل، دارت عليه معركة قتل فيها حذيفة وأخوه حمل بن بدر.
(53) فى البيت أقواء.

مصـــادر البحث ومراجعه بحسب تسلسل ورودها فيه :

1 ـ البغدادي ـ عبد القادر بن عمر خزانة الادب ـ طبعة بـولاق.

2 ـ البكري ـ عبد الله بن عبد العزيز معجم ما استعجم ط ـ لجنـة التـأليـف .

3 ـ التبريزي ـ أبـو زكريـا يحيـى بن علـي شـرح ديـوان الحماسـة ـ ط 3 السعـادة.

4 ـ ابـن الاثيـر ـ محمـد بن الجزري ، الكامـل في التـاريخ ـ طبعـة حجريـة .

5 ـ الجاحظ ـ ابـو عثمان بحـر بن عمـرو ، البيان والتبيين ـ تحقيـق ـ عبد السلام . الحيوان ـ تحقيـق عبد السلام.

6 ـ ابن حـزم ـ علي بن سعيد ـ أنساب العرب ـ ط بروفنسال.

7 ـ الحوفى ـ أحمد محمد توفيق ـ الشعر الجاهلى (أم درمان 1967)

8 ـ الخالديان ـ ابو بكر عمر وابو عثمان سعيد الاشباه والنظائر ـ ط. لجنـة التـأليـف .

9 ـ الزركلى ـ خير الديـن ـ الاعلام طبـع مصر 1967.

10 ـ الشريف المرتضى ـ على بن الحسين الامالى ـ طبع الدار 1954.

11 ـ صـدر الدين على بن ابى الفـرج البصـري ـ الحماسة البصرية ط. حيـدر آبـاد .

12 ـ الاصفهانى ـ ابـو الفرج على ـ الاغانى ـ دار الثقافة.

13 ـ ابن عبد ربه ـ احمد بن محمد ـ العقد الفريد ـ ط بـولاق.

14 ـ أبـو عبيـدة ـ معمـر بن المثنـى ـ نقائض جريـر والفرزدق ط. ابـريـل .

15 ـ الاعلـم ـ يوسف بن سليمان ـ اشعار الشعراء الستة الجاهلين ط. مصـر تحقيـق عبـد المنعـم.

16 ـ عمر رضا كحالة ـ معجم قبائل العرب. طبع دمشق 1949.

17 ـ القالى ـ ابـو علي اسماعيـل بن القاسـم الامالـى . ط دار الكتـب المصريـة .

18 ـ ابن قتيبــة ـ ابو محمــد عبد الله بن مسلم ـ المعانى الكبير ـ الشعــر والشعــراء ـ طبــع مصــر.
19 ـ المرزوقى ـ ابــو علي احمد بن محمد الحسيــن.
20 ـ المفضل بن سلمــة ـ الفاخــر ط. القاهــرة.
21 ـ المفضل بن محمــد الضبى ـ امثــال العرب . مطبعة الجوائب سنــة 1300 هـ قسطنطينيــة .
22 ـ ابن منظور ـ محمد بن مكرم بن على ـ لسان العرب ط. بولاق
23 ـ ابن نباتة ـ جمال الدين محمد ـ سرح العيون ـ ط. مصر.
24 ـ ابن هشــام ـ أبو محمد عبد الملك ـ السيرة ط. السقا ورفيقيه.
25 ـ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير ـ تاريخ الرسل والملوك.
26 ـ لويس شيخو اليسوعى ـ شعراء النصرانية ـ القسم الاول.

ربيعة بن مكدم
حامى الظعينة (*)

خلاصة البحث :

هذه دراسة أدبية، تحليلة، لبطل ملحمى من أبطال الروايات العربية الكلاسيكية يدعى «ربيعة بن مكدم الكنانى» وهو شاعر فارس ، عاش في العصر الجاهلى ولم يدرك الاسلام، الا أنه عاصر أفذاذا من الجاهليين المخضرمين التقى بهم وكانت له معهم مواقف مذكورة أمثال دريد بن الصمة وعمرو بن معد يكرب الزبيدي.

ومن خلال حديثى عن هذا البطل الملحمى، تطرقت في حديث مركز الى طبيعة العصر الذي عاش فيه ربيعة من وجهة النظر الادبية الجديدة، وبخاصة قضية النصوص الشعرية التى ما زالت حبيسة في كتب التاريخ ينتفع منها المؤرخ أكثر من الاديب، فاقدة حسها الفنى المرهف وأبعادها الادبية والشعرية الممتدة عبر الاجيال ، فلم تتحسسها الامة من هذا الجانب الوظيفى الذي هو الاساس في وجودها وفاعليتها، بل حولها المؤرخون الى مجرد وثائق لعملهم الخاص، مع أنها صفحات مشرقة في الادب وليست مدونات مادية للتاريخ، وانها اذا ضمت بعض الحقائق التاريخية، فان المؤرخ كباحث يتوخى الحقيقة خالصة دون تحيز ولا مبالغة، لا يمكنه الركون اليها كليا. فهى اذن أناشيد موروثة من عصر بطولى، لا كتابات أكاديمية بحتة.

ثم بعد ذلك تعرضت لدراسة نقدية وتحليلية سريعة لجوانب متعددة من حياة ربيعة مع مقارنات لبعض ظواهر الميثولوجيا. وختمت

---

* الظعينة : المرأة فى الهودج وقد يطلق على الهودج نفسه.
والمكدم : الذى فيه أثار الكدمات لفرط مقارعة الاقران.

الدراسة بايراد الروايات الادبية والشعرية التى تضمنت سيرة هذا البطل واشعاره وأقوال معاصريه فيه. وبذلك أكون قد فتحت بابا جديدة في دراسة الادب العربى القديم، ومعالجة نصوصه وشخوصه وأبطال رواياته النثرية والشعرية معالجة أدبية جديدة، تناسب رؤية العصر الحديث وروح المعاصرة.

سيرته :

هو ربيعة بن مكدم عامر بن حرثان بن جذيمة. ينتتسب الى قبيلة كنانة (1) شاعر فارس، وهو نموذج فريد في البطولة رسمته ريشة العبقرية الروائية العربية في العصر الجاهلى، وأضاف الفلكلور الى هذه اللوحة بعدا تراثيا جديدا، انتهى يومئذ في صورة أدب شعبى ممتع، فنسى الاصل أو الشكل الادبى الرفيع أو «المثقف» لهذا النموذج واندمج في بقية النماذج الروائية الخالدة في سيرة من سير القبائل في بلاد العرب مثل سيرة العبسيين والذبيانيين، وسيرة الهلاليين، وسيرة بنى وائل من التغلبيين والبكريين (2) أبطال الملاحم المروية في أعماق الجزيرة وأطرافها المترامية من أعالى بلاد الرافدين حتى أقاصى وادي النيل. لذلك فأنا أردد دائما في كتاباتى عن الادب الجاهلى، بأننا يجب أن نشعر بالسعادة الحقيقية ونحن نكتشف بأن هؤلاء البشر المذكورين

---

(1) لا يبخل علينا الرواة بسلسلة ذهبية أسطورية لاجداد ربيعة تصل الى جدهم الاعلى كنانة — الاغانى 56/16.

(2) يراجع كتابنا : الشعر فى حرب داحس والغبراء — ط. الاداب بالنجف 1972 — فيه اضافة لسيرة العبسيين من خلال هذه الايام التى خلدتها الملحمة العربية. وقد تطورت بعد ذلك الى السيرة الشعبية (سيرة عنترة) التى أطلق عيها المستشرقون اسم : الياذة العرب وقال عنها د. شوقى ضيف : لا نبعد اذا قلنا انها تحولت الى الياذة كبرى للعرب وفروسيتهم الرائعة (العصر الجاهلى 66 و 370 طبعة رابعة) وأما سيرة التغلبيين فهى ممثلة فى الملحمة العربية الكبيرة : أيام البسوس، التى تطورت الى الملحمة الشعبية الزير سالم. وهو مهلهل بن ربيعة الذى عرف باسم سالم وعدى وامرىء القيس. والزير لقب له، سماه به أخوه كليب، عندما لم يلمس منه ميلا الى حياة الفرسان بل الى اللهو والقصف والنساء. قال مهلهل : فلو نبش المقابر عن كليب ... لخبر بالذنائب أى زير

في الشعر والنثر هم أبطال روايــات شعرية ونثريــة ممتزجة في تركيب خاص، تشكل ظاهرة متميزة في آداب العالم القديم (3).

ان اعتبار هذه الشخوص أبطال روايات، شيء طبيعي جدا لا يضطرنا على التكلف، ولا يحوجنا الى السعى وراء اثبــات حقيقتهم التــاريخية ووجودهم المادى في الجزيرة العربية، لاننــا في حــالة عدم حصولنا على أيــة ظاهرة أو أثــر يثبت هذا التواجد الزمانى والمكانى ، وكذلك اذا لــم تتأيد عندنــا هذه الابعــاد المادية والتاريخية، فاننــا سنضطر الى اغفــال الكثير من نمــاذج البطولة الاثيرة الى نفــس امتنــا العربيــة في ضوء هذا المنهج الذي لا يمت الى الادب بصلة، بل يخص عــالم التاريخ، وسنضطر ايضا الى حذف أحسن الثمار من أعمال الروائيين العرب، أيــا كــان عصرهم سواء الجاهلى أم بدايات الاسلام. ولطالما بينت بان دراسة ادبنــا العربى القديم يجب أن تكون منصبة على استثارة عوالمه الشعرية الســاحرة (4) المختفية خلف هذه النصوص، واعادة وجهها القصصى لها، ثــم ترميمهــا ونشرهــا نشرا أدبيــا، لا وثائقيا وتاريخيا فقط. فنحن بعملنــا هذا انمــا نعيد الى الوجود أدبــا مفقودا. وليس صحيحا السعى ووراء تثبيت شهــادة ميلاد هذا الادب والتمحيص في حقيقته والبحث عن بذرة الواقع فيه لنشرها وحدها. لقد وضعت هذه الاعمال الشعرية والنثريه بأيدى الروائيين كادب ونصوص لا كوثائق واقعيه أو مدونات تاريخيه. ومن هذه النقطة كان منطلقى دائما. فقد ظلت الاعمال الشعرية الكلاسيكية من بين جميع أنواع التراث الموروث ، هــدف كل دارس، وعنــاية كــل محقق ولم يتهيأ للبــاب الكبــيرة التى فتحهــا الجاحظ في بحوثه النقديه التحليلية من يواصــل منهجه العلمى، فقــد استأثر تحقيق الشعر وميدان روايتــه يومئذ بالاهتمــام وطغى على ســائر الميادين الادبية.

ومنذ عصر النهضــة الفكرية الاوروبيــة، ومردودهــا الايجــابى في العــرب، هنــاك خطــان يعمــلان بقــوة صعــودا على لوحة النتــــاج الادبــى. لكن يظل خط (تحقيق الشعر) محظوظا. ومع ذلك فما قدمت من دراســات حول شعرنــا الجاهلى، ظلت تعــالج نفس المنحى التقليدي في

---

(3) تراجع مقالتنا، الملاحم العربية ومقارنتهــا بالملاحم الكونية. مجلة الكتاب العدد 4 السنــة 1974 بغــداد.

(4) تراجع دراستنا : المنابع الثقافية الاولى للشعر الجاهلى. مجلة الكتاب العدد 4 السنة 1975.

معالجة الشعر الاموي والعباسي. ولم يلتفت احد الى طبيعة هذا الشعر ومكوناته الثقافية وسبل روايته وابطال قصصه. ولست ابتغي العودة الى الحديث عن هذه المكونات الفكريه والمنابع الاوليه، ولا في نيتي الدخول الى طبيعة هذا الشعر الوثني المكتوب في اطار قصصه بطولية يتلازم بعضها مع بعض. فقد تكفينا نظرة في سيرة مهلهل بن ربيعة خال امرىء القيس وعلاقة الاخير - في خبر طويل - بالشاعر عبيد بن الابرص أحد شعراء المعلقات ، وعلاقة مهلهل بطل ايام البسوس بالشاعرين عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة الناطقين الكبيرين باسم قبيلتيهما المتعاديتين، وبالاخص عمرو بن كلثوم، فقد كان مهلهل جده (5) فاذا التمسنا مثل هذه العلاقة في شعر النابغة وعنترة شاعري قوميهما في يوم داحس والغبراء، ثم امتدادهما الثالث في معلقة زهير بن أبي سلمى، والثلاثة من أصحاب المعلقات ذوات العلاقة بهذه الحرب، ارتسمت صورة مترابطة الاجزاء لعوالم قصصية رائعة تقدم للعصور أمتن الملاحم الشعرية، طمست ملامح الابداع فيها على يد ابناء العصور اللاحقة ومزقت أشلاء متناثرة وراء نظريات خاطئة في اعطاء الشكل النهائي لطبيعة وتركيب العصر الجاهلي .

ولو أن الشعر الجاهلي بقصصه سجل وفق معطياته الملحميه وبالصورة التي يرويها أهله حتى عصر الرسول والراشدين، لكنا وقعنا على اكبر ثرواتنا الكلاسيكية ، ثم كانت الاجيال قد صقلتها، كما صقلت اليد اليونانية الياذتها، وأيدي الهنود والفرس ملاحمهم القديمة، وكما فعل اجدادنا في وادي الرافدين عندما تعاملوا مع الاساطير السومرية تعاملا خلاقا فحولوها الى ملاحم شعرية خالدة (6) لكن النظرة الى هذا المنثور الشعري كانت رديئة جدا، يجب أن تتغير، لان النثر جزء متمم لعمل الشعر، وبدونه لا يعرف النص، وهذه من خاصيات الادب العربي وخصوصياته .

---

(5) ينظر المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على 460/9، 461 وشعر الايام الجاهلية ص06 (رسالة دكتوراه بالرونيو) والمصدر السابق. وينظر كتاب الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى للدكتور ج. هيوارث دن ص 98 فصل : القرابة بين الشعراء.

(6) الاساطير فى بلاد مابين النهرين - صمويل هنرى هوك (ط. وزارة الثقافة بغداد 1968) أنظر توزيعه للاساطير السومرية والملاحم الكونية السامية. وانظر كتاب أوغاريت للشيخ نسيب وهيبة الخازن. القسم الاول منه وهو الدراسة (ط. بيروت سنة 1961).

لقد أصاب الظاهرة خلاف ما نرجوه لها، فقد انبرت اقلام تعمل في تجريح وتقطيع هذه المرويات، مقصية أي روح للفن عنها، فكان المحقق يجري وراء أخطاء النساخ وأوهام الرواة يستقصيها ليتبتها كانها جواهر مكنونة يخشى عليها الضياع. ولم يتورعوا من ان يقولوا عن هذه الدراسات بانها جادة، وان كان - كمثال لهذه الجديه - التنقيب وراء والدة شاعر مخضرم ان كانت قبيلة «خثعم» قد سبتها حقا. وكان في مقدور الباحث، وهو قادر دون ادنى ريب، ان يقدم لنا فعلا دراسة أدبية معاصرة، تأخذ بنظر الاعتبار علميا، طبيعه المرحلة البطولية التى كان يعيشها الشعر الجاهلى في ذلك العصر الخلاق لاجمل الاساطير، وهى مرحلة تمر بها كل أمة تضرب بجذورها في الماضى البعيد، دون مناقشة ليست بذات جدوى، بشان القصائد أو الاخبار، ان كانت واقعا أو خرافة لان كل ما فكرت فيه البشرية وفعلته في مراحلها الاولية والبدائية هو واقع مقبول، ويدرس من هذا المنطلق .

وكان من حق الشاعر عمرو بن معد يكرب مثلا وهو المخضرم الذي عنيناه قبل أسطر، أن ينظر الى نفسه على أنه شاعر جاهلى انسحبت عليه كل القيم الوثنية وأضيف اليه كل المؤثرات اليمنية، ثم يوضع في موضعه من هذهه الملحمة الطويلة... ملحمة الشعر الجاهلى وحسنا فعل محقق ديوانه في ايراد كل ما ذكر حول عمرو بن معد بكرب، حتى أخبار صمصماته بأبعادها الميثولوجية وليته جعلها في المقدمة، وليته أيضا أبقى على قصص الايام وأخبارها البطولية بين ثنايا الشعر، كما فعل رواة الإخبار والاشعار الاوائل، اذن لكانت صورة الشاعر أوضح، واقترابه من واقعة المنشود - وهذا هو واقعه فعلا - أكثر ولكان شعره في الصورة المقترحة أكثر ثراء في العطاء. لكننا نصنع بالشعر الجاهلى صنيعنا بالشعر العباسى، يوم سقط هذا الشعر في عزلته، وغاب عنه وجه الانسان في ذاتية مغرقة، وكذلك صنيعنا في دواويننا المعاصرة درسا وتحقيقا، وهذا لا يصح (7) ولذلك حين قدمت للقارىء، قبل اليوم، شاعرا جاهليا «مفضليا» ثبت قبل الشعر جميع أخباره، ولم أقصر في

---

(7) لننظر فى شرح ديوان لبيد مثلا وشرح النقائض وكل ديوان ذى صنعة قديمة، كيف تتخلل «القصص» «والايام» قصائده، فيعيش القارىء عصرا من خلال الرؤية الشعرية للديوان لا يؤديها الشعر مجردا وحده.

القصص، بل كنت أرممها ترميما من مصادرها المتعددة لكي انجح في اضفاء سمات البطل الاسطوري على هذا الشاعر النابع من وجدان هذه الامة الحالمة يومئذ (8) وفعلت مثل هذا مع قيس بن زهير وغيرهما لكنني قصرت في فصل الشعر باقصائه عن ثنايا القصه وعزله في صفحات مستقلة فكنت أكتفي بايراد البيت والبيتين من القصيدة في القصه ثم احيل القارىء الى الشعر في آخر الخبر، ولم أكرر مثل هذا الخطأ الان مع ربيعة بن مكدم أحد الفرسان والشعراء الجاهليين والذي استأثر بيومين كبيرين من أيام العرب وخبرين مطولين مع الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي (10) وكان مقتله قد جر يوما آخر (11).

وليس في بطون الكتب ما يشير الى طفولة ربيعة بن مكدم ولا في ثنايا الاخبار والروايات ما يبسط شيئا من سيرته الذاتية، سوى ما يتعلق بسيرته الملحمية والبطولية التي تكون نواة العمل الادبي في العصر الجاهلي.

وأما مجتمعه الصغير :

فهو ينتسب الى كنانة، قبيلة كبيرة احتوت عددا من البطون، اشهرها «قريش» التي أرجع العلماء أصل اسمها الى جذور ميثولوجيه غريبة (12) هي جزء لا يتجزأ من التفسير الفلسفي لظاهرة الصراع المستمر من اجل نشدان الخلود الانساني (13) ومن بطون كنانة : بنو ضمرة بن بكر الذين منهم : البراض بن قيس الذي يقال فيه : أفتك من البراض وهو أحد أبطال أيام الفجار (14). وقد كان بنو الحارث بن مالك بن كنانة، ومنهم القلمس بن شمامة ممن ينسؤون الشهور (15) حتى أنزل الله تعالى انما النسيء زيادة في الكفر.

---

(8) هو الشاعر الحارث بن ظالم المرىء، مجلة كلية الاداب العدد 15 السنة 1976.

(9) قيس بن زهير — طبع الاداب بالنجف 1976.

(10) أما اليومان فهما : يوم الظعينة ويوم الكديد. وهما محققان مع خبرى عمرو بن معد يكرب فى آخر هذه الدراسة.

(11) هو يوم «برزه» وسأعود الى حديثه عند التعرض لمقتل ربيعة.

(12) أنظر القصة فى العقد الفريد 339/3.

(13) مقالتنا : «الملاحم العربية» فى مجلة الكتاب العدد 4 سنة 1974.

(14) كتاب الايام — رواية أبى عبيدة بتحقيقنا.

(15) كان من طقوس الوثنيين فى الجاهلية اذا اقتضى ظرفهم فى بعض الاعوام أن يؤجلوا الاشهر الحرم.

ولا أريد أن أستقصي كل بطون كنانة، وانما أجتزىء فأذكر منهم ابناء مالك بن كنانة، ومنهم جذل الطعان وهو علقمة بن أوس بن عمرو ابن ثعلبة بن كنانة ومن ولد جذل الطعان : ربيعة بن مكدم الذي نترجم له، وهم أشجع بيت في العرب، وفيهم يقول الامام علي بن أبى طالب لاهل الكوفة : وددت والله لو أن لى بمائة ألف منكم، ثلاثمائة من بنى فراس بن غنم بن ثعلبة (16) ويرتقى النسابون بكنانة وأسد وانهون الى «خزيمة» و «مدركة» ثم الى خِندف، وهو حي عظيم يوازي في وزنه حى «قيس عيلان» وكلاهما ينحدران من مضر بن نزار بن معد ابن عدنان (17).

وتفيدنا روايات الايام التى نوردها كاملة، محققة في آخر هذه الترجمة، أنه لم يؤثر عنه الا شعر قليل جدا، وأكثره «رجز» من النوع الذي يتغنى به الفرسان في الحروب عند اللقاء، كأنه حوار شعري في ملاحم الايام، ولا يستطيع الباحث أن يقدم رؤية تحليلية نقدية في دراسة مستقلة لشاعر واحد من شعراء الايام المقلين مثل ربيعة بن مكدم والربيع بن زياد والحارث بن ظالم وان كانوا من المجيدين، وذلك لندرة أشعار كل منهم، اذا قيسوا الى شاعر آخر في «الايام» مثل مهلهل بن ربيعة أو عنترة لكن يستطيع الباحث أن يقدم رؤية شعرية من دراسة الظاهرة الشعرية الكبرى لهذا الفن بمجموعها، وعندئذ تظهر السمات المميزة لهذا الشعر الملحمى (18).

ولعل حداثة سن ربيعة، ومغادرته الحياة بصورة سريعة ومحزنة، هو السبب وراء ندرة أشعاره وأخباره، ان كنا ننقب وراء حقيقته التاريخية، لكننا سنضرب صفحا، ونعالج مسألة موته من خلال الرواية، فقد ورد أن قاتله في يوم الكديد هو «نبيشة بن حبيب السلمى» (19) وهو من بنى سليم بن منصور من الحى الكبير قيس عيلان. الا أن رواية

(16) العقد الفريد 339/3.
(17) كتاب أيام العرب. محمد جاد المولى وجماعته ص 408 وما بعدها. طبعة أولى البابى سنة 1940.
(18) قدمنا مثل هذه الدراسة في كتاب : شعر الايام الجاهلية.
(19) أنظر مصادر هذا اليوم في آخر البحث.

أخرى تذكر أن قاتله اهبان بن غادية الخزاعى، وكان أتاه زائرا، وهو زعيم الخزاعيين وقد أوردوا قول اهبان تصداقا لما يدعونه (20).

ولقد طعنت ربيعة بن مكدم يوم الكديد فخر غير موسد
في عارض شرق فبات فؤاده منه بأحمر كالنجيع المجسد
ولقد وهبت سلاحه وجواده لاخى نبيشة قبل لوم الحسد

فقال أبو الفارعة الحارث بن مكدم أخو ربيعة يجيبه :

فات ابن غادية المنية بعدما رفعت أسفل ذيله بالمطرد
قل لابن غادية المتاح لقتلتنا ما كان يقتلنا الوحيد المفرد

يريد أن أهبان مفرد من قومه في أخواله، وكان ربيعة قد اغار عليه ففاته. وقال أبو الفارعة أيضا.

فان تذهب سليم بوتر قومى فأسلم من منازلنا قريب

وليس وراء هذا أى خبر لاي يوم من أيام العرب ، وتبقى رواية قتله في يوم الكديد هى المتصدرة ، وقد جر مقتل ربيعة في يوم الكديد يوما آخر يقال له : برزة (21)، حيث كنانة لنفسها من سليم بمبادرة من الاخير، برغم أنها واتره لاموتورة، ولم يحضر الحرب نبيشة بن حبيب، ولعله كان يتوجس من كنانة لانهم يطلبونه بذحل.

ولقد اضفى الخيال الروائى على نهايات بعض الابطال الاسطوريين نفس النهاية التي ختمت حياة البطل ربيعة بن مكدم . فقد ذكر عن عنترة العبسى انه بعد أن قتل استعظمت قبيلته قتله، فليس بينهم من يخلفه في مثل وزنه ليتسلمْ قيادة الجيش، فعمدوا الى رفاته فأسندوه وربطوه على صهوة فرس، وجعلوه في مقدمة جيوشهم المغيرة، يغزون به المغازى ليرهبوا الاعداء، فظلوا على هذا زمانا قبل أن تفطن القبائل الى هذه الحيلة العسكرية فتكشفها وهذا المقطع من ملحمة البطل الاسطوري عنترة أخذ من نهاية ربيعة بن مكدم في يوم الظعينة، عندما طعنه نبيشة بن حبيب فارتث . فاشار

---

(20) الكامل فى اللغة والادب للمبرد 366/2 ط. بيروت — المعارف مصورة والاغانى 77/16 وورد الاسم اهبان بن عادياء. وشرح التبريزى للحماسة 189/1 — ابن غادية السلمى.

(21) يوم لكنانة على سليم. العقد الفريد 17/5 ومخطوطة محاسن الاشعار للشمشاطى ورقة 31 والنويرى 4/15 ومعجم البلدان لياقوت : مادة (برز).

ربيعة على نسائه أن ينطلقن وان يقف هو دون اعدائه، فاسند جسمه الى رمح معتليا صهوة فرسه ، وقد تحامل على نفسه منتصبا فمرت ظعائنه ونجت كلها وهو ميت ولم يفطنوا الى تدبيره الا بعد أن فوت على سليم فرصة الظفر به وبقومه. قال أبو عمرو بن العلاء «ولا نعلم قتيلا ولا ميتا حمى ظعائن غيره. وهو يومئذ غلام له ذؤابة فاعتمز على رمحه، وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن (22). والظعائن النسوة في الهوادج، مفرده ظعينة.

ولما مات اهيلت على قبره احجار، فكانت القبائل اذا مرت اعظمته ونحرت عقرت عند قبره. فاضفى الخيال الى ابطال اخرين مثل هذا التقدس. فقد ذكر لهم أعظموا عامر بن الطفيل وقد سوا قبره بعد موته فقد خرجت امرأة من بنى سلول كأنها نخلة، حاسرة، وهى تقول (23)

انعى عامر بن الطفيل وأبقى (24) وهل يموت عامر من حقا :
وما أرى عامرا مات حقا

فما رئى يوم اكثر باكيا وباكيه، وخمش وجوه، وشق جيوب من ذلك اليوم. ونقل ابو عبيدة عن الحرمازي : لما مات عامر بن الطفيل نصبت بنو عامر انصابا ميلا في ميل، حمى على قبره لا تنشر فيه ماشية ولا يرعى، ولا يسلكه ماش ولا راكب. وكان جبار بن سلمى بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب غائبا فلما قدم قال :

ما هذه الأنصاب ؟ :

قالو :

نصبناها حمى لقبر عامر بن الطفيل

فقال :

ضقتهم على أبى على ، ان أبا على بان من الناس بثلاثث · كان لا

(22) راجع يوم الكديد فى اخر الدراسة بحث لباورن فى المجلة الملكية الاسيوية :
Perron. Jornal of The Royal Asiatic Society 9 Desember 1840.
ويذكر بارون فى هذا البحث مخاطبا صديقا لــه فى باريس بأنــه اكتشف بأن عنتــرة التــاريخ غير عنتــرة الاسطورة، بل هو يختلف عنــه كثيرا. وكــان بارون مدير المدرسة الطبية فى سنة 1839 وطبيب مستشفى القصر العينى فى القاهرة فى ذلك الوقت وبحثه هذا يدور حول ربيعة بن مكدم وعنترة.
أنظر أيضا : موسى سليمان — الادب القصصى عند العرب ص 100 ط. دار الكتــاب 1950.

(23) الاغــانى 60/17.

(24) هكذا رد فى الاغانى .

يعطش حتى يعطش الجمل، وكان لا يضل حتى يضل النجم، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل و في رواية وقف على قبر عامر فقال (25) .

– أنعم صباحا أبا علي ، فوالله لقد كنت سريعا الى المولى بوعدك ، بطيئا عنه بايعادك ، ولقد كنت أهدى من النجم ، وأجرى من السيل .

ثم التفت اليهم فقال :

– ما كان ينبغى أن تجعلوا قبر أبى علي ميلا ميلا .

ومثل هذا الموقف يتكرر عند قبر النجاشى حيث وقف رجل فترحم له وقال (26) .

– لو لا أن القول لا يحيط بما فيك ، والوصف يقصر دونك لاطنبت بل لأسهبت ، ثم عقر ناقته على قبره ، وقال .

عقرت على قبر النجاشي ناقتي بأبيض عضب اخلصته صياقله
على قبر من لو أننى مت قبله لهانت عليه عند قبرى رواحله

والعقر محرم في الاسلام. ومن ملاحظه طبيعة النعى الذي تفوهت به السلولية، وكان عامر بن الطفيل مات في بيتها وقال كلمته المشهورة : أغدة مثل غدة الجمل وموت في بيت سلولية ، ومن ملاحظة استعظام موته (وهل يموت الرئيس حقا) وكذلك من وضع الانصاب واتخاد قبرهمزارا وتحديد الموضع وحمايته بما كان يقال له : حمى ، يمنع دخول الحيوان اليه لأنه حمى مثل حمى الاله الذى اتخذه كليب بن ربيعه فمنع دخول ناقة البسوس التى يقال لها «السراب» نحصل على فكرة واضحه في اطار ادبي عن طبيعة وتركيب المجتمع الجاهلى . ومثل هذا التقديس تلمسه في شعر مهلهل بن ربيعة لقبر كليب ، حيث يصف نفرة ناقته عند قبره .

وحادت ناقتى عن ظل قبر ثوى فيه المكارم والفخار

وهو نفس الحدث المذكور حول ربيعة بن مكدم عندما نفرت ناقة شاعر عند قبره ويروي أن الشاعر هو حسان بن ثابت وقد مر بقبر ربيعة بن مكدم الكنانى في موضع يقال له ثنية غزال، فقلصت به راحلته، فوقف على القبر يرثيه واعتذر عن عقرها بطول سفره (27).

(25) الكامل فى اللغة والادب للمبرد 366/2.
(26) المصدر السابق.
(27) الاغانى 64/16 وشرح التبريزى على الحماسة 187/1 وكلمة سباء فى البيت الثانى تروى : شريب أيضا.

نفرت قاوصى من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين و هوب
لاتفرى ياناق منه فانه سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمة لتركتها تحبو على العرقوب

فلما سمعت بشعره قبيلة ربيعة قالت : والله لو عقرها لسقنا اليه الف ناقة سود الحدق ، وقد عالجت هذه القضية الهامة في الشعر العربي القديم في بحث نشرته تحت عنوان : الرمز والاسطورة في الشعر الجاهلي، فمن شاء الاتساع والاستزادة فليرجع اليه (28)، وتطرقت لهذا البطل الملحمي في كتابي الملاحم العربية «عند دراستي لنموذج البطل في الشعر الجاهلي . وقد بلغ من اعجاب الشعب يومئذ بشخصية ربيعه بن مكدم ان اخترعت له لقاءات بطولية مع شخصيات روائية محبوبة ايضا، امثال دريد بن الصمة وعمرو بن معد يكرب الزبيدى ونبيشة بن حبيب وآخرين نلتقي بهم في ثنايا القصة التي نوردها بعد هذه الدراسة، وهو تقليد شائع في الروايات العربية الجاهلية يكتمل عن طريقه بناء ملاحم الأيام وقصص العرب. وعند لقائهم ينسج مؤلف الرواية المجهول دائما، حوارا من المنافرات الكلامية، والمناقضات الرجزية أو القريضية، تتخذ كلها صورة من صور التفوق البلاغي بالنسبة للفارس العربي، وهي بمثابة تمهيد لاشعال الحماسة قبل الدخول في المبارزة . وهي أيضا تشبه الى حد كبير أنماط المنافرات والمناقضات التي تجري في أداب الساميين سواء في وادي الرافدين أو سوريا وفلسطين، فلدينا مثل هذا النموذج حوار ونفار كلامي يجري بين جلجامش وانكيدو وخر بين الاله (بعل) والرسل الذين بعث بهم الاله (ايل) على اثر شكوى من الاله (يم) في ملحمة البعل وعناة الاوغارتية، وكذلك بين داود وجليات وبين عنترة وخصومه، وربيعة بن مكدم والغزاة. وتوجد في كتاب أوغاريت لاتيس فريحة اشارات لمثل هذه المنافرات.

(أيام ربيعة بن مكدم مع عمرو بن معد يكرب الزبيدى (29))

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معد يكرب :

ـ هل كععت من فارس قط ممن اقيت (30).

---

(28) الشعر والمجتمع. منشورات وزارة الاعلام العراقية (كتاب الجماهير) 974.

(29) قصص الايام هنا مروية بحروفها كما وردت عن رواتها، فهى نص أدبى لا تجوز الاضافة اليه دون رواية ولا التلاعب بألفاظ النص مطلقا، وهذا منهجى ايضا فى كتاب الايام ومصادر هذا اليوم هو الاغانى 73/16 ومروج الذهب للمسعودى 338/2.

(30) العبارة فى مروج الذهب : ياعمرو هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبة له أومعنى كععت ضعفت وجبنت.

قال :

ـ اعلم أمير المؤمنين أني لم استحل الكذب في الجاهلية ، فكيف استحله في الاسلام ؟

ولقد قلت لجبهة (31) من خيلى خيل بنى زبيد :

ـ أغيروا بنا على بنى البكار (32)

فقالوا :

ـ فعلى بنى مالك بن كنانة

فقلت :

ـ بعيد علينا المغار

فأتينا على قوم سراة

قال عمر بن الخطاب :

ـ فما علمك بأنهم سراة ؟ ! ..

قال :

ـ رأيت مزاود خيلهم كثيرة ، وقدوراً مثفاة (33) وقباب أدم . فعرفت أن القوم سراة ، فتركت خيلى حجرة (43) وجلست في موضع أتسمع كلامهم ، فادا بجارية منهم قد خرجت من خيمتها ، فجلست بين صواحب لها ثم دعت وليدة من ولائدها (30) فقالت :

ـ ادعى فلانا (36)

فدعت لهـا برجل من الحى

(31) فمروج الذهب : فى جريدة من خيل لبنى زبيد.

(32) فى مروج الذهب : اريد الغـارة . وفى بعض النسخ من المروج : بنى كنانة وهم قوم ربيعة بن مكدم.

(33) فى مروج الذهب : مكفأة ومعنى مثفاة : منصوبة على الاثافى.

(34) حجـرة : جانبا وناحية.

(35) الوليدة : الجارية المولودة بين العرب، تنشأ مع أولادهم بعكس التليدة : تولد فى العجم وتنقل الى العرب.

(36) لم يسمه واكتفى بذلك، وسوف يتكرر هذا منه، ولعله لم يكن مهما.

فقالت لــه :

ـ ان نفسى تحدثنى ان خيلا تغير علي الحي فكيف أنــت ان زوجتك نفســى (37) ؟

فقــال :

ـ أفعل وأصنـــع

وجعل يصف نفســه ففرط

فقالت لــه :

ـ انصــرف حتى أرى رأيــي فيك :

وأقبلــت على صواحبــاتهــا.

فقــالــت :

ـ ما عنده خير، ادعى فــلانـــا

فدعت بــآخــر

فخاطبتــه بمثل ما خاطبت به صاحبه ، فأجابها بنحو جوابه.

فقــالت لــه :

ـ انصرف حتى ارى رأيي

وقالت لصواحبــاتهــا :

ـ ولا عنـــد هذا خير أيضا

ثــم قــالت للوليــدة :

ـادعى ربيعــة بن مكــدم

فــدعتــه :

فقــالت له مثل قولهــا للرجليــن

فقــال لهــا :

ـ ان أعجز العجز وصف المرء نفسه، ولكنى اذا لقيت أعذرت، وحسب.

فقالت لــه :

ـ قد زوجتك نفسى، فاحضر غدا مجلس الحي، ليعلموا ذلك فانصرف من عنـــدهــا.

وانتظرت حتى ذهب الليل، ولاح الفجر، فخرجت من مكمني، وركبت فرسى . وقلت لخيلى :

ـ أغيري ،،،،

فـأغـارت.

وتركتها وقصدت نحـو النسوة ومجلسهن ، فكشفت عن خيمة المرأة فاذا أنـا بامرأة تامة الحسن. فلمـا ملأت بصرها منى أهوت الى درعها فضيقته وقـالت :

ـ واثكلاه : والله ما أبكى على مال ولا تلاد، ولكن على أخت من وراء هذا القوز (38) تبقى بعدي في مثل هذا الغائط (39)، فتهلك ضيعة.

وأومأت الى قوز رمل الى جانبهم. فقلت هـذه غنيمة من وراء غنيمه فدفعت فرسى حتى أوفيت على الايقاع، فاذا أنا برجل جلد، نجد، اغلب (40) يخصـف نعله والى جانبـه فرسـه وسلاحه، فلمـا رآنى رمى بنعله، ثـم استوى على فرسه، وأخذ رمحه ومضى، ولم يحفل بى. فطفقت أشجـره بالرمـح خفقـا (41) وأقول له :

يـا هذا استأسـر (42).

فمضـى وما يحفل بى، حتى أشرف على الوادى. فلما رأى الخيل تحوي ابله استعبر باكيا وأنشأ يقول :

قـد علمت اذ منحتنى فـاهـا وألبستنـى بكـرة رداهـا (43)

انى سأحوي اليوم من حواها بل ليت (44)شعري اليوم من دهاها

---

(37) هذه مؤشـرات غامضة نحو مكانة المرأة فى الجاهلية، وطبيعة العصر وتركيب مجتمعه وأحواله الشخصية وقوانينه الاجتماعية فهى تنذره بالغارة وتعرض عليه نفسها.

(38) القوز (بالفتح) رملة مستديرة مرتفعة.

(39) الغائط : منخفض من الارض.

(40) مروج الذهب : اصهب الشعر أهاب. الاهلب : كثير الشعر.

(41) شجره بالرمح : طعنه حتى اشتبـك فيه والخفق : الضرب بشىء عريض.

(42) كن لى أسيرا. ؟

(43) هذا الشطر زيادة من مروج الذهب.

(44) مروج الذهب : فليت.

(45) فى ديوانه 190.

فأجبته :

عمرو على طول الوجى دهاها بالخيل يحميها (46) على وجاها
حتى اذا حل بها احتواها

فحمل علي وهو يقول :

أهون بنضر العيش في دار ندم أفيض دمعا كلما فاض انسجم
أنا ابن عبد الله محمود (47) الشيم مؤتمن الغيب وفي بالذمم
اكرم (48) من يمشى بساق وقدم كالليث ان هم بتقصام قصم
عدوه يفديه من كل الضيم (49)

فحملت عليه وأنا أقول :

أنا ابن ذى التقليد في الشهر الاصم أنا ابن ذي الاكليل قتال البهم (50)
من يلقنى يود كما أودت أرم أتركه لحما على ظهر وضم (51)

وحمل علي وهو يقول :

هذا حمى قد غاب عنه ذائده الموت ورد والانام وارده

وحمل علي فضربنى ، فرغت (52) وأخطأنى فوقع سيفه في قربوس (53) السرج، فقطعه وما تحته حتى هجم على مسح (54) الفرس، ثم ثنى بضربة أخرى، فرغت وأخطأنى، فوقع سيفه على مؤخر السرج فقطعه حتى وصل الى فخذ الفرس، وصرت راجلا.

فقلت :

ـ ويحك : من أنت ؟ : فوالله ما ظننت أحدا من العرب يقدم علي الا

---

(46) مروج الذهب : يبقيها.
(47) مروج الذهب : عبيد الله.
(48) مروج الذهب : وخير
(49) زيادة من مروج الذهب.
(50) التقليد أن يجعل فى عنق البدنة وغيرها شيئا يعلم أنه هدى أى أضحية للاله أو الصنم. والشهر الاصم رجب كانوا ينزعون فيه أسنة الرماح فلا يسمع للسلاح صوت. والاكيل التاج. كان أهل اليمن يلبسونه وعمرو بن معد يكرب منهم.
(51) هذا مثل يضرب للضعيف الذليل والوضم فى الاصل خشبة يقطع عليها اللحم.
(52) رغت : أى راوغت واحتلت على الضربة حتى لا تقع علي.
(53) قربوس (وزن حلزون) نتوء فى السرج فى مقدمته ومؤخرته وهو حنو السرج.
(54) مسح الفرس : غطاء كالثوب يغطى جسم الفرس تحت السرج.

ثلاثة : الحارث بن ظالم (55) للعجب والخيلاء، وعامر بن الطفيل للسن والتجربة، وربيعة بن مكدم للحداثة والغرة. فمن أنت ويلك ؟

قـال :

ـ بل الويـل لك. فمن أنت ؟

قلـت :

ـ عمرو بن معد يكرب

قـال :

ـ وأنـا ربيعـة بن مكـدم

قلـت :

ـ يا هذا انى قد صرت راجلا. فاختر منـي احدى ثلاث : ان شئـت اجتلدنا بسيفينـا حتى يموت الاعجز، وان شئت اصطرعنا، فأينا صرع صاحبه حكم فيه، وان شئت سالمتك وسالمتنى.

قـال :

ـالصلح اذن ان كان لقومك فيك حاجة. وما بى أيضا على قومى هوان.

قلت :

ـ فـذاك لـك .

وأخذت بيده، حتى أتيت أصحابى، وقد حازوا نعمه. فقلت :

ـ هل تعلمون أنى كععت عن فارس قط من الابطال اذا لقيته ؟

قـالـوا :

ـ نعيـذك من ذاك

قلت :

ـ فانظروا هذا النعم الذي حزتموه، فخذوه غدا في بنى زبيد، فانه نعم هذا الفتى. والله لا يوصل الى شىء منه وأنا حي.

---

(55) مروج الذهب : عمرو بن كلثوم. وقد درست الحارث بن ظالم فى مجلة كليـة الاداب العدد 15 السنة 974. ومذكورة فى هذا الكتاب.

فقــالــوا :

ـ لحاك الله من فارس قوم : شقينــا حتى هجمنــا على الغنيمــة ، ففثأتنــا (56) عنهــا.

قلت :

ـ انه لا بد لكم من ذلك، وأن تهبوها لى ولربيعة بن مكدم :

فقــالــوا :

ـ وانــه لهــو ؟

قلت :

ـ نعــم

فردوهــا. وســالمتــه.

يوم آخر لربيعة مع عمرو بن معد يكرب (57).

قــال عمرو بن معــد يكــرب (58).

ثم مضيت (59) فأصبحت بين دكادك هرش الى غزال (60) ، فنظرت الى أبيات، فملت اليهــا، فاذا فيها جوار ثلاث كأنهن نجوم الثريا، فبكين حين رأينني، فقلــت :

ـ ما يبكيكــن ؟

ـ فقلــن :

ـ لمــا ابتلينــا به منك، ومن ورائنــا أخت هى أجمل منا (61)

---

(56) فثأه : ثبــط عزيمتــه، وسكنــه.
(57) هذا اليوم فى الاغانى 69/16 وانظر شرح التبريزى للحماسة 159/4 واللسان مــادة (حلق).
(58) من حديث عمرو بن معد يكرب للخيفة عمر بن الخطاب (رض).
(59) أخذنــا من هذا اليوم مقداره المتعلق بربيعة بن مكدم فمن شاء فليرجع الى الاغانى لطلاع على الجزء المتقدم من هذا اليوم.
(60) الدكادك جمع دكدك وهو مــا تلبد من الرمل بعضه على بعض بالارض. ولم يرتفع كثيرا. ودكادك موضع ذكره متمم بن نويرة فى شعر لــه معروف يرثى به أخاه. وهو المراد هنا بدكادك هرش وغزال ثنيــة دفــن فيها ربيعة سنذكرها فى يوم الكديد.
(61) هــذه الخدعــة الحربية تقدمت فى اليوم السابق لهذا اليوم.

فأشرفت من فدفد، فاذا بمن لم أر شئيا قط أحسن من وجهه، واذا بغلام يخصف نعله، عليه ذوأبة يسحبها. فلما نظر الي وثب الى الفرس مبادرا، ثم ركض، فسبقنى الى البيوت، فوجدهن قد ارتعن، فسمعته يقول لهن (62) :

مهلا نسياتى اذن لا ترتعن أن يمنع اليوم نساء تمنعن
أرخين أذيال المروط وارتعن (63) مشى حميات كأن لم يفزعن (64)

فلما دنوت قال :

ـ أتطردنى أم أطردك

قلت أطردك

فركض، وركضت في أثره، حتى اذا مكنت السنان في لفتته ـ واللفتة أسفل من الكتف ـ اتكأت عليه، فاذا هو والله مع لبب (65) فرسه، ثم استوى في سرجه . فقلت :

ـ أقلنى .

قال :

ـ اطرد

فتبعته حتى اذا ظننت أن السنان في ماضغيه اعتمدت عليه، فاذا هو والله قائم على الارض، والسنان ماض زالج.

واستوى على فرسه ، فقلت :

ـ أقلنى .

قال :

ـ أطرد .

فطردته، حتى اذا أمكنت السنان في متنه، اتكأت عليه وأنا أظن

---

(62) لاحظ الحوار بالرجز مع النساء أيضا وليس بين الفرسان ساعة المبارزة فقط.
(63) روايته فى شرح البريزى 59/1 أسبلن بدل أرخين واللسان مادة (حلق) رخين ورواية شرح التبريزى واللسان : الحقى بدل المروط. ومعنى الحقى جمع حقو : الازار
(64) هذا الشطر زيادة فى اللسان (حلق) وحميات : محميات.
(65) الطرد ان يحمل فارس على فارس. ومنه فرسان الطراد. ولبب الفرس : نحره.

أنى قد فرغت منه، فمـال في ظهر فرسه حتى نظرت الى يديه في الارض ومضى السنـان زالجا. ثم استوى وقال :

ـ بعد ثلاث ؟ تريد ماذا ؟ أطردنى ثكلتك أمك.

فوليت وأنا مرعوب منه. فلما غشينى ووجدت حس السنان، التفت فاذا هو يطردنى بالرمح بلا سنـان، فكف عنى واستنزلنى فنزلت ونزل ناصيتى، وقال :

ـ انطلـق، فانى أنفـس (66) بك عن القتـل.

يـوم ثالـث مع عمرو بن معـد يكرب (68)

وقد كـان عمرو بعد ذلك بزمان أغار على كنانة في صناديد قومه، فأخذ غنائمهم، وأخذ امرأة ربيعة بن مكدم، فبلغ ذلك ربيعة ـ وكان غير بعيد ـ فركب في الطلب على فرس عرى ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه فلمـا نظر اليه قال :

ـ يـا عمـرو خل عن الظعينة وما معك

فلم يلتفت اليه. ثم أعاد عليه، فلم يلتفـت اليه. فـوقـف عمـرو وقال : (69)

ـ قد انصـف القـارة من رمـاهـا

ـ قـف لى يـا ابن أخى

فوقف له ربيعة . فحمل عليه عمرو، وهو يقول (70) :

أنـا أبـو ثـور ووقـاف الـزلـق لسـت بمـأفـون ولا فـي خـرق
وأسـد القـوم اذا احمـر الحـدق اذا الرجـال عضهـم نـاب الفـرق
وجدتنى بالسيف هتاك الحلق

---

(66) انفـس : أبخـل

(67) كـان الفرسان فى الجاهلية يقتنعون أحيانا فلا يعرف الفارس خصمه، وأحيانا لا.

(68) مـروج الذهـب للمسعودى 338/2.

(69) هذا شطر من رجز، وقد وردت (قد) فى الاصل (لقد) فلا يستقيم. ولعل هذا السبب هو الذى صرف محقق ديوان عمرو بن معد يكرب عن ضمه الى شعر عمرو. (ط. بغداد تحقيق المرحوم الاستاذ هاشم الطعان).

(70) فى نسخـة أخرى من مروج الذهب روى الشطر الاول : أنا ابـن ثوار. وانظر ديوان عمرو بن معد يكرب ص 51 تقـد أخـذ محققه بهذه الروايـة ولم يشـر الى مصدرنـا ونرجح مـا أثبتنـاه لان عمرا يكنى بأبى ثور وليس بأبى ثوار.

حتى اذا ظنه قد خالطه السنان، اذا هو لبب لفرسه (71) ومر السنان على ظهر الفرس، ثـم وقف له عمرو، فحمل عليه ربيعة وهو يقول :

أنـا الغلام ابن الكنانى الابذخ   كم من هزبر قد رانى فانشدخ

فقرع بالرمح رأسه ثـم قال :

– خـذهـا اليك يـاعمرو ، ولـولا انـى أكـره قتل مثلك لقتلتـك

فقـال عمرو :

– لا ينصرف الا أحدنـا، فقف لى.

فحمل عليه، حتى اذا ظن أنه قد خالطه السنان اذا هو حزام لفرسه ومر السنـان على ظهر الفرس ثم حمل عليه ربيعة، فقرع بالرمح راسه وقـال :

– خذهـا اليك يا عمرو ثانية ، وانما العفو مرتان.

وصاحت بـه امرأتـه

– السنـان ، لله درك (72)

فأخرج سنانا من سنخ (73) ازاره، كأنه شعلة نـار، فركبـه على رمحه، فلمـا نظر اليه عمرو، وذكر طعنته بلا سنـان قال له عمرو :

يا ربيعة خـذ الغنيمـة

قـال :

– دعهـا وانـج

فقالت بنـو زبيـد :

– اتترك غنيمتنـا لهذا الغلام ؟

– فقال لهـم عمـرو :

– يا بنى زبيد، والله لقد رأيت الموت الاحمر في سنانه، وسمعت صريره في تركيبه .

فقالت بنـو زبيـد :

– لا يتحدث العرب أن قوما من بنى زبيد فيهم عمرو بن معد يكرب تركـوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام.

---

(71) أى معانق لفـارسه من نحره.
(72) سبق أن ذكر بأن ربيعة تنـاول رمحا بلا سنـان، فامرأته هنـا تنبهه الى ذلك
(73) سنخ كل شىء أصله فربمـا أراد هنا من جيب ازاره.

قــال عمــرو :

ـ أنه لا طاقة لكم به، ومــا رأيت مثله قط.

فانصرفوا عنه، وأخذ ربيعــة امرأتــه والغنيمــة، وعــاد الى قومــه (يوم الظعينة أو يوم وادى الاخرم (74)).

خرج دريد بن الصمة (75) في فوارس من بنى جشم (76) حتى اذا كانوا في واد لبنى كنانة يقال له : الاخرم (77) وهم يريدون الغارة على بنى كنانة، اذ رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة ، فلما نظر اليه قال لفارس من أصحابه :

ـ صح به أن خل الظعينة، وانج بنفسك.

فانتهى اليه الفارس، وصاح به، والح عليه. فألقى بزمام الناقة وقال للظعينة (87).

سيري على رسلــك ســـير الامــن ســير رداح ذات جــأش ســاكــن
ان انثنــائــى دون قرنى شــائنى أبلـــى بــلائــى وأخبــري وعاينى

فبعث دريد فارسا آخر لينظر ما صنع بصاحبه. فلما انتهى اليه ورأى ما صنع، صاح به، فتصامم عنه، كأن لم يسمع فغشيه، فألقى زمام الراحلة الى الظعينة ثم خرج يقول (89)

خــل سبيـــل الحــرة المنيعـــة انـــك لاق دونهـــا ربـيــعـــة
في كفـــــه خطيـــــة مطيعـــــة أو لا فخـذهـــا طعنــة سريعـــة
والطعن منى في الوغى شريعة

---

(74) العقد الفريد 168/5 الاغانى 64/16 أمالى القالى 271/2 نهاية الارب للنويرى 370/15.

(75) فــارس وشــاعر جاهلى مشهور، وهو القــائل من قصيدة طويلة يرثى أخاه عبد الله بن الصمــة :

وـمــا أنــا الا من غزيــة ان غــوت غويــت وان ترشــد غزيــة أرشــد

(76) بنو غزية بن جشــم بن معاوية بن بكر بن هوازن.

(77) الاخرم : جبل بطرف الدهناء والاخرم واد قرب مكة، وهو المراد هنا.

(78) الرجز فى العقد والاغانى وانظر نهاية الادب للنويرى 370/15 والظعينة : المراة ما دامت فى الهودج.

(79) المصادر السابقة وأمالى القالى 271/1.

(80) قوله ربيعــة : يريــد نفسـه.

ثم حمل عليه فصرعه

فلما ابطأ على دريد، بعث فـارسا لينظر مـا صنعـا انتهى اليهـا وجدهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجرر رمحه فقال الفارس :

- خل الظعينة

فقال ربيعة للظعينة

- اقصدى قصد البيوت

ثم اقبل عليه فقال :

ثم حمـل عليه فصرعـه .

فلما أبطأ على دريد ، بعث فارسـا لينظر ما صنعا، فلما انتهى اليهما وجدهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجرر رمحه فقال الفارس :

- خل الظعينـة

فقـال ربيعـة للظعينـة :

- أقصـدي قصـد البيـوت

ثـم أقبـل عليه فقـال :

ماذا تريد من شتيم عابس (81) ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهمـا عامل رمح يابس

ثم اقبل عليه فصرعه ، وانكسر رمحه .

وارتاب دريد، فظن انهم قد أخذوا الظعينة ، وقتلوا الرجل، فلحـق دريد بربيعة، وقد دنـا من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا0 فقال :

- أيها الفارس ، ان مثلك لا يقتل، ولا أرى معك رمحـك والخيـل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح، فانى منصرف الى أصحابى ومثبطهم عنـك.

فانصـرف الى أصحابه ، فقـال :

- ان فارس الظعينة قد حماها، وقتل أصحابكم وانتزع رمحى، ولا مطمع لكـم فيه.

(81) الشتيـم والعابس بمعنى واحد واسـد شتيمس : عابس.

فانصرف القوم (82).

فقال دريد في ذلك :

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله ... حامى الظعينة فارسا لم يقتل
اردى فوارس لم يكونوا نهزة ... ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه ... مثل الحسام جلته كف الصقيل
يزجى ظعينته ويسحب رمحه ... متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مهابة رمحه ... مثل البغاث خشين وقع الاجدل
يا ليت شعري من ابوه وأمه ... يا صاح من يك مثله لا يجهل

وقال ربيعة بن مكدم (83) :

ان كان ينفعك اليقين فسائلي ... عنى الظعينة يوم وادى الاخرم (84)
اذا هى لأول من أتاها نهبة ... لولا طعان ربيعه بن مكدم
اذ قال لى أدنى الفوارس منهم ... خل الظعينة طائعا لا تندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه ... عدا ليعلم بعض مالم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل أهابه ... فهوى صريعا لليدين وللفم
ومنحت اخر بعده جياشه ... نجلاء فاغرة كشدق الاضجم (85)
ولقد شفعتهما بأخر ثالث ... وأبى الفرار عن العداة تكرمى (56)

يوم الكديد (87)

---

(82) المصادر السابقه وقد ظهر لقبه «حامى الظعينه» هنا فى ابيات دريد.

(83) المصادر نفسها. والبيت الثانى فى الاغانى : (هل هى) بدل (اذ هى) والثالث فى الاغانى والامالى (ميته) بدل (منهم) وكذلك فى النويرى ومعنى جياشه اى تتدفق بالدماء.

(84) وادى الاخرم : انظر الهامش 77.

(85) الاضجم : صفة من الضجم وهو ميل أو عرج فى جانب الفم. وفى رواية : الاسحم وهو الاسود وأراد زق الخمر.

(86) فى الاغانى : وابى الفرار فى الغداة تكرمى.

(87) العقد الفريد 174/5 والاغانى 56/16 وشرح الحماسة 189/1 ومجمع الامثال للميدانى 221/2 والانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى مخطوطة ورقة (28 — 31) وهى رواية أبى عبيدة ويذكر صاحب محاسن الاشعار أن أبا عبيدة ينقل الخبر عن أبى عمرو بن العلاء وخبره فى العقد موجز ايجازا مخلا لكن الميدانى ذكره بشكل أكثر تفصيلا. أما التبريزى فانه يروى الاحداث نفسها، لكن بعبارة ولفظ مختلفين عن رواية أبى عبيدة ويسند خبره الى أبى رياش على أن أوسع الروايات تلك يبسطها كتاب الاغاني ومحاسن الاشعار والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلا من مكة.

وقع تدارؤ بين نفر من بنى سليم بن منصور، ثم انهما ودوهما (90) ثـم ضرب الدهر ضربانه (91).

فخرج نبيشة بن حبيب السلمى غازيا، فلقى ظعنا من بنى كنـانة بالكديد، في نفر من قومه، وبصر بهم نفر من بنى فراس بن مالك فيهم عبد الله بن جذل الطعان بن فراس، والحارث بن مكدم أبو الفارعة، وقال بعضهم أبو الفرعة أخو ربيعـة بن مكدم (92) وهو مجدور يومئذ يحمل في محفـة. فلمـا رآهم أبو الفارعة، قال :

– هؤلاء بنو سليم، يطلبون دماءهم.

فقالت أم عمرو بن مكـدم :

وا سوء صبـاحـاه ..،

فقال أخوه ربيعة بن مكدم :

– انا ذاهب حتى اعلم علم القوم، فاتيكم بخبرهم

وزنب فرسه، واخذ قناته فتوجه نحو القوم .

فلمـا ولى، قال بعض الظعن :

– هرب ربيعـة ...

وقالت اختـه أم عـزة :

– اين تنتهى نفـرة الفتـى ؟

وصاحت اختـه أم عمرو (93) :

مسـاءة مسـاءة

تــرك الفتـى نسـاءه

حتى يبل من دم أنساءه

---

(88) تدرؤ : تدافع واختلاف وخصومة. ورسمت الكمة فى محاسن الاشعار : تدارىء أنظر اللسان مادة (درأ).

(89) فى العقد : فراس بن غنـم بن مالك بن كنانة وهم أنجد العرب، كان الرجل منهـم يعدل بعشرة من غيرهم. وقـد سبـق أن أشرنا فى الدراسة الى تفضيل الامام على لهم على أهل الكوفة.

(90) ودوهما أى دفعوا ديتهمـا.

(91) عبارة محاسن الاشعار : ضرباته بالقاء. والنون أصح أنظر اللسان مادة (ضرب)

(92) لقد أوردنا لابى الفارعة الحارث بن مكدم شعرا وخبرا فى متن دراستنـا هـذه وسيلاقى حتفـه فى هذا اليـوم.

(93) شرح ديوان الحماسة 689/1.

فعطف ، وقد سمع قول النساء، فقال (94):

لقد علمـــن أننـــي غـــير فـــرق لأطعنـــن طعنـــة واعتنـــــــــــق
أعمل فيهم (95) حين تحمر الحـدق عصبـــا حســـامـــا وسنـــانـــا يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه فحمل عليه بعض القوم، فاستطرد له في طريق الظعن، وانفرد به رجل من القوم، فقتله ربيعة، ثم رماه نبشيه (96) أو طعنه، فلحق بالظعن يستدمى، حتى أتى الى أمه أم سيار فقال :

ـ اجعلى على يدي عصابة
وهو يرتجز ويقول :
شدى على العصب أم سيار
لقد رزئت فارسا كالدينار
صقـرا يلفـت القوم لـف المغـوار (97)
يطلعـن بالرمـح أمـام الادبـار

فقـالت أمـه (98)
أنـا بنـو ثعلبـة بن مـالك.
مـــرزا خيـارنـا كذلـك
من بين مقتول وبين هـالك
ولا يكون الرزأ الا ذلـك
وشدت أمه عليه عصابة، فاستسقاها ماء، فقالت :
ـ انك ان شربت المـاء مت، فكر على القوم.
وجعلت تذمره وتقول (99)
الحـق بنى والمحامى لاحـق
وأشغل القوم بضرب صادق

فكر راجعا يشد على القوم ويذبهم. ونزفه الدم حتى أثخن، فقال للظعن

---

(94) ورد الرجز فى شرح الحماسة على هذا الوجه :
ألم عمـرو زعمـت أنـى فـرق أن لا أطـاعنهـم وان لا أعتنـق
وانزع الـرمـح سنـانـه لشـق
(95) محاسن الاشعار : واصلت فيهم بدل (اعمل فيهم).
(96) تعرضت لقضية قتل ربيعة وقاتله فى الدراسة أول هذا البحث .
(97) هذا الشطر زيادة فى رواية شرح الحماسة على بقية المصادر.
(98) رواية الميدانى للشطر الثانى : نرزا فى خيارنا كذلك.
(99) هذا الرجز ينفرد التبريزى فى روايتـه.

ـ أوضعن (100) ركـابكن خلفـي، حتى تنتهين الى أدنـى بيـوت الحي، فاني لمأبى (101) وسوف أقف دونكن على العقبة، واعتمد رمحى، فلن يقدموا عليكن لمكانى.

وشد على القوم راجعا، فقتل فيهم، وما زال يذبهم الى أن نزفه الدم، فاعتمد على رمحه قال أبو عمرو بن العلاء :

ففعلن ذلك فنجون الى مأمنهن، ولا نعلم قتيلا وإلا ميتا حمى الظعائن غيره. وانه يومئذ لغلام له ذوابه فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه، حتى بلغن مأمنهن، وما تقدم القوم عليه (102) .

فقال نبيشة بن حبيب :

ـ انه لمائل العنـق على رمحه، وما أظنه الا وقد مات

فأمر رجلا من خزاعة (103) كان معه ، أن يرمى فرسه، فرماها فقمصت وزالت، فمال عنها ميتا قال (104) : أو يقال بل الذي رمى فرسه نبيشة، حمل عليه فطعنه فأثبته، وقال :

ـ قتلته .

فقال ربيعـة :

ـاخطـأ فـوك يـا نبيشـة.

ـ كذبت ، انى لاجد ريـح بطنـك .

فخرج ربيعة يركض متحاملا حتى لحق ظعائنه على راس ثنية غزال (105) فانصرفوا عنه وقد فاتهم الظعن ولحقوا يومئذ أبا الفارعة الحارث بن مكدم، فقتلوه وأمالوا (106) على ربيعة احجارا.

---

(100) الايضـاع : السير السريع .
(101) كذا فى جميع مصـادر التحقيق ولعله يعنى ممتنع لا يصل أحد اليه لرهبته.
(102) عبارة أبى عمرو فى محاسن الاشعار تختلف فى التركيب وتتفق باللفظ مع الروايات الاخـرى.
(103) هو أهبان بن غـادية الخزاعى، وقد تقدم حديثنـا عنه فى الدراسة.
(104) أى أبو عمرو بن العلاء وتوجد روايـة فى التبريزى أن الرامى ابن غادية السلمى، وهو اهبـان المذكور فى الهامش 103 وكذلك فى الدراسة المتقدمة.
(105) هذا فى شرح التبريزى على الحماسة، وفى الاغانى : ثنية مالك أيضا ونقل المبرد فى الكامل 366/2 (طبع بيروت مصورة) برواية ابن دأب حبرا تقدمت الاشارة اليه فى الـدراسـة.
(106) هذه عبارة (محاسن الاشعار) وأما بقية المصادر : فألقوا.

وجاء رجل من القوم فطعن بزج الرمح في عينه، قال :

- قبحك الله، لقد حميت الظعائن دبا وميتا.

فمر به رجل من بنى الحارث بن فهر، فنفرت ناقته من نتت الاحجار التي اهيلت على ربيعة . فقال يرثيه ويعتذر الا يكون عقر ناقته على قبره وحص على قتلته، وعير من فر واسلمه الى قومه (107).

نفرت قلوصى من حجارة حرة	بنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فانه	سباء خمر مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه	لتركتها تحبو على العرقوب
فر الفوارس عن ربيعة بعدما	نجاهم من غمه المكروب
يدعو عليا حين اسلم ظهره	فلقد دعوت هناك غير مجيب
لله در بنى على انهم	لم يحمشوا غزوا كولغ الذيب (108)
نعم الفتى ادى نبيشة بزه	يوم الكديد، نبيشه بن حبيب (109)
لا يبعدن ربيعة بن مكدم	وسقى الغوادى قبره بذنوب

فبلغ شعره كنانة فقالوا : والله لو عقرها لسقنا اليه الف ناقة سود الحدق.

وقال عبد الله جذل الطعان واسمه بلعاء :

لأطلبن بربيعة بن مكدم	حتى انال عصية بن معيص

يقال أن عصية من بنى سليم، وهو عصية بن معيص بن عامر بن لؤى

وتقاد (901) كل طمرة ممحوصة	ومقلص عبل الشوى ممحوص (110)

وجزع عليه عبد الله بن جذل الطعان جزعا شديدا ورثاه بعدة مرائى منها

فاذا لقيت ربيعة بن مكدم	فعلى ربيعة من نداه قبول

(107) الابيات 1 و 2 و 3 و 7 و 8 فى الكامل للمبرد بترتيب مختلف وعزاها لحسان ابن ثابت ومثله الميدانى عدا (7) منسوبة الى حفص بن الاحنف الكنانى وهى حماسية أنظرها فى شرح التبريزى 187/1 منسوبة الى حفص وجاء فى الانوار ومحاسن الاشعار، نقد مر بقبر ربيعة بن مكدم بثنية كميب، ويقال ثنية غزال نقلصت به راحلته فقال الابيات المذكورة ويقال لمكرز بن حفص بن الاحنف ويقال أيضا لضرار بن الخطاب بن مرداس احد بنى فهر (الاغانى 59/16) والابيات ليست فى ديوان حسان (نشرة البرقوقى).

(108) يحمشوا يحرضوا على القتال ويلهبوه والولغ مصدر ولغ الذئب فى الماء شرب منه وبنو على قبيلة من كنانة.

(109) البز : السلاح، درعا وغيرها.

(110) الطمرة : الفرس الطويلة القوائم، الخفيفة العدو، والمحوصة. القليلة لحم القوائم خلصت من الرهل والمقلص : الحصان الطويل القوائم المنضم البطن. وعبل الشوى : ضخم الاطراف.

فاذا لقيت ربيعة بن مكدم فعلى ربيعة من نداه قبول
فاذا ذكرت ربيعة بن مكدم ظلت لذكراه الدموع تسيل
نعم الفتى حيا وفارس بهمة يردى شكته أقب ذؤول
سقت الفوادي بالكديد رمة والناس اما هالك وقتيل
خلى علي ربيعة بن مكدم حزنا يكاد له الفؤاد يزول
كيف العزاء والإتزال خريدة تبكي ربيعة غادة عطبول
يأبى لي الله المذلة إنما يعطى المذلة عاجز تنبيل

وقال عبد الله أيضا يرثيه :

نادى الظعائن ياربيعة بعدما لم يبق غير مشاشة وفواق
فأجابها والرمح في خيزومه أنفا بطعن كالنسعيب دفاق
ياريط ان ربيعة بن مكدم وربيع قومك آذنا بفراق
ولئن هلكت فرب فارس بهمة فرجت كربته وضيق خناق

وقال ايضا يتوعد بنى سليم :

ولست لحاضر ان لم أزركم على قب الاياطل مضمرات
كتائب من كنانه كالصريم (114) أضر بنيها علك الشكيم (115)

وقال رجل من بنى الحارث بن الخزرج من الانصار يرثى ربيعة بن مكدم.

وقال أبو عبيدة : زعم أبو الخطاب الاخفش انه لحسان بن ثابت، يرثيه (116) ويحض على قتله (117).

ولأصرفن سوى حذيفة مدحتى لفتى الشتاء وفارس الأجراف (118)
مأوى الضريك اذا الرياح تناوحت ضخم الدسيعة مخلف متلاف (119)

---

(111) البهمة : الشجاع. والشكة : الدرع والاقب الضامر. والذؤول : السريع المشى.

(112) فى محاسن الاشعار : حيث

(113) العطبول : الجارية الجميلة امتلئة الطويلة العنق.

(114) الحاضر : الحى المقيمون فى أرضهم صيفا وشتاء. يريد: لست منسوبا الى حى قوى. والصريم : الليل.

(115) الاياطل : جمع ايطل، الخاصرة.

(116) هنا كلمة ساقطة من جميع المصادر لكن المعنى مكتمل.

(117) وقال فى الاغانى 60/6 قال الاثرم : وأنشدنا أبو عبيدة هذه القصيدة مرة لقيس بن الخطيم حين قتل قاتل أبيه. والقصيدة فى ديوان ابن الخطيم ص 228 دار العروبة بالقاهرة 1962 ت : ناصر الدين الاسد.

(118) أراد حذيفة بن بدر بطل يوم داحس والغبراء. لفتى الشتاء : الذى يطعم فى الشتاء موسم الجدب. وفى الديوان : لفتى العشى. ويروى لفتى اليسار والاجراف موضع (التاج) وذكر البكرى فى التنبيه (ص 67) ان (سوى) هنا بمعنى (قصد).

(119) الضريك : المحتاج. وتناوحت : هبت من مختلف الجهات. والدسيعة : مائدة الرجل أو الجفنية.

من لايزال يكب كل ثقيلـــة كوماء غير مسائل منــزاف (120)
رحب المباءة والجنـاب موطـأ مأوى لكل معتق بسـواف (121)
فسقى الغوادى قبـرك ابن مكدم من صوب كل مجلجل وكاف (122)
أبلـغ بنـى بكر وخـص فوارسـا لحقوا الملامة دون كل لحاق (123)
أسلمتم جزل الطعان اخاكـم بين الكديد وقلة الأعـراف (124)
حتى هوى متزايلا اوصـاله للحد بيـن جنـادل ووقـاف (125)
لله حـي بني علي ان هـم لم يثأروا عوفا وحـي خـفـاف

وقال كعب بن زهير، وأمه من بنى اشجع بن عامر بن الليث بن بكـر بن كنانة ، يرثى ربيعـة بن مكدم، ويحض على بنى سليم، ويعير بنـى كنانة بالدمـاء التى أدوها الى بنى سليم، وهم لا يدركون قتلاهم عندهم بدرك قتل فيهـم ولا ديـة (128).

بـان الشباب وكـل الـف بـائـن ظعن الشباب مع الخليط الضـاعن
قـالت اميمـه ما لجسمك شاحبـا وأراك ذا بـث ولست بدائـن
غضى ملامك ان بـى مـن لومكـم داء أظـن ممـاطـلـى او فـاتنـى
أبلغ كنانة غثهـا وسمينهـا الباذلين ربـاعهـا بالقـاطن (129)
ان المذلـة أن تطـل دمـاؤكـم ودماء عوف ضامن في العاهن (130)

(120) المقيه : الناقة السمينة الضخمة. والكوماء : العظيمة السنام. المسائل : الذى يطلب عونا وكرما. فى الديوان غير محاول الانزاف.
(121) المباءة المنزل. والمعتق من الابل : المسن منها. والسواف : مرض يصيبها. يريد أنه لا يملك من الابل الا المسن المريض، أما شبابها فهو ينحره للضيفان. فى ديـوان قيـس : مقصب مسواف.
(122) المجلجل : المطر المصحوب برعد. والوكاف : المنهمر.
(123) فى الاغانى لحقـوا.
(124) الاعراف : رمل، وكل ما ارتفع. قال تعالى : ونادى أصحاب الاعراف.
(125) القفاف جمع قف وهو الارض الغليظة.
(126) بنو على قبيلة من كنانة، وهم بنو عبد مناف وليس من كنانة قريش، وحى خفاف: خفاف بن ندبة الشاعر من بنى سليم.
(127) العفق الدم : النجيع : الدم المصبوب، أو دم الجوف.
(128) الابيات 7 و 8 و 9 10 و 11 فى ديوانه ص 229 مع زيادة بيت غير كامل بعد العاشر :

. . . . وكأنه جذع تهممـه رذائذ هاتن

ويعنى تهممه : تمطره الهميم، وهو المطر الضعيف الهين.
(129) لعله يريد أنهم يسترخصون ديارهم وأهلهم للعدو دون مقاومة.
(130) ضامن : مضمون. والعاهن : الثابت.

أمـوالكـم عوض لهم بدمـائكـــم   ودماؤكم كلف لهم الظعـائن (131)
طلبـوا فأدرك وتـرهـم مولاهــم   وأبت محاملكم أباء الحارن (132)
شدوا المـآزر فاثـأروا بأخيكـــم   ان الحفائظ نعم ريح الثامن (133)
كيـف الحيـاة ربيعـة بـن مكـدم   يغـدى عليك بمزهر أوقائن (134)
وهـو التريكـة بالعـراء وحـارث   فقع القراقر بالمكان الوائن (135)
كـم غـادروا لك من أرامل عيـل   جزر الضباعومن ضريك واكن(136)

وقالت أم عمرو أخت ربيعة، ترثي ربيعة (127) :

ما بال عينيك فيهـا الدمع مهراق   سحـا ولا عـازب لا لا ولا راقـى
أبكي على هـالك أودى واورثنــى   بعد التفرق حزنـا بعده باقى (138)
لو كان يرجع ميتا وجد ذي رحـم   أبقى أخى سالما وجدى واشفـاقى
أو كـان يفدى لكان الاهـل كلهـم   ومـا أثمـر مـن مـال لـه واقـى
لكن سهام المنايا من نصبن لــه   لم ينجـه طـب ذى طب ولا راقـى
فاذهب فلا يبعدنك الله من رجـــل   لاقى الذي كل حي مثله لاقى (139)
فسوف أبكيـك ما ناحت مطوقـة   وما سريت مع الساري على ساقى
أبكـى لذكـرتـه عبـرى مفجعـــة   ما ان يجف لها من ذكره ماقى(140)

---

(131) يريد : اذا قتلتموهم دفعتم أموالكم فى دياتهم، واذا سبيتم ظعائنهم لم يكفوا عن حربكم وقتلكم .

(132) فى الديوان : سعاتكم بدل محاملكم. لعلهما يؤديان نفس المصطلح لان السعاة يقيمون للقبلية لدى السلطان.

(133) فى الديوان فانعشوا أموالكم بدل فاثأروا باخيكم. والمكارم بدل الحفائظ والثامن: من يأخذ ثمن الاموال.

(134) روايته فى الديوان :

كيف الاسى وربيعة بن مكدم   يودى عيك بمزهر وبقائن

والاسى بضم الهمزة : الصبر. وأما المزهر فهو العود والقائن : صاحب القيـان ومدربهن وهنا اشـارة لطقوس جاهلية فى تشييع أبطالهم من الشبان.

(135) فى الديوان : المكر بدل العراء. والمكر مكان الحرب. والتريكة البيضة يتركها النعام حين تنفق أى تفقس ويدفنها تحت التراب. وفقع القراقر اردأ الكماة والدائن : الثابت، المقيم وحارث أخو ربيعة.

(136) رواية الصدر فى الديوان : كم غادروا من ذى أرامل عائل. والضريك المحتاج. والحاجن (المقيم بالداء) رواية الديوان بدل واكن.

(137) الابيات فى ذيل الامالي ص 12 (السعادة بمصر 1954 طبعة ثالثة).

(138) فى الذيل : (حرة) بدلا من (بعده).

(139) فى الذيل : (مثلها) بدل (مثله) .

(140) فى الذيل : (من ذكرة) بدل (من ذكره) وهى تناسب (لذكرته) فى صدر البيت.

فلم يلبث بنو مالك بن كنانة (141) رهط ربيعـة بن مكـدم، ان أغاروا على بني جشـم فقتلوا وأسروا وغنموا، وأسر دريد بن الصمة فأخفى نسبه. فبينمـا هو محبوس عندهم، اذ جاءت نسوة يتهادين اليه، فصرخت (142) امرأة منهن فقالت :

ـ هلكتـم وأوهلكتم، ماذا جر علينا قومنا : هذا والله الذي أعطـى ربيعة رمحه يوم الظعينة.

ثـم ألقت عليه ثوبها ، وقالت :

ـ يا آل فارس، أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي

فسألوه من هـو ؟ فقال :

ـ أنا دريد بن الصمة ، فمن صاحبى ؟

قـالـوا :

ـ ربيعـة بن مكـدم

قـال :

ـ فمـا فعـل ؟

ـ قـالـوا :

ـ قتله بنـو سليـم

قـال :

ـ فمـا فعلت الظعينـة التى كانت معه ؟

قـالت المـرأة :

ـ أنـا هى، وأنـا امـرأتـه

فحبسه القوم وائتمروا (143) أنفسهم، فقال بعضهم

ـ لا ينبغى لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا

---

(141) هذا الخبر منقول عن العقد والاغانى باتفاق، مع بعض الزيادات، أدخلناها فى مواضعها.

(142) العقد : (صاحت) وفضلت رواية الاغانى والمرأة هى ريطة بنت جذل الطعان، وسنذكرها فى أثناء القصة بعد قليل.

(143) الاغانى : وامروا أنفسهم.

وقال آخرون ::

- لا والله لا يخرج من أيدينا الا برضا «المخارق» الذي أسره (144)

فانبعثت المرأة في الليل، وهى ريطة بنت جذل الطعان، فقالت :

سيجزى دريدا عن ربيعة نعمة وكل امرىء يجزى بما كان قدما
فان كان حيا لم يضق بثوابه وان كان شرا كان شرا مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة باهدائه الرمح الطويل المقوما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم ولا تركبوا تلك التى تملأ الفما(145)
فان كان حيا لم يضق بثوابه ذراعا . غنيا كان معدما
ففكوا دريدا من أسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى الى الشر سلما
فقد أدركت كفاه غينا جزاءه وأهل بمن يجزي الذي كان انعما

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم (146) فأطلقوه

فكسته وجهزته، ولحق بقومه

فلم يزل كافا عن حرب بنى فراس، حتى هلك.

قالت امرأة من غامد في هزيمة ربيعة بن مكدم لجمع من غامد وحده(147)

ألا هل أتاها على نأيها بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتي فارس فردكم فارس واحد
فليت لنا بارتباط الخيول ضأنا لها حالب واحد

---

(144) الابيات فى العقد والاغانى. والبيت الاخير فى أمالى القالى.
(145) تملا الفما : أى تجعلكم حديث الناس.
(146) أى أنهم أرضوا من أسره وهو المخارق، بفدية من مالهم وأطلقوه.
(147) البيان والتبيين 169/1 ، 170 بيروت دار الفكر للجميع 1968 يقال الفارس : الشجاع ، فماذا تقدم فى ذلك قيل : بطل : فماذا تقدم فيك : بهمه، فماذا تقدم قيل أليس . قال العجاج : أيس من حوبائه سخى.

المصـادر والمـراجـع

1 ـ الاغانى لابى الفرج الاصفهانى (طبعة دار الكتب)

2 ـ الاساطير في بلاد ما بين النهرين ـ صمويل هنري هوك (ترجمة عربية) وزارة الثقافة ـ بغداد 1968.

3 ـ الامالى لابى على القالى (طبعة دار الكتب المصرية 1954 وطبعة بيروت)

4 ـ الانوار ومحاسن الاشعار للشمشاطى (مخطوطة) نسخة طوبقبو سراي 2392. وطبعت ببغداد والكويت مؤخرا.

5 ـ أوغاريت للشيخ نسيب وهيبة الخازن بيروت 1961.

6 ـ أيام العرب في الجاهلية. محمد جاد المولى وجماعته طبعة أولى البابى 1942.

7 ـ أيام العرب في العصر الجاهلى ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى جمع وتحقيق د. عادل البياتى

8 ـ تاريخ الادب ـ العصر الجاهلى ـ د. شوقى ضيف (المعارف بالقاهرة طبعة رابعة) 1960.

9 ـ ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق د. ناصر الاسد. دار العروبة بالقاهرة 1962.

10 ـ ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ـ جمع وتحقيق هاشم الطعان ـ وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد 1980.

11 ـ ذيل الامالى لابى على القالى ـ طبع السعادة بمصر 1954 طبعة ثالثة

12 ـ شرح ديوان الحماسة لابى زكريا يحيي بن علي التبريزي ـ ط. السعادة 1346 هـ.

13 ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ نشر لجنة التأليف بالقاهرة 1956.

14 ـ قيس بن زهير ـ شعر ودراسة بقلم د. عادل البياتى ـ طبع الاداب بالنجف 1972.

15 ـ الكامل في اللغة والادب لابى العباس المبرد ـ طبع المعارف بيروت (مصورة) .

16 ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبع بيروت.

17 ـ الملاحم العربية ـ د. عادل البياتى ـ مخطوطة معدة للطبع.
18 ـ مجلة كلية الاداب (العدد 14) مقالة تحت عنوان شعر الربيع بن زيـاد بقلم د. عادل البياتى.
19 ـ مجلة كلية الاداب (العدد 15) مقالة تحت عنوان الحارث بن ظالم بقلم د. عـادل البياتى.
20 ـ مجلة الكتاب (العدد 4) 1974 مقالة تحت عنوان الملاحـم العربيـة ومقارنتها بالملاحم الكونية د. عادل البياتى.
21 ـ مجلة الكتاب (العدد 4) 1975 مقالة المنابع الثقافية للشعر الجاهلى بقلم د. عادل البياتى.
22 ـ مجمع الامثال أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى. القاهرة 1955.
23 ـ مروج الذهب ومعادن الحجر ـ على بن الحسين المسعودي ـ طبعة مصـر .
24 ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى طبعة السعادة 1906 والقـاهرة 1939 وطبعـة أوربـا.
25 ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام د. جواد على بيروت طبعة أولى.
26 ـ نهاية الارب في فنون الادب ـ أحمد بن عبد الوهاب النويري ـ طبع دار الكتب المصريـة.
27 ـ الشعر والمجتمع. منشورات وزارة الاعلام العراقية سلسلة كتاب الجماهير 1974 يتضمن بعض أبحاث مهرجان المربد الشعري لعـام 1974 بينها بحث للدكتور عادل البياتى بعنوان : الرمز والاسطورة في الشعر الجاهلى.
28 ـ الشعر في حرب داحس والغبراء للدكتور عادل البياتى ـ طبع الاداب بالنجـف 1972.
29 ـ الادب القصصى عند العرب ـ موسى سليمان ـ بيروت 1950.
30 ـ الادب العربى وتاريخه في العصر الجاهلى للدكتور ج. هيوارث د. ن. نشر مكتبة الثقافة العربية (بـلا تـاريخ) .

فهرس

نقديم 3

الفصل الاول : مباحث ثراثية في الادب الجاهلى

- الشعر والتاريخ 7
- منابع الالهام والثقافة في الادب العربى 27
- امرؤ القيس والقيصر 49

الفصل الثاني : نصوص دينية جاهلية

- شعر الاحناف : دراسة وتحليل 87
- نصوص التلبيات قبل الاسلام
ومضات من وحدة الفكر والمصير 143

الفصل الثالث : شعراء جاهليون

- افنون التغلبى 193
- الربيع بن ضبيع الفزاري 211
- الحارث بن ظالم المري 235
- قيس بن زهير 277
- الربيع بن زياد 315
- ربيعة بن مكرم 333

فهرس 367

DIRASSAT FI

AL-ADAB AL-JAHILI

Mabahit Touratia wa Noussouss Dinia wa Tarajim

Tome II

Publié par

Docteur ADDIL JASSEM EL BIATI

Professeur à la faculté de lettres - Université Al Mousstanssiria - BAGHDAD

et la faculté de lettres - Université Hassan II - Casablanca

1986

مكتبة الأدب المغربي

الثمن 35 درهما

نشر وطبع
دار النشر المغربية
الدار البيضاء